جمعية الشيخ عبد الله النوري الخيرية
Sheikh Abdullah Al Nouri Charity Society

الأعمال الكاملة

لفضيلة الشيخ

عبد الله النوري

المتوفى سنة (١٤٠١هـ/١٩٨١م) رحمه الله تعالى

أسرار العبادات الشرعية

الرشد - نظم في الفقه

اعتنى به

د. تركي محمد حامد النصر

فكرة وإشراف

د. عبد المحسن عبد الله الجار الله الخرافي

المجلد الرابع

سلسلة جمع تراث علماء الكويت - ٢ -

عبد الله النوري

الأعمال الكاملة

لفضيلة الشيخ

عبد الله النوري

المتوفى سنة (١٤٠١هـ / ١٩٨١م) رحمه الله تعالى

٤

جمعية الشيخ عبد الله النوري الخيرية

Sheikh Abdullah Al Nouri Charity Society

تأسست عام (١٤٠١هـ / ١٩٨١م)

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

(١٤٤٤هـ / ٢٠٢٣م)

رقم الإيداع بمكتبة الكويت الوطنية

ISBN: 978-9921-802-04-7

البريد الإلكتروني (الإيميل)

Info@alnouri.org

هاتف: (٢٢٥٤٠٢٨٠)، (٢٢٥٤٠٢٧٠)، فاكس: (٢٢٥٤٠٢٦٠)

جمعية الشيخ عبد الله النوري الخيرية

جمعيَّةٌ كويتيَّةٌ خيريَّةٌ تُساهِمُ في بناءِ المُجتمعاتِ وتنمِيَتِها

وتُكملُ المَسيرةَ الخَيِّرَةَ للمغفور له بإذن الله الشَّيخ عبد الله النُّوري رحمه الله

جمعية الشيخ عبدالله النوري الخيرية
Sheikh Abdullah Al Nouri Charity Society

الأعمال الكاملة

لفضيلة الشيخ

عبدالله النوري

المتوفى سنة (١٤٠١هـ / ١٩٨١م) رحمه الله تعالى

أسرار العبادات الشرعية

الرشد - نظم في الفقه

اعتنى به

د. تركي محمد حامد النصر

فكرة وإشراف

د. عبدالمحسن عبدالله الجارالله الخرافي

المجلد الرابع

سلسلة جمع تراث علماء الكويت - ٢ -

بسم الله الرحمن الرحيم

جمعية الشيخ عبد الله النوري الخيرية
Sheikh Abdullah Al Nouri Charity Society

الأعمال الكاملة

لفضيلة الشيخ

عبد الله النوري

المتوفى سنة (١٤٠١هـ / ١٩٨١م) رحمه الله تعالى

أسرار العبادات الشرعية

اعتنى به

د. تركي محمد حامد النصر

فكرة وإشراف

د. عبد المحسن عبد الله الجار الله الخرافي

مقدمة

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم وبه أستعين وعليه اتَّكل، ولا حولَ ولا قوَّة إلَّا باللهِ العليِّ العظيم.

ثمَّ إنَّ الحمد لله وحدَه لا أشرك به شيئًا سبحانه، شَرَعَ الأحكام وبيَّن الحلالَ والحرامَ، وأوضح طريقهما، وهبَ الإنسان عقلًا يميِّز به هذين الطَّريقين فمن سَلَكَ طريق السَّعادة نجا وفاز بالحُسنى، ومَنْ سلكَ طريقَ الشَّقاوة غوى وما اهتدى، وبعد:

فإنِّي رأيت ما عليه شبيبة هذا العصر من التَّهاون بأمور الدِّين وتركهم واجباته وتمسُّكهم بسفاسف[1] آراء المضلِّين من الطَّبيعيِّينَ مع ظنِّهم أنَّهم يحسنون صنعًا، فرأيت أن أبيِّن لهم أنَّهم ضلُّوا وبئسما يصنعون، وشرحت لهم أنَّ الله سبحانه وتعالى لم يوجب علينا شيئًا إلَّا وفيه من المنافع الَّتي تعود علينا ما لا يعلمها إلَّا ذو بصيرة، وقد جعلت أساس كتابي هذا قول النَّبيِّ ﷺ: «**بُنِيَ الإسلامُ على خمسٍ: شهادةِ أَنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ محمَّدًا رسولُ الله، وإقامِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ، وصومِ رمضانَ، وحجِّ البيت من استطاع إليه سبيلًا**»[2].

---

(١) السَّفسَاف: الأمر الحقير والرديء من كلِّ شيء، وهو ضد المعالي والمكارم، وأصله ما يطير من غبار الدَّقيق إذا نُخِلَ، والتُّراب إذا أثيرَ. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٩/ ١٥٥).

(٢) رواه البخاري، رقم: (٨)، ومسلم، رقم: (١٦)، بلفظ: «بُنِيَ الإسلامُ على خمسٍ: شهادةِ أَنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ محمَّدًا رسولُ الله، وإقامِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ، والحجِّ، وصومِ رمضانَ».

فشرحتُ هذا الحديث وبيَّنت أحكامَ وفوائد هذه الأركانِ الخمسةِ والحكمةَ من مشروعيَّتها، وأختمُ كلامي سائلًا المعونة وراجيًا التَّوفيق من اللهِ.

الأربعاء (١) جمادى الثَّانية (١٣٤٩هـ) الموافق (٢٢) أوكتوبر (١٩٣٠م).

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

علمُ الفِقْهِ: هو العلم المختصُّ بأحكام الدِّين، وأركان الدِّين الإسلاميِّ خمسةٌ: الشَّهادتان والصَّلاة والزَّكاة وصوم رمضان وحجُّ بيت الله الحرامِ؛ لقولِ النَّبيِّ ﷺ: «**بُنِيَ الاسلامُ على خمسٍ. . .إلخ**» **الحديث**[1].

فالشَّهادتان هي: أشهدُ أَنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأشهد أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، يَنْطِقُ القادرُ بها بلسانِهِ مُصَدِّقًا بقلبه.

الصَّلاة ومحلُّها من الدِّين

الصَّلاةُ هي أقوالٌ وأفعالٌ تبدأ بالتَّكبير وتُخْتَمُ بالتَّسليم، وقد ذكر النَّبيُّ ﷺ أنَّها العماد للدِّين، فقال: «**الصَّلاةُ عمادُ الدِّين مَنْ أقامها فقد أقام الدِّين ومَن ترَكَها فقد هَدَمَ الدِّينَ**»[2]، وقال أيضًا ﷺ: «**رأسُ الأمرِ الإسلامُ، وعمودُهُ الصَّلاةُ، وذَورةُ**[3] **سَنَامِهِ الجِهادُ**»[4].

(١) سبق تخريجه.
(٢) أوردَهُ الشوكاني في الفوائد المجموعة، رقم: (٤٩)، بلفظ: «الصَّلاةُ عمادُ الدِّين فمَنْ ترَكَها فقد هَدَمَ الدِّينَ».
(٣) هكذا في الأصل، ولعل الصواب: ذروة.
(٤) رواه الترمذي، رقم: (٢٦١٦)، والنسائي، رقم: (١١٣٣٠).

حكم الصَّلاة وشروطها

حكمها: الوجوبُ على كلِّ مكلَّفٍ، وجاحدها كافرٌ، والمكلَّف هو المسلمُ العاقلُ البالغُ.

وشروطُها: الطَّهارةُ، ودخولُ الوقت، وسَتْرُ العورة، واجتنابُ النَّجاسةُ، واستقبالُ القبلةِ، والنِّيَّةُ.

الطَّهارة

الطَّهارة لغةً: هي النَّظافة الَّتي ذكر النَّبيُّ ﷺ أنَّها من الإيمان فقالَ: «**النَّظافة من الإيمان**»(١)، وقال أيضًا: «**الطَّهُورُ شطرُ الإِيمَانِ**»(٢).

وتنقسم الطَّهارة الشَّرعيَّة إلى قسمين: طهارةٌ حسِّيَّة وطهارةٌ معنويَّة.

وباصطلاح الفقهاء: زوالُ الخبث ورفعُ الحدَثِ، وسيأتي فوائد ذلك مفصَّلًا.

وتنقسمُ الطَّهارة المعنويَّة إلى قسمين: فعل الوضوء وفعل الغسل.

الوضوء

الوضوءُ: هو استعمال ماءٍ مخصوص في أعضاء مخصوصةٍ لفعلٍ مخصوصٍ.

---

(١) رواه الترمذي، رقم: (٢٧٩٩)، بلفظ: «إنَّ الله طيِّبٌ يحبُّ الطَّيِّبَ، نظيفٌ يحبُّ النَّظافةَ».

(٢) رواه مسلم، رقم: (٢٢٣).

الماء

ينقسم إلى ثلاثةِ أقسامٍ: طهورٌ وطاهرٌ ونجسٌ.

فالطَّهورُ هو الباقي على خِلْقَتِهِ الأصليَّة، يرفعُ الحدثَ ويُزِيلُ الخبثَ، ويُسْتَعْمَلُ في العاداتِ والعباداتِ.

والطَّاهر: هو ما خالطَهُ شيءٌ طاهرٌ كورق الشَّاي والزَّعفران والقهوة ونحوها، وتغيَّرَ فيها شيءٌ من أوصافِهِ، وهو لا يرفعُ الحدثَ ولا يُزِيلُ الخَبَثَ، ويجوز استعمالُهُ في العاداتِ فقط.

والنَّجس: هو الماءُ القليلُ الَّذي وقعت فيه نجاسةٌ، أو الكثير الَّذي تغيَّر بالنَّجاسةِ أحدُ أوصافِهِ، والكثيرُ قُلَّتان وهما (١٣) قوطي نفطٍ تقريبًا - ذراعٌ وربعٌ مكعَّبٌ - ويَحْرُمُ استعمالُه إلَّا لضرورةٍ.

الأعضاءُ المخصوصةُ

وغسلُهَا من فروضِ الوضوءِ، وهي الأعضاء المعرَّضة للأوساخِ حتَّى يحضر الإنسان الصَّلاة وهو نظيفُ الأطرافِ ممتثلًا أمرَ ربِّه: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعرَاف: ٣١]؛ أي: صلاةٍ، وتلك الأعضاء هي: الوجهُ يغسلُهُ مع الفمِ والأنفِ، واليدان يغسلُهُما مع المرفقين، والرَّأسُ يمسحُهُ مع الأذنين، والرِّجلان يغسلُهُما مع الكعبين بترتيبٍ وموالاةٍ مع وجوبِ ابتدائِهِ بالتَّسمية.

والفعل الَّذي يجبُ لأجلهِ الوضوءُ هو الصَّلاة ومسُّ المصحف والطَّوافُ، وفعلُها محظورٌ على المُحْدِثِ.

سُنَنُ الوضوء

ويسنُّ للمتوضِّئ الابتداءُ بغسل يديه إلى الكوعين - وغسلُهَا ثلاثًا واجبٌ على كلِّ مكلَّفٍ قائمٍ من نومِ ليلٍ ناقضٍ لوضوءٍ - وبالمضمضة

والاستنشاق قبل غسل الوجهِ وتكرير الغسلات ثلاثًا، واستقبال القِبْلَةِ في وضوئِهِ، والمبالغة في غسلِهِ الأعضاءَ، وبالمضمضةِ والاستنشاقِ إلَّا أن يكون صائمًا، وأن يبدأَ بالميامنِ في جميع أفعالِهِ، وأن يبدأ وضوءَهُ بالسِّواك.

السِّواك وفائدته

والسِّواك سنَّةٌ في كلِّ وقتٍ، ويتأكَّد عند كلِّ عبادةٍ، ودخولِ محلٍّ محترم[١]، وتغيُّرِ رائحة الفم بنومٍ أو بأكلٍ أو بنحوهما[٢].

وفوائدُ السِّواكِ عظيمةٌ لا تُحْصَرُ، وقد عدَّ بعضُهُم منها أربعينَ فائدةً كلُّها متعلِّقةٌ في الجسم، منها تنظيفُ الأسنانِ وتقويةُ اللِّثَةِ وتنقيةُ رائحة الفم، وإذهابُ سوادِ الأسنانِ، وتسهيلُ مَجْرَى النَّفَس، إلى غير ذلك ممَّا شَهِدَ به الأطبَّاء الغربيُّون، والفَضْلُ ما شهدت به الأعداءُ.

أكدَّ النَّبيُّ ﷺ على أمَّتَهُ استعمال السِّواكِ فقالَ: «**السِّواكَ مَطْهَرَةٌ للفمِ، مرضاةٌ لِلرَّبِّ**»[٣]، وقال أيضًا عليه السلام: «**لولا أخاف أَنْ أشُقَّ على أُمَّتي لأمرتُهُم بالسِّواكِ**»[٤].

وقد أمر عليه السلام قومًا دخلوا عليه وقد اصفرَّت أسنانهم وأنتنت أفواههم،

---

(١) رواه مسلم، رقم: (٢٥٣)، بلفظ: أنَّ عائشة سُئِلَت: «بأيِّ شيءٍ كان يبدأ النَّبيُّ ﷺ إذا دخل بيته؟ قالت: بالسِّواك».

(٢) رواه البخاري، رقم: (١١٣٦)، ومسلم، رقم: (٢٥٥)، بلفظ: «أنَّ النَّبيَّ ﷺ إذا قام للتَّهجُّدِ من اللَّيل يَشُوصُ فاهُ بالسِّواكِ».

(٣) رواه ابن ماجه، رقم: (٢٨٩)، بلفظ: «تسوَّكُوا، فإنَّ السِّواكَ مَطْهَرَةٌ للفمِ، مرضاةٌ لِلرَّبِّ».

(٤) رواه البخاري، رقم: (٨٨٧)، ومسلم، رقم: (٢٥٢)، بلفظ: «لولا أَنْ أشُقَّ على أُمَّتي أو على النَّاس لأمرتُهُم بالسِّواكِ مع كلِّ صلاةٍ».

فقال: «**ما لكم تدخلونَ عَلَيَّ قُلْحًا، استَاكُوا**»[١]، ولو عَلِمَ النَّاسُ ما يقاسيه الملايين من أمراض الأسنان لَعرَفُوا فضيلةَ السِّواك.

نواقض الوضوء

ما خرجَ من السَّبيلَينِ، وخروجُ النَّجاسة الكثيرةِ عرفًا من بقيَّةِ البدَنِ سواءٌ كانت من دمٍ أو قيحٍ أو قيءٍ أو غيرها إلَّا البولَ والغائطَ فقليلُهُ وكثيرُهُ مُبْطِلٌ للوضوءِ، وزوالُ العقلِ بنومٍ أو جنونٍ أو إغماءٍ، ومسُّ فرجِ الآدميِّ المتَّصِلِ قُبُلًا أو دُبُرًا، ومسُّ المرأةِ لشهوةٍ، والرِّدَّةُ - أعاذنا اللهُ منها - وما يُوْجِبُ الغُسل، وغَسلُ الميِّتِ، وقد ذَهَبَ الإمام أحمد رضي الله عنه إلى أنَّ أكلَ لحم اِلجزورِ من مُبْطِلَاتِ الوضوءِ.

أوقات الصَّلاة

وقت صلاة الصُّبح من طلوع الفجر الثَّاني إلى طلوعِ الشَّمسِ، ووقت الظُّهر من الزَّوال - وهو مُنْتَصَفُ النَّهار تمامًا من شروقِ الشَّمس إلى غروبها - إلى أن يصيرَ ظلُّ كلِّ شيءٍ مثلَهُ غيرَ ظلِّ الزَّوال، ثمَّ العصر من خروجِ وقتِ الظُّهر إلى الغروبِ، ثمَّ المغرب من تمامِ الغروبِ إلى غيابِ الشَّفق الأحمرِ، ثمَّ العشاء منه إلى طلوع الفجر الثَّاني.

سترُ العورةِ

العورة ما يُستقذَرُ منظَرُهُ، وفي الشَّرع للرَّجُلِ والمملوكة من أعلى السُّرَّةِ إلى أسفل الرُّكبة قُبُلًا ودُبُرًا، وأمَّا الحرَّة فكلُّها عورةٌ إلَّا وجهها في الصَّلاة، وذهب الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه إلى أنَّ وجه الحرَّة ويديها إلى

---

(١) رواه البزار في المسند، رقم: (١٣٠٣)، بلفظ: «تدخُلُونَ عَلَيَّ قُلْحًا، استَاكُوا، فلولا أَنْ أشُقَّ على أُمَّتي لَفَرَضْتُ السِّواكَ عندَ كُلِّ صلاةٍ كما فرضتُ عليهم الوضوءَ».

المعصم في الصَّلاة ليسا بعورةٍ.

اجتناب النَّجاسة

قالَ رسولُ الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ يُبْغِضُ الوَسَخَ وَالشَّعَثَ**»(١)، وقد أمرَهُ ربُّه تعالى بالنَّظافة، فقال: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ [المدَّثر: ٤].

إنَّ الدِّين الإسلاميَّ بُنِيَ على النَّظافة، فهو يرشد متَّبعيه إلى العنايةِ بتنظيفِ أجسامهم وأثوابهم ومساكنهم؛ حتَّى يكونوا جميلي المنظر محبوبِينَ في القلوب، وقد أرشدنا الشَّارع إلى ذلك بقوله: «**أحسنوا لباسَكُم وأصلحوا رحالَكُم -منازلكم- حتَّى تكونوا كأنَّكم شامةٌ في النَّاس**»(٢).

ومن أشدِّ القذارةِ أثرًا في اشمئزازِ النُّفوسِ النَّجاساتُ، ويجبُ اجتنابها في الثَّوب والجسمِ والمكانِ، فإذا طَرَأَ من ذلك شيءٌ على أحد هذه الثَّلاثة وَجَبَ غسلُهَا سبعًا بالماء الطَّهور.

أمَّا بولُ الصَّبيِّ الَّذي لم يأكل الطَّعام لشهوةٍ فيَطْهُرُ بنَضْحِهِ بالماءِ فقط، ويجبُ غسل نجاسةِ الكلبِ والخنزيرِ سبعَ مرَّاتٍ إحداها بالتُّرابِ، ولا يضرُّ بقاءُ لونِ النَّجاسة أو ريحها إن عَسِرَ زوالُهُ أو هما معًا، وتَطْهُرُ الأرضُ ونحوها كالأجرمة بإزالةِ عينِ النَّجاسةِ وأثرِهَا بالماءِ.

ومنها الاستنجاء: وهو تنظيفُ السَّبيلَين من البول والغائط بالماء أو بالحجر أو بما يقومُ مقامه من كلِّ يابسٍ مُبَاحٍ طاهرٍ مُنَقٍّ سِوى عَظْمٍ ورَوْثٍ وطعامٍ ولو لبهيمةٍ، فإذا استنجى بها لم يجزِئْهُ إلَّا الماءُ، وكذا إذا تعدَّى

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٥٨١٥).

(٢) رواه أبو داود، رقم: (٤٠٨٩)، بلفظ: «إنَّكُم قادمُونَ على إخوانِكُم، فأصلِحُوا رحالَكُم وأصلِحُوا لِبَاسَكُم حتَّى تكونُوا كأنَّكُم شَامَةٌ في النَّاسِ، فإنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الفُحْشَ ولا التَّفَحُّشَ».

الخارجُ موضِعَ العادةِ.

ويكفي الاستنجاء بثلاثةِ أحجارٍ طاهرةٍ، والأفضل الجمع بين الماء والحجرِ، لكن يقدَّمُ الحجرُ حينئذٍ.

استقبالُ القِبْلَةِ

ويجبُ للقريب من مكَّةَ مقابلةُ عينها، وللبعيدِ عنها مقابلةُ جهتها، وعلى من عَسِرَ عليه معرفةُ الجهةِ أن يتحرَّاها؛ أي: أن يُصَلِّي إلى الجهةِ الَّتي يَغْلِبُ على ظنِّهِ أنَّها القِبلةُ.

النِّيَّة

وهي حضور القلب والفكر عند الدُّخول في العمل، ومحلُّ النِّيَّة القلب، والتَّلفُّظ جهرًا بها إن لم يكن بدعةً فهو مكروهٌ، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**إنَّما الأعمالُ بالنِّيَّات**»[1].

الغُسْلُ

وهو تعميمُ الجسدِ كلِّه بالماءِ الطَّهورِ لأسبابٍ مخصوصَةٍ.

---

(١) رواه البخاري، رقم: (١)، ومسلم، رقم: (١٩٠٧).

وأسبابُهُ سبعةٌ، وهي خروجُ المَنِيِّ وانتقالُهُ، والجِمَاعُ وأدناه تغْيِيب حَشَفَةٍ في قُبُلٍ أو دُبُرٍ ولو لبهيمةٍ، وخروجُ دمِ الحيضِ والنِّفاس، وإسلامُ الكافر، والموتُ.

والفرضُ في الغُسْلِ تعميمُ الجسدِ كلِّه بالماءِ مع المبالغةِ بالمضمضةِ والاستنشاقِ، وتجِبُ في ابتدائِهِ التَّسميةُ.

ويسنُّ الوضوءُ قبله، وإزالةُ ما لوَّثه من أذىً، ودَلْكُ سائرِ الجسدِ باليدِ، وتثليثُ الغَسْلَاتِ وإعادةُ غسلِ الرِّجلين بمحلٍّ آخرَ.

وأفضلُ الأغسالِ المسنونَةِ وآكدُهَا غُسْلُ الجمعةِ، ويسنُّ الغُسْلُ للعيد والكسوف، ولمن غَسَلَ ميِّتًا، وللإحرام، ولدخول مكَّةَ وحرمِهَا، وللطَّوافِ.

فوائد الوضوء والغسل وحكمة مشروعيَّتهما

إنَّ الله سبحانه وتعالى لا يَشْرَعُ أمرًا إلَّا وفيه من الفوائد الدِّينيَّة والدُّنيويَّة ما تَعُودُ على المُمْتَثِلِ بالأجرِ والخيرِ العميمِ.

إنَّ اللهَ فَرَضَ علينا الوضوءَ والغُسْلَ قبلَ الصَّلاة بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ﴾ [المائدة: ٦]... إلخ الآية من سورة المائدة، وقد عرفنا في دروسنا الماضية فروضَ الوضوء والغُسْلِ وموجباتِ الثَّاني ونواقضَ الأوَّل، والحكمةُ فيهما تتضمَّن فائدتين: فائدة دينيَّة وفائدة دنيويَّة، ولنبدأ بالفائدة الدُّنيويَّة:

١- إنَّ مجرَّد استعمال الماء في الوضوءِ والغُسْلِ يفيدُ صاحبَهُ نشاطًا وهمَّة، ويزيلُ ما يَعْرض له من الفتورِ والاسترخاءِ بسببِ الحَدَثِ أو بغيرِ ذلكَ من الأعمال، فيقيمُ الصَّلاة على وجهها نشيطًا؛ لأنَّ أسبابَ الحَدَثِ الأصغر إذا تعاطاها الإنسان نالَ لذَّةً أعقبها فتور، فإذا توضَّأ زالَ ذلك

ونَشَطَ وانتعشَ، أمَّا إذا بَلَغَ الإنسان من هذه اللَّذَّة غايَتَهَا بالوِقَاعِ(١) أو بالإنزالِ أو بنحوهما كانَ ذلكَ أدعى لشِدَّةِ الفُتُورِ والاسترخاءِ والكَسَلِ، فشُرِعَ له تعميمُ الجسدِ بالماءِ حتَّى يتمَّ النَّشاط والانتعاش.

٢- إنَّ النَّظافة ركن الصِّحَّة؛ لأنَّ الأوساخ والأقذار مَجْلَبَةُ الأمراضِ والأوبئةِ، كما أثبتَ ذلكَ الطِّبُّ الحديث؛ لذلك نرى الحكومات المتمدِّنة يشدِّدون الأمرَ بالمبالغة في النَّظافة، ولكنَّ الشَّرع الإسلاميَّ سَبَقَهُم بذلك، وجديرٌ بالمسلمين أن يكونوا أصحَّ النَّاس أجسادًا؛ لأنَّ دينَهُم مبنيٌّ على النَّظافة؛ لقول الشَّارع ﷺ: «**بُنِيَ الإسلامُ على النَّظافةِ**»(٢)، فإزالة النَّجاسةِ والأقذارِ من الأبدان والثِّياب والأمكنة من فروض الدِّين الإسلاميِّ، زِدْ على ذلك تعهُّد أطرافهم المعرَّضَةِ للأوساخ وهي الوجه واليد والرِّجل العارية كلَّ يومٍ بغسلها مرَّةً أو مرَّاتٍ، وتعهُّد أبدانهم بالغسل كلَّ عدَّة أيَّام، ولإتمام النَّظافة شُرِعَ السِّواك وتخليلُ الأسنان بعد الأكلِ، وتعهُّد غسل الشَّعر لمن كان له شعرٌ.

٣- تكريم المسلم نفسَهُ في أهله وعشيرته وقومه؛ لأنَّ مَنْ كانَ نظيفَ البدنِ والثِّيابِ كانَ أهلًا لحضورِ كلِّ مُجْتَمَعٍ، وجديرًا بلقاء كلِّ إنسانٍ، ويرى نفسَهُ حريًّا بكلِّ كرامةٍ، أمَّا القَذِرُ فإنَّه يكون مُحْتَقَرًا في نفسِهِ فضلًا عن غيره.

ويؤيِّدُ ما قلتُ ما روي عن النَّبيِّ ﷺ من تأكيد غسل الجمعة(٣)،

---

(١) الوقاع: مواقعة الرَّجل امرأته إذا باضعها وخالطَها. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٨/ ٤٠٥).

(٢) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٢٦٠٠٢).

(٣) رواه البخاري، رقم: (٨٧٩)، ومسلم، رقم: (٨٤٦)، بلفظ: «غُسْلُ يومِ الجمعَةِ واجبٌ على كُلِّ مُحتَلِمٍ».

ولُبْسِ جميلِ الثِّيابِ لها؛ لأنَّه يومُ عيدٍ أسبوعيٌّ يجتمعُ فيهِ النَّاسُ لعبادةِ اللهِ، والسَّبب في ذلكَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ شمَّ مرَّةً وهو يخطب رائحة كريهة من أسباب العرق فأمر الصَّحابة بالغُسْل(١)، وأكَّده عليهم فقال: «غُسلُ الجمعة واجبٌ على كلِّ محتلم»(٢)؛ أي: مكلَّفٍ بالغ.

هذا قليلٌ من كثيرٍ لا نعلمُهُ من فوائدِ الوضوءِ والغُسْلِ.

أمَّا الفوائدُ الدِّينيَّةُ فهي:

١- إنَّ الوضوءَ والغُسْلَ يذكِّرانِ بفَضْلِ اللهِ ونعمَتِهِ، حيثُ شَرَعَ للنَّاسِ ما ينفعُهُم أو يدفَعُ الضَّررَ عنهم، فإذا عَرَفُوا ذلكَ علِمُوا أنَّه يرضيه عنهم نظافَة أجسامِهِم وطهارتَها على أكمال حالٍ، وفهموا أنَّ المشروع له تطهير الأجسامِ يُطَهِّرُ الأرواحَ ويهذِّبُ الأخلاقَ الَّتي يترتَّبُ عليها صلاحُ الأعمالِ، فإذا عَرَفَ النَّاسُ ذلك وعَرَفُوا أيضًا أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى لا يَنْظُرُ إلى الأجسامِ والصُّورِ، ولكن لا ينظرُ إلى القلوبِ والأعمالِ اعتنوا بنظافةِ الظَّاهرِ والبَاطنِ توسُّلًا والتِمَاسًا لسعادةِ الدَّارين.

٢- اتِّفاق المؤمنين على أداءِ هذهِ الأعمالِ بكيفيَّةٍ واحدةٍ أينما كانوا

---

(١) رواه أبو داود، رقم: (٣٥٣)، بلفظ: أنَّ أُنَاسًا من أهلِ العراقِ جاؤوا فقالوا: يا ابنَ عبَّاسٍ، أترَى الغُسْلَ يومَ الجُمُعَةِ واجبًا؟ قال: لا، ولكنَّهُ أطهرُ، وخيرٌ لِمَن اغتسَلَ، ومن لم يغتسل فليسَ عليه بواجبٍ، وسأُخْبِرُكُم كيف بَدْءُ الغُسْلِ: كانَ النَّاس مجهُودِينَ يَلْبَسونَ الصُّوفَ، ويعملُونَ على ظُهُورِهِم، وكانَ مسجدُهُم ضَيِّقًا مُقَارِبَ السَّقفِ - إنَّما هو عريشٌ - فخرجَ رسولُ اللهِ ﷺ في يومٍ حارٍّ وعَرِقَ النَّاسُ في ذلك الصُّوف حتَّى ثارَت منهم رياحٌ آذى بذلكَ بعضُهُم بعضًا، فلمَّا وَجَدَ رسولُ اللهِ ﷺ تلكَ الرِّيحَ قالَ: «أيُّها النَّاسُ إذا كانَ هذا اليومَ فاغتسِلُوا، وليَمَسَّ أحدُكُم أفضلَ مَا يَجِدُ من دُهْنِهِ وَطِيْبِهِ».

(٢) رواه البخاري، رقم: (٨٧٩)، ومسلم، رقم: (٨٤٦)، بلفظ: «غُسْلُ يومِ الجمعَةِ واجبٌ على كُلِّ مُحتَلِمٍ».

ومهما كثروا، واتِّفاق الأعمالِ أعظمُ سببٍ لاتِّفاق القلوبِ، واللهُ سبحانَهُ أعلمُ.

التَّيمُّم

التَّيمُّمُ: استعمالُ ترابٍ مخصوصٍ لعذرٍ مخصوصٍ لكيفيَّةٍ مخصوصةٍ في عضوٍ مخصوصٍ.

شَرَعَ اللهُ التَّيمُّمَ تسهيلًا على الأمَّة الإسلاميَّة وتصديقًا لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فمن فَقَدَ الماءَ بِحَبْسٍ أو غيرِهِ، كسفرٍ أو نحوِهِ وعَدِمَ القدرةَ على استعمالِهِ لمرضٍ ونحوِهِ، أو خَافَ إِنْ طَلَبَهُ على نفسِهِ أو مالِهِ؛ جازَ له التَّيمُّمُ.

ويشترط في التُّراب أن يكونَ طاهرًا مباحًا غير محترقٍ، له غبارٌ يَعْلَقُ باليدِ.

فروض التَّيمُّم ومُبْطِلَاتُهُ

الفرضُ في التَّيمُّمِ مسحُ الوجهِ واليدين إلى الكوعينِ بترتيبٍ وموالاة، وتعيين النِّيَّة لِمَا يتيمَّمُ له. وتجبُ في ابتدائِهِ التَّسمية وهي: بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، وتسقطُ سهوًا وجهلًا في التَّيمُّم والغُسْلِ والوضوءِ.

مُبْطِلَاتُ التَّيمُّم هي وجودُ الماءِ لفاقدِهِ، وزوالُ العُذْرِ المُبِيْحِ لهُ، وخروجُ الوقت، وكلُّ ما يُبْطِلُ الوضوءَ يُبْطِلُ التَّيمُّمَ.

فوائد في بحث النَّظافة

فائدةٌ أولى في الآنيةِ:

كلُّ إناءٍ طاهرٍ يُبَاحُ استعمالُهُ واتِّخاذه إلَّا أَنْ يكونَ ذهبًا أو فضَّةً أو

مطليًّا بهما أو بأحدهما، ويباح اتِّخاذ ضَبَّةٍ(١) صغيرةٍ من الفضَّة لحاجةٍ، ولا بأسَ باستعمالِ الإناءِ المرصَّع بالجواهر الكريمة، ويجوز اتِّخاذ السِّنِّ من الذَّهب ولُبْسُ الخاتَم من الفِضَّة وإن زاد وزنه على درهم عندَ الشَّافعيَّةِ، ولُبْسُ عباءةٍ خِيْطَتْ بالزَّريِّ إنْ لم يُجَاوزْ عرضُ مَخِيْطِهَا ثلاثةَ أصابعَ وإن زادَ طولًا.

وقد حَصَلَ خلافٌ بين الأئمَّةِ رحمهُم اللهُ في استعمالِ السَّاعةِ الذَّهبيَّة والفِضِّيَّة، واتَّفقَ الأكثرُ على عَدَمِ استعمالِهَا لوجودِ غيرِهَا من المعادِنِ.

فائدةٌ ثانيةٌ في الاكتحالِ:

يُسَنُّ الاكتحالُ كلَّ ليلةٍ بالإِثْمِدِ الطَّيِّبِ، وفائدةُ ذلكَ لا تَخْفَى، فمن فوائدِهَا العظيمةِ وأسرارِهَا الغامضةِ أنَّها تجلو العينَ وتُذْهِبُ الحمرةَ والدَّبق، وتُطِيْلُ شعرَ الأهدابِ وتسوِّدُه، وتُحَسِّنُ منظرَ العينِ، إلى غيرِ ذلكَ من الفوائد الَّتي لا يعرفُهَا إلَّا من استعملَ الكُحْلَ.

وأحسنُ الأكحالِ استعمالًا حجرُ الإثمدِ الأسودِ اللَّامعِ، يُنْقَعُ بالماءِ الصَّافي عدَّة أيَّامٍ ثمَّ يُؤْخَذُ فيسخَّنُ تسخينًا دقيقًا في إناءٍ نظيفٍ، وفي أثناء تسخينه يُسْقَى بماءِ الورد ويحفظ من الغبار حتَّى يصير ناعمًا بحيث لا تشعر العينُ بخشونته.

والحذرَ الحذرَ من استعمالِ الأكحالِ الَّتي يبيعها الدَّجَّالون المتطبِّبون(٢) أو الأكحالِ الممزوجةِ بالأدهان كيفما كانت؛ لأنَّها كثيرًا ما يحصُلُ منها الضَّرر في العين الَّتي هي أشرفُ أعضاءِ الجسدِ وأعظمها منفعةً.

---

(١) ضبَّبْتُ الخشبَ ونحوه: ألبسته الحديدَ، والضَّبَّة: حديدة عريضة يضبَّب بها البابُ والخشب. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣/ ٢٣٢).

(٢) وهي كلمة مشتقَّة من طبيبٍ، وتشيرُ إلى من يَدَّعي مهنةَ الطِّبِّ.

فائدةٌ ثالثةٌ في الادِّهان:

يسنُّ الادِّهان غبًّا - أي: ليلةً وليلةً - بأيِّ دهنٍ مفيدٍ مرطِّب للجسد نافع للبشرة، وأحسن هذه الأدهان زبد البقر في الشِّتاء؛ لأنَّه مُلَيِّن للجسد، والأدهان الباردة في الصَّيف، ومن الأدهان النَّافعة الزَّمبك ودهن الكاربوتيك، وهذا الأخير يقتلُ جراثيم الحرارة، ويكفي عن استعمال هذين الدُّهنين الاغتسالُ بصابونيهما، ومن الأدهان النَّافعة دهن الزَّيتون، وقد شهد بفضلها القرآنُ والطِّبُّ النَّبويُّ، ولا تخفى فائدةُ الادِّهان؛ لأنَّ الإنسان إذا ادَّهنَ ليلًا احتاج إلى الاغتسال صباحًا فأسرع إلى المُغْتَسَلِ(١)، وطبيعة الدُّهن تَلْيين الأوساخ فيخرج من مغسله حينئذ نظيفًا منشرحَ الصَّدر نشيطًا، وقد تقدَّمت لك فوائد النَّظافة.

فائدة رابعة في كماليَّات النَّظافة:

ومن كماليَّات النَّظافة التَّطيُّب والاستحداد(٢)، وهو أخذُ الشَّعر المنتشر في أطراف الجسد، وحفُّ الشَّارب، وهو أخذ ما يدخل في الفم منه لا قصُّهُ أو حَلْقُهُ، كما يقول بعض الجهلةِ، وتنظيفُ الإبط من شعرٍ وغيرِهِ، والنَّظر في المرآة وترجيلُ شعرِ الرَّأس إن كان له شعر - أي: تمشيطه - وتقليمُ الأظفارِ؛ لأنَّها محلُّ الأقذار والأوساخ.

كلُّ هذه سننٌ مؤكَّدة، ومن أعظمها فائدة غسل اليدين قبل الأكل وبعده، وفائدة ذلك إذهاب قذارة اليد؛ لأنَّها العضو العامل في الجسد، فلا يأمن الإنسان إن مسَّ بها قذارةً أو شيئًا مضرًّا أو نحوه، وغسل يدي قائمٍ من نومِ ليلٍ ناقضٍ لوضوء، وغسلهما ثلاثًا واجبٌ على كلِّ مكلَّف.

---

(١) المغتسل: الموضع الذي يغتسل فيه. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٠/ ٩٩).
(٢) الاستحداد: حلق العانة بالحديد، انظر: لسان العرب، لابن منظور (٣/ ١٤٢).

فائدةٌ خامسةٌ في الختان:

ويجبُ الختانُ على كلِّ مسلم مكلَّف أَمِنَ ضررَهُ ذكرًا كان أو أنثى، ويسنُّ قبل البلوغ، وهو أفضلُ، وأفضلُ أوقاته أن يُخْتَنَ في اليوم الحادي والعشرين من ميلادِهِ، وعدمُ الختان قد يكون من مبطلاتِ الوضوءِ؛ لأنَّ من لم يُخْتَتَن لا يمكنه الإنقاء من البول.

ويكفي الختان شرفًا شهادة أطبَّاء الغرب وعقلائهم بعظيم فائدته.

ذلك أنَّ كثيرًا منهم فرضوا على أنفسهم أن يختتنوا؛ لأنَّ ترك الختان يولِّد أمراضًا كثيرةً من الأوساخ والأقذار المتجمِّعة المتجمِّدة فيما بين الجلدة واللَّحم، فإكمالًا للنَّظافة ودفعًا لجراثيم الأمراض قرَّرت حكمة تشريع الدِّين الإسلاميِّ قطع هذه الأسباب بقطع تلك الزِّيادة.

إنَّ الختان أمرٌ يوجبه العقل، ذلك أنَّك ترى كثيرًا من الأديان الوثنيَّة قرَّرت بشرائعها وقوانينها الختان، وأوجبته على أتباعها كما أنَّ كثيرًا من الأمم المتوحِّشة أوجبوا ذلك على أنفسهم.

فائدةٌ سادسةٌ في المسحِ:

يجوزُ المسحُ على الخفَّين بدل غسل الرِّجل في الوضوء بسبعةِ شروطٍ وهي: لبسهما بعد كمال الطَّهارة بالماء، وسترهما لمحلِّ غسل الفرض من القدمين، وأن يكونا قويَّين بحيثُ يمكنُ المشي بهما وثبوتهما بنفسِهما وإباحتهما وطهارة عينهما وعدمِ وصفِهما لبشرة.

يَمْسَحُ المقيمُ يومًا وليلة، والمسافر ثلاثة أيَّام بلياليها، والفرض مسح أكثر أعلى الخفِّ، ولا يجوز ولا يجزئ مسح أسفله.

ومتى حَصَلَ ما يُوجِبُ الغسل أو ظهر بعض محلِّ الفرض أو تمَّت مدَّة المسح بَطَلَ المسحُ والوضوءُ معًا.

ويجوز المسح أيضًا على الجبيرة إذا وضعها على طهارةٍ ولم تجاوز

قَدْرَ الحاجة إلى وقت حلِّها، فإن وضعها على غير طهارةٍ جاوزت محلَّ الحاجة أو لم تجاوزه وخاف الضَّرر بنزعها وجب غسل الصَّحيح، والتَّيمُّم للجبيرة وإِنْ وضعها على طهارةٍ وجاوزت محلَّ الحاجة غَسَلَ ومَسَحَ وتيمَّمَ.

الصَّلاة

المحافظة على الصَّلاة آية الإيمان الكبرى، وقد مثَّلَ النَّبيُّ ﷺ الصَّلاةَ بالعماد الأعظمَ للدِّين، وقد تقدَّم الحديث.

وجعلَ تركَهَا كفرًا؛ لما رويَ عنه قوله ﷺ: «**بينَ الرَّجل وبينَ الكُفْرِ ترك الصَّلاة**»(١)، وفي حديث آخر: «**فمن تَرَكَها فقد كَفَرَ**»(٢)، وقد أجمعَ أئمَّةُ المذاهب على قتلِ من تَرَكَها متعمِّدًا.

وكانَ أصحاب رسول الله ﷺ لا يرون شيئًا من الأعمال تركُهُ كُفْرٌ إلَّا الصَّلاة(٣).

وقد أعرضَ في هذا الزَّمان كثيرٌ من جماهيرِ المسلمين عن الصَّلاة حتَّى كَثُرَ المارقونَ(٤) وقَلَّ عدد المصلِّين، وأصبحَ الإسلامُ دعوة جنسيَّة لا

(١) رواه مسلم، رقم: (٨٢)، بلفظ: «إنَّ بينَ الرَّجل وبينَ الشِّرك والكُفْرِ تركَ الصَّلاةِ».

(٢) رواه الترمذي، رقم: (٢٦٢١)، بلفظ: «العهدُ الَّذي بيننا وبينهم الصَّلاةُ، فمن تَرَكَها فقد كَفَرَ»، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٣) رواه الترمذي، رقم: (٢٦٢٢).

(٤) المروق: سرعة الخروج من الشَّيء. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٦/ ٣٨٣).

عقيدةً دينيَّة، وما ذلك إلَّا من أسباب التَّهاون بالدِّين.

شروط الصَّلاة وأركانها وواجباتها

شروط الصَّلاة تقدَّمت في أوَّل الكتاب فلا حاجةَ لإعادتها.

أمَّا الأركانُ فعددها أربعةَ عشرَ؛ هي: القيامُ مع القدرة في الفرضِ، والتَّحريمة، وقراءةُ الفاتحة، والرُّكوع والاعتدال عنه، والسُّجود والاعتدال عنه، والجلوسُ بينَ السَّجدتين، والطَّمأنينة في كلِّ ركن، والتَّشهُّد الأخير، والجلوس له، والصَّلاة على النَّبيِّ ﷺ، والتَّسليمتان، وترتيب الأركان.

أمَّا الواجبات فثمانية: التَّكبيرُ لغيرِ الإحرامِ، والتَّسميعُ، والتَّحميدُ، وتسبيحُ الرُّكوع، وتسبيحُ السُّجود، وقولُ: ربِّ اغفر لي، والتَّشهُّد الأوَّل وجلسته، ولا فرقَ بينَ الرُّكن والشَّرط والواجب، إذ إنَّ كلَّها فروضٌ يجبُ أداؤها في الصَّلاة؛ إلا أنَّ الرُّكنَ والشَّرط لا يسقطانِ سهوًا وجهلًا ويسقط الواجب بهما ويُجبر بسجود السَّهو.

سجود السَّهو

شُرِعَ لزيادةٍ ونقصٍ وشكٍّ، وهو واجبٌ لِمَا يُبْطِلُ الصَّلاةَ تعمُّدُ فِعْله، ويسنُّ إذا أتى بقولٍ مشروع في غير محلِّه سهوًا، وهذا لا يُبْطِلُ الصَّلاةَ تعمُّدُ فعلِهِ، ويُبَاحُ لتركِ سنَّة من سُنَنِ الصَّلاة ولا يُبْطِلُ الصَّلاة تعمُّد تركها.

ومحلُّ سجود السَّهو قبل السَّلام، ويجوز بعده، ولكنَّ الأفضل للزِّيادة قبل السَّلام، وللنَّقص بعده.

الأذان والإقامة

هما فرضا كفايةٍ على الرِّجال الأحرارِ في الحَضَرِ في الصَّلوات

الخمسِ، والقصد من ذلك تنبيه النَّاس وتذكيرهم بحلول الوقت، وسُنَّ أن يكون المؤذِّن عارفًا بالأوقات صيِّتًا[١] أمينًا ظاهر العدالة، ولا يجوز الأذان إلَّا بعد دخول الوقت عدا الفجر فيجوز قبله بقليل.

سنن الصَّلاة

وهي كثيرةٌ، منها: رفع اليدين عند تكبيرة الإحرام وعند الرُّكوع والرَّفع منه، وقراءة سورة بعد الفاتحة، ودعاء الاستفتاح بعد التَّحريمة، والتَّعوُّذ، والبسملة، وتثليث التَّسبيح في الرُّكوع والسُّجود، والافتراش في الجلوس بين السَّجدتين وفي التَّشهُّد الأوَّل، والتَّورُّك في التَّشهُّد الثَّاني، والإشارة بسبَّابة اليد اليمنى عند ذكر الله تعالى.

مبطلاتُ الصَّلاة

منها: ما أَبْطَلَ الوضوء، والتَّسليم قبل إتمامها عمدًا، والقهقهة، والنَّفخ، والانتحاب من غيرِ خَشْيَةِ الله، والتَّنحنح بلا حاجةٍ، وترك ركنٍ أو شرطٍ، وتعمُّد ترك الواجب، والعمل الكثير، والكلام مطلقًا، وتقدُّم المأموم على إمامه، والأكل، والشُّرب، وبطلانُ صلاة الإمام.

صلوات التَّطوُّع

آكد صلوات التَّطوُّع صلاة الكسوف، فالاستسقاء، فالتَّراويح، فالوتر، ومنها الرَّواتب وهي: ركعتان قبل الظُّهر وركعتان بعدها، وركعتان بعد المغرب، وركعتان بعد العشاء، وركعتان قبل الفجر وهما آكدها؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يتركهما في الحَضَرِ والسَّفر[٢]، وكان ﷺ يقرأ فيهما سورتي

(١) الصَّيِّت: شديد الصَّوت عاليه. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٤/٥٩٨).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم: (٧٤٥٧)، بلفظ: رويَ عن قابوسِ بنِ أبي ظبيانَ، عن أبيهِ، أنَّه أرسلَ إلى عائِشَةَ، فسأَلَهَا عن صلاةِ رسولِ الله ﷺ؟ =

الإخلاص ويخفِّفهما(١).

صلاة الكسوف

وشُرِعَت رهبةً وخوفًا؛ لقول النَّبيِّ ﷺ: «**إنَّ الشَّمسَ والقمرَ لا ينكسفان لموت أحدٍ ولا لحياته، ولكنَّهما آيتان من آيات الله يخوف الله بهما عباده، فإذا رأيتم ذلك فصلُّوا وادعُوا حتَّى يُكْشَفَ ما بِكُم**»(٢).

وهي سنَّةٌ من غيرِ خُطبةٍ، ووقتها من ابتداء الخسوف والكسوف إلى تمامِ الانجلاء، وهي ركعتان يقرأ في الأولى بعد الفاتحة سورةً طويلةً ثمَّ يركع طويلًا ثمَّ يرفع فيسبِّح ويحمِّد، ثمَّ يقرأ الفاتحةَ فسورةً طويلةً دون الأولى ثمَّ يركع طويلًا ثمَّ يرفع فيسبِّح ويحمِّد ويسجد سجدتين طويلتين ثمَّ يصلِّي الرَّكعة الثَّانية كالأولى ثمَّ يتشهَّد ويسلِّم.

ويجوز له فعلُ ثلاث ركوعاتٍ أو أربعة في ركعةٍ واحدةٍ، ويجوز له أكثر إن طَالَ وقتُ الخسوفِ والكُسُوفِ.

صلاة الاستسقاء

شرعت رغبةً وطلبًا لخير الله تعالى ورحمته، فإذا رأى النَّاس أنَّ القطرَ قد حُبِسَ عنهم فليعلموا أنَّ ذلك من فسادهم وانتشار الظُّلم فيما بينهم،

= فقالت: «كانَ يصلِّي ويَدَعُ، ولكن لم أرَهُ تركَ الرَّكعتَينِ قبلَ صلاةِ الفَجْرِ، في سَفَرٍ ولا حَضَرٍ، ولا صِحَّةٍ ولا سُقْمٍ».

(١) رواه أحمد، رقم: (٢٥٤٩٩)، بلفظ: أنَّ عائشةَ سُئِلَت عن ركعتي الفجر، فقالت: «كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يخفِّفُهما» قالت: «فأظنُّهُ كانَ يقرأُ بنحوٍ من: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون: ١] و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١]».

(٢) رواه البخاري، رقم: (١٠٦٣)، ومسلم، رقم: (٩٠١)، بلفظ: «إنَّ الشَّمسَ والقمرَ آيتان من آياتِ اللهِ، وإنَّهما لا يخسفان لموت أحدٍ، وإذا كانَ ذاكَ فصلُّوا وادعُوا حتَّى يُكْشَفَ ما بِكُم»، واللفظ للبخاري.

فالأجدر بهم أن يستغفروا الله ممَّا جنته أيديهم وليفزعوا إلى الصَّلاة.

وهي سنَّةٌ، ووقتها وصفتها وأحكامها كصلاة العيد، لكن إذا أراد الإمام الخروج لها وعظ النَّاس وذكَّرهم وأمرهم بالتَّوبة وردِّ المظالم، وبعد ثلاثة أيَّام يخرج لها بسكينة وخضوع، ولا بأسَ بخروج الأطفال والنِّساء والبهائم، فيصلِّي فيهم ركعتين يخطب بعدهما خطبةً واحدةً؛ يُكْثِرُ فيها الاستغفار وقراءة آياتٍ فيها الأمر به ثمَّ يرفع يديه وظهورهما إلى السَّماء فيدعو بدعاء الاستسقاء المأثور عن النَّبيِّ ﷺ[1].

صلاة التَّراويح

وهي عشرون ركعةً برمضان تسنُّ والوتر معها جماعةً، ووقتها بين سنَّة العشاء والوتر.

كثيرٌ من النَّاس إذا أهلَّ رمضانُ يتسابقون إلى أعجلِ الأئمَّة صلاةً، وهذا أمر تشمئزُّ منه نفسُ المؤمن، فإنَّك لو حضرتَ بعضِ المساجد ورأيت صلاتهم وكيفَ يؤدُّونها لحكمتَ ببطلانها، إذ ما الفائدة من صلاة خَلَت من الخشوع والخضوع والطُّمأنينة؟

إنَّ أعمال هؤلاء المصلِّين - وفَّقهم الله وبصَّرهم فيما ينفعهم ويضرُّهم - أشبهُ شيءٍ بألعاب الصِّبيان، إن لم أقلُ أكثرَ من ذلك، وأستغفر الله لي ولهم.

صلاة الوتر

وقت صلاته من الفراغ من سنَّة العشاء إلى طلوع الفجر الثَّاني، وأكثرُ

(١) رواه أبو داود، رقم: (١١٦٩)، بلفظ: «اللَّهمَّ اسقِنَا غَيْثًا مُغِيْثًا، مَرِيْئًا مَرِيْعًا، نَافعًا غيرَ ضارٍّ، عاجلًا غيرَ آجلٍ»، والحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم: (١٢٢٢)، وقال: هذا حديثٌ صحيح على شرط الشَّيخين، ولم يخرِّجاه.

الوتر أحد عشر ركعةً، وأقلُّه ركعةٌ واحدةٌ، وأقلُّ كمالِهِ ثلاثُ ركعاتٍ بسلامَين، يدعو بعد ركوع أُخْرَاها بما شاءَ من أمرِ الدِّين والمعافاةِ من الفتنةِ فيه قبل قوله: ربِّ اهدِنِي وعافِنِي واعفُ عنِّي ويسِّر أمرِي واكشفْ ضرِّي.

والمتواتر هو: «**اللَّهمَّ اهدِنِي فيمَنْ هدَيتَ، وعافِنِي فِيمَنْ عَافيتَ، وتَوَلَّنِي فِيمَنْ تولَّيتَ، وبَارِك لي فيما أَعطيتَ، وَقِنِي واصرف عنِّي برحمتك سوء مَا قَضَيْتَ، إنَّكَ تقضِي ولا يُقْضَى عليكَ، وإنَّهُ لا يَذِلُّ مَنْ وَالَيتَ، ولا يعزُّ من عاديت، تباركتَ رَبَّنَا وتعاليتَ، فلك الحمد على ما قضيت، استغفرك اللَّهمَّ ربِّي وأتوب إليك**»(١).

«**اللَّهمَّ إنِّي أَعُوذُ برضاكَ من سَخَطِكَ، وبعفوك من عُقُوبَتِكَ، وبِكَ مِنْكَ، لَا أُحْصِي ثنَاءً علَيْكَ أَنْتَ كَمَا أثنيت على نفسِكَ**»(٢)، وصلِّ اللَّهمَّ على محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أوقات النَّهي

أوقات النَّهي خمسةٌ:

١- من طلوع الفجر الثَّاني إلى طلوع الشَّمس.

٢- من طلوعها إلى ارتفاعها قَدْرَ رُمْحٍ.

---

(١) رواه الترمذي، رقم: (٤٦٤)، بلفظ: «اللَّهمَّ اهدِنِي فيمَنْ هدَيتَ، وعافِنِي فِيمَنْ عَافيتَ، وتَوَلَّنِي فِيمَنْ تولَّيتَ، وبَارِك لي فيما أَعطيتَ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ، فإنَّكَ تقضِي ولا يُقْضَى عليكَ، وإنَّهُ لا يَذِلُّ مَنْ وَالَيتَ، تباركتَ رَبَّنَا وتعاليتَ»، وقال: هذا حديث حسن لا نعرفه إلَّا من هذا الوجه.

(٢) رواه الترمذي، رقم: (٣٥٦٦)، بلفظ: «اللَّهمَّ إنِّي أَعُوذُ برضاكَ من سَخَطِكَ، وأعُوذُ بمعافَاتِكَ من عُقُوبَتِكَ، وأعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً علَيْكَ أَنْتَ كَمَا أثنيت على نفسِكَ»، وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلَّا من هذا الوجه.

٣- عند قيامها حتَّى تزول.

٤- من صلاة العصرِ إلى الغروبِ.

٥- عند غروبها حتَّى يتمَّ.

يَحْرُمُ في هذه الأوقات ابتداءُ نفلٍ إلَّا صلاةَ جِنازَةٍ وسنَّةَ فجرٍ في وقتها؛ إذ إنَّ في هذه الأوقات لا تَنْعَقِدُ الصَّلاة، ويجوز فيها قضاءُ الفائتةِ.

محلَّات النَّهي

ومحلَّاته الَّتي تَحْرُمُ فيها الصَّلاة ولا تصحُّ سبعةٌ: المقبرةُ والمجزرةُ ومرابط الإبل والخلاء والحمَّام وقارعة الطَّريق المسلوك والمزبلة(١)، وحكم أسطحتها كحكمها، فإن تغيَّرت جازتِ الصَّلاة فيها، إلَّا المقبرة حتَّى تندرسَ.

القصرُ والجمعُ

يسنُّ قصرُ الصَّلاة الرُّباعيَّة في سفرٍ طويلٍ مباحٍ، ويقضي صلاة السَّفر في الحضر تامَّةً وبالعكس.

ومن نوى الإقامة بموضعٍ أكثر من أربعة أيَّام أتم، وكذا إن ائتمَّ بمقيم فإن حُبِسَ أو لم ينوِ الإقامةَ قَصَرَ أبدًا.

ويباح لسفر القصر - البالغُ طولُ طريقهِ ستَّةَ عشرَ فرسخًا، ولو قَطَعَ هذه المسافة بسيَّارةٍ أو طيَّارةٍ أو نحوهما - الجمعُ بين الظُّهر والعصر، وبين المغرب والعشاء بوقت أحدهما.

---

(١) رواه ابن ماجه، رقم: (٧٤٧)، بلفظ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «سبعُ مواطنَ لا تجوزُ فيها الصَّلاةُ: ظاهرُ بيتِ اللهِ، والمَقْبَرَةُ، والمَزْبَلَةُ، والمَجْزَرَةُ، والحَمَّامُ، وعَطَنُ الإبِلِ، وَمَحَجَّةُ الطَّريقِ».

وكذا يباح للمريض ونحوِهِ الَّذي يلحقُهُ بتركِهِ مشقَّةٌ وبين العشاءين فقط لمطرٍ ونحوِه يبلُّ الثِّيابَ وتوجد معه مشقَّةٌ، ولِوَحَلٍ وريحٍ شديدةٍ وباردةٍ إِلَّا بليلةٍ مظلمةٍ، والأفضل فعل الأرفق من تقديمٍ أو تأخيرٍ؛ لأنَّ الله يزيد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر، فشَرَعَ لهم ما فيه نفعهم، ولكنَّه لم يحمِّلهم ما ليس لهم به من طاقةٍ.

ويشترط لصحَّة جمع التَّقديم خمسة شروط:

١- النِّيَّة عند إحرام الأولى.

٢- ألَّا يفرِّق بينهما بنحو نافلة ويجوز بقدر إقامة.

٣- وأن يوجد العذر عند افتتاحهما.

٤- أن يستمرَّ إلى فراغ الثَّانية.

٥- التَّرتيب.

وشرط لجمع التَّأخير ثلاثة شروط: ١- التَّرتيب، ٢- ونيَّة الجمع بوقت الأولى، ٣- وبقاء العذر إلى دخول وقت الثَّانية.

صلاة المريض

يصلِّي المريض الفرض قائمًا، فإن لم يستطع فقاعدًا، فإن لم يتمكَّن فمضطجعًا على جنبه - والأيمن أفضل - فإن لم يستطع فمستلقيًا على قفاه، ويجعل رجليه موجَّهةً إلى القبلة، ويُوْمِئ للرُّكوع والسُّجود برأسه، فإن عَجَزَ أومأَ بطَرْفِه ونوى بقلبه، ولا يسقط فعل الصَّلاة مادام العقل ثابتًا، وإن طَرَأَ عَجْزٌ أو قدرة في أثناء الصَّلاة انتقلَ وبَنَى.

صلاة الخوف

تصحُّ إذا كان القتال مُبَاحًا في الحَضَرِ والسَّفر ولا تأثير للخوف في تغيير عدد ركعات الصَّلاة بل في صفتها وبعض شروطها، فإذا اشتدَّ

الخوف صلُّوا رجالًا وركبانًا متوجِّهين إلى القبلة وغيرها، ولا يلزم افتتاح الصَّلاة إليها، ولو أمكنهم ذلك، ويومئون طاقتهم، وكذا في حالةِ الهربِ من عدوٍّ أو سيلٍ أو سَبُعٍ أو غريمٍ ظالمٍ، أو خوف فوت وقتِ الوقوفِ بعرفة، أو خَافَ على نفسِهِ أو أهلِهِ أو مالِه.

وإن خاف عدوًّا إن تخلَّف عن رفقته فصلَّى صلاة الخائف ثمَّ ظَهَرَ له أنَّ الطَّريق آمنٌ لم يُعِدْ، ومن خاف أو أمن في أثناء الصَّلاة انتقلَ وبنى.

وجازَ في صلاةِ الخوف حَمْلُ نَجَسٍ لِحَاجةٍ ولا يُعِيدُ.

أسرار الصَّلاة والحكمة من فرضيَّتها

للصَّلاة أسرارٌ وحكمٌ منها:

١- أنَّها تهذيبُ النُّفوس ولا سيَّما نفوس المتكبِّرين الَّذين يأنفون من مسِّ الأرض بأقدامهم وذيولهم فضلًا عن جباههم وأنوفهم.

٢- تمرِّنُ الإنسان على الانقياد والخضوع لأوامر اللهِ ﷻ.

٣- تعوِّدُ النَّاس على النَّظافة والثَّبات وصدق العزيمة والمحافظة على المواعيد.

٤- تُذَكِّر الغافلين والمنهمكين في أعمال الدُّنيا بمولاهم وبنعمته وعلمه بشؤونهم وسرائرهم وقدرتِهِ على التَّصرُّف فيهم.

إنَّ النَّاس بانهماكهم في معائشهم وأشغالهم ولذَّة الدُّنيا ونعيمها محتاجون إلى مُذكِّرٍ يذكِّرهم بمولاهم المنعم عليهم بالعقل والحركة والحياة.

هذا المذكِّر هو الصَّلاة، فهي الَّتي تخلعُ الإنسان من تلك الشَّواغل الَّتي لا بدَّ منها، وتوجِّهه إلى ربِّه بكثرة المراقبة، فتزكو نفسُه، وتتطهَّرُ عن البغي والعدوان، وتتنزَّهُ عن دناءة الفسق والمعصية، ويُحَبَّبُ إليها العدل والإحسان والرَّحمة والرَّأفة، ذلك أنَّ الصَّلاة تنهى بإقامتها على وجهها

المشروع عن الفحشاء والمنكر، وذكرُ الله فيها بالإمعان والتَّدبُّر أعظمُ وأكبرُ من جميع المؤثِّرات.

إنَّ الإنسان إذا استيقظ من نومه يكون خاملًا غافلًا عن الله مفكِّرًا فيما يفعله في يومه، فإذا قامَ إلى صلاةِ الصُّبح وتطهَّر بالغُسْلِ وبالوضوء لاحِظ أنَّ هذه الطَّهارة تُعِدُّه للوقوف بين يدي خالقه، إذا شرع في أداء الصَّلاة اعتقد أنَّ عمله هذا امتثال لأوامر الله ﷻ، فإذا قال: «الله أكبر» تيقَّن أنَّ الله سبحانه وتعالى أعظم وأكبر من كلِّ كبير، ثمَّ أخذ يوقظ نفسه من الغفلة فأثنى على ربِّه بالحمد، ثمَّ وصفه بالرَّحمة والرُّبوبيَّة والتَّصرُّف المطلق في خلقه، ثمَّ أقرَّ بعبوديَّته وطلبَ منه الاستعانة والهداية إلى الصِّراط المستقيم وأن يجنِّبه طريق الضَّلال الموصل إلى غضب الله ونقمته، ثمَّ تقلَّب بين أجزاء الصَّلاة مراعيًا في كلِّ أجزائها أدب الخضوع، لم يفرغ من صلاته إلَّا قد امتلأ قلبُهُ بجلالِ خالقِهِ المُنْعم عليه وعَقَدَ النِّيَّة على فعلِ كلِّ عملٍ يرضيه واجتناب كلِّ ما يسخطه، ثمَّ إذا قام لأعماله الدُّنيويَّة وانهمك فيها فلا بدَّ وأن تعاوده الغفلة بعروضِ أسبابِها، فإذا شَرَعَ في صلاةِ الظُّهر ثمَّ العصر ثمَّ المغرب ثمَّ العشاء دامَ تذكُّره لمولاه، وتيقَّن أنَّ عبده يلتمس رضاه، فيكفي بذلك شرَّ نفسه ويكفي إخوانه من بني الإنسان شرَّه وما يسوءهم من أطماعِهِ فيهم، فنفهم قولَ اللهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العَنكبوت: ٤٥]، هذا من النَّاحية الدِّينيَّة.

وأمَّا من الوجهة الدُّنيويَّة فإنَّ الأمم الرَّاقية المتحدِّثة من زمنٍ غير بعيد اهتمَّت في تقوية الأبدان لتقوي العقول؛ لأنَّ الطِّبَّ يقول: العقل السَّليم في الجسم السَّليم، فعينت ألعابًا وأعمالًا سمَّوها بالأعمال البدنيَّة أو الألعاب الرِّياضيَّة، وجعلوها في المدارس، وعيَّنوا لها أوقاتًا محدودة،

ولكنَّ الدِّين الإسلاميَّ سبقهم إلى ذلك بفرض الصَّلاة وأعمالها وتحديد أوقاتها؛ فجعل وقت صلاة الفجر عند القيام من النَّوم وهو وقت الكسل، يحتاج فيه الإنسان إلى النَّشاط فيتوضَّأ أو يغتسل ثمَّ يقوم إلى الأعمال البدنيَّة الشَّاملة لكلِّ أعضائه - تلك هي الصَّلاة - وفي وقت الظَّهيرة بعد أن يتعب الجسم، ثمَّ في أوقات العصر والمغرب والعشاء، كلُّ هذه الأوقات يكون الإنسان فيها محتاجًا إلى الرِّياضة البدنيَّة.

نرى الرَّجل قد أنهكه العمل وأضعفه الملل واستولى عليه الكسل، فإذا تطهَّر وصلَّى عادت إليه قواه وأقبل على عمله بنشاط، وقد اعتاد بعض النَّاس عند قيامهم من النَّوم وفي أوقات فراغهم أن يلعبوا ألعابًا رياضيَّة؛ لتقوى صحَّتهم وينبعث نشاطهم، ولو استبدلوا هذا العمل بالصَّلاة فرضها ونفلها؛ لاستفادوا من ذلك الفائدة الَّتي يتطلَّبونها لأجسامهم، ولتحصَّلوا على فوائد أسرار الصَّلاة الرُّوحيَّة.

صلاة الجماعة

وهي واجبةٌ شرعًا على الرِّجال الأحرار القادرين حضرًا وسفرًا.

ويُدْرِكُ الجماعة من كبَّر قبلَ تسليمة الإمام الأولى، ومن أدرك الإمام راكعًا فركع واطمأنَّ أدرك الرَّكعة، قال رسول الله ﷺ يحثُّ على إقامة الجماعة: «**صلاةُ الجماعةِ أفضلُ من صلاةَ الفَذِّ بِسَبْعٍ وعشرينَ درجَةً**»[(١)].

وقال أيضًا ﵇: «**مَا مِن ثلاثةٍ في حضرٍ وَلَا بَدْوٍ لَا تُقَامُ فيهم الصَّلاةُ إلَّا استحوَذَ عليهم الشَّيطَانُ، فعليكَم بالجَمَاعَةِ فإنَّمَا يأكلُ الذِّئبُ من الغنم القَاصِيَة**»[(٢)].

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٦٤٥)، ومسلم، رقم: (٦٥٠)، بلفظ: «صلاةُ الجماعةِ تَفْضُلُ صلاةَ الفَذِّ بِسَبْعٍ وعشرينَ درجَةً».

(٢) رواه أبو داود، رقم: (٥٤٧)، والنسائي، رقم: (٩٢٢)، بلفظ: «مَا مِن ثلاثةٍ في =

الإمامة

الأَولى بها الإمام الرَّاتب، ثمَّ الأَقرأُ العالمُ بفقهِ صلاتِهِ، ولا تصحُّ الصَّلاة خلفَ فاسقٍ إلَّا في جمعةٍ وعيدٍ تعذَّرتا خلف غيره، ولا تصحُّ إمامة الأُمِّيِّ إلَّا بمثله، والأُمِّيُّ هو مَنْ لا يُحْسِنُ قراءةَ الفاتحة أو يُدْغِم فيها حرفًا لا يُدْغَم، أو يَلْحَنُ فيها لحنًا يُحِيْلُ المعنى.

وتُكْرَهُ إمامةُ الأعمى والأقلف[1] والمملوك والمتيمِّم والمسافر بضدِّهم، وتُكْرَهُ إمامةُ فأفاء وألثغَ وتأتاء، ولا تصحُّ الصَّلاة خَلْفَ مَنْ حَدَثُهُ دائمٌ، ولا خَلْفَ عاجزٍ عن ركوعٍ أو سجودٍ أو قعودٍ أو عاجزٍ عن اجتنابِ النَّجاسَة، وتصحُّ خلف راتب عَجَزَ عن قيامٍ ورُجِيَ زوال علَّته.

ولا تصحُّ إمامة المُمَيِّز والمراهق في بالغٍ في فرضٍ، ولا تصحُّ إمامةُ المرأةِ برجالٍ، ولا تصحُّ الصَّلاةُ خَلَفَ مُحْدِثٍ ونَجِسٍ، فإن جَهِلَا حتَّى انقضت صحَّت للمأمومِ فقط، وإن ذَكَرَ في أثنائها بَطَلَت صلاةُ الجميع، فإن انتقضَ وضوء الإمامِ في أثناءِ الصَّلاةِ بَطَلَت صلاتُهُ، وعليه أن يُخْلِفَ مكانَهُ أحدَ المأمومين لِيُتِمَّ بهم الصَّلاةَ.

العذر الَّذي يُبيحُ تركَ الجمعة والجماعة

يُعْذَرُ بتركهما المريضُ والمُدَافِعُ لأحد الأخبثين، ومَنْ بحضرةِ طعامٍ يحتاج إليه، والخائفُ ضياعَ مالِهِ أو موتَ قريبِهِ أو حدوثَ مرضٍ أو ضررًا من سلطانٍ أو مطرًا أو بردًا ونحوهما، أو ملازمةَ غريمٍ ولا وفاءَ له أو

= قريةٍ وَلَا بَدْوٍ لَا تُقَامُ فيهم الصَّلاةُ إلَّا قد استحوَذَ عليهم الشَّيطَانُ، فعليكَ بالجَمَاعَةِ فإنَّمَا يأكلُ الذِّئبُ القَاصِيَةَ».

(١) الأقلف: مَنْ لم يُخْتَن. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٤/ ٢٨٢).

فوتَ رفقةٍ أو تطويلَ إمامٍ؛ وفي الحديث: «**من أمَّ فليُخَفِّفْ**»[١]، ويُعْذَر بتركِهِمَا الأجير إن اشتُرِطَ عليه ذلكَ.

حكمة صلاة الجماعة

شَرَعَ الدِّين الحنيفُ صلاة الجماعة وأوجبَهَا على الرِّجال الأحرارِ القادرين على فعلها حضرًا وسفرًا بدليل آياتٍ[٢]، وأحاديث[٣] مرَّ بعضها في الدُّروس المتقدِّمة، وكان السَّلف الصَّالح يرونَ تركَ الجماعةِ خَطْبًا عظيمًا وخسرانًا مُبِيْنًا.

أمَّا فوائدها فكثيرةٌ منها:

١- تمرينُ النُّفوس على الطَّاعةِ والانقياد لأولي الأمرِ، وذلكَ مطلوبٌ شرعًا؛ لقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النِّساء: ٥٩].

٢- الإرشاد إلى فضيلةِ العدل والإنصاف والمساواة؛ لأنَّكَ ترى الغنيَّ بجانبِ الفقيرِ والمَلِكَ جنب الصُّعلوك كتفًا لكتف لا فَرْقَ بينهما أمامَ اللهِ، ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحُجرَات: ١٣].

٣- غرس فضيلةِ الحلم والصَّبر في القلوبِ؛ لأنَّ المأموم يكون تابعًا لإمامه في قراءته وركوعه وسجوده وجميع أفعال الصَّلاة أَطَالَ أو قَصَّرَ،

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٧٠٣)، ومسلم، رقم: (٤٦٧)، بلفظ: «إذَا صَلَّى أحدُكُم لِلنَّاسِ فليُخَفِّفْ، فإنَّ منهم الضَّعيفَ والسَّقِيمَ والكبيرَ، وإذا صَلَّى أحدُكُم لِنَفْسِهِ فَلْيُطَوِّلْ ما شَاءَ».

(٢) قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النِّسَاء: ١٠٢].

(٣) سبق تخريجه، وهو قوله ﷺ: «صلاةُ الجماعةِ تَفْضُلُ صلاةَ الفَذِّ بِسَبْعٍ وعشرينَ درجَةً».

فيعتاد معه الصَّبر.

٤- غرس فضيلة التَّواضع في النَّفس؛ لأنَّ المأموم يتَّبعُ إمامَهُ كيفما كانَ جاهُ الأوَّل وماله وقربة الثَّاني وفقره.

٥- الحثُّ على التَّعاون والتَّعاضد والتَّحابب المبنيِّ على الاجتماع.

٦- الإرشاد إلى النِّظام، فإقامة الصُّفوف وانتظامها وتسويتها وتحديد أوقات الصَّلاة كافلةٌ بأَن يكونَ النِّظامُ عادةً لمن يُوَاظِب على الجماعَةِ.

صلاة الجمعة

وتَجِبُ على كلِّ ذكرٍ مسلمٍ مكلَّفٍ لا عُذْرَ له، وعلى مقيمٍ خارجَ البلدِ إذا كان بينَه وبينَ الجمعة فرسَخٌ، ويُشْتَرَطُ لصحَّتها أربعةُ شروط: دخولُ الوقتِ، وأن تكون بقريةٍ يستوطِنُها أربعونَ ذكرًا مكلَّفًا بها استيطانَ إقامةٍ صيفًا وشتاءً، وحضورُ الأربعينَ، وتقدُّمُ خُطْبَتَين.

ووقتُ الجمعة من ارتفاعِ الشَّمس قدر رُمْحٍ إلى خروجِ وقتِ الظُّهر، فإن فاتَ الوقت صُلِّيت ظهرًا.

ويجب على مَنْ حَضَرَ الجمعةَ الإنصاتُ وقتَ الخُطْبَةِ، ومن لَغَا والإمامُ يَخْطُبُ فلا جمعةَ لهُ، وأن لا يَتَخَطَّى رقابَ النَّاسِ؛ لأنَّه فعلٌ يؤذِي، بل الواجبُ أن يَجْلِسَ في أقربِ محلٍّ خالٍ.

ويسنُّ الغُسْلُ قبلها بتأكُّدٍ، والتَّطيُّبُ ولُبْسُ جميلِ الثِّياب، قال ﷺ: **«إنَّ هذا يَوْمُ عيدٍ، جَعَلَهُ اللهُ للمسلِمِينَ، فمَنْ جاء الجُمُعَة فليَغْتَسِلْ، وَإِنْ كَانَ طِيبٌ فَلْيَمَسَّ مِنهُ، وعليكُم بالسِّوَاكِ»**[1].

---

(١) رواه ابن ماجه، رقم: (١٠٩٨)، بلفظ: «إنَّ هذا يَوْمُ عيدٍ، جَعَلَهُ اللهُ للمسلِمِينَ، فمَنْ جَاء إلى الجُمُعَة فليَغْتَسِلْ، وَإِنْ كَانَ طِيبٌ فَلْيَمَسَّ مِنهُ، وعليكُم بالسِّوَاكِ».

ويسنُّ التَّبكيرُ للجمعةِ(١)، وقراءةُ سورة الكهف قبلها(٢)، ومن أدركَ أقلَّ من ركعةٍ نَوَى ظُهْرًا.

الخطبتان

الغرض من الخُطْبَتَين تنبيهُ النَّاسِ إلى ما فيهِ نفعُهُم دنيا وأُخْرَى، ولَيْسَ الغرضُ من ذلكَ تضييع الوقت فيمَا لَا فائدةَ فيهِ وإلقاءَ أقوالٍ مجَّتْهَا الأسماع(٣) بكَثْرَةِ تكرَارِهَا.

إنِّي لا أعجبُ حينما أدخلُ بعضَ المساجدِ والإمامُ يَخْطِبُ بتلك النَّغمة الموسيقيَّة المعروفة عند أكثرِ الخُطَباءِ وحُقَّ لي العَجَبُ؛ لأنِّي أرى أغلبَ السَّامعين نيامًا، وهناك سببان: فالأوَّل إعادةُ ما سَمِعُوه، وكَثْرَةُ الإعادةِ تسبِّبُ الملَلِ، والثَّاني هو صوتُ الخَطِيب المملِّ المُنْعِسِ.

إنَّ مِنَ الواجبِ على الخطيب أن يُجَدِّدَ خطابَهُ كلَّ أسبوعٍ؛ لأنَّ فعل ذلك هو خيانةٌ وسرقةٌ، وسرقةُ الوقتِ أعظمُ ذنبًا وأفظعُ جُرْمًا من سَرِقَةِ المالِ.

الواجبُ على الخَطِيب أن يُبَيِّن للنَّاسِ في خطابِهِ ما يُفِيدُهُم دينًا ودنيا، وأَنْ يكونَ كالمنذرِ تارةً وكالبشيرِ أُخْرَى، فيتباكى عندما يمرُّ بعبارةٍ مُبْكِيَةٍ،

---

(١) لقوله ﷺ: «مَن اغتَسَلَ يومَ الجُمُعَةِ وغَسَّلَ، وبَكَّرَ وابتَكَرَ، ودَنَا واسْتَمَعَ وأَنْصَتَ، كانَ لَهُ بكلِّ خطوةٍ يخطُوهَا أَجْرُ سَنَةٍ صِيَامُهَا وقيامُهَا»، رواه الترمذي، رقم: (٤٩٦)، وقال: حديث أوسِ بنِ أوسٍ حديثٌ حسنٌ.

(٢) لقوله ﷺ: «إنَّ مَنْ قَرَأَ سورةَ الكهفِ يومَ الجُمُعةِ أضاءَ لَهُ من النُّورِ مَا بَيْنَ الجُمعَتَينِ»، رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم: (٣٣٩٢)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه.

(٣) هذا كلامٌ تمجُّه الأسماعُ: تتركُه، وهو من قبيل الاستعارة. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٦/ ١٩٨).

ويتشجَّع عندما يمرُّ بعبارةٍ مشجِّعَةٍ، ويبتسمُ موضِعَ الابتسامِ والاستبشارِ، يرفَعُ صوتَهُ فيما يُوْجِبُ رفعَ الصَّوتِ ويخفضه فيما يُوْجِبُ ذلكَ، حتَّى يتأثَّر السَّامع بتأثُّر الخطيبِ.

وإلَّا فمَا الفائدةُ العائدةُ لنا من حضورِ الجمعةِ وسماعِ أمثالِ أولئكَ الخُطَبَاءِ بَصَّرَهُمُ اللهُ؟! وفيما ذكرتُ كفايةٌ، واللهُ وليُّ التَّوفيقِ.

ويُشْتَرَطُ للخطبتين خمسةُ شروطٍ: الوقتُ، والنِّيَّةُ، ووقوعُهَا في الحَضَرِ، وحضورُ الأربعين، وكونُ الخطيبِ ممَّن تَصِحُّ إمامته فيها.

وأركانُ الخطبتين ستَّةٌ: حمدُ اللهِ، والصَّلاةُ على رسول الله، وقراءةُ آيةٍ من كتابِ اللهِ، والوصيَّةُ بتَقْوَى الله، وموالاتُهُما مع الصَّلاة، والجَهْرُ بحيثُ يسمعُ العددُ المُعْتَبَرُ.

ويسنُّ لهما الطَّهارة، والدُّعاء للمسلمين، وأن يتولَّاهما مع الصَّلاة واحدٌ، ورفعُ الصَّوت بهما، وأن يَخْطُبَ قائمًا على مُرْتَفَعٍ، والجلوس بين الخُطْبَتَينِ.

صلاة العيدين

وهي فرضُ كفايةٍ، والخطبتان فيها سنَّة، وتُسَنُّ بالصَّحراء، ووقتها من ارتفاعِ الشَّمسِ ضحىً إلى الزَّوال.

وهي ركعتان؛ يُكَبِّر في الأولى بعد تكبيرةِ الإحرام والاستفتاحِ ستًّا، وفي الثَّانية بعدَ القيام وقبل القراءة خمسًا، ويقول بين كلِّ تكبيرتين: اللهُ أكبرُ كبيرًا والحمدُ لله كثيرًا وسُبْحَانَ اللهِ بكرةً وأصيلًا وصلَّى اللهُ على محمَّدٍ النَّبيِّ الأُمِّيِّ وعلى آله وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

فإذا سلَّمَ الإمامُ خَطَبَ خُطبتَين كخُطْبَتَي الجُمُعَةِ في أحكامِهِما وشروطهما، لكن يسنُّ له استفتاحُ الأُولى بتسعِ تكبيراتٍ والثَّانية بسبعٍ نسقًا.

التَّكبير

يُسَنُّ التَّكبيرُ المُطْلَقُ والجهرُ في لَيْلَتِي العيدين في كلِّ مكانٍ وفي عَشْرِ ذي الحجَّةِ كذلك، وهو قول: اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ لَا إلهَ إلَّا اللهُ، واللهُ أكبرُ [الله أكبر] وللهِ الحمد، ويُقيَّد هذا التَّكبير بعدَ كلِّ فريضةٍ صُلِّيت في جماعةٍ من صلاةِ فجرِ عرفةَ إلى عصرِ آخرِ أيَّامِ التَّشريقِ، وهو اليومُ الرَّابع للعيد.

حكمة صلاة العيدين والجماعة

سَنَّ اللهُ صلاةَ العيدينِ في السَّنةِ الثَّانيةِ للهجرة[١]، والجُمُعَةِ في يومِ وصولِ النَّبيِّ ﷺ قباء، وهو أوَّل يوم دخل فيه حدود المدينة[٢].

ولا تخفى حكمة هاتين الصَّلاتين على عاقلٍ؛ لِمَا فيهما من الوعظِ والتَّذكيرِ والحَضِّ على جمعِ الكلمةِ.

كانَ النَّبيُّ ﷺ يجمعُ أصحابه في أيَّام الجُمَع والأعياد، فيُصَلِّي بهم ركعتين ويَخْطُبُ فيهم خُطْبَتَين، يحثُّهم فيهما على التَّآلفِ والتَّوافقِ وينهاهُم عن التَّفرقة، وأن يكونوا كالجسدِ الواحدِ لا فَرْقَ بين العربيِّ والعجميِّ

(١) فقد رُوِيَ عن عائشةَ وابنِ عمرَ وأبي سعيدٍ قالوا: «نَزَلَ فرضُ رمضانَ بعدمَا صُرِفَت القبلةُ إلى الكَعبةِ بشهرٍ في شعبانَ، على رأسِ ثمانِيَةَ عَشَرَ شهرًا من مُهَاجَرِ رسولِ اللهِ ﷺ، وَأُمِرَ في هذهِ السَّنَةِ بزكاة الفِطْرِ، وذلكَ قَبْلَ أن تُفْرَضَ الزَّكاةُ في الأموالِ، وصَلَّى يومَ الفِطْرِ بالمُصَلَّى قبلَ الخُطْبَةِ، وصَلَّى العيدَ يومَ الأضحَى، وأُمِرَ بالأُضْحِيَةِ»، أورده ابن حجر في التخليص الحبير، رقم: (٢١٦٣).

(٢) انظر: السيرة النبوية، لأبي الحسن الندوي (١/ ٢٧٧).

والمولى والسَّيِّد، ويذكِّرهم ما يجبُ عليهم لأنفسهم دنيا وأُخرى، ثمَّ يصافحُ المسلمونَ بعضهم بعضًا على أتمِّ الوئام والاتِّفاق، ثمَّ يخرجونَ لأداءِ ما تَجُودُ به أيديهم، نسألُ اللهَ تعالى أن يؤلِّف قلوبنا ويوفِّقنا لأعمالِ سلفنا.

محالُّ النَّهي

وهي المحالُّ الَّتي لا تصحُّ الصَّلاة فيها، وهي سبعة: المقبرة والمجزرة والحمَّام وقارعة الطَّريق المسلوك والخلاء وأعطان الإبل ونحوها، والمزبلة وحكم أسطحتها كحكمها، وأسباب ذلك قذارة هذه المحالِّ فإن استحالت إلى غير ذلك جازت الصَّلاة فيها إلَّا المقبرة، فعند الإمام أحمد لا تجوز الصَّلاة فيها ما دامت ممروقة، وإن تحوَّلت إلى مساكن وجاز عند الإمام أبي حنيفة.

الجنائز

تسنُّ عيادة المريض المسلم، وتلقينُ المحتضر الشَّهادتين وتغميض عينيه إذا مات، والمبادرة بوفاء دينه.

وغسلُ الميِّت وتكفينُه والصَّلاةُ عليه وحملُه ودفنُه فرضُ كفايةٍ، وفرض الكفاية هو الَّذي إذا قام به البعض سقط عن الباقين.

غسل الميِّت

الأفضل أن يكون الغَاسِلُ عارفًا بأحكام الغسل أمينًا على الأسرار، فإذا شرع في غسل الميِّت سَتَرَ عورته وجوبًا، وغسل ما به من نجاسةٍ، وشُرِطَ في الماء الَّذي يغسل به الميِّت أن يكون طهورًا مباحًا.

تكفين الميِّت

ويجبُ سترُ جميعه إلَّا رأس المحرم ووجه المحرمة بثوبٍ لا يَصِفُ البشرة، والسُّنَّة تكفين الرَّجل في ثلاث لفائفَ بيضٍ، والأنثى في خمسة أثوابٍ بيضٍ: إزارٌ وخمارٌ وقميصٌ ولفافتين.

الصَّلاة على الميِّت

صلاة الميِّت معناها الدُّعاءَ له من الله تعالى بالعفو والمغفرة والرَّحمة بما يفيده في آخرته؛ لذلكَ أَمَرَ اللهُ سبحانه وتعالى نبيَّه بقوله: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْۗ﴾ [التّوبة: ١٠٣]؛ يعني: ادعُ لهم.

وكيفيَّة الصَّلاة على الميِّت أن يكبِّرَ عليه أربع تكبيرات، يقرأ بعدَ الأولى الفاتحةَ من غير استفتاحٍ، وبعد الثَّانية يصلِّي على النَّبيِّ ﷺ فيقول: «**اللَّهمَّ صَلِّ على محمَّدٍ وعَلَى آلِ محمَّدٍ كما صَلَّيتَ على إبرَاهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ، إنَّكَ حميدٌ مجيدٌ**»(١)، وبعد الثَّالثة يدعو للميِّت، وبعد الرَّابعة يسلِّم.

ويُشترط لصحَّة الصَّلاة على الجنازة حضورُه إن كان بالبلد، وإسلام المصلِّي والمصلَّى عليه.

وأركانها سبعةٌ: القيامُ في فرضها وهي الصَّلاة الأولى على الميِّت، والتَّكبيرات الأربع، وقراءة الفاتحة، والصَّلاة على النَّبيِّ عليه الصَّلاة

(١) رواه البخاري، رقم: (٣٣٧٠).

والسَّلام، والدُّعاء للميِّت، والتَّسليمة الأوَّلى، والتَّرتيب.

وتجوزُ الصَّلاة على الغائب إلى شهرٍ بعد وفاته، وقيل: تستحبُّ لصلاته ﷺ على النَّجاشيِّ رضي الله عنه[١]، وتجوزُ على القبرِ لِمَن لم يَحْضُر الجِنَازة إلى ثلاثة أيَّامٍ.

دعاء الصَّلاة على الميِّت

هذا الدُّعاء من الأدعية المأثورة عن النَّبيِّ ﷺ، وهو المستحبَّة قراءته، وإن دعا بغيره جاز، وهو: «**اللَّهمَّ اغفر لحيِّنا وميِّتنا وشاهدِنَا وغائبِنَا وصغيرِنَا وكبيرِنَا وذكرِنَا وأنثانَا، إنَّكَ تعلمُ متقلَّبنا ومثوانَا، وأنت على كلِّ شيء قدير، اللَّهمَّ من أحيَيتَه منَّا فأحيه على الإسلام والسُّنَّة، ومن توفَّيته منَّا فتوفَّه عليهما**»[٢]، «**اللَّهمَّ اغفِرْ لهذا الميِّت وارحمْهُ وعافِهِ واعفُ عنه، وأكرم نُزُلَهُ، وأوسعْ خريجه، واغسِلْهُ بالماءِ والثَّلجِ والبَرَدِ، ونقِّه من الذُّنوب والخَطَايا كما ينقَّى الثَّوبَ الأبيضَ من الدَّنسِ، وأبدلْهُ دارًا خيرًا من دارِهِ، وزوجًا خيرًا من زوجه، وأدخلْهُ الجنَّةَ وأعِذْهُ من عذابِ القبرِ، وأفسح له في قبره ونوِّر له فيه**»[٣].

---

(١) رواه البخاري، رقم: (١٣٢٠)، بلفظ: «قد تُوفِّيَ اليومَ رجلٌ صالحٌ من الحَبَشِ، فهَلُمَّ، فصَلُّوا عليه».

(٢) رواه الترمذي، رقم: (١٠٢٤)، بلفظ: «اللَّهمَّ اغفر لحيِّنا وميِّتنا وشاهدِنَا وغائبِنَا وصغيرِنَا وكبيرِنَا وذكرِنَا وأنثانَا، إنَّكَ تعلمُ متقلَّبنا ومثوانَا، اللَّهمَّ من أحيَيتَه منَّا فأحيه على الإسلام، ومن توفَّيته منَّا فتوفَّه على الإيمان».

(٣) رواه مسلم، رقم: (٩٦٣)، بلفظ: «اللَّهمَّ اغفِرْ له وارحمْهُ وعافِهِ واعفُ عنه، وأكرم نُزُلَهُ، ووسِّعْ مُدْخَلَهُ، واغسِلْهُ بالماءِ والثَّلجِ والبَرَدِ، ونقِّه من الخَطَايا كما نقَّيت الثَّوبَ الأبيضَ من الدَّنسِ، وأبدلْهُ دارًا خيرًا من دارِهِ، وأهلًا خيرًا من أهلِهِ، وزوجًا خيرًا من زوجِهِ، وأدخلْهُ الجنَّةَ وأعِذْهُ من عذابِ القبرِ، أو من عذابِ النَّارِ».

فإن كان الميِّت صغيرًا أو سقطًا أو بَلَغَ مجنونًا واستمرَّ جنونُهُ إلى أن مات تقول عليهم بعد قولِكَ: فتوفَّه: «**اللَّهمَّ اجعلهُ وذُخْرًا لوالديه، وفرطًا وشَفِيعًا مجابًا، اللَّهمَّ ثقِّلْ به موازينَهُمَا وأعظم به أجورهما، وألحقه بصالح سلف المؤمنين واجعله في كفالة إبراهيم وقِه برحمتك عذاب الحجيم**»(١).

تنبيه: المقتولُ ظلمًا والشَّهيدُ لا يُغَسَّل ولا يكفَّن ولا يصلَّى عليه، وذلك وجوبًا، وَيُدْفَنُ بثيابه مع بقاءِ الدَّمِ إِنْ كانَ عليهما.

حَمْلُ الميِّت ودفنه

وسُنَّ حمل الميِّت على الأكتاف، والتَّربيعُ في حمله، ويُدْفَنُ موضوعًا على جنبِهِ الأيمن موجَّهًا إلى القبلة، ويسنُّ أن يقال عند كلِّ فعلٍ يفعله مع الميِّت: بسمِ اللهِ وعلى مِلَّةِ رسول الله ﷺ، وبعد وضعِهِ في الشِّقِّ أو اللَّحد يجبُ كشفُ وجهِهِ ذكرًا كان أو أنثى، وقطعُ أربطة الكفَنِ، وسُنَّ أن يوسَّع في أكفانه وأن يسنَّم(٢) القبرُ بعد الدَّفن ويرشَّ بالماء، وبعد ذلك تسنُّ بتأكُّدٍ تعزيةُ المسلم المصابِ، فيقول المعزِّي: عظَّم اللهُ أجركَ وأحسنَ عزاءَكَ وغفرَ لميِّتك، فيجيب المصاب بقوله: تقبَّل اللهُ دعاءَك ورحمنا وإيَّاكَ.

---

(١) أورده ابن حجر العسقلاني في التلخيص الحبير، رقم: (٤٢)، بلفظ: «اللَّهمَّ اجعلهُ سَلَفًا وفَرْطًا لأبويْهِ، وذُخْرًا وعِظَةً واعتبارًا وشَفِيعًا، وثقِّلْ به موازينَهُمَا وأفرِغِ الصَّبرَ على قلوبهما، ولا تفتنَّا بعدَهُ ولا تحرِمْنَا أجرَهُ».

(٢) سنَّم الشيء: رفعه وعلَّاه عن وجه الأرض كالسنام ولم يسطحه، انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، لأحمد مختار عمر (٢/ ١١٢٠).

فائدتان:

١- تسنُّ زيارةُ القبور للرِّجال وتُكْرَهُ للنِّساء(١)، إلَّا قبر النَّبيِّ ﷺ فتسنُّ للرِّجال والنِّساء، وأفضل أوقاتها يوم الجمعة، ويسنُّ أن يقول الزَّائر: «**السَّلام عليكم دَارَ قومٍ مؤمنين، وإنَّا إن شاء الله بكم لاحِقُوْنَ، ويرحم الله المستقدمين منكم والمستأخرين، ونسأل الله لنا ولكم العافية، اللَّهمَّ لا تَحْرِمْنَا أجرَهُم، ولا تَفْتِنَّا بعدَهُم واغفر لنا ولهم**»(٢).

ولا تخفى حكمةُ زيارة القبور؛ إذ إنَّ فيها تذكير الغافلين وتنبيههم بأنَّ هذه الدُّنيا زائلةٌ فانيةٌ، وأنَّ عاقبتها موتٌ وفناءٌ، فمَن اتَّقى وأصلحَ فأولئكَ لهم الدَّرجات العُلى، ويوم القيامة هم الفائزون، ومن بَغَى وظَلَمَ فسيرى سوءَ ما عَمِلَ ويلاقي جزاءَهُ.

وكرهت زيارة القبور للنِّساء؛ لأنَّهنَّ سريعات التَّأثُّر غالبًا، فربَّما حَصَلَ منهنَّ رفعُ صوتٍ لبكاء أو نحوه.

٢- وإفشاء السَّلام على الأحياء سنَّة مؤكَّدة، وربَّما وَجَبَ، وردُّه فرض كفاية على الجماعة، فرضُ عين على الواحد، بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم﴾ [النِّساء: ٨٦]، وفي الحديث عن سيِّد البشر ﷺ أنَّه قال: «**أَلا أدلُّكم على شيءٍ إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السَّلام بينكم**»(٣)، والبادئُ بالسَّلام أفضلُ، وفائدة السَّلام عظيمةٌ؛ لأنَّها تذهب البغضاء والحقد،

(١) رواه الترمذي، رقم: (١٠٥٦)، بلفظ: «أنَّ النَّبيَّ لعنَ زوَّارات القبور»، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) رواه ابن ماجه، رقم: (٨٨٦٣)، بلفظ: «سلامٌ عليكم دَارَ قومٍ مؤمنين، أنتم لنا فَرَطٌ، وإنَّا لاحِقُوْنَ، اللَّهمَّ لا تَحْرِمْنَا أجرَهُم، ولا تَفْتِنَّا بعدَهُم».

(٣) رواه مسلم، رقم: (٥٤)، بلفظ: «أَوَلا أدلُّكم على شيءٍ إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السَّلام بينكم».

وتزرع في القلوب بذور المحبَّة والائتلاف، ولا سيَّما إذا صَحِبَ السَّلام مصافحةٌ خاليةٌ من النِّفاق والمداهنة، ومثلُ السَّلام تشميتُ العاطسِ، ويجبُ إذا حمدَ اللهَ، وهو فرضُ كفايةٍ وردُّه فرضُ عينٍ، فيقولُ المُشَمِّتُ: يرحمُكَ اللهُ، فيجيبه العاطسُ بقوله: يهديكُمُ الله ويُصْلِحُ بالكم.

ترك الصَّلاة

حثَّت الشَّريعة الإسلاميَّة على إقامةِ الصَّلاةِ؛ لِمَا فيها من الأسرارِ والحِكَمِ الَّتي تَبَيَّنَ لكم بعضها في الدُّروسِ الماضيةِ، شدَّدت النَّكيرة على تاركها حتَّى حكمت عليه بالكفر، بدليل قول النَّبيِّ ﷺ: «**العهد الَّذي بيننا وبينهم الصَّلاة فمن تَرَكَهَا فقد كَفَرَ**»[١]، وقوله أيضًا: «**بينَ الرَّجلِ والكُفْرِ تركَ الصَّلاةِ**»[٢].

وقد اختلفَ الأئمَّةُ - رحمهم الله - في حكمِ تاركِ الصَّلاة، فبعضهم أخذَ بظاهرِ الحديثِ وحَكَمَ بارتدادِهِ، وقالَ بعضهم: إنَّه يُقتل حدًّا.

يقول بعضُ تاركي الصَّلاة: إنَّ اللهَ غنيٌّ عن صلاتنا، وفاتَهم أنَّهم بذلك كالمرضى الَّذين يأمرُهُم الطَّبيب النَّاجح بمناولة الدَّواء النَّاجع، فإن هم امتنعوا وقالوا: أنت غنيٌّ عن استعمالنا هذا الدَّواء؛ فقد عجَّلوا لأنفسهم الهلاك.

إنَّ مثلَ هذا القوم يحتاجون إلى تهذيبٍ وتذكُّرٍ وانتهاءٍ عن الفحشاء والمُنْكَرِ، والصَّلاة كفيلةٌ بذلك، وإن كان الله غنيًّا عن صلاتهم وعنهم.

فعلى المسلم أن يحافظَ على الصَّلاة ويأمرَ أولادَهُ ونساءَهُ ومماليكَهُ بها، فإذا فعلَ ذلكَ كانت حليفته البركة، قالَ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ

---

(١) رواه الترمذي، رقم: (٢٦٢١)، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٢) رواه مسلم، رقم: (٨٢)، بلفظ: «إنَّ بينَ الرَّجلِ والكُفْرِ تركَ الصَّلاةِ».

قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا﴾ [التحريم: ٦]، وقالَ النَّبيُّ ﷺ: «**كلُّكم راعٍ وكلُّ راعٍ مسؤولٌ عن رعيَّته**»(١).

ولكنَّا نرى في هذا الزَّمان أنَّ الولد إذا أخلَّ بأمرٍ من أمور الدُّنيا وبَّخهُ والدُهُ أو ضرَبَهُ، وإذا أخَلَّ بأمر أُخْرَاهُ غَفَلَ عنه وتَعَامَى، فما لهؤلاء لا يُبَالونَ بأولادهم وأهليهم؟! أُفٍّ لهم، أَلَا يعلمونَ أنَّهم هم المسؤولونَ عنهم أمامَ أحكمِ الحاكمين يوم يقوم النَّاس لربِّ العالمين؟! مالهم لا يهتمُّون بأمرِ دينهم ولا تتحرَّك ألسنتهم بشيء من الإنكار بل ولا قلوبهم؟!

كلُّ ذلك ناشئٌ عن عدم الاهتمام بأمر الدِّين وانحطاط منزلته عندهم، وهذا هو مرض النِّفاق الَّذي نشأ من الجهل بعلم الدِّين، وعدم المبالاة بجمع المال وأكله سواءٌ جاء من حرام أم من حلال، ففسدت القلوب وآثرت الدُّنيا على الآخرة وجهلت أنَّ الآخرة خيرٌ وأبقى.

وقد سهَّل الشَّارع ﷺ الطَّريق إلى الصَّلاة وأدائها حتَّى لا يكون عذرٌ لتاركها، فأجاز التَّيمُّم لمن تعذَّر عليه(٢)، وسَوَّغَ التَّحرِّي لمن اشتبهت عليه القبلة(٣)، ورخَّص لِمَن عَجَزَ عن القيام أن يُصَلِّي قاعدًا حتَّى اكتفى

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٥٢٠٠)، ومسلم، رقم: (١٨٢٩)، بلفظ: «كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيَّته»، واللفظ للبخاري.

(٢) رواه مسلم، رقم: (٥٢٢)، بلفظ: «فُضِّلْنَا عَلَى النَّاس بثلاثٍ: جُعِلَت صُفُوفُنَا كصفُوفِ الملائكَةِ، وجُعِلَت لَنَا الأرضُ كُلُّهَا مسجِدًا، وجُعِلَت تُرْبَتُهَا لَنَا طَهُورًا، إذا لم نَجِدِ الماءِ».

(٣) رواه البيهقي في السنن الكبرى، رقم: (٢٢٣٥)، بلفظ: عن جابرٍ قالَ: كنَّا مع رسولِ اللهِ ﷺ في مَسِيْرٍ أو سَرِيَّةٍ فأصابنَا غيمٌ فتحرَّينَا، واختلفْنَا في القِبْلَةِ فصلَّى كلُّ رجلٍ منَّا على حِدَةٍ، فجَعَلَ أحدُنَا يَخُطُّ بينَ يديه لِنَعْلَمَ أمكِنَتَنَا، فلَمَّا أصبحنَا نظرْنَاهُ، فإذَا نحنُ قد صَلَّيْنَا على غَيْرِ القِبْلَةِ، فذَكَرْنَا ذلكَ للنَّبيِّ ﷺ فقال: «قَدْ أجزأَتْ صَلَاتُكُم».

منه بإشارة طرفِهِ[١]، فعلامَ يعتمدُ تارك الصَّلاة إذا وَقَفَ غدًا أمامَ اللهِ السَّريع الحساب الشَّديد العقاب؟!

وقد أفلحَ من قالَ:

خَسِرَ الَّذي تَرَكَ الصَّلاة وخَابَا   وَأَبَى مَعَادًا صَالحًا ومآبَا
أَو كانَ يجحدُهَا فحسبُكَ أنَّه   أضحى بربِّك كافرًا مرتابَا
أو كانَ يتركُهَا لنوعِ تكاسلٍ   غطَّى على وَجْهِ الصَّواب حجابا[٢]

فليتَّقِ اللهَ تاركَ الصَّلاة وَلْيَتُبْ من ذنبه، وليؤدِّها تامَّةً كاملةً على غاية الخضوع والخشوع والسَّكينة وليحافظ عليها؛ ليستيقظ من غفلته ويأمن شرور الدُّنيا وعذاب الآخرة، وكان آخر كلام تكلَّم به النَّبيُّ ﷺ وهو محتضر: «**الصَّلاة الصَّلاة وما ملكت أيمانكم**»[٣]، حتَّى كان يلجلجها في صدره وما يفيض بها لسانه، وقالت أمُّ سلمة: كانت وصيَّة رسول الله ﷺ؛ أي: وقت احتضاره.

الزَّكاة

هي حقٌّ واجبٌ في مالٍ خاصٍّ لطوائفَ مخصوصةٍ في وقتٍ مخصوص.

افترض الله الزَّكاة على الأمَّة الإسلاميَّة في السَّنة الثَّانية من الهجرة

(١) رواه البخاري، رقم: (١١١٧)، بلفظ: «صلِّ قَائمًا، فَإِن لَم تستَطِعْ فقاعِدًا، فَإِن لم تستَطِع فَعَلَى جَنْبٍ».
(٢) انظر: المستطرف في كل فن مستظرف، للأبشيهي (١/ ١٤).
(٣) رواه أحمد، رقم: (٢٦٧٢٧).

على أصحِّ الأقوال، وهي ركنٌ عظيمٌ من الأركان الَّتي بُنِيَ عليها الدِّين الإسلاميُّ؛ ولما لها من الأهمِّيَّة العُظْمَى والفوائد الجمَّة في اتِّفاق القلوب واتِّحاد الأفراد وتقوية رابطة الائتلاف، وقد قَرَنَها الله تعالى مع الصَّلاة في كثير من الآيات القرآنيَّة، فإنَّك لا تكاد تقرأ إقامة الصَّلاة إلَّا وبعدها إيتاء الزَّكاة.

فالصَّلاة مهذِّبة للرُّوح، والزَّكاة مزكِّية المال، والمال قرين الرُّوح، فبذله في سبيل الحقِّ ومساعدة الغير ركنٌ من أركان البرِّ، وآيةٌ من آيات الإيمان.

إنَّ الله جعل لعمران هذا الكون كثيرًا من الأسباب، فمن ذلك وجود التَّباينات، فترى فيها القويَّ والضَّعيف، والذَّكيَّ والبليد، والمجدَّ والكسلان، والعاقل والمجنون، والغنيَّ والفقير إلى غير ذلك، ولو كانَ النَّاس كلُّهم على حالةٍ واحدة لَمَا تَمَّ النِّظام ولتعطَّلت المصالحُ، إذ لو كان النَّاس كلُّهم أغنياء لم يكن هناك داعٍ يدعوهم للعمل؛ لأنَّهم لا يخشون فقرًا، ولو كان النَّاس كلُّهم فقراء لم يكن باعثٌ إلى السَّعي؛ لأنَّه لا طَمَعَ في الغِنَى فالحكم إذًا إيجاد الغنيِّ والفقير؛ ليكون هناك باعثٌ للسَّعي سيرًا وراء الغنى، وللرَّحمة والشَّفقة سيرًا وراء التَّآلف والتَّعاضد بسبب ما يبذله الغنيُّ من ماله، فشُرعت لذلك الزَّكاة.

وشروط الزَّكاة خمسةٌ: الإسلام، والحرِّيَّة، وملك النِّصاب، والملك التَّامُّ، وتمام الحول.

المال الَّذي يجب فيه الزَّكاة

يجبُ في السَّائمة وهي: الإبل والبقر والغنم، وعروض التِّجارة، والزُّروع، والثِّمار، والنَّقدان وهما: الذَّهب والفضَّة، والمعادن

المستخرجة من الأرض.

زكاة السَّائمة وشروطها

شروط زكاة السَّائمة ثلاثة:

١- أن تتَّخذ للدَّرِّ والنَّسل والتَّسمين لا العمل.

٢- أن تَرْعَى المباحَ أكثرَ الحولِ.

٣- أن تَبْلُغَ نصابًا.

فأوَّل نصاب الإبل خمسٌ وفيها شاة، ثمَّ في كلِّ خمسٍ شاةٌ إلى خمس وعشرين، فتجب فيها بنت مخاض وهي ناقة تمَّ لها سنة، وفي ستٍّ وثلاثين بنت لبون وهي ناقة تمَّ لها سنتان، وفي ستٍّ وأربعين حقَّة وهي ناقةٌ تمَّ لها ثلاث سنين، وفي إحدى وستِّين جذعة وهي ناقة تمَّ لها أربع سنين، وفي ستٍّ وسبعين بنتا لبون، وفي إحدى وتسعين حقَّتان، وفي مئة وإحدى وعشرين ثلاث بنات لبون، إلى مائةٍ وثلاثين فيستقرُّ في كلِّ أربعين بنت لبون، وفي كلِّ خمسين حقَّة.

وأوَّل نصاب البقر ثلاثون، وفيها تبيعٌ أو تبيعةٌ؛ وهو من البقر ما تمَّ له سنة، وفي أربعين مسنَّة وهي بقرة تمَّ لها سنتان، وهكذا يستقرُّ في كلِّ ثلاثين تبيع، وفي كلِّ أربعين مسنَّة.

وأوَّل نصاب الغنم أربعون وفيها شاةٌ تمَّ لها سنة أو جذعة ضأن لها ستَّة أشهر إلى مئة وإحدى وعشرين وفيها شاتان، وفي مئتين وواحدة ثلاث شياهٍ إلى أربعمئة وفيها أربع شياه، ثمَّ تستقرُّ في كلِّ مئة شاةٌ واحدة.

زكاة الخارج من الأرض وشروطها

الخارج من الأرض هو الزَّرع والثِّمار والمعدن والرِّكاز، وهو الكنز

المُوْدَعُ في جوفِ الأرضِ.

فشروط زكاة الحبِّ والثَّمر أن تبلغَ نصابًا بعد تصفيةِ الحبِّ وجفافِ الثَّمرِ، وأن يكونَ المزكِّي مالكًا للنِّصاب وقتَ وجوبها، ووقت الوجوب في الحبِّ إذا اشتدَّ، وفي الثَّمر إذا بدَا صلاحه.

وتجبُ الزَّكاة في كلِّ مَكِيلٍ مدَّخر، ونصابها خمسة أوسق، وهي عشرة أمنان[1] بصريَّة تقريبًا، وفيها العشر إن سُقِيَت بلا كُلْفَةٍ وإلَّا ففيها نصف العُشْرِ.

وتَجِبُ في العسل الزَّكاة إذا بَلَغَ نصابًا، ونصابه مائة وستُّون رطلًا عراقيًّا وفيها العشر.

أمَّا المعادن فتجب فيها الزَّكاة بمجرَّد إحرازها إذا بلغت قيمتها نصابًا بعد السَّبك والتَّصفية، وفيها رُبُعُ العُشْرِ.

وأمَّا الرِّكاز ففيه الخُمُسُ بمجرَّد إحرازه ولو قليلًا، ولا يمنعُ الدَّين وجوبَ إخراجِ الخمس، ويشترطُ فيه أن يوجدَ بالكنز أثرٌ من آثار الكفر.

زكاة النَّقدين وعروض التِّجارة

النَّقدان هما: الذَّهب والفضَّة، ونصابُ الذَّهب عشرونَ دينارًا وهي ١٢ ليرةٍ عثمانيَّة تقريبًا، ونصاب الفضَّة مئتا درهم، وهي ٥٧ روبية هنديَّةٍ تقريبًا.

وفي النَّقدين رُبُعُ العُشْرِ؛ أي: في المائةِ اثنان ونصف.

وأمَّا العروض فهي ما يُعَدُّ للبيع والشِّراء، فتُقَوَّم إذا حال عليها الحول، وأوَّل الحول من بلوغِ القيمةِ نصابًا، تُقوَّم بنقدِ البلدِ بسعرها الحاضرِ وتُخْرَجُ زكاتها نقدًا.

---

(١) أمنان: جمع مَنٍّ، وهو ما يوزن به، انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٦/ ١٩٧).

الحليُّ والمصاغ

لا زكاة في حليٍّ مباحٍ معدٍّ للاستعمال أو الإعارة، وتَجِبُ في الحليِّ المحرَّم وفي المباح إذا كان مُعَدًّا للكراءِ أو الخَزن أو النَّفقة إذا بَلَغَ وزنُهُ نصابًا، ويخرج من قيمته إن زادت.

ويباح للذَّكر استعمال الخاتم من الفضَّة والقبضة من السَّيف وإن كانت من ذهب، وتحليةُ المِنْطَقَةِ والخوذة والجوشن، ويُبَاحُ للنِّساء كلَّما جرت عادتهنَّ بلبسه.

إخراج الزَّكاة

يجبُ إخراج الزَّكاة حالًا بعد استقرارها، ويجوزُ تأخيرُها لوقت الحاجة ولقريبٍ وجارٍ.

ويخرج الزَّكاة عن الصَّغير والمجنون وليُّهما، ويسنُّ إظهارها ضدَّ صدقة التَّطوُّع ويَحْرُمُ نقلها إلى مسافةٍ قصيرةٍ، ولكنَّها تجزئ مع الحرمة.

ويشترط في إخراجِهَا النِّيَّة من مكلَّفٍ، فينوي الزَّكاة أو الصَّدقة الواجبةَ.

وسُنَّ أن يخرجها ربُّها بنفسه، وإن وكلَ في إخراجَها مسلمًا مكلَّفًا ذكرًا كانَ أو أنثى أجزأت نيَّة المُوْكِلِ مع قرب زمن التَّوكيل من زمن الإخراج، وإن طَالَ الزَّمنُ وَجَبَت نيَّة الوكيل.

زكاة الفطر

تجبُ بأوَّل ليلةِ العيدِ على كلِّ فردٍ موجودٍ، يملك ما يفضل عن قوتِهِ وقوتِ عيالِهِ يوم العيد وليلته بعد ما يحتاجه من مَسْكن وخادم ودابَّةٍ وكتبٍ وثيابٍ ونحوها من الضَّروريَّات، فيلزمه إخراجُهَا عن نفسِهِ وعمَّن تلزمُهُ نفقته من المسلمين وعمَّن تبرَّع بمؤونته شهرَ رمضانَ كلَّه، وهي صاعٌ من

تمرٍ أو برٍّ أو شعيرٍ أو أَقِطٍ، فإن عدمت هذه الأربعة فمِن قوتِ البلدِ المعتاد.

والأفضلُ إخراجها يوم العيد قبل الصَّلاة ويُكْرَهُ بعدَهَا، ويحرمُ تأخيرها عن يوم العيد إن كان قادرًا وعليه القضاء، وتجزئ قبل العيد بيومٍ أو يومين.

أهل الزَّكاة

وهم من تُدفع إليهم الزَّكاة، وأصنافهم ثمانيةٌ:

١. الفقير وهو من لا مالَ لهُ ولا كسب يسدُّ حاجته.

٢. المسكين وهو من له مالٌ أو كسبٌ لا يسدُّ حاجته.

٣. العامل عليها وهو الَّذي يرسله الإمام لجمع مال الزَّكاة.

٤. المؤلَّفة قلوبهم وهو من أسلم إسلامًا ضعيفًا أو السَّيِّد المطاع في عشيرته ممَّن يرجى إسلامه أو يخشى شرُّه.

٥. وفي الرِّقاب وهم الأرقَّاء الَّذين يشتروا أنفسهم من مالكيهم.

٦. الغارم وهو من تديَّن فأعسر، وشُرِطَ أن يكون دينه لفعل مباحٍ.

٧. وفي سبيل الله وهو الجهاد لإعلاء كلمة الدِّين، أو من أهل العلم من عمَّم سبيل الله وجعله في كلِّ الأعمال الخيريَّة، كبناء المساجد والملاجئ والمدارس وإعانتها وإعانة المنكوبين وتعليم اليتامى وتعهُّد الأرامل والعميان والإصلاح بين النَّاس إلى غير ذلك ممَّا يعود نفعه على بني الإسلام.

٨. ابن السَّبيل وهو الغريب الَّذي انقطع في غير بلده ولم يكن لديه مالٌ أو له مالٌ لا يصل إليه لبُعد الدَّار، فيُعْطَى الجميع من الزَّكاة بقدر الحاجة.

تنبيه: لا يجوز ولا يجزئ دفع الزَّكاة للكافر ولا للرَّقيقِ ولا للغنيِّ بمالٍ أو كسبٍ، ولا لِمَن تلزمُهُ نفقته ولا للزَّوج.

ويسنُّ أن يفرِّقَ الغنيُّ زكاتَهُ على أقاربه الَّذين لا تلزمُهُ نفقتهم وعلى ذوي أرحامِهِ بقَدْرِ حاجتهم، وتُجْزِئُ إن دَفَعَها لِمَن تبرَّع بنفقته بضمِّه إلى عيالِهِ.

صدقة التَّطُّوع

تُسَنُّ في كلِّ وقت، لا سيَّما إذا كانت سرًّا وكونها في الزَّمان الفاضل والمكان الفاضل أفضل، وعلى جاره وذوي رحمِهِ صدقةٌ وصلةٌ لا سيَّما مع عداوة، والمنُّ بالصَّدقة - وهو ذكرها لمن تصدَّق عليه - كبيرةٌ يَبْطُلُ بها الأجرُ والثَّوابُ.

فوائد الزَّكاة والحكمة من مشروعيَّتها

تقدَّم لك بعض فوائد الزَّكاة وعظم منزلتها في الدِّين والاجتماع، وسأذكر لك بعض فوائدها؛ لتكون على بصيرةٍ في دينك، ولتعلم أنَّ الله لم يشرع أمرًا عبثًا.

فمن فوائد الزَّكاة:

١- تخفيف آلام الفقير؛ لأنَّ الإنسان كلَّما وصل إلى مرتبةٍ طمِعَ فيما فوقها، فشمَّر عن ساعد الجدِّ والكدِّ والسَّعي طمعًا في جمع الحطام، ولمَّا أراد الله تعالى أن يخفِّف آلام الفقير رأفةً به اقتضت حكمته العالية أن يجعل على الغنيِّ جزءًا معيَّنًا من ماله يدفعه إليه في كلِّ سنةٍ قمريَّة يسدُّ به عوزه ويخفِّف بلاءَهُ ويكفيه حاجته الضَّروريَّة.

٢- انتشار الأمنِ العامِّ؛ لأنَّ كثيرًا من أنواع الشُّرور كالسَّرقة والسَّلب والاختلاس والغشِّ تنشأ من اضطرار الفقراء وضيق ذاتِ يدهم، فمن

فوائد الزَّكاة أنَّ الأغنياء إذا أدَّوها تامَّةً على الوجه المشروع اكتفى الفقراء، والفقير يكتفي باليسير، فيعمُّ الأمن وتثبت دعائمه وتقلُّ متاعبُ النَّاس من وطأةِ الفقرِ الثَّقيلة فيتمتَّع الغنيُّ بماله آمنًا، ويكتفي الفقير المؤونة فيأمن النَّاس شرَّه.

٣- إنَّ الزَّكاة مطهِّرةٌ للإنسان من البخلِ الَّذي هو أقبحُ الصِّفاتِ وأرذلُ الخصال؛ لأنَّ داء البخل في الأغنياء يورث المرء الحسد في قلوب الفقراء، وناهيك بهذين الدَّاءين من مفرِّقٍ بين القلوب وموقعِ عظيم الضَّرر في الأمَّةِ والوطن، وقد حذَّر من الشُّحِّ الرَّسولُ ﷺ بقوله: «**إيَّاكم والشُّحُّ، فإنَّه أهلكَ من كان قبلكم، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا**»[١].

٤- إنَّ الزَّكاة من أسباب الاتِّحاد والمودَّة؛ لأنَّ بين المزكِّي ومن تدفع إليه الزَّكاة هذه الصِّلة العظيمة؛ صلة الاتِّحاد والوادد، فمن الأوَّل رحمة ومن الثَّاني مودَّة، وهذه الصِّلة أعظم من صلة القرابة ارتباطًا، يقول الشَّاعر:

أَحْسِن إلى النَّاسِ تستعبدْ قُلُوبَهم ... فطالَمَا استعبدَ الإنسانَ إحسانُ[٢]

فالزَّكاة رُكْنٌ من أركان الدِّين الإسلاميِّ والعمران والمدنيَّة، وفضيلة هذا الرُّكن من أكمل الفضائل الإنسانيَّة، ولو وفَّق الله سبحانه وتعالى الأغنياء إلى دفع زكاتهم تامَّةً لخفَّت آلام الفقراء، وقلَّ شرورهم وثبت

---

(١) رواه أبو داود، رقم: (١٦٩٨)، بلفظ: «إيَّاكم والشُّحُّ، فإنَّه هلكَ من كان قبلكم بالشُّحِّ، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا».

(٢) انظر: جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، للمصطفى الهاشميِّ (٢/ ٤٣٠)، من قول أبي الفتح البستيِّ.

الأمن وتعوَّد النَّاس السَّخاء والكرم ورأينا المحبَّة والوفاق تخفق رايتهما على أفراد الأمَّة.

جزاء مانع الزَّكاة

من مَنَعَ الزَّكاة جاحدًا بوجوبها وهو عالمٌ بها كفرَ، ومن منعها بخلًا أو تهاونًا فسق، ووجب حينئذٍ على المسلمين وإمامهم تعزيره.

إنَّ منعَ الزَّكاة كبيرةٌ من الكبائر، وهَدمٌ لركنٍ من أركان الإسلام والمدنيَّة والعمران؛ لِمَا تقدَّم لك من فوائدها العظيمة ومنافعها الجسيمة، قال الله سبحانه وتعالى سائلًا من سِيْقَ إلى جَهَنَّم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [المدَّثر: ٤٢-٤٤]؛ لأنَّهم بخلوا بما آتاهم الله من فضله، ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عِمرَان: ١٨٠]، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في القرآن المبين كثيرًا من الآيات بيَّن فيها ما أعدَّه من العذاب الأليم والعقاب الشَّديد لمانعي الزَّكاة.

إنَّ مانع الزَّكاة عرضةٌ لانتقام الله وسخطه، يسلبه نعمته فيذيقه الذِّلَّة بعد العزَّة، والتَّعب بعد الرَّاحة، والحزن بعد المسرَّة، والضَّعف بعد القوَّة، والفقر بعد الغنى، فيصبح مستحقًّا للزَّكاة بعد أن كانت تُرجى منه.

فبعضهم يسلِّط الله عليه ولده فيبذِّر ماله ويبدِّده في طرق الحرام، وهذا كثيرٌ، وبعضهم يبتليهم الله بالعلل والأمراض فينفقون في التَّخلُّص منها الأموالَ الكثيرة، ويصرفوا أضعاف ما لو كانوا صرفوه في الزَّكاة فضلًا عن تشتُّت أفكارهم وضيق نفوسهم.

مانع الزَّكاة الشَّحيح البخيل لا يَسْلَمُ ماله من أحد شيئين: من حوادث

الزَّمان أو شراهة الوارث، فالحادث يُذهِب مالَه فيبقى محزونًا عليه، والوارث قد ينفقه في معاصي الله تعالى، فهو يُسأل عن كلِّ مثقال ذرَّة ممَّ جمعها؟ ولم منعها؟ ويحاسب عليه يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون.

كثيرًا ما نشاهد في هذه الدُّنيا الوارث يضنُّ على مورِّثه بالقليل اليسير، حتَّى إذا كان في آخر نفسٍ من حياته المملوءة بالشُّحِّ والشُّحِّ فما أسرع من أن يغيَّب في التُّراب غير مأسوفٍ عليه، ثمَّ يهجم وارثه على ماله فَرِحًا مسرورًا بهذا الغنى الغير المنتظر، وما كان غناه إلَّا بسبب موت ذلك الشَّحيح، فهو فرحٌ بزواله وإن بكى عليه وناح، فعلام يرمي الإنسان نفسه في البلاء، يمنع زكاة ماله لأجل هذا الوارث الَّذي لا يهتمُّ بشأنه ولا يعبأ به؟! تالله ما هذا إلَّا جهلٌ فاضحٌ وغباوةٌ مستحكمة.

فليؤدِّ الإنسان الغنيُّ زكاة ماله لينجو من عذاب الله الأليم الَّذي أَعَدَّ لمانعي الزَّكاة، وما بقي بعد ذلك يعيش به مدَّة حياته آمنًا مطمئنًّا، فإذا خرج من الدُّنيا كان ممدوحًا لدى الخلق مرحومًا بألسنتهم راضيًا عنه الخالق، قال الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾ [المنافقون: ١٠-١١]، وروى كثير من الصَّحابة عن رسولِ الله ﷺ: «**مَا نَقَصَ مالٌ من صدقةٍ، وما زادَ اللهُ عبدًا بعفوٍ إلَّا عزًّا، وما تواضَعَ للهِ إلَّا رَفَعَه**»(١).

---

(١) رواه مسلم، رقم: (٢٥٨٨)، والترمذي، رقم: (٢٠٢٩)، بلفظ: «مَا نَقَصَت صَدَقَةٌ من مَالٍ، وما زادَ اللهُ عبدًا بعفوٍ إلَّا عزًّا، وما تواضَعَ أحدٌ للهِ إلَّا رَفَعَه اللهُ».

الصِّيام

يجبُ على كلِّ مسلم مكلَّف قادرٍ، برؤيةِ الهلالِ أو بإكمالِ شعبان ثلاثين يومًا، فإذا رآه أهل بلدٍ لزم باقي البلاد الَّتي يقربها، وإن صارَ أحد أهلًا لوجوبه في أثناء النَّهار أمسك وقَضَى.

ومن أفطرَ لِكِبَرٍ أو مرضٍ لا يُرْجَى برؤه أطعمَ عن كلِّ يومٍ مسكينًا مدَّ برٍّ أو نصف صاعٍ من غيره.

ويسنُّ الفطر لمريضٍ يَشُقُّ عليه، ومسافرٍ يَقْصُرُ، ولحاملٍ ومرضعٍ خافتا على أنفسهما أو على الولد.

وشُرِطَ لصحَّة الصَّوم انقطاع ما يمنع وجوبه، والنِّيَّةُ لكلِّ يومٍ قبل طلوع الفجر، أمَّا صوم النَّفل فيصحُّ بنيَّةٍ نهارًا.

فرض الصَّوم وسننه ومحرَّماته

فرض الصَّوم الإمساك عن جميع المفطرات من طلوع الفجر الثَّاني إلى غروب الشَّمس، ومن سننه تعجيل الفطر وتأخير السَّحور والزِّيادة في أعمال الخير والدُّعاء عند فطره بما ورد، وفطره على رطب أو تمر أو ماء.

ويَحْرُمُ على الصَّائم بتأكُّدٍ الكذبُ والغيبةُ والنَّميمةُ والشَّتم والرَّفثُ ونحوها.

ويجبُ الفطر على حائضٍ ونفساء وعلى من يحتاجه لإنقاذ معصوم من مهلَكَةٍ.

المفطرات

وهي اثنا عشر: الحيضُ والنِّفاسُ والوطْءُ والموتُ والرِّدَّةُ والعزمُ على

الفطرِ والتَّردُّدُ فيه، والقيءُ عمدًا والاحتقان والحجامة سواءٌ كان حاجمًا أو محجومًا، وكلُّ ما وصل إلى الجوف أو الحلق أو الدِّماغ، وبلعُ النُّخامةِ إذا وصلت إلى الفم، فمن ذاق طعامًا ووجد الطَّعمَ بحلقه أو بلع ريقه بعد أن وصل إلى شفتيه أو مضغ علكًا يتحلَّل أفطر، ولا يفطر إن دخل الغبار أو نحوه حلقه بغيرِ قصدٍ، ولا إن جمع ريقه فابتلعه، ولا إن فعل شيئًا من جميع المفطرات ناسيًا أو مُكْرَهًا.

تنبيه: من جامَع برمضان فعليه القضاء والكفَّارة، وهي عتقُ رقبةٍ مؤمنةٍ، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين، فإن لم يستطع فإطعام ستِّين مسكينًا لكلِّ مسكين مدُّ برٍّ أو نصفُ صاعِ تمرٍ.

صيام التَّطوُّع

يسنُّ صوم الخميس والإثنين وستِّ شوَّال وصوم التَّاسع والعاشر من المحرَّم، وآكدُهَا يومُ عرفة لغير الحاجِّ، ويُكْرَهُ إفراد رجبٍ بالصَّوم، وصوم كلِّ عيدٍ لكفَّارٍ، وتقدُّم رمضان بيومٍ أو يومين، ويَحْرُمُ صوم يومي العيدين وأيَّام التَّشريق.

فوائد:

١. يُكْرَهُ للصَّائم أن يجمع ريقه فيبتلعه، وأن يذوق طعامًا لغير حاجةٍ وأن يمضغ علكًا لا يتحلَّل.

٢. يجب على من فاته رمضان أن يقضي عدد ما فاته من أيَّامه، ويُسَنُّ القضاء على الفور، ويجب عليه إذا أبقى من شعبان بقدر ما عليه من أيَّام رمضان.

٣. ليس على المتطوِّع بصيامٍ أو صلاةٍ أو صدقةٍ إتمام ما دخل فيه من تطوُّعٍ، وإنَّما يسنُّ له الإتمام إلَّا نفل الحجِّ والعمرةِ، فيجب إتمام نفلهما كالفرض.

٤ . النَّذر فرض، فمن قال: لله عليَّ، أو قال: نذرت لوجه الله أن أفعل كذا أو نحوه، فقد وجب عليه أداء ما نذر، ولا ينعقد النَّذر بمحرَّمٍ أو بمضرٍّ، وينعقد مع الكراهة تقييد النَّذر، كقوله: لله عليَّ أن أتصدَّق بكذا من مالي إذا برأ فلان مريضي، أو قال: لله عليَّ أن أعتق مملوكًا إذا تيسَّر لي الحجُّ.

٥ . يَحْرُمُ بتأكُّدٍ على مَنْ لا عُذْرَ له الفطر؛ لقول النَّبيِّ ﷺ[1].

حكمة الصَّوم وأسراره

الصَّوم هو إمساكٌ مخصوصٌ من شخصٍ مخصوص في زمن مخصوصٍ عن أشياء مخصوصة مع النِّيَّةِ.

وفرض صوم رمضان في السَّنة الثَّانيةِ من الهجرة، وكان النَّاس قبلها يصومون من كلِّ شهرٍ ثلاثة أيَّامٍ، وهي الأيَّام البيض؛ الرَّابع عشر والخامس عشر والسَّادس عشر من كلِّ شهرٍ قمريٍّ، وصومها سنَّةٌ.

الصَّوم أمر موكول إلى نفس الصَّائم، لا رقيب عليه إلَّا الله تعالى، وهو سرٌّ بين العبد وربِّه لا يشرف عليه أحدٌ غيره، فإذا ترك الإنسان لَذَّاته مدَّة شهرٍ كاملٍ في السَّنةِ ممتثلًا أمر ربِّه ملاحظًا أنَّه مطَّلع عليه يعلمُ سرَّه وجهرَهُ، خاضعًا لإرشاد دينه، رسخت في نفسه مَلَكَةُ المراقبة، وازداد حياؤه من الله تعالى أن يراه حيثُ نهاه، فلا يهمُّ بمعصيةٍ إلَّا وجد بنفسه زاجرًا عنها، فهو أعظم مهذِّبٍ للأرواح، يمرِّنها على ملازمة الطَّاعة لأوامر الله تعالى.

---

(١) رواه الترمذي، رقم: (٧٢٣)، بلفظ: «مَنْ أفطرَ يومًا مِنْ رَمَضَانَ مِن غيرِ رُخْصَةٍ ولا مَرَضٍ، لَمْ يَقْضِ عنهُ صوم الدَّهرِ كُلِّه وإِنْ صَامَهُ»، وقال: حديث أبي هريرة هذا لا نعرفه إلَّا من هذا الوجه.

روي عن معاذ بن جبل ﷺ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال له ذات يوم: «**أَلَا أدلُّك على أبواب الخير؟ الصَّوم جنَّة، والصَّدقة تُطْفِئُ الخطيئة كماً يُطْفِئُ الماء النَّار**»(١).

ولو لاحظت حالَ الصَّائمين في شهر رمضان المبارك من تحرِّيهم الطَّاعة واجتهادهم فيها وابتعادهم عن المعاصي وإكثارهم لأداء الصَّدقاتِ لعرفت أنَّ الصَّوم من أعظم أسباب الهدايةِ وعرفت الحكمة من قول النَّبيِّ ﷺ: «**الصَّوم جنَّة**»(٢).

الصَّوم يقضي على الصَّائم ترك الأكل والشُّرب من طلوع الفجر إلى غروب الشَّمس، فيحسُّ بألم الجوع والعطش، ويدرك الفرق بين نعمتي الطَّعام والشَّراب ونعمتي الجوع والظَّمأ، فيتذكَّر المعدَم الَّذي لا يجد قوتًا، وليعلم مقدار ما يجده من الآلام فيشفق عليه ويُحْسِن إليه بما فضل عنده من نعمة مولاه، ولولا الصَّوم لَمَا عَرَفَ المُتْرَفُون المتنعِّمون أَلَمَ الجوع، فالصَّوم يولِّدُ في قلوب الصَّائمين الشَّفقة والإحسان والرَّأفة والرَّحمة الدَّاعيتين إلى المحبَّةِ والائتلاف.

الصَّوم يمرِّن النَّفس على الرَّحمة، والرَّحمة تدعو إلى الكرم الممدوح شرعًا وعقلًا وتطهِّر النَّفس من دَنَسِ البخل الَّذي يورث ذمًّا وذلًّا، فالَّذي يؤدِّي فريضة الصَّوم ويلزم آدابه الَّتي منها كفُّ البصر واللِّسان والجوارح عن المحرَّمات يبرهن على كونه ذا نفس زكيَّةٍ عليَّة تقدِّم صالحها وسعادتها الأبديَّتين على ميلها الحيوانيِّ.

الصَّوم الحقيقيُّ يقوِّي النَّفس على الصَّبر والحلم وعلى تجنُّب كلِّ ما

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى، رقم: (١١٣٣٠).
(٢) سبق تخريجه.

من شأنه إثارة الغضب؛ فلذا تجد كثيرًا من عقلاء المسلمين لا يغضبون في رمضانَ ممَّا يغضبون له في غيره، ولا يأتونَ فيه بما يُخالف آداب الصَّوم قولًا وفعلًا، وفي الحديث عن سيِّد البشر عليه الصَّلاة والسَّلام: «**مَنْ لم يَدَعْ قولَ الزُّورِ والعملَ به، فليسَ للهِ حاجةٌ في أن يدَعَ طعامَهُ وشرَابَهُ**»[١]، «**إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابَّه أحدٌ أو شاتمه فليقل: إنِّي صائمٌ -أي: في نفسه- الصِّيامُ جُنَّةٌ، فمن أصبح صائمًا فلا يجهل يومئذٍ، وإن امرؤٌ جهَل عليه فلا يشتمه ولا يسبُّه**»[٢].

وقد توهَّم كثيرٌ ممَّن لا عقلَ لهُ أنَّ الصَّومَ يُثِيرُ الغضبَ، حَتَّى إنَّه إذا أفحش في الكلام، قال السَّامعون لا عَتَبَ عليه، فهو صائم، وهؤلاء لم يفقهوا للصَّوم معنى، ولم يسمعوا قول النَّبيِّ ﷺ: «**فمن أصبح صائمًا فلا يجهل يومئذٍ**»[٣].

كثيرٌ من النَّاس يترقَّبُ الغروب بأشدِّ التَّرقُّبِ حتَّى إذا توارت الشَّمس بالحجاب انقضَّ على الطَّعام والشَّراب انقضاض وحشٍ جائعٍ على فريسته، فيملأ معدته بأنواع الطَّعام والشَّراب، فكأنَّه لم يمسك نهاره إلَّا ليستكثر من الأكل ليلًا، فحينئذٍ يكون عرضةً للأمراض والأوجاع، وبعمله هذا خالف قول الله ﷻ: ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ [البَقَرَة: ١٩٥]، وأيُّ تهلكةٍ أعظم من إدخال الطَّعام على الطَّعام؟! وهذا ممَّا ليس المقصود منه

---

(١) رواه البخاري، رقم: (١٩٠٣).

(٢) رواه البخاري، رقم: (١٨٩٤)، ومسلم، رقم: (١١٥١)، بلفظ: «الصِّيامُ جُنَّةٌ، فلا يَرْفُثْ ولا يَجْهَلْ، وإن امرُؤٌ قاتله أو شاتمه فليَقُلْ: إنِّي صائمٌ مَرَّتين».

(٣) رواه النسائي في السنن الكبرى، رقم: (٣٢٤٥)، بلفظ: «الصِّيام جنَّةٌ من النَّار، فمن أصبح صائمًا فلا يجهل يومئذٍ».

الصَّوم، إنَّما المقصود منه تهذيب النَّفس وترويضها على الطَّاعات وتعويدها السَّخاء وإعدادها للسَّعادتين؛ دنيا وأُخرى.

الحجُّ والعمرة

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران: ٩٦]... إلخ الآية، وبكَّة هي مكَّة، وهي بلد مشهورٌ شرَّفها الله تعالى من قديم الزَّمان بالكعبة المعظَّمة، وهي البيت الحرام الَّذي بناهُ إبراهيم وإسماعيل عليهما الصَّلاة والسَّلام بأمر الرَّبِّ (جل)، بدليل قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، وبعد أن تمَّ بناؤه أمر الله تعالى نبيَّه إبراهيم عليه الصَّلاة والسَّلام أن يدعو النَّاس للحجِّ فأوصى إليه أَنْ: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ [الحج: ٢٧]، وقد أجمع المسلمون عربهم وعجمهم، قاصيهم ودانيهم على أنَّ مكَّة أشرف وأزكى وأعظم بقعة في الأرض عامرها وخاربها.

والحقُّ أنَّ هذا البيت هو أوَّل بيتٍ وضع للنَّاس لعبادة ربِّهم، وقد جعله الله حرمًا آمنًا يلجأ إليه كلُّ مظلومٍ، ويأمن فيه كلُّ خائفٍ، وقد اتَّفق العرب أيَّام جاهليَّتهم على احترامه وتعظيمه لنسبته إلى ربِّ الأرباب، واتَّفق المسلمون بعد محمَّد ﷺ كافَّةً على ذلك، ولن يزال محترمًا معظَّمًا مشرَّفًا ما دام المَلَوَان[1].

(١) الملوان: مثنى الملا، وهما الليل والنهار، انظر: تاج العروس، (٣٩/ ٥٥٤).

وقد فرض الله الحجَّ على الأمَّة الإسلاميَّةِ في السَّنةِ الخامسةِ للهجرة، وهو قصدُ هذا البيت الحرام في العمر مرَّة على كلِّ مسلمٍ عاقلٍ بالغٍ حرٍّ قادرٍ على الزَّاد والرَّحلة وعلى نفقة ذهابِهِ وإيابه ونفقة عياله إلى ما بعد عودته بشرط أن تكونَ هذه النَّفقة فاضلةً عن ديونه وحوائجه الأصليَّة.

حكم الحجِّ والعمرة

يجبان على المسلم الحرِّ المكلَّف المستطيع في العمر مرَّةً، ويؤدَّى الحجُّ بثلاثة أنواع: إفراد وتمتُّع وقران، وأفضلها التَّمتُّع، وهو أن يُحْرِمَ بالعمرة في شهر الحجِّ ويفرغ منها ثمَّ يُحْرِمَ بالحجِّ في عامه، ويليه بالأفضليَّة الإفراد وهو أن يُحْرِم بالحجِّ ثمَّ بالعمرة بعد فراغِهِ منه، والقران وهو أن يُحْرِم بالحجِّ والعمرة معًا أو بالعمرة ثمَّ يدخل الحجَّ عليها قبل الشُّروع في طوافها.

وعلى كلٍّ من المتمتِّع والقارن إذا كان أفقيًّا - وهو من ليس من أهل مكَّةَ - دمُ نسكٍ، وهي شاةٌ مجزئةٌ بالأُضْحِيَّةِ يتصدَّق بلحمها على فقراء الحرم، فإن عَجَزَ عنها صام ثلاثة أيَّامٍ في الحجِّ وسبعةً إذا رَجَعَ إلى أهله.

أركان الحجِّ وواجباته وسننه

أركان الحجِّ خمسةٌ: النِّيَّة والإحرام والوقوف بعرفة والطَّواف والسَّعي بين الصَّفا والمروة.

وواجباته سبعةٌ: إحرام مارٍّ بالميقات منه، والوقوف بعرفةَ إلى الغروب، والمبيت ليلة النَّحر بمزدلفة إلى ما بعد نصفِ اللَّيل، والمبيت بمنى لياليها ليالي التَّشريق، ورمي الجمار مرتَّبًا، والحلق أو التَّقصير، وطواف الوداع.

ومن سننه: التَّلبية، وطواف القدوم، والغسل عند لُبْسِ الإحرامِ،

وركعتان بعد الطَّواف، واستلام الرُّكنِ اليمانيِّ باليد اليمنى، وتقبيل الحجر الأسود ولو بالإشارة.

أركان العمرة وواجباتها وسننها

أركان العمرة ثلاثة: الإحرام والطَّواف والسَّعي.

وواجباتها اثنان وهي: الإحرام من الحلِّ، والحلق أو التَّقصير.

وسننها كسنن الحجِّ.

الميقات

الميقاتُ زمانيٌّ ومكانيٌّ؛ فالزَّمانيُّ أشهر الحَجِّ، وهي: شوَّال وذو القعدة والعشر الأُوَلُ من ذي الحجَّة، والمكانيُّ مواضع يُحرِم فيها أهل الجهات، فميقات أهل المدينة: ذو الحليفة، والشَّام ومصر والمغرب: الجحفة، وأهل اليمن: يلملم، وأهل نجد: قرن، وأهل المشرق: ذات عرق.

فإذا مرَّ بأحد هذه المواقيت قاصدُ مكَّة المكرَّمة سُنَّ له أن يغتسل ويتنظَّف ثمَّ يتطيَّب في بدنه، ويُحْرِمُ في إزارٍ ورداءٍ أبيضين وذلك عقب فراغه من صلاة فريضة أو ركعتينِ، وتسنُّ له عندئذ التَّلبية وهي قوله: لبَّيكَ اللَّهمَّ لبَّيك، [لبيك] لا شريك لك لبَّيك، إنَّ الحمد والنِّعمة لك والملك لا شريكَ لكَ.

محظورات الإحرام والفدية

محظوراتُ الإحرام أو ممنوعاته سبعةٌ وهي: تعمُّدُ لُبْسِ المَخِيط للذَّكر، وتعمُّدُ تغطية الرَّأس للرَّجل ولو بطين، والوجهِ من الأنثى، وإزالةُ الشَّعرِ ونحوِهِ من جميع البدنِ، وشمُّ الطِّيبِ، وقتلُ صيدِ البرِّ المأكول ومثله الدِّلالة عليه، وعقدُ النِّكاح، والوطءُ ودواعِيه.

فمن فعل محظورًا وجبت عليه الفدية، ففي قطع الشَّعرة الواحدة والظُّفر الواحد إطعام مسكين، وفي الاثنتين إطعام مسكينَين، ويخيَّر فيما زاد عليهما وفي تغطية الرَّأس ولُبْس المخيط والتَّطيُّب وشمِّ الطِّيب بين صيام ثلاثة أيَّام أو ذبح شاة أو إطعام ستَّة مساكين، لكلِّ مسكين مدُّ برٍّ أو نصف صاعٍ من غيره ممَّا يُجْزِئُ في الفطرة.

ويخيَّر في جزاء الصَّيد بين ذبح المثل من النَّعم أو تقويمه بمحلِّ تلف الصَّيد، ويشتري بقيمته طعامًا، فيُطْعِم كلَّ مسكين مدَّ برٍّ أو نصف صاعٍ من غيره، أو يصوم عن طعام كلِّ مسكين يومًا، ويجب في الوطء ودواعيه نحر بدنة، فإن لم يجدها صام ثلاثة أيَّام في الحجِّ وسبعة إذا رجع إلى أهله، فمن لبس مخيطًا أو تطيَّب أو غطَّى رأسه ناسيًا أو جاهلًا أو مكرهًا فلا فدية عليه؛ لأنَّه معذور، ولكن متى زالَ عذره وجبَ عليه إزالته في الحال، فإن تماهل فعليه الفدية بخلاف الصَّيد والوطء والتَّقليم والحلق، فإنَّ العمد والسَّهو فيها سواءٌ في وجوب الفدية.

صفة الحجِّ

يسنُّ للمحلِّ بمكَّة الإحرام بالحجِّ في ثامن ذي الحجَّة والمبيت بمنى ليلة عرفة، فإذا طلعت الشَّمس سار إلى عرفة - وكلُّها موقف إلَّا بطن عرنة - وجمع فيها بين الظُّهر والعصر تقديمًا، وأكثر الدُّعاء ممَّا ورد، ووقت الوقوف من فجر عرفة إلى فجر النَّحر، ثمَّ يدفع بعد المغرب إلى مزدلفة بسكينة وخضوع، ويجمع فيها بين العشاءين تأخيرًا ويبيت بها، فإذا صلَّى الصُّبح أتى المشعر الحرام فرقاه ووقف وحمد الله وكبَّر وقرأ قول الله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾ [البَقَرَة: ١٩٨]. . . إلخ الآيتين من سورة البقرة، ويدعو حتَّى يُسفر

ثمَّ يدفع إلى منى فإذا بلغ وادي محسر أسرع المسير وأخذ حصى الجمار سبعين حصاة أكبر من الحِمَّصِ ودون البندق، فيرمي حجرة العقبة وحدها بسبع، يرفع يُمْنَاه حتَّى يُرى بياض إبطه، ويكبِّر مع كلِّ حصاة ثمَّ ينحر ويحلق أو يقصِّر من جميع شعره، والمرأة تأخذ من عقائصها[1] قدرَ أَنْمُلَةٍ، ثمَّ يحلُّ له كلُّ شيء إلَّا الوطء ودواعيه، ثمَّ يفيض إلى مكَّة فيطوف طواف الزِّيارة الَّذي هو ركنٌ من أركان الحجِّ، ثمَّ يسعى بين الصَّفا والمروة، ويسنُّ له أن يشرب من ماء زمزم ثمَّ يرجع إلى منى فيبيت بها ثلاث ليالٍ يرمي الجمار كلَّ يوم من أيَّام التَّشريق بعد الزَّوال وقبل الصَّلاة ثلاث جمرات بإحدى وعشرين حصاة، ثمَّ يرجع إلى مكَّة.

ويجب على من أراد الخروج من مكَّة طواف الوداع، فإذا فَرَغَ منه وقف في المُلْتَزَمِ داعيًا بما شاء من أمر دينه ودنياه.

فائدة: من فاته الوقوف بعرفة فاته الحجُّ وانقلب إحرامه عمرةً، ولا تجزئ عن عمرة الإحرام، وعليه القضاء في العام المقبل، لكن لو صدَّ عن الوقوف فتحلَّل قبل فواته فلا قضاء عليه.

الأضحية

الأضحية سنَّة مؤكَّدة، وقد ورد في الحثِّ عليها أحاديث كثيرة، منها قول النَّبيِّ ﷺ: «**ما عمل ابن آدم يوم النَّحر عملًا أحبَّ إلى الله من إراقةِ دمٍ**»[2]، وقال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ

(١) العقيصة: الخصلة، والعقص: أن تأخذ المرأة كلَّ خصلة من شعرها فتلويها ثمَّ تعقدها حتى يبقى فيها التواء ثم ترسلها، فكلُّ خصلة عقيصة. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٧/ ٥٦).

(٢) رواه ابن ماجه، رقم: (٣١٢٦)، بلفظ: «ما عمل ابن آدم يوم النَّحر عملًا أحبَّ =

مِنكُمْ﴾ [الحَجّ: ٣٧]، وهي للحيِّ والميِّت.

وهي واجبةٌ بالنَّذر وبقوله: هذه أضحية، ويكره تركها لقدر؛ لقول النَّبيِّ ﷺ: «**من وَجَدَ سعةً لأن يضحِّي ولم يضحِّ فلا يقربنَّ مصلَّانا**»(١)، ووقت الذَّبح بعد صلاةِ العيد إلى ثاني أيَّام التَّشريق، وهو اليوم الثَّاني عشر من ذي الحجَّة.

وأفضل الأضاحيِّ الإبلُ فالبقرُ فالغنمُ، ولا يجزئ الأجذع من الضَّأن، وهو ما له ستَّة أشهر، وثنيُّ المعز، وهو ما له سنة، وثنيُّ الإبل، وهو ما له خمس سنين، وثنيُّ البقر وهو ما له سنتان.

فالشَّاة عن واحدةٍ، والبدنة والبقرة عن سبعة، ولا تُجْزِئُ الهزيلة وبيِّنة العور أو العرج، أو المرضى أو ذاهبة الثَّنايا، ولا ما ذهب أكثر أذنها أو قرنها، وتُجْزِئُ الجمَّاء والحامل.

ويسنُّ نحر الإبل قائمةً معقولة يدها اليسرى، وذبح البقر والغنم على جنبها الأيسر موجَّهةً إلى القبلة، ويسمِّي حين يحرِّك يده بالذَّبح ويكبِّر فيقول: بسم الله والله أكبر، اللَّهمَّ هذا منك ولك، ويسنُّ أن يأكل منها ثلثًا، ويهدي ثلثًا، ويتصرَّف بثلث، ويَحْرُمُ عليه أن يعطي الجزَّارَ أجرَتَه منها أو أن يبيعَ شيئًا منها.

ويَحْرُمُ على من يريد الأضحية أخذ شيءٍ من شعره أو ظفره أو بشرته في العشر الأوائل من ذي الحجَّة.

= إلى الله عزَّ وجلَّ من هراقةِ دم».

(١) رواه ابن ماجه، رقم: (٣١٢٣)، بلفظ: «من كان له سعةٌ ولم يضحِّ فلا يقربنَّ مصلَّانا».

العقيقة

العقيقة سنَّة، وهي عن الغلام شاتان، وعن الجارية شاةٌ واحدةٌ، تُذْبَحُ في اليومِ السَّابع لولادته، ويُسَمَّى فيه، فإذا فاتت تُذبح في الرَّابع عشر، فإن فات ففي إحدى وعشرين، ولا تُعْتَبَرُ الأسابيع بعده، وحكمها كحكم الأضحية شرعًا، ولا تجزئ البدنة والبقرة فيها إلَّا كاملةً، وحكمتها شكرُ المنعم ﷻ على ما وَهَبَ، وإطعام الفقيرِ والمسكينِ؛ لأنَّ السُّنَّة فيها أن تُصنعَ وليمةٌ يدعو لها جيرانه الفقراء، وما أعظمها رابطة محبَّة ووداد! والله أعلم.

حكمة مشروعيَّة الحجِّ

شَرَعَ كلُّ دين لتابعيه اجتماعاتٍ في أوقات معيَّنة، وعيَّن لها أمكنةً يَفِدُ إليها متَّبعوه من كلِّ فجٍّ ونهجٍ؛ لِمَا في ذلك من الفوائد العظيمة الَّتي منها تسهيل طرق التَّعارف والتَّآلف والتَّعاون والتَّعاضد وتبادل المنافع من بيع وشراء وتعليم ومراسلات وإرشاد، إلى غير ذلك ممَّا ثمرته الوحيدة تأييد المصالح العامَّة.

لهذه الفوائد ولغيرها سنَّ اللهُ سبحانَهُ وتعالى لنا اجتماعاتٍ خاصَّة وعامَّة كصلاة الجماعةِ والجمعة والعيدين ونحوها، ولَمَّا كانت هذه الاجتماعات قاصرةً على محلَّةٍ واحدةٍ أو بلدٍ واحدٍ فرض الله على الأمَّة الإسلاميَّة اجتماعًا عامًّا يحضره كلُّ قادرٍ مرَّة في عمره، وذلك هو الاجتماع للحجِّ.

هناك يجتمع عشرات الألوف ومئاتها من المسلمين على اختلاف طبقاتهم وأجناسهم ولغاتهم وبلادهم خاشعين خاضعين متحابِّين في الله متجرِّدين عن فاخر اللِّباس والزِّينة والأبهة، هاجرين أوطانهم ابتغاء مرضاة

ربِّهم، لا فرقَ بينَ الغنيِّ والفقير والسُّوقة والأجير والحرِّ والمملوك، فتصفو بهذه الاجتماعات النُّفوس وتتهذَّب الأخلاق وتغرس في القلوب المحبَّة والألفة، ويقف كلٌّ على حال أخيه ويرشدُهُ إلى ما ينفقه في دينه ودنياه.

وقد اختار الله لهذا الاجتماع مكَّة المكرَّمة؛ لِمَا لها من الفضل على سائر البقاع الإسلاميَّة، فهي موطن إسماعيل الذَّبيح الجدِّ الأعلى للعرب، وهي مسقط رأس النَّبيِّ العربيِّ سيِّد الخلق محمَّد عليه أفضل الصَّلاة والتَّسليم، ومنها بُعِثَ إلى النَّاس كافَّةً بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، وفيها أُوذِيَ فنصره اللهُ بأنْ منَّ على الَّذين استضعفوا في الأرض وجعلهم أئمَّةً وجعلهم الوارثين، فنَصَرَهُ اللهُ بعد ذا الإيذاء نصرًا عظيمًا، ومنها هاجرَ إلى المدينة تلك الهجرة الَّتي كانت سببًا في انتشار الدِّين الإسلاميِّ في جميع بقاع الجزيرة العربيَّة، وبفتحها الأعظم دانت للدِّين الإسلاميِّ العربُ والعجمُ، وانقادت له معظم بلاد المعمورة، فهي البلد الأمين وهي أمُّ القرى، شرَّفها الله ﷻ بأشرفِ وأجلِّ بقعةٍ في الأرض أَلَا وهي البيتُ العتيق؛ كعبةُ الإسلامِ بيتُ اللهِ الحرام، ولقد صَدَقَ الشَّاعر المصريُّ حيثُ قال:

علمتْ مكَّةُ أرضًا وسما ... أنَّها خير بلاد المشرقْ

وُلِدَ المختارُ بها وَنَمَا ... فسَمَت بالعرْقيِّ المعرقْ[(١)]

أمَّا الأعمال الَّتي يؤدِّيها الحاجُّ هناك فيجب أن تكون مظهر التَّذلُّلِ والخضوع اقتداءً بما فعله الشَّارع ﷺ لقوله: «**خذوا عنِّي مناسككم**»[(٢)]، المناسك في الشَّرع هي أعمال الحجِّ خاصَّة.

(١) لم أقف عليه ولم أجده فيما توفر لي من مصادر.
(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى، رقم: (٩٥٢٤).

ويجب أن يكون أداء هذه الأعمال برهانًا قويًّا على تمام الامتثال لأوامر الله ﷻ في كلِّ ما أمر به سواء عرفت حكمته أو كان فيها غموض؛ لأنَّ عباد الله المخلصين يعتقدون بإخلاصٍ أنَّ الله ﷻ لم يشرع أمرًا إلَّا وفيه الخير والمصلحة، وأنَّه المحيط علمه بكلِّ شيءٍ، يعلم من ذلك ما لا نعلم.

وقد أخبرنا النَّبيُّ ﷺ أنَّ «**الله يباهي بالحجَّاج يوم عرفة أهل السَّماء، فيقول: انظروا إلى عبادي، أَتَوْنِي شُعْثًا غُبْرًا مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، قد فارقوا لذيذ المعاش وأتوني ما بين راكبٍ وماش، يحنُّون إليَّ حنين الطَّير إلى أوكارها، ويفدون إليَّ من فجاج الأرض وأقطارها، قد ملؤوا البلاد تكبيرًا وتهليلًا، قد اتَّخذوا الإخلاص في عبادتي سبيلًا، اشهدوا يا ملائكتي أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُم**»(١)، فما أعظم هذه المنَّة وما أجمل هذه النِّعمة، انتهى.

إلى هنا تمَّ ما تيسَّر لي جَمعُه وإملاؤه من الدُّروس الفقهيَّة الشَّارحة لحديث النَّبيِّ ﷺ: «**بُنِيَ الإسلامُ على خمسٍ**»(٢) شرحًا وافيًا بعبارةٍ مفهومة مع بيان فوائد ذلك؛ حتَّى تكون الفائدة شاملةً كاملةً، وأرجو الله أن ينفعَ بها قرَّاءها وكتَّابها ومن اطَّلع على مضموناتها، وألَّا يحرمني أجرها.

وفي الختام أصلِّي وأسلِّم على أشرف من بَعَثَهُ اللهُ بالدَّعوة إليه؛ سيِّدِنا ونبيِّنا وشفيعِنَا محمَّدٍ عليه أفضلُ الصَّلاةِ والتَّسليم.

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٣٧٧٤)، بلفظ: «إذا كانَ يومُ عرفَةَ فإنَّ اللهَ تبارَكَ وتعالَى يُبَاهي بهم الملائِكَةَ، فيقولُ: انظروا إلى عبادِي، أَتَوْنِي شُعْثًا غُبْرًا ضَاحِّينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، أُشْهِدُكُم أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُم».

(٢) سبق تخريجه.

جمعية الشيخ عبدالله النوري الخيرية
Sheikh Abdullah Al Nouri Charity Society

الأعمال الكاملة

لفضيلة الشيخ

عبدالله النوري

المتوفى سنة (١٤٠١هـ / ١٩٨١م) رحمه الله تعالى

الرشد

اعتنى به

د. تركي محمد حامد النصر

فكرة وإشراف

د. عبدالمحسن عبدالله الجارالله الخرافي

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وبهِ نَستعين وعليه الاتِّكال

الحمدُ لله وحدَه، والصَّلاة والسَّلام على مَن لا نبيَّ بعدَه، ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا﴾ [الكهف: ١٠]، وبعد:

فهذه مجموعةُ دروسٍ في الوعظِ ألقيتُ بعضَها في مسجد الخالد في الكويت أيَّامَ كنتُ إمامًا فيه، ما بين سنتَيْ (١٣٤٦) وسنة (١٣٥٢هـ)، وألقيتُ الباقي في بعض مساجدِ الكويت أيَّامَ كنتُ مفتِّشًا لأوقافها سنة (١٩٥١، ١٩٥٢م)، ودوَّنتها هنا لتكون مرجعًا لي وقتَ الحاجة، وذكرى عند مَنْ تقع في يده من بعدي، وقد اعتمدتُ فيها شرحَ بعضِ الآياتِ من سورة الإسراء، من آيةِ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] إلى الآية: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا ٣٨﴾ [الإسراء: ٣٨]، واعتمدتُ أيضًا حديثَ أركان الإسلام، ثمَّ أحاديثَ وآياتٍ أُخَرَ في الأخلاق، وذكرتُ بعض ما يتعلَّق بذلك من الشُّؤون الدُّنيويَّة الَّتي لها مِساسٌ في الدِّين ولا تنافيه، وتفيد صاحبَها إذا أُرِيدَ بها وجهُ الله.

وراجعتُ في جمعها الكتبَ المُدْرَجَةَ أدناه:

«القرآن الكريم»، «تفسير القرآن الحكيم» للإمام محمَّد عبده، «مشكاة المصابيح» للخطيب العمريِّ، التَّفسير المسمَّى: «لباب

التَّأويل» للعلَّامة الخازن، التَّفسير المسمَّى: «مدارك التَّنزيل» للعلَّامةِ النَّسفيِّ، «تفسير المراغيِّ» لأحمد مصطفى المراغيِّ، «مختصر التَّبصرة» لابن الجوزيِّ، «رياض الصَّالحين» للنَّوويِّ، «مفتاح الخطابة والوعظ» لمحمَّد أحمد العدويِّ، «الأخلاقُ والواجباتُ» لعبد القادر المغربيِّ، «إصلاح الوعظ الدِّينيِّ» لعبد العزيز الخوليِّ، «تفسير الجلالين» للإمام المَحَلِّيِّ والسُّيوطيِّ، «الجامع الصَّغير» للسُّيوطيِّ، وكتبًا أخرى ربَّما رجعتُ إليها عند الحاجة.

هذا، وأسألُ اللهَ التَّوفيقَ والرَّشادَ إلى إكماله على ما يُرضيه، وأن ينفعَ به مَن قرأه وسَمِعَهُ، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم لا رياءَ فيه ولا سمعة، إنَّه على ما يشاء قدير.

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وصحبه ومَنْ تَبعَ سنَّته.

عبد الله النوري

الإهداء

إليك يا داعيَ الله، يا مَن بلَّغتَ رسالةَ ربِّك، ونصحتَ لأمَّتك، ودعوتَ إلى الله بالحكمةِ والموعظةِ الحسَنَةِ.

إليكَ أيُّها المعلِّمُ الأعظم، والمرشِدُ الأكبرُ، يا مَنْ تلوتَ على الأمِّيِّين كتابَ ربِّهم، وزكَّيتهم بما علَّمتهم.

إليك يا خيرَ النَّاسِ للنَّاسِ، ويا أبرَّ النَّاسِ بالنَّاسِ، ويا أعطفَ النَّاسِ على النَّاسِ.

إليك يا مَن عفوتَ عند المقدرةِ، وشكرت في السَّرَّاءِ، وصبرت على الضَّرَّاء، وصابرتَ عند البأس.

إليك يا خيرَ النَّاسِ خُلُقًا، وأفصحَهم منطقًا، وأكرمَهم مَحْتِدًا(١)، وأعظمَهم تواضعًا.

إليك يا سيِّدي يا رسولَ الله أُقدِّم كتابي هذا، أرجو ثوابَه عند مَن أرسلَكَ رحمةً للعالمين.

صلَّى اللهُ وسلَّم وباركَ عليك، وعلى آلِكَ وأصحابِكَ، والتَّابعين لهم، والسَّائرين على منهج سنَّتِك.

ربَّنا تقبَّل منَّا إنَّك أنتَ السَّميع العليم.

المؤلِّف

---

(١) المَحْتِد: الأصلُ. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٨/ ٥).

شكرٌ وتقديرٌ

الحمد لله وحدَه، والصَّلاة والسَّلام على نبيِّه، وبعدُ:

فقد يسَّر اللهُ لنا أخوين كريمين، كان لأوَّلهما فضلٌ لا يُنكَر؛ فالأخُ الحاجُّ عبد الله العثمان - وهو أشهر مِن أن يُعرَّف - قد أحسنَ فطَبَعَ هذا الكتاب طبعته الأولى، ثمَّ كرَّر الفضل، وتبرَّع بطبع هذه الطَّبعةِ من مالهِ، والأخُ صاحبُ الفضيلةِ الشَّيخُ محمَّد أحمد الفارسيُّ؛ إمامُ وخطيبُ مسجدِ الخليفة بَذَلَ من وقته ومجهوده، فساعدَ بتصحيحِ الطَّبعةِ الأولى تمهيدًا لطبعها مرَّةً ثانيةً.

فشكرًا للأخوينِ الكريمينِ: أخ بذلَ من ماله - أسألُ اللهَ أن يخلفَ عليه ما أنفق - في سبيلِ الأمر بالمعروفِ والنَّصيحة لله، وأخ بذلَ من وقته ومجهوده، أسألُ اللهَ أن يكتبَه فيمَن جاهد فيه فاهتدى لسبيله.

عبد الله النوري

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقدِّمةٌ

بعث اللهُ محمَّدًا ﷺ فردًا دون جيوشٍ مجنَّدةٍ معه، ولا عُدَدٍ منظَّمةٍ تحميهِ، ولا قوَّةٍ تسانده، وإنَّما كانت معه نفسٌ طاهرةٌ، وعزيمةٌ ثابتةٌ، وإيمانٌ راسخٌ، ودعوةٌ إلى اللهِ بالمعروفِ، وقامَ هذا النَّبيُّ الكريمُ بالدَّعوة إلى الخيرِ الَّتي لا حولَ ولا قوَّةَ له إلَّا بها، ينطقُها قلبُه قبل أن ينطقَها لسانُه، فاستجاب لهَ نفرٌ قليلٌ صَفَتْ نِيَّاتُهم، وميَّزوا الخيرَ من الشرِّ، وعَرَفُوا الحقَّ الَّذي دعاهم إليه، فأجابوه وأعانوه، ودعوا إلى اللهِ والحقِّ كما دعا، وأخلصوا في الدَّعوة إليه، فكان اللهُ معهم، ومكَّن لهم في الأرضِ كما وعدهم، وجعلهم أئمَّةً، وجعلهم الوارثين، وأبقى ذكرهم في الخالدين.

ويعتقد كثيرٌ من النَّاس أنَّ الدِّينَ الإسلاميَّ ما قام إلَّا بالسَّيف، وهذا محضُ كذبٍ وافتراءٍ على الله ودينه، والحقُّ أنَّ الدِّينَ الإسلاميَّ ما قام إلَّا بالدَّعوةِ والإرشادِ، ولم يُرسِلِ اللهُ محمَّدًا ﷺ سَفَّاكًا، وإنَّما بعثه رحمةً للعالمين وبشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، وأمره أن يدعوَ إليه بالحكمةِ والموعظةِ الحسنة، وأن يجادلَ بالَّتي هي أحسن، وأمَّا القتال؛ فقد شُرِعَ لحمايةِ الدَّعوة، وتمهيدِ السَّبيل لها، ودفْعِ شرِّ المعرضين عنها، ولهذا كان من شروطِ الدَّعوة

أنْ يُرسِلَ البعثَ أوَّلًا، ويدعوَ النَّاسَ إلى الله ثلاثةَ أيَّام؛ فإن وجدَ منهم معارضةً أو مقاومةً شدَّد معهم ودافع عن الدَّعوة بقتالهم، وإن لانُوا دعاهم بالحكمةِ والموعظةِ الحسنة.

وقد أوجبَ اللهُ تعالى على طائفةٍ من المسلمين أن تقومَ بالدَّعوة إليه؛ حفظًا للدِّين من أهواءِ المبتدعين المفسدين، فقال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وعابَ أولئك الَّذين أهملوا أمرَ هذا الرُّكن الحافظ للدِّين، والجامع شَمْلَ أتباعه على الصِّراط المستقيم، بقوله: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: ٧٩].

ثمَّ بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ إهمالَ الدَّعوةِ يُسبِّب إماتةَ الغَيْرَةِ الدِّينيَّة في النُّفوس، وكفى بها عِلَّةً في تشتيت الشَّمْلِ تدعو الإنسانَ إلى الاستعانةِ بعدوِّه في الدِّين والجنسيَّة؛ فقال تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [المائدة: ٨٠]، بينما نرى أنَّ الدَّعوةَ إلى الله في الوقتِ الحاضرِ قد ضَعُفَ شأنُها، وذلك لأسبابٍ عدَّةٍ:

أوَّلُها: أنَّ القلوبَ خلَتْ من احترام الدِّين، فلم يَعُد له سلطانٌ على النُّفوس، ولذلك دواعٍ، منها:

أ- اقتصارُ الوُعَّاظ في وعظهم على العباداتِ والأخلاقِ، وإهمالُهم ما يتَّصل بعظمة الدِّين الإسلاميِّ في نواحيه الحكوميَّةِ

والسِّياسيَّةِ والنِّظاميَّةِ والدِّفاعيَّةِ والتَّربويَّة.

ب- دعوةُ كثيرٍ من الوُعَّاظ النَّاسَ إلى إهمالِ نعيمِ الحياة، والتَّخلِّي عن الدُّنيا، وحَبْسِ النَّفس للعبادات، وهذا خلاف ما جاء به الدِّينُ الإسلاميُّ الَّذي هو دينٌ يُبيح ما أحلَّ الله من الدُّنيا، بينما جبل الله النُّفوس على حبِّ الحياة والمالِ، فقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾ [الأعراف: ٣٢].

ج- انتشارُ المذهبِ القائلِ بفصل الدِّين عن الحياة، بينما الدِّينُ الإسلاميُّ قد مَزَجَ الحياةَ بالدِّين مزجًا لا يستطيع أحدٌ فصلَه، فجعل كلَّ شأنِ المسلمِ دِينًا؛ فالمسلمُ في عبادةٍ أينما كان؛ في مسجده ومتجره وبيته ومدرسته ومراحه وميدانه؛ إذا ابتغى بعمله ذلك وجهَ الله، وطبَّقَ فيهِ أوامرَه.

د- إهمالُ الدُّروسِ الدِّينيَّةِ في المدارس، واقتصارُ التَّعليم فيها على دروسٍ مُقتَضَبةٍ في العبادات لا تُطبَّق أبدًا.

ثانيها: أَنَّ أكثرَ الآمرين بالمعروفِ والنَّاهينَ عن المنكرِ لا يَأتَمِرون بما يَأمُرون، ولا يَنْتَهون عمَّا يَنْهَون، ومثلُ هؤلاء لا أثرَ لقولهم في النُّفوس؛ إذ إنَّ الكلامَ إذا خرج من القلب وصلَ إلى قلبِ السَّامع، بينما إذا خرج من اللِّسان لا يتعدَّى الآذان.

ثالثُها: تشديدُ بعضِ الآمرينَ بالمعروف والنَّاهينَ عن المنكرِ في دعوتهم، وذلك ممَّا يُنَفِّر السَّامعَ، والأمرُ بالمعروف يجب أن يكون بأسلوبٍ حَسَنٍ ليِّنٍ، والله تعالى أمرَ نبيَّه عليه الصَّلاة والسَّلام أن

يدعوَ النَّاسَ إلى ربِّهم بالحكمةِ والموعظةِ الحسَنةِ، وأن يجادلهم بالَّتي هي أحسن، وقال له: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٩]، ومن أمثلةِ دعوتِه ﷺ أنَّه دخل المسجدَ ذات يومٍ، والنَّاسُ بين مصلٍّ وقارئٍ، فقال: «**أَيُّها النَّاسُ! كُلُّكُم يُناجي رَبَّه، فلا يَجْهَرْ قارِيكُمْ على مُصَلِّيكم**»(١)؛ فلم يُعِب جهرَ القارئ، وإنَّما حبَّذ عملَه كما حبَّذ عمل المصلِّي، وأمر القارئَ ألَّا يُشوِّش عليه.

إذن: إنَّ للدَّعوةِ إلى الله أهميَّةً عُظمى في الدِّين الإسلاميِّ؛ إذ بها عَظُمَ شأنُه، وانتشرَ سلطانُه في قُلوبِ مئاتِ الملايين من البشر، وبإهمالها دُكَّ(٢) ذلك البناء الشَّامخ، وأصبح أنقاضًا مفكَّكةً، وصارت أجزاؤه نَهْبًا مقسَّمًا بين الكَفَرةِ الأعداء، واشتغل أهلُه بجمع الحُطام، وغَفِلُوا عمَّا يمَسُّ كرامةَ الدِّين في حاله ومآله، فلا يهتمُّ أحدُهم إلَّا للسَّاعة الَّتي هو فيها، ولا يَلْفِتُ نظرَه إلَّا المصلحةُ الخاصَّة الَّتي يَدُرُّ فيضُها عليه، ولو كان في ذلك هلاكُ أخيهِ المسلم، أو ضياعُ دينه، أو تشتيتُ شملِه، مستدلِّين على ذلك بقول الله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [المَائدة: ١٠٥]، وغَفِلُوا عن قولِ الله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ

---

(١) رواه النسائي، رقم: (٨٠٩٢) بلفظ: «ألا إن كلكم يُناجي ربَّه فلا يُؤذين بعضكم بعضًا، ولا يرفعن بعضكم على بعض في القراءة»، أو قال: «في الصلاة».

(٢) الدَّكُّ: هدم الجبل والحائط. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٢/ ١٤٠٤).

فَعَلُوهُۚ﴾ [المَائدة: ٧٨-٧٩]، وإنِّي أرجو وأتفاءل - متيمِّنًا بقول النَّبيِّ ﷺ: «**تَفَاءَلُوا بالخَيْرِ تَجِدُوه**»(١) - أن يُعيدَ اللهُ للإسلام مجدَه، وأن تُبعَثَ الأمَّةُ الإسلاميَّةُ من حياةٍ هي أشبهُ بالموتِ إلى حياةِ الجدِّ والعملِ والقوَّةِ في الدَّعوةِ، وإنِّي أرى ملوكَ المسلمين قد وَحَّدُوا رايتَهم على إمامٍ عادلٍ، وخليفةٍ عاملٍ، وقام دعاتُهم في البلادِ البعيدةِ بدعوةِ النَّاس إلى اللهِ ودينه.

كما دعا علماءُ الإسلام بإخلاصٍ عوامَّ المسلمينَ إلى العملِ بدينهم؛ إذ كانوا يشرحون لهم ما يجهلون من حلالٍ وحرامٍ في دينهم، وما وجب عليهم من عباداتٍ، وما قُنِّن(٢) لهم من نظامٍ، وما حَسُنَ لهم من أَخلاقٍ، واعتنتْ صحفُ كتَّابِ المسلمين ونشراتُهم بالشُّؤونِ الإسلاميَّة، وقضتْ على مفاسدَ، غايةُ أهلِها القضاءُ على الفضيلة، وقد دُوِّن درسُ الدِّين في مناهجِ المدارسِ بأوضح معانيه؛ عبادةً، ونظامًا، وجهادًا، وحكمًا.

وشملتِ الدَّعوةُ الأوساطَ الإسلاميَّة، فالأبُ يربِّي أولادَه تربيةً إسلاميَّةً، والصَّديقُ يدعو أصدقاءَه بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ، والتَّاجرُ في متجره، والعاملُ في معمله، والمعلِّمُ في مدرسته، والرَّجلَ في طريقه جميعهُم يدعون إلى الله ويمتثلون أوامرَه في مهنهم

(١) رواه البخاري، رقم: (٥٧٥٦) بلفظ: «لا عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل الصالح: الكلمة الحسنة»، ومسلم، رقم: (٢٢٢٤) بلفظ: «لا عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل: الكلمة الحسنة، الكلمة الطيبة»

(٢) قنَّن المُشرِّع: وضع القوانين ودوَّنها. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، لأحمد مختار عمر (٣/ ١٨٦٤).

وحياتهم، فعندما تُطبَّق الدَّعوةُ في حياتِنا وسلوكنا يَنْعَمُ الإسلامُ وأهلُه، ويعودُ كما بدأ، فطوبى للمسلمين يومئذٍ، وما ذلك على الله ببعيد.

١- التَّوحيد والإخلاص

قال الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

نادتِ الأديانُ كلُّها بتوحيدِ الله، وإخلاصِ العبادةِ له، وبهذا أوحى اللهُ إلى الأنبياءِ من لَدُنِ آدمَ إلى خاتَم النَّبيِّين بقوله: ﴿وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النِّساء: ٣٦]، وقوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البيِّنة: ٥]، وقوله: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النِّساء: ١٦٣]، وما سوى التَّوحيدِ والإخلاصِ شِركٌ.

وقد قسَّم العلماءُ الشِّركَ إلى أنواعٍ:

النَّوعُ الأوَّل - وهو أعظمُها -: أن تجعلَ لله نِدًّا وهو الَّذي خَلَقَكَ، فتُشرِكَ معه بالعبادةِ أحدًا من خلقِه؛ كبشرٍ أو جمادٍ أو حيوانٍ أو نباتٍ، فتسألُه ما لا يُجيب عليه إلَّا الله؛ كشفاءٍ من مرضٍ، أو تفريجِ أزمةٍ، وقد روى لنا التَّاريخُ أنَّ بعضَ الأمم عَبَدَ التَّماثيلَ، وبعضَهم عبدَ الأنهارَ، وبعضَهم عبدَ الحيوانَ أو النُّجومَ أو الشَّمسَ، ولا تزال عبادةُ الأوثانِ والحيوانِ موجودةً في كثيرٍ من الأمم؛ كاليابان والصِّين والهند وأوْساطِ إفريقيا، والله سبحانه مُنزَّهٌ عن ذلك؛ إذ يقول: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، ويقول: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢٢].

النَّوع الثَّاني: أنْ تطيعَ مخلوقًا في معصيةِ الخالق ﷻ، وهذه كبيرةٌ من الكبائرِ تُحبِطُ العملَ؛ فالله بيده روحُ الإنسانِ وقلبُه ورزقُه، يصرفها كيف يشاء، وهو أَوْلَى بالطَّاعةِ من غيره، والعاقلُ لا يرضى أن يُغضِبَ الملكَ الجليلَ لِيُرضِي العبدَ الذَّليل الَّذي لا حولَ له ولا قوَّة، مع أنَّه يعلمُ أنَّ يدَ اللهِ فوقَ أيديهم، وحكمَه فوق حكمهم، وعدلَه نافذٌ فيهم، وقد روى الطَّبرانيُّ عن عائشةَ بنتِ الصِّدِّيق رضي الله عنهما أنَّ معاويةَ كتبَ إليها يطلبُ نصيحتَها، فكتبتْ إليه تقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**مَنْ أسْخَطَ اللهَ في رِضَا النَّاس، سَخِطَ اللهُ عليه، وأَسْخَطَ عليه مَنْ أَرضاه في سَخَطِه، ومَن أَرْضى اللهَ في سَخَطِ النَّاسِ، رضي الله عنه وأرضَى عنه مَنْ أسخطَهُ في رِضَاه، حتَّى يُزيِّنَهُ ويُزيِّنَ قولَهُ وعملَه في عينه**»(١).

ونحن نرى في هذا الزَّمنِ كثيرًا من النَّاس يتقرَّبون إلى الرُّؤساءِ والحكَّامِ وذوي المكانةِ والنُّفوذ ومَن وُلُّوا أمرَ العبادِ بفعل ما يُرضيهم - حتَّى وإنْ كان في ذلك ضررٌ على دينهم - طمعًا في مركزٍ أو وظيفةٍ أو جاهٍ، والحقُّ أنهَّم أَضرُّوا أنفسَهم، وأضرُّوا صاحبَهم، وخالفُوا أمرَ ربِّهم؛ إذ يقولُ: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المَائدة: ٤٤].

ولا بدَّ أن يُعجِّلَ اللهُ ﷻ العقوبةَ لهؤلاء، ويحرمَهم ممَّا رَغِبُوا، ويمنعَهم ممَّا تمنَّوا، ويُغضِبَ عليهم مَنْ أرضَوْه في سَخَطِه: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [المَائدة: ٨٠]، وكان الأَوْلَى بهم - لو كانوا مؤمنين - أنْ يشكروا اللهَ

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم: (١١٦٩٦).

على نعمةٍ أَوْلَاهُم إيَّاها، فيترقَّبوا الفرصَ لإلقاءِ كلمةٍ تنفعُ في ردِّ مظلمةٍ، أو إعطاءِ حقٍّ لأهله، أو دفْعِ شرٍّ عن مظلوم، أو بذْلِ نفعٍ عامٍّ، أو تأديبِ جانٍ، أو تأمينِ طريقٍ، أو تنبيهٍ من غفلةٍ، إلى غيرِ ذلك من المصالح الَّتي تعودُ على الرَّاعي أو الرَّعيَّة بالنَّفع، وتفيدُ الوطنَ الإسلاميَّ وأهلَه.

النَّوعُ الثَّالث: أن يجلِسَ الرَّجلُ مع أصدقائه وخُلَّانِه، فإذا أفاضوا في غِيبَةٍ أو نميمةٍ أو استهزاءٍ بأحدٍ، أو دعوا إلى لعبِ حرامٍ، أو إتيانِ منكرٍ أفاضَ معهُم وشاركهم، وإنْ لم يشاركهم وافقَهم خوفَ أن يتكدَّرَ ذلك الدَّاعي أو أحدُ مدعويه، فهذا الرَّجلُ فَضَّلَ رِضا صديقِه وصاحبِه على غضب ربِّه، وأطلقَ على هذا الخُلُقِ الذَّميم اسمًا لطيفًا هو المجاملة، وما المجاملةُ إلَّا أن تُظهِرَ لصاحبك ما تُضمِرُه له من احترامٍ حقيقيٍّ قدر مركزه في المجتمع، وإنَّما الَّذي فعله هو النِّفاق بعينه ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحجّ: ١١].

النَّوع الرَّابع: أن يستعينَ على قضاءِ حاجته أو نيلِ مرادِه بِوَليٍّ أو نبيٍّ أو مَلَكٍ أو قبرٍ لرجل صالح، أو ما شابَهَ ذلك، مع أنَّ هذا النَّبيَّ أو الوليَّ مشغولٌ بنفسه، محتاجٌ إلى رحمةِ ربِّه، مفتقِرٌ إلى فضلِه، فكيف يَلتفِتُ إلى معونة غيره وهو رهينُ عملِه! ويقول الله على لسان محمَّدٍ ﷺ الَّذي ختمَ اللهُ به النَّبيِّين، وفضَّله على الأوَّلين والآخرين: ﴿أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [فُصّلَت: ٦]، ويقول النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام: «**إنِّي عبدُ اللهِ ورسولُه**»[1]، وقد ثبتَ أنَّه كان يستغفر اللهَ كثيرًا،

(١) رواه البخاري، رقم: (٣٠٦٢)، ومسلم، رقم: (١١١).

ويقول: «اسْتَغفِرُوا رَبَّكُم إِنِّي أستغفرُ اللهَ وأتوبُ إليه في اليوم مِئَةَ مرةٍ»[(١)]، رواه البغويُّ، ولا يقدر على دفع الشَّرِّ وجَلْبِ الخير إلَّا اللهُ وحدَه، فبيده الخير، وهو على كلِّ شيءٍ قدير.

النَّوع الخامس: الرِّياءُ، وقد سمَّاه نبيُّنا محمَّدٌ ﷺ الشِّركَ الأصغرَ، وهو أن يُظهِرَ للنَّاسِ صلاحَ أعماله؛ ليُطْرَى[(٢)] فيها، فيُطِيلَ ركوعَه وسجودَه؛ ليقولَ النَّاسُ عنه: إنَّه عابدٌ، ويعطي الصَّدقاتِ بمَرْاى من النَّاسِ؛ ليُقَال: إنَّه كريم، والله ﷻ لم يأمرنا بذلك، وإنَّما أَمرنا أن نعبدَه مُخلِصِينَ له الدِّين حنفاء، ومدح اللهُ ﷻ قومًا يُطعِمون الطَّعامَ على حبِّه مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا بقوله على لسانهم: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ [الإنسان: ٩]، وذمَّ آخرين بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ۝٣٨﴾ [النِّساء: ٣٨].

وبعضهم يَمُنُّ بالصَّدقةِ والإنفاقِ، ويرفع عَقِيرتَه[(٣)] بالمجالس بين أصدقائِه وأصحابِه، ويقول: كَسَوْتُ فلانًا، وأطعمتُ فلانًا وساعدته! وهذا عيبٌ في الدِّين ذَمَّه الباري ﷻ، ونهى عبادَه عنه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ

(١) رواه البخاري، رقم: (٦٣٠٧) بلفظ: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»، والبغوي في شرح السنة، رقم: (١٢٨٦).

(٢) الإطراء: مجاوزة الحد في المدح والكذب فيه. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٨/ ٤٨٨).

(٣) العَقيرة: قيل لكلِّ مَن رفع صوتَه: رفعَ عقيرته. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٣/ ١٠٣).

رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ﴾ [البَقَرة: ٢٦٤]، وروى البخاريُّ ومسلم عن جندب بنِ عبدِ الله، قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «مَنْ سَمَّعَ، سَمَّعَ اللهُ به، ومن يُراءِ يُراءِ اللهُ بِهِ»(١).

وروى مسلمٌ عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «إنَّ أوَّلَ النَّاس يُقضَى يومَ القيامة عليه رجلٌ استُشهد، فأُتِي به، فعرَّفه نعمتَه فعَرَفَها، قال: فما عمِلْتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فِيكَ حتَّى استُشهِدتُ، قالَ: كذبْتَ، ولكنَّك قاتلتَ لأَنْ يُقال: هو جريءٌ، فقد قيل، ثُمَّ أُمِرَ به، فسُحِب على وجهه حتَّى أُلقِي في النَّار، ورجُلٌ تعلَّم العلمَ وعلَّمَه، وقرَأَ القرآنَ، فأُتي به، فعرَّفه نعمَه فعَرَفَها، قال: فما عمِلْتَ فيها؟ قال: تعلَّمتُ العِلمَ وعلَّمْتُه، وقرأتُ فيك القرآنَ، قال: كذبْتَ، ولكنَّك تعلَّمتَ ليُقالَ: عالمٌ، وقرأتَ القرآنَ ليُقَال: قارئ، فقد قيلَ، ثمَّ أُمِرَ به، فسُحب على وجهه حتَّى أُلقِي في النَّار، ورجلٌ وَسَّعَ اللهُ عليه، وأعطاه من أصنافِ المالِ، فأُتي به، فعرَّفه نعمَه فعَرَفَها، قال: فما عملْتَ فيها؟ قال: ما تركتُ من سبيلٍ تحبُّ أن يُنفَق فيها إلَّا أنفقتُ فيها لكَ، قال: كذبتَ، ولكنَّك فعلتَ ليقالَ: هو جوادٌ، فقد قيل، ثمَّ أُمِر به، فسُحِبَ على وجهه حتَّى أُلقِي في النَّار»(٢)، واللهُ ﷻ يقول: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٨٨].

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٦٤٩٩)، ومسلم، رقم: (٢٩٨٦).
(٢) رواه مسلم، رقم: (١٩٠٥).

النَّوع السَّادس- وهو أشرُّها -: النِّفاقُ؛ أَن تُبطِنَ الكفرَ وتُظهِر الإيمان، أو تُبطِن المكرَ وتُظهِرَ الإخلاصَ، ولا يخفى ما في ذلك من ضررٍ عظيمٍ على الفردِ والمجتمعِ، وفي التَّاريخِ الإسلاميِّ كثيرٌ من شنائعِ المنافقين، ولن ننسى حالَ المسلمين في أوروبة عندما كان الفتح جاريًا في فرنسا، ولا اختلالَ صفوفِهم في الصِّين عندما كان الفتح ماشيًا إلى الشَّرق، فلا تخلو أمَّةٌ ولن تخلو من شرورِ المنافقين، وقد حذَّر الله تعالى في كتابه العزيز منهم، وذمَّهم في كثيرٍ من آياته، فقال: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة: ١٤]، وقال أيضًا: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ [النِّساء: ١٠٨]، وكان المنافقون في بعض غزواتِ النَّبيِّ ﷺ إذا رأوا أقلَّ خللٍ أو ضُعْفٍ في صفوفِ المسلمين أظهروا فرحَهم، ونادَوْا بتخذيل مَن صابرَ في الجهاد، وإذا أصاب المسلمونَ خيرًا، قالوا: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ [النِّساء: ١٤١]؟!

فتجنَّبْ - يا أخي - الشِّركَ كلَّه تكنْ موحِّدًا، وتجنَّبِ الرِّياءَ والنِّفاقَ في أعمالك تكنْ مخلصًا، وابتغِ بعملِك كلِّه وجهَ الله، فإنَّ الدِّينَ الإسلاميَّ دينُ عبادةٍ، والمسلمُ يمكنه أنْ يعبدَ اللهَ في جميع مناحي حياتِه إذا أخلص عملَه لوجه الله؛ فيستطيعُ أنْ يعبدَ الله في مسجده وصلاته، وسوقه وبيعه وشرائه، وبيته ومعاشرته لأهله وتربيته لأولاده وإنفاقه على عياله، ومجتمعه ومعاشرته لأصدقائه ومواطنيه، وقيامه وقعوده، ونومه وأكله وشربه، فإنَّ كلَّ ذلك من الدِّين إذا أراد الإنسانُ وجهَ ربِّه، فقد روى البخاريُّ عن سعدِ بن أبي وقَّاص رضي الله عنه

أنَّ رسولَ الله عليه الصَّلاة والسَّلام قال له: «**إنَّك لن تُنفِقَ نفقةً تبتغي بها وجهَ اللهِ إلَّا أُجِرْتَ عليها، حتَّى ما تجعلُ في فيِّ امرأتِكَ**»(١)، كما قال عليه السَّلام أيضًا عندما رأى الشَّابَّ الَّذي خرج مبكِّرًا يحتطب: «**إنَّه إنْ كانَ خرجَ يسعى على نفسه يُعِفُّها فهو في سبيل الله، وإن كانَ خرجَ يسعى على أَبويْنِ شيخيْنِ كبيريْنِ فهو في سبيل الله، وإن كان خرجَ يسعى على ولدِهِ صِغَارًا فهو في سبيل الله، وإن كان خرجَ يسعى رياءً ومُفاخرةً فهو في سبيل الشَّيطان**»(٢).

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٥٦).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم: (٢٨٢).

٢- بِرُّ الوالدين وعقوقهما

قال الله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٤].

إنَّ أعظمَ نِعَمِ اللهِ على عبادِه نعمةُ الوالدين؛ فهما السَّبب في وجودِ الإنسان، ولهما على الولدِ حقُّ التَّربية، فقد أشفقا عليه، وحفظاه من المهالك في صِغَرِه، وأنفقا عليه حتَّى اشتدَّ ساعدُه، وسَهِرَا لراحته، وفَرِحَا لفرحه، وحَزِنَا لمرضه، وأَنِسَا بصحَّتِه، وضَجِرَا لبكائه، وضَحِكَا لضحكه؛ فلهذا أَمَر الله ببرِّهما، وقرنَ الإحسانَ إليهما بطاعته، فقال: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النِّساء: ٣٦]، وقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ﴾ [الإسراء: ٢٣]، كما نهانا عن عقوقهما، وأذيَّتِهما، والضَّجرِ منهما، وألَّا نقولَ لهما: أفٍّ، فإنْ خاطبَك أحدُهُما أو كلاهُما خطابًا لا يعجبك فاستمع إليه، ولا تُظهِرِ الضَّجرَ منه، ولا تطلب منهما السُّكوت.

روى الحاكم عن أبي بكرةَ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنَّه قال: «**كُلُّ الذُّنوبِ يُؤخِّرُ اللهُ تعالى ما شاء منها إلى يومِ القيامة، إلَّا عقوقَ**

الوالدين، فإنَّ اللهَ يعجِّلُه لصاحبِه في الحياة الدُّنيا قبلَ المَمات»[١]؛ ولهذا نرى أنَّ من أسوأ آثار عقوق الوالدين أنَّ العاقَّ والديه أو أحدَهما يَعُقُّه ولدُهُ، فلا يَبَرُّه، ولا يُجِلُّه، ولا يطيعُ له أمرًا، وهذه تَجْرِبةٌ معهودةٌ في النَّاس، مشهورةٌ فيهم، ولطالما مُثِّلَتْ أدوارُها بمرأًى منهم.

وروى الطَّبرانيُّ أيضًا عن عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ قوله: «**بِرُّوا آباءَكم تبَرَّكُم أَبناؤُكُم، وعِفُّوا تَعِفُّ نساؤُكم**»[٢]، وأفادنا ﷺ بأنَّ عقوقَ الوالدين لا ينفع معه عملٌ، وأنَّ الويلَ كلَّ الويلِ لرجلٍ مات والداه أو أحدُ والديه وهو غاضبٌ عليه، أو مات هو وكان والداه أو أحدُهما غاضبًا عليه، فقد روى مسلمٌ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**رَغِم أَنْفُهُ، ثمَّ رَغِمَ أنفُه، ثمَّ رَغِم أنفُه**»، **قيل: مَنْ يا رسول الله؟ قال: «مَنْ أدركَ والديه عندَ الكِبَرِ أحدَهُما أو كِلَيْهما، ثُمَّ لم يدخلِ الجنَّةَ»**[٣]، وروى أحمد عن عمرِو بن مُرَّة الجهنيِّ، قال: جاء رجلٌ إلى النَّبيِّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله! شهدتُ أَنْ لا إله إلَّا الله، وأنَّك رسولُ الله، وصلَّيتُ الخمسَ، وأدَّيتُ زكاةَ مالي، وصُمْتُ رمضان: ما لي؟ فقال النَّبيُّ ﷺ: «**مَنْ ماتَ على هذا، كان مع النَّبِيِّين والصِّدِّيقين والشُّهداءِ يومَ القيامة هكذا - ونصَبَ إِصْبَعيْهِ - ما لم يَعُقَّ والديه**»[٤].

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم: (٧٢٦٣).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم: (١٠٠٢).

(٣) رواه مسلم، رقم: (٢٥٥١).

(٤) رواه أحمد، رقم: (٢٤٠٠٩/ ٨١).

فواجبٌ على المسلم أن يُداري والديه فيَبَرَّهما، ويقومَ بحقوقهما كما قاما بحقِّه في طفولته يومَ لا حولَ له ولا قوَّة، وعندما كان محتاجًا إلى مَنْ يُطعمه وينظِّفه، ويُقِيمُه ويُقعِدُه، قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ [لقمان: ١٤-١٥]، وواجبٌ عليه أن يُطيعَ ربَّه في والديه، ويؤدِّي حقوقَهما عليه، وإن كانا على غير دينه، فلا يطيعهما في معصيةِ الله بل يصاحبهما في الدُّنيا بالمعروف، ويتَّبع سبيلَ مَن أناب إلى الله.

وروى البخاريُّ ومسلمٌ عن أسماء بنت الصِّدِّيق، قالت: قَدِمَتْ عَلَيَّ أمِّي وهي مُشركةٌ في عهد قريش، فقلت: يا رسولَ الله! إنَّ أمِّي قَدِمَتْ عليَّ وهي راغبةٌ، أَفَأَصِلُها(١)؟ قال: «**نعم، صِلِيها**»(٢).

وكثيرٌ من الرِّجال إذا تقدَّم به العمرُ أصبح سهلًا سَمِحًا يستبشر بمن يزوره، ويضحك لمَن يُحدِّثه، ويأنَسُ به، بخلاف النِّساء؛ فإنَّ المرأةَ إذا تقدَّمت بها السِّنُّ، ساءتْ أخلاقُها، ومالت إلى التَّألُّمُ والضَّجر والعزلة، وإذا خُولِف أمرُها، حَسِبَتْ ذلك اعتداءً على حقِّها، وربَّما رأته عداوةً لها ممَّن يخدمها؛ لهذا خصَّ الدِّينُ الإسلاميُّ الأمَّهاتِ بالذِّكر؛ برًّا بهنَّ، وعنايةً فيهنَّ، ورعايةً لحقوقهنَّ؛ لكونهنَّ أضعفَ من الرِّجال، فالله تعالى وإن أمرَ ببرِّ

(١) انظر: الجامع الصحيح للسنن والمسانيد، لعبد الجبار (٢١/ ٤٦٠).
(٢) رواه البخاري، رقم: (٣١٨٣)، ومسلم، رقم: (١٠٠٣).

الوالدين معًا إلَّا أنَّه جعل للأمِّ من هذا البرِّ الحظَّ الأوفر، فقد روى الإمام أحمدُ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**أمُّك ثمَّ أمُّك ثمَّ أمُّك، ثمَّ أبوك، ثمَّ الأقربُ فالأقربُ**»(١).

ومن مكارمِ الخُلُق في الإسلام، والبرِّ بالوالدين أن يصلَ الولدُ أصدقاءَ أبيه؛ فيزورهم ويطلبُ زيارتهم، ويتفقَّدهم بِرًّا بأبيه، وإكرامًا له؛ لأنَّه بزيارتهم يذكره عندهم، أو يذكرونه بالخير، فيترحَّمون عليه، وتكون هذه الزِّيارة سببًا لاستنزال هذه الرَّحمة.

ومن البِرِّ بهما؛ التَّرحُّمُ عليهما والدُّعاءُ لهما، فقد روى أبو داود عن أبي أُسَيْدٍ، قال: بينما نحن جلوسٌ عند رسولِ الله ﷺ إذ جاءَه رجلٌ من بني سلمة، فقال: يا رسول الله! هل بقي من برِّ أبوَيَّ شيءٌ أَبَرُّهما به بعد موتهما؟ قال: «**نعم، الصَّلاةُ عليهما، والاستغفارُ لهما، وإنفاذُ عهدهما من بعدِهما، وصلةُ الرَّحِم الَّتي لا تُوصل إلَّا بهما، وإكرامُ صديقِهما**»(٢).

ومن الوفاء بعهدهما: أداءُ دَيْنِهما، واحترامُ عقودهما، وإمضاءُ بيعهما وإيجارهما، وتحقيقُ أمانيِّهما، وصلةُ الرَّحِم الَّتي لا تُوصَل إلَّا بهما، وبِرُّ أقاربهما.

ومن عقوقِ الوالدين ما نراهُ ونسمعُه من أبناء الطُّرق الَّذين ساءتْ أخلاقُهم مع النَّاس، فأساء النَّاسُ إلى والديهم، فتراهم يُسيئون

---

(١) رواه مسلم، رقم: (٢٥٤٨)، وأحمد، رقم: (٢٠٠٤٨).

(٢) رواه أبو داود، رقم: (٥١٤٢).

الخلُقَ مع المارَّة، فيشاتمُونهم، ويسبُّونهم فيسبُّون آباءَهم وأمَّهاتِهم، وقد أشار النَّبيُّ ﷺ إلى ذلك بقوله في حديثٍ رواه البخاريُّ ومسلم: «**إنَّ من أكبرِ الكبائرِ شتْمَ الرَّجلِ والديه**»، قالوا: يا رسول الله! وهل يَشتِمُ الرَّجلُ والديه؟ قال: «**نعمْ، يَسُبُّ الرَّجلُ أبا الرَّجلِ، فيسبُّ أباه، ويسُبُّ أُمَّه فيسبُّ أُمَّه**»(١).

ومن برِّهما: اجتنابُ كلِّ ما يضرُّهم، وفعلُ ما يستنزل الرَّحمةَ بهما؛ كأنْ يُحسِنَ الرَّجلُ إلى شخصٍ فيقول: رحِمَ اللهُ والديك، وروى أحمد عن عائشة، أنَّها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**دخلتُ الجنَّةَ، فسمعتُ فيها قراءةً، فقلتُ: مَنْ هذا؟ قالوا: حارثةُ بنُ النُّعمان، كذاكم البِرُّ، كذاكم البِرُّ**»، وكان أبرَّ النَّاس بأمِّه(٢).

وفي حديثٍ رواه البخاريُّ ومسلمٌ عن ابن عمر عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**بينما ثلاثةُ نفرٍ يمشون أخذَهُمُ المطرُ، فأوَوْا إلى غارٍ في جبلٍ، فانحطَّتْ على فمِ غارِهم صخرةٌ من الجبل، فانطبقت عليهم، فقال بعضهم لبعضٍ: انظروا أعمالًا عَمِلتُموها صالحةً لله، فادعوا الله بها لعلَّه يُفرِّجها عنكم، قالَ أحدُهُم: اللَّهُمَّ إنَّه كانَ لي والدانِ شيخانِ كبيرانِ، ولي صِبْيَةٌ صِغارٌ، وكنتُ أَرْعى عليهم، فإذا رُحْتُ عليهم حلبتُ، فبدأتُ بوالديَّ أَسقيهما قبلَ بَنِيَّ، وإنِّي استأخرتُ ذات يوم، فلم آتِ حتَّى أمسيتُ، فوجدتُهما نائمين، فحلبتُ كما كنتُ أحلبُ، فقمتُ عند رأسيهما أكره أنْ أُوقظَهما، وأكره أن أَسقِيَ الصِّبيةَ،**

(١) رواه البخاري، رقم: (٥٩٧٣)، ومسلم، رقم: (٩٠).
(٢) رواه أحمد، رقم: (٢٤٠٨٠).

والصِّبيةُ يَتَضَاغَوْن[١] **عند رِجْلَيَّ حتَّى طلعَ الفَجْرُ، فإنْ كنتَ تعْلَمُ أنِّي فعلتُه ابتغاءَ وجهك فافرُجْ لنا فُرْجَةً نرى منها السَّماءَ، ففَرَجَ الله، فرأَوُا السَّماءَ...**» إلى آخر الحديث[٢].

فهذا رجلٌ وقع بين نارين: نارِ الشَّفقةِ على أولاده الجياع، ونارِ الخوفِ مِن تألُّمِ والديه إذا أيقظهما، بينما هو قد تعب من سعيه وكدِّه نهارًا، ثمَّ سهر ليلًا حتَّى أرضى والديه، حيث فعل معهما أعلى أنواع البِرِّ كما أمره ربُّه، وكان عملُه خالصًا لله، فلمَّا توسَّل إليه في الشِّدَّة، وجد اللهَ عندَه، وذلك مصداقٌ لقول النَّبيِّ ﷺ: «**تعرَّفْ إلى اللهِ في الرَّخاء يَعْرِفْك في الشِّدَّة**»[٣].

وفي فضل الدُّعاء للوالدين بعد موتهما ما رُوِي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ العبدَ ليموتُ والداه أو أحدُهما، وإنَّه لهما لَعَاقٌّ، فلا يزالُ يدعو لهما، ويستغفرُ لهما حَتَّى يكتبَه اللهُ بارًّا**»[٤].

وروى ابن عساكر عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن أصبحَ مُطيعًا للهِ في والديه، أصبح له بابانِ مفتوحانِ في الجنَّة، وإن كان واحدًا، فواحدًا، ومَن أصبح عاصيًا لله في والديه، أصبح**

---

(١) ضغا ضغوًا: إذا صاح وضج. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٣/ ٩٢).

(٢) رواه البخاري، رقم: (٢٣٣٣)، ومسلم، رقم: (٢٧٤٣).

(٣) رواه أحمد، رقم: (٢٨٠٣).

(٤) رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٧٥٢٤).

لهما بابان مفتوحان من النَّار، وإن كان واحدًا، فواحدًا، قال رجلٌ: وإن ظلماه؟ قال: وإن ظلماه! وإن ظلماه! وإن ظلماه!»[١].

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٧٥٣٨).

٣- صلةُ الأرحام

قال الله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الإسراء: ٢٦].

وذو القربى: هو مَن تتَّصل بك قرابتُه أو رَحِمُه من جهةِ أبويك، ولهذا بيَّن النَّبيُّ ﷺ في حديثٍ رواه أبو داود عن أبي أُسَيْد مالكِ بنِ ربيعة السَّاعديِّ: «**إنَّ من برِّ الوالدين بعدَ موتهما صلةَ الرَّحِم الَّتي لا تُوصَل إلَّا بهما**»[(١)]، فكما أنَّ الله ﷻ أمرنا ببرِّ الوالدين، أمرنا أيضًا بصلة الأرحام، فقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ [النِّساء: ١]، وذمَّ قومًا يقطعون أرحامهم، وتوعَّدهم بإنزال اللَّعنة عليهم، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ [الرَّعد: ٢٥]، وحذَّر آخرين بقوله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمَّد: ٢٢-٢٣]، ومن هذا نفهمُ أنَّ قطيعةَ الرَّحِم سببٌ من أسبابِ لعنةِ الله، والبعدِ عن رحمته.

وأخبرنا المصطفى ﷺ أنَّ صلةَ الرَّحِم مَكْرُمَةٌ مَن وُفِّقَ إليها وُفِّقَ للخير الكثير، وأنَّها من مُوجِبَاتِ رحمةِ الله تعالى، وأسبابِ سَعَةِ

(١) سبق تخريجه.

الرِّزق، والأسبابِ المُمِدَّة في العمر، فقد روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَن أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ له في رزقِه، ويُنْسَأَ له في أَثرِه، فليَصِلْ رَحِمَه**»[١]، والرَّسولُ ﷺ لا ينطق عن الهوى.

وإذا نظرنا إلى واصلي الأرحام رأينا أكثرَهم - ولا سيَّما الَّذين ابتغَوا بذلك وجهَ الله - قد حالفتْهُم البركةُ في أرزاقهم، ورافقهم الفوزُ والتَّوفيقُ في سعيهم، وملأتِ البشرى دُورَهم، فبسطَ اللهُ لهم في رزقهم، وباركَ في سعيهم، بخلاف أولئك الَّذين قطعوا أرحامَهم؛ إذ حَرَمَهُم اللهُ ممَّا يملكونه في أيديهم، وذهبَ ما جمعوه في سبيل السُّوء والشَّيطان، فعلى المسلم أن يداري أرحامَه، فلا يكافئهم بالسُّوء سوءًا، ولا يطلبُ أو ينتظرُ منهم جزاءً لإحسانه، بل يَصِلُهُم امتثالًا لأمر الله، وإيمانًا بوعده، واحتسابًا لما عنده، فإنْ فعلَ ذلك صدقَ اللهُ له وعدَه، والله لا يُخلِفُ الميعاد، وأمَّا إنْ أراد بذلك السُّمعةَ، أو المكافأةَ العاجلةَ منهم كان من الخاسرين، ولكنَّه يبقى خيرًا من القاطعين لِرَحِمِهم.

وقد روى مسلمٌ أنَّ رجلًا أتى النَّبيَّ ﷺ، فقال: يا رسول الله! إنَّ لي قرابةً أَصِلُهم ويقطعوني، وأُحسِن إليهم ويسيئون إليَّ، وأحلُم عنهم ويَجْهلون عليَّ، فقال: «**لئِنْ كنتَ كما قلتَ، فكأنَّما تُسِفُّهُم**[٢]

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٥٩٨٦)، ومسلم، رقم: (٢٥٥٧).

(٢) السَّفوف: مِن سففتُ الدواء أَسفُّه. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٢/ ٣٧٥).

المَلَّ[١]، **ولا يزالُ معَكَ من الله ظهيرٌ**[٢] **عليهم ما دمتَ على ذلك»**[٣].

وصلةُ الرَّحِم درجاتٌ، فكلَّما قَرُبَتِ الرَّحِمُ كان وصلُها أعظمَ أجرًا، ورُوي في حديثٍ: «**الأقرب، فالأقرب**»[٤]، وهذا دليلٌ على أنَّ صلةَ الأخِ أكثرُ ثوابًا من صلةِ ابنه، وأنَّ ابنَ الأخِ أقربُ من ابن العمِّ، وهكذا.

وتكونُ صلةُ الرَّحِم بالزِّيارةِ والهديَّةِ والصَّدقةِ والمنفعةِ وبكلِّ ما يُقرِّبُ الإنسانَ من أرحامه، وفي الحديث الَّذي رواه أبو داود والتِّرمذيُّ عن عبد الرَّحمن بن عوفٍ ﵁، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول فيما يرويه عن ربِّه ﷻ: «**أنا اللهُ، وأنا الرَّحمنُ، خلقتُ الرَّحِمَ، وشققتُ لها اسمًا من اسمي، فمَنْ وصلَها، وصلْتُه، ومَن قطعَها، قطعتهُ**»[٥].

ومن اللُّؤم أن نرى رجلًا أفاض اللهُ عليه من نعمِه، وآتاه خيرًا كثيرًا، وأسبغَ عليه فضلَه، فصحَّ جسمه وعقله، وله أقارب وأرحام

---

(١) المَلُّ: الرماد. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٢/ ٣٧٥).

(٢) ظهير: يعني شديد الظهر قويًا. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٣/ ١٦٦).

(٣) رواه مسلم، رقم: (٢٥٥٨).

(٤) رواه الترمذي، رقم: (١٨٩٧).

(٥) رواه الترمذي، رقم: (١٩٠٧)، وقال: هذا حديث صحيح، وأبو داود، رقم: (١٦٩٤)، بلفظ: «أنا الرحمن، وهي الرحم... إلخ».

كثيرون فيهمُ المحتاجُ والفقيرُ إلَّا أنَّه يقبِضُ يدَه إلى عنقه ويجعلُها مغلولةً، فإذا ذُكِرَ أمامَ النَّاس، سكتوا أو ذمُّوه، فماذا يكون حال السَّامع حينئذٍ؟ قد يقولُ: أقاربُه أدرى به، وأعلمُ بسيِّئاته منَّا، وربَّما ساء ظنُّهم به، وتجنَّبوا معاملتَه، أمَّا إذا كان واصلًا لرحمه بالزِّيارة والتَّهادي والإحسان فلا شكَّ أنَّهم يُثنون عليه، وربَّما أَطْرَوْه، فذكروه بحسناتٍ أكثرَ ممَّا فيه، ولعلَّهم يتغافلون عن سيِّئاته، كما قال الشَّاعر عبد الله بن معاوية:

وَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ[1] كَمَا أَنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي الْمَساوِيَا[2]

وثناءُ النَّاس - ولا سيَّما إذا كثُرَ - يُغرِي ويجذب الآخرين فحينئذٍ يَكبُر مقامُ الإنسان، ويعظُم قدرُه، ويثق النَّاس به، فيكثر خيرُه، ومحمَّدٌ ﷺ لا ينطق عن الهوى، فقد روى ابن ماجه عن عائشة بنت الصِّدِّيق رضي الله عنهما، أنَّها قالت: قال رسولُ الله ﷺ: «**أسرعُ الخيرِ ثوابًا البِرُّ وصلةُ الرَّحِم، وأسرعُ الشَّرِّ عقوبةً البغيُ وقطيعةُ الرَّحِم**»[3].

وخيرُ الواصلين وأعظمُهم ثوابًا هو الَّذي يصل رَحِمَه إن قطعَتْه، وقد أجاب المصطفى ﷺ رجلًا سأله عن صفاتٍ كريمةٍ يتحلَّى بها، فقال له: «**أَنْ تصلَ مَنْ قطعَك، وتُعطي مَنْ حرمَكَ، وأن تعفوَ عَمَّنْ ظلمَك**»[4]، وروى البخاريُّ عن عبد الله بن عمر عن المصطفى ﷺ:

---

(١) كلَّ بصره: نبا ولم يحقق المنظور. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٠/ ٣٤٢).
(٢) انظر: عيون الأخبار، لابن قتيبة (٣/ ١٦).
(٣) رواه ابن ماجه، رقم: (٤٢١٢).
(٤) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم: (٥٥٦٧).

أنَّه قال: «**ليسَ الواصِلُ بالمُكافِئ، ولكنَّ الواصلَ الَّذي إنْ قُطِعَتْ رَحِمُه، وصلَها**»(١).

وقد روى البخاريُّ ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: كان أبو طلحة رضي الله عنه أكثرَ الأنصارِ بالمدينة مالًا من نَخْلٍ، وكان أحبُّ أموالِه إليه بَيْرَحاء(٢)، وكانت مُستَقْبِلةَ المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخُلُها، ويشرب من ماءٍ فيها طَيِّبٍ، قال أنس: فلمَّا نزلت هذه الآيــة: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، جــاء أبو طلحةَ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! إنَّ الله تعالى أنزل عـليـك: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وإنَّ أحبَّ مالي إليَّ بَيْرَحاء، وإنَّها صدقةٌ لله تعالى أرجو بِرَّها وذُخْرَها عند الله تعالى، فضَعْها يا رسول الله حيث أراكَ اللهُ، فقال ﷺ: «**بَخٍ! بَخٍ! ذلكَ مالٌ رابحٌ، ذلك مالٌ رابحٌ، وقد سمعتُ ما قلتَ، وإنِّي أَرى أَنْ تجعلَها في الأقربين**» فقال أبو طلحة: أفعلُ يا رسول الله، فقَسَمَهَا أبو طلحةَ في أقاربه وبني عمِّه(٣).

من هذا نستدلُّ على أنَّ الصَّدقةَ في الأرحام أفضلُ منها في غيرهم، وأنَّ فيها أجرين: أجرَ صدقةٍ، وأجرَ صلةٍ، وقد أمرنا ﷺ أن نتعلَّم من أنسابنا ما نَصِلُ به أرحامنا، فقد روى التِّرمذيُّ والحاكمُ عن

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٥٩٩١).

(٢) بيرَحاء: اسم مال وموضع بالمدينة، وهي الأرض الظاهرة. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (١/ ١١٤).

(٣) رواه البخاري، رقم: (١٤٦١)، ومسلم، رقم: (٩٩٨).

النَّبيِّ أنَّه قال: «**تعَلَّموا من أنسابكم ما تَصِلون بِه أرحامَكم، فإنَّ صلةَ الرَّحِمِ محبَّةٌ في الأهل، مَثْراةٌ في المال، مَنْسَأةٌ**[1] **في الأَثَر**»[2].

وأخيرًا: فقد روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي هريرة، عنه ﷺ أنَّه قال: «**إنَّ الله خلقَ الخلْقَ، حتَّى إذا فرَغَ منهم، قامتِ الرَّحِمُ فقالتْ: هذا مكانُ العائِذ بكَ من القطيعة، قال: نعمْ، أَمَا ترضينَ أنْ أصلَ مَن وصلَكِ، وأقطعَ مَنْ قطعكِ؟ قالتْ: بلى يا ربِّ، قال: فذاكَ لكِ، قال ﷺ: فاقرؤوا إن شئتم**: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمَّد: ٢٢-٢٣]»[3].

---

(١) منسأة: أي: مظنة له وموضعٌ. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٥/ ٤٤).

(٢) رواه الترمذي، رقم: (١٩٧٩)، وقال: هذا حديث غريب، والحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم: (١٩٧٩)، وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه.

(٣) رواه البخاري، رقم: (٥٩٨٧)، ومسلم، رقم: (٢٥٥٤).

٤- الصَّدقات المفروضة

قال الله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الإسراء: ٢٦].

تحدَّثنا سابقًا عن ذي القربى، وسنكمل الحديث عن الصَّدقات المفروضة، فقد أوجبَ اللهُ تعالى حقَّ المسكين وابن السَّبيل في الزَّكاة، وجعل لهما نصيبًا في الصَّدقات، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ﴾ [التوبة: ٦٠]، فالفقراء والمساكين وأبناءُ السَّبيلِ الَّذين فقدوا أموالَهم وأهليهم لهم حقٌّ مفروضٌ في مال كلِّ غنيٍّ.

وقد كان أولياءُ الأمورِ الصَّالحون من خلفاءَ وأمراءَ وملوكٍ في الصَّدر الأوَّل للإسلام يأخذون الزَّكاة من الأغنياء، ويردُّونها على الفقراء، وما تبقَّى منها ينفقونها في وجوهها الأخرى، حتَّى إذا ضعف الأمر أعطى الأغنياءُ زكاتَهم بنيَّةٍ خالصة إلى الفقراء والمساكين والغارمين وابن السَّبيل، ولمَّا ضَعُفَ الدِّين في القلوب منعَ كثيرٌ من الأغنياء زكاةَ مالهِم؛ بُخلًا وتهاونًا بالدِّين.

والزَّكاةُ ركنٌ من أركان الإسلام، فرضها اللهُ على الأمَّة الإسلاميَّة في السَّنة الثَّانية من الهجرة، وقرنها سبحانه وتعالى مع الصَّلاة في

كثيرٍ مِن الآيات القرآنيَّة؛ لمِا لها من الأهميَّةِ في الدِّين، والخيرِ والنَّفعِ على الفردِ والمجتمع والأُمَّة، فلا تكاد تقرأُ إقامةَ الصَّلاة إلَّا وقرأتَ معها إيتاءَ الزَّكاة؛ لأنَّ الصَّلاةَ تُهذِّب الرُّوحَ، والزَّكاةَ تُهذِّبُ المالَ، والمالُ قرينُ الرُّوح، وأخبرنا المشرِّعُ ﷺ أنَّ: «**الزَّكاة طُهْرةُ المال**»[(١)]، كما أخبرنا القرآنُ الكريم أنَّها طهرة النَّفس، فقال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، فإذا تعوَّد الإنسانُ إخراجَ زكاةِ مالِه مرَّةً أو مرَّتين، وعَلِمَ يقينًا أنَّها تنفعه في المستقبل، وتنفع المجتمعَ الَّذي هو فيه، وأنَّ الشَّخص الَّذي أعطاها إيَّاه طَهُرَتْ نفسُه، وزُكِّيَتْ من أدواء البُخْلِ والشُّحِّ فقد أفلح؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، فالزَّكاة طهرةٌ للمال، وتزكيةٌ للنَّفس.

ومن فوائد الزَّكاة: أنَّها تُخفِّف آلامَ الفقير، فيوسِعُ بها على نفسهِ وعيالهِ، ويُشبعُ جَوْعتَهم، ويَسْتُر عَورتَهم، وبذلك تُولَد المحبَّةُ بين المُعْطِي والمُعْطَى، وربَّما يأتي يومٌ يحتاج فيه الغنيُّ معونةَ الفقير، والدُّنيا دُوَلٌ؛ يومٌ لك ويومٌ عليك؛ لأنَّ الله خلق النَّاسَ طبقاتٍ، وسخَّرهم لخدمةِ بعضهم بعضًا، ويُجسِّد الشَّاعر هذا المعنى بقوله:

النَّاسُ بالنَّاسِ مِنْ بَدْوٍ وحاضرةٍ ... بَعْضٌ لِبَعْضٍ وَإِنْ لَمْ يَشْعُرُوا خَدَمُ[(٢)]

---

(١) رواه ابو داود، رقم: (١٦٠٩)، بلفظ: «فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر طهرة للصائم... إلخ».

(٢) انظر: صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال، للمهدي (١/ ٨٤)، أصل الوضع: حَضَرٍ وباديةٍ، والتعديل لسلامة الوزن.

فإذا أحسنَ الغنيُّ معاملةَ الفقيرِ وأعطاه ممَّا يملك دون تكبُّرٍ وفوقيَّةٍ فإنَّه حتمًا سيحبُّه ويتفانى في خدمته وحمايته، ويُسانده إذا ساءتْ أحوالُه ودارت الدُّنيا عليه وأتعبتْه، وأمَّا إذا كانتْ معاملتُه سيِّئةً وغيرَ لائقةٍ، فإنَّ هذا الفقيرَ سيتخلَّى عنه وعن زكاته وسيكون مع عدوِّه عليه.

والإنسانُ كلَّما وصل إلى مرتبةٍ طَمِعَ فيما فوقها، ولو أُوتي وادِيين من ذهبٍ لَتمنَّى ثالثًا، وهذا مِصداقٌ لقول النَّبيِّ ﷺ: «**مَنْهُومانِ**[1] **لا يَشْبَعان: طالبُ علم، وطالبُ دنيا**»[2]، فلا بدَّ للإنسان أن يُساندَ أخاه الإنسان لِيُدرِك أمنيَّتَه، ولا رابطةَ أقوى من الإحسان، وإذا قرأنا وتبحَّرنا في أقوالِ الحكماءِ، نجدُ أنَّ اللهَ فرضَ الزَّكاةَ على الأغنياء لثلاثِ حِكَمٍ:

أوَّلُها: ابتلاء النَّفس وإهانتها بإخراج المحبوب.

ثانيها: التَّنزُّه عن صفة البخل.

ثالثُها: شُكْرُ المُنعَمِ عليه بالمال.

وقد ورد في الأثر: «**إنَّه ليسَ لكَ من مالِكَ إلَّا ما أكلتَ فأفنيتَ، أو لبستَ فأبليتَ، أو تصدَّقْتَ فأبقيتَ**»[3]، وحقًّا إنَّ ما سيبقى مِن مالِكَ بعد موتكَ هو لوارثِكَ، وليس لك منه شيءٌ.

---

(١) النَّهْمَةُ: بلوغ الهمَّة في الشَّيء. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير(٥/ ١٣٨).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم: (١٠٣٨٨).

(٣) رواه مسلم، رقم: (٢٩٥٨) بلفظ: «يقول ابن آدم: مالي، مالي، قال: وهل لك يا ابن آدم من مالك...»

وقد ثبتَ شرعًا وعقلًا أنَّ خيرَ الزَّكاةِ ما كان في فقراء أهلك، ما لم يكونوا من فَرْعِكَ أو أصلك، وهم: بنوك ووالدوك، ثمَّ ذوو القربى، ثمَّ فقراء جيرانك، ثمَّ الفقراء من سائر المسلمين، فتحرَّ في الصَّدقة أهلَ الدِّين، وتجنَّبِ المنَّةَ والأذى؛ لأنَّهما مُبْطِلان لها؛ لقول الله ﷻ: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، وأَعْطِها بانشراحِ صدرٍ ولطفٍ، وادعُ بالبركة فيها لمن تعطيها إيَّاه.

ومن فوائد الزَّكاة أيضًا: أنَّها تساعد على نشر الأمن في البلاد؛ لأنَّ أكثرَ أنواع الشُّرور مصدرُه الفاقةُ والحاجة والعَوَزُ، فإذا اكتفى الفقيرُ بما يأتيه من صدقةٍ، عَمَّ الأمنُ، والاستقرارُ الماديُّ والنَّفسيُّ على النَّاس جميعًا، وقلَّتْ متاعبُ النَّاس من وَطْأةِ الحاجة المُلِحَّة، وتمتَّع الغنيُّ بماله آمنًا مطمئنًّا.

روى الشَّيخان عن أبي ذَرٍّ الغفاريِّ ؓ، قال: انتهيتُ إلى رسول الله ﷺ وهو جالسٌ في ظلِّ الكعبة، فلمَّا رآني، قال: «**هم الأخسرونَ وربِّ الكعبةِ**»، قال: فجئتُ وجلستُ، فلم أَتَقَارَّ[١] حتَّى قمتُ فقلتُ: يا رسول الله! فداك أبي وأمِّي، مَن هم؟ قال: «**هم الأكثرونَ أموالًا، إلَّا مَن قال هكذا وهكذا - مِن بين يديهِ ومن خلفهِ، وعن يمينه وعن شماله -، وقليلٌ ما هم**»[٢].

إنَّ عقوبةَ البخلِ من أعظمِ العقوباتِ الَّتي أوضحها الله في كتابه

(١) لم أتقارَّ؛ أي: لم أَلبَث. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٤/ ٣٨).

(٢) رواه البخاري، رقم: (٦٦٣٨)، ومسلم، رقم: (٩٩٠).

العزيز، فقد قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ٣٥﴾ [التوبة: ٣٤-٣٥].

وإذا فكَّرنا في مسألةِ المال وتداولِه بين الأيادي، رأينا أنَّ الرِّزقَ بيد الله، يَبسُطُه لمَن يشاءُ، ويَقْبِضه عمَّن يشاء؛ فهذا غنيٌّ، وهذا فقيرٌ، وهذا ميسورُ الحالِ واسعُ النِّعمة، وهذا بائسٌ محروم، وفي هذا المعنى يقول الله تعالى: ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٣٢﴾ [الزخرف: ٣٢].

والله ﷻ لا يُغني شخصًا؛ لأنَّه يستحقُّ الغِنَى، ولا يُفقِر شخصًا؛ لأنَّه جديرٌ بالفقر، فقد يُغنِي عبدًا وهو كارهٌ له وغاضبٌ عليه؛ لكفره وفسوقه وفجوره، وقد يُغنِي عبدًا كان من الصَّالحين، ثمَّ جاءه الغنى فأشقاه، وقد يُفقر عبدًا وهو راضٍ عنه؛ لِيَلجأ إليه بالدُّعاء والاستعانة، وليَمُنَّ عليه بثوابِ الصَّبر، ولِيَأجرَه على عبادته ورضاه بما قسمه له، قال تعالى: ﴿كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ٢٠﴾ [الإسراء: ٢٠].

وما كان نبيُّنا محمَّد ﷺ غنيًّا بماله، وإنَّما كان غنيًّا بقلبه ويقينِه، ونفسِه الرَّضيَّةِ القانعة، وهو أحبُّ خَلْقِ الله إلى الله، وأعزُّهم لديه، ولو شاء لمَلَّكه كنوزَ الأرضِ، ولو كان المالُ دليلًا على الرِّضا لمَا أغنى قارونَ، ولمَا أغنى كافرًا مُلحِدًا، وإليكم قولُه ﷺ: «**إنَّ الله**

يُعطِي الدُّنيا مَنْ يحبُّ ومَنْ لا يحبُّ، ولا يُعطي الدِّينَ إلَّا مَنْ أحبَّ، فمن أعطاهُ اللهُ الدِّينَ، فقد أحبَّه»(١)، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزّخرُف: ٣٣-٣٥].

وروى البخاريُّ، ومسلمٌ عن ابن عبَّاس أنَّ النَّبيَّ ﷺ لمَّا بعث معاذًا إلى اليمنِ، قال له: «**ادْعُهُم إلى شهادةِ أَنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنِّي رسولُ الله، فإن هُمْ أطاعوا لذلكَ، فأعلِمْهُم أنَّ اللهَ افترضَ عليهم صدقةً تُؤخَذ من أغنيائهم، وتُرَدُّ على فقرائهم**»(٢).

وقد رأى كثيرٌ من علماءِ النَّفس أنَّ صلةَ الكرم والإحسان أعظمُ من صلة القرابة؛ لأنَّ الإحسانَ من المُحسِن رحمةٌ، وفي المُحسَن إليه مودَّةٌ؛ كما يقول الشَّاعرُ أبو الفتح البُستِيّ:

أَحْسِنْ إِلَى النَّاسِ تَسْتَعْبِدْ قُلُوبَهُمُ ... فَطَالَمَا اسْتَعْبَدَ الإِنْسَانَ إِحْسَانُ(٣)

وليستْ فائدةُ الزَّكاةِ راجعةً للفقير وحدَه، بل للغنيِّ والفقيرِ والأمَّةِ والوطنِ كلِّه، والأخلاقِ والفضائلِ، والرَّابطةِ والصِّلةِ، ونظامِ الدَّولةِ، وسعادةِ الشَّعبِ، نعم، لا شكَّ أنَّ الفقيرَ ينتفعُ بما يَنالُه من يدِ الغنيِّ، ويُشبعُ جَوْعَته، ويُريحُ نفسَه، ويُزِيلُ همَّه، ولكنَّ فائدة الغنيِّ أكبر؛

(١) رواه أحمد، رقم: (٣٦٧٢).
(٢) رواه البخاري، رقم: (١٣٩٥)، ومسلم، رقم: (١٩).
(٣) انظر: جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، للهاشمي (٢/ ٤٣٠).

لأنَّه دفع للفقير درهمًا ودينارًا، ودفع الفقيرُ له حبًّا ودعوةً صادقةً من القلب، وبهذا يكون الغنيُّ قد بذلَ للبؤساء عَرَضًا زائلًا، فبذلوا له وُدًّا باقيًا، وحَفِظَهم من ذُلِّ الحاجةِ ومرارة البؤس، فحفظوه من البغض والحسد، وإثارة الكُرْهِ والمقتِ، وهذا ما يؤكِّده قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾﴾ [الليل: ٥-١١].

وقد حثَّ الإسلامُ على الصَّدقةِ، ودعا إليها في مواضعَ كثيرةٍ من القرآن الكريم، وضاعفَ لها الثَّواب، فجعله عشرًا إلى سبعِمئةِ ضعفٍ، وبيَّن لنا نبيُّنا ﷺ أنَّ في الصَّدقةِ بركةً، وأنَّها تدفع كثيرًا من البلايا، وتَشفِي من الأمراضِ النَّفسيَّة، وأَيُّ مرضٍ نفسيٍّ أشدُّ من مرضِ الشُّحِّ؟ فقد قالَ ﷺ: «**إنَّ الصَّدقةَ تُطفِئُ غضبَ الرَّبِّ، وتدفعُ مِيتةَ السُّوء**»[1]، وإذا ابتعد الإنسانُ من غضب ربِّه، كان من المفلحين، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

(١) رواه الترمذي، رقم: (٦٦٤)، وقال: هذا حديث حسن غريب.

٥- الصَّدقات المندوبة

قال الله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾ [الإسراء: ٢٦-٢٨].

قيل: إنَّ بعض الصَّالحين أنفقَ نفقةً في خيرٍ فأكثرَ، فقال له صاحبه: لا خيرَ في السَّرَف، فقال له: لا سَرَفَ في الخير[1]، والتَّبذيرُ الَّذي نُهِينا عنه هو الإنفاقُ في المعصية، وفيما لا فائدةَ فيه للنَّفس والمجتمع، وإنَّ الإنسان لو أنفق مالَه كلَّه في الحقِّ، أو فيما يعود نفعُه على الفرد والجماعة، لم يكن مبذِّرًا، بينما لو أنفق درهمًا واحدًا في باطلٍ أو في شرٍّ كان من المبذِّرين.

وقد حثَّنا الدِّينُ الإسلاميُّ على الإنفاق في مواطنَ كثيرةٍ من الكتاب العزيز، وأفاد أنَّ الإنفاقَ في سبيل اللهِ والإسلامِ بما يعود نفعُه على الأمَّة الإسلاميَّة، أو الدِّين؛ كالإنفاقِ على المدارس والمساجدِ، ونشرِ العلم، ومساعدةِ الضُّعفاء، وتصليحِ الطُّرق، وإنقاذِ الإنسانيَّة من نكباتٍ تُصيبها، وإغاثةِ اللَّاجئين، وتأسيسِ المستشفيات، ونشرِ الصِّناعة وترقيتها، وبناءِ الشَّركات والمصانع

(١) أورده المراغي في تفسيره (١٥/ ٣٨).

وغيرِ ذلك، ممَّا يُساعِدُ في رُفعةِ الإسلام بلادًا وشعبًا، فهذا الإنفاقُ هو قرضٌ لله، كما قال في تنزيله الحكيم: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وأقلُّ المضاعفةِ تبدأ من عشرةٍ إلى سبعمئةِ ضعفٍ، قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١]، وحثَّ القرآنُ أيضًا على الإحسان وجعلَه بمثابة إقراضٍ لله، وهذا القرضُ لن ينفعَ أو يضرَّ الله بشيءٍ؛ لأنَّه غنيٌّ عن العالمين وعن أن يقترضَ من عبده، فهو مالِك الكون، ولكنَّه جعل القرض للمحتاجين من عباده كنايةً عن نفسه، وجعل تفريجَ كربتهم دَيْنًا عليه، فقال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة: ٢٤٥]، فأيُّ قيمةٍ لإنسانٍ يَبْخَلُ بإقراضِ بعض المال لواهبِ المال الَّذي سيردُّه عليه أضعافًا مضاعفةً؟! واللهُ يَقْبِض ويبسُط؛ لأنَّ الأمرَ كلَّهُ بيدِهِ، يَصرِفُهُ كيف يشاء، ويُغنِي ويُفقِر مَن يشاء من عباده.

وأفضلُ صدقاتِ النَّفلِ صدقةُ المقرَّبين الَّذين لهم الأولويَّة والحقُّ، وصدقةُ السِّرِّ الَّتي هي أفضلُ من صدقةِ الجهرِ.

وفي حديثٍ رواه التِّرمذيُّ عن عمرِو بن سعدٍ الأنماريِّ أنَّه سمع رسولَ الله ﷺ يقول: «**ثَلاثةٌ أُقسِمُ عليهنَّ، وأحدِّثكم حديثًا فاحفظوه: ما نقصَ مالُ عبدٍ من صدقةٍ، ولا ظُلِمَ عبدٌ مظْلمةً صَبرَ عليها إلَّا زاده اللهُ عزًّا، ولا فتحَ عبدٌ بابَ مسألةٍ إلَّا فتحَ اللهُ عليه بابَ فقرٍ، وأُحدِّثُكم حديثًا فاحفظوه: إنَّما الدُّنيا لأربعةٍ: عبدٍ رزقَه اللهُ مالًا**

وعلمًا، فهو يتَّقي فيه رَبَّه، ويصِلُ فيه رَحِمَه، ويَعْلَمُ للهِ فيه حَقًّا، فهذا بأفضلِ المنازل، وعبدٍ رزقهُ الله علمًا، ولم يرزقه مالًا، فهو صادقُ النِّيَّة، يقول: لو أنَّ لي مالًا، لَعمِلْتُ بعملِ فلانٍ، فهو بنيَّته، فَأَجْرُهما سواءٌ، وعبدٍ رزقهُ الله مالًا، ولم يرزقه علمًا، فهو يَخبِطُ في ماله بغير علمٍ، ولا يتَّقي فيه رَبَّه، ولا يَصِلُ فيه رَحِمَه، ولا يعلم لله فيه حقًّا، فهذا بأخبثِ المنازل، وعبدٍ لم يرزقه الله مالًا ولا علمًا، فهو يقول: لو أنَّ لي مالًا، لَعَمِلْتُ فيه بعملِ فلانٍ، فهو بنيَّته، فَوِزْرُهُما سواءٌ»[1].

والإنفاقُ على ذوي الحاجةِ في الدِّين الإسلاميِّ هو في الدَّرجة الثَّانية من الإنفاق في سبيل الله الَّذي يدلُّ مفهومُه على نُصرة الدِّين، والدِّفاع عن الدَّعوةِ إليه، وقد عدَّد اللهُ من ذوي الحاجة فئاتٍ من النَّاسِ هم: ذوو القربى، واليتامى، والمساكين، وأبناء السَّبيل، والسَّائلون، وفي الرِّقاب، وذكرَ فضْلَ مَنْ يُحسِن ويُواسِي من غير أن يطلبَ مقابلًا لذلك، فقال: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ [الإنسان: ٨-٩].

ودعا الله تعالى إلى الإنفاق على اليتيم، وجعل القسوة عليه من صفات المكذِّبين بالدِّين، فقال: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾﴾ [الماعون: ١-٢]، ويُسْأَلُ أصحابُ النَّار يوم القيامة عن سببِ عذابِهم وإدخالِهم سقرَ، فيقولون: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [المدَّثِّر: ٤٣-٤٤].

---

(١) رواه الترمذي، رقم: (٢٣٢٥)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

وتقول أسماءُ بنتُ الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قال لي رسولُ الله ﷺ: «**لا تُوكِي**[(١)] **فيُوكَى عليكِ**».[(٢)]

أمَّا مَن قَلَّتْ صدقتُه انتظارًا لرزقٍ من الله يرجوه أن يأتيه، فلْيَقُلْ لمستحقِّي الصَّدقة قولًا جميلًا ميسورًا، ويحاولْ ألَّا يمسكَ يدَه عن سبيل اللهِ وطُرِقِ الخيرِ؛ حتَّى لا تصبحَ مغلولةً فلا يستطيعَ مدَّها.

وأفضلُ الصَّدقةِ ما كان نفعُه أكثرَ، نقدًا كان أو كساءً أو غذاءً أو ماءً، وقد ورد في ذلك أحاديثُ كثيرةٌ، منها: ما رواه البخاريُّ، ومسلمٌ عن عبد الله بن عمرو بنِ العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ رجلًا سأل رسولَ الله ﷺ: أيُّ الإسلام خيرٌ؟ قال: «**تُطعِمُ الطَّعامَ، وتقرأُ السَّلامَ على مَنْ عرفْتَ، ومَن لم تَعرِفْ**»[(٣)].

ومنها أيضًا حديثٌ رواه الطَّبرانيُّ عن أنس بن مالكٍ أنَّ سائلًا سألَ رسولَ الله ﷺ، فقال: إنَّ أُمِّي تُوفِّيَتْ، ولم تُوصِ، أَفَيَنْفعُها أنْ أتصدَّقَ عنها؟ قال: «**نعم، وعليكَ بالماءِ**»[(٤)].

وحديث ابن ماجه عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**مَن سترَ عورةَ أخيهِ المسلمِ، سَترَ اللهُ عَوْرَته يومَ القيامة**»[(٥)]، وهذا دليلٌ على فضل الصَّدقة

(١) لا توكي: أي لا تدَّخري وتَشُدِّي ما عندك وتمنعي ما في يديك فتنقطع مادَّة الرِّزق عنك. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ٢٢٣).
(٢) رواه البخاري، رقم: (١٤٣٣).
(٣) رواه البخاري، رقم: (١٢)، ومسلم، رقم: (٣٩).
(٤) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم: (٨٠٦١).
(٥) رواه ابن ماجه، رقم: (٢٥٤٦).

بالكساء، وعلى كلٍّ فلْينظرِ الإنسانُ مواضعَ النَّفع، ويتحرَّاها في الفقراء والمساكين والمحتاجين، وحاجاتُ الإنسانِ كثيرةٌ فكلَّما ازدادتِ الضَّرورةُ إليها عَظُمَ ثوابُها، وكلَّما عمَّ نفعُها كان جزاؤها أوفرَ، واللهُ لا يُضِيعُ أجرَ مَنْ أحسن عملًا، فإذا كانتِ الفائدةُ من الإنفاق خاصَّةً كان لها من الجزاء ما يناسبها، وإذا كانتْ عامَّةً أو إنسانيَّةً أو دينيَّة وعمَّ نفعُها، كان ثوابُها كما ذكر الله: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ﴾ [البَقَرَة: ٢٦١].

وهذا الإنفاق هو التِّجارةُ الرَّابحةُ الَّتي بيَّنها لنا ربُّنا ﷻ بقوله الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الصَّف: ١٠-١١] إلى آخر الآيات في سورة الصَّفِّ.

وقد شرطَ اللهُ علينا أَلَّا نُتْبِعَ ما أنفقْنَا مَنًّا ولا أذًى، وألَّا نَمُنَّ بما أعطينا، أو نذكرَ إحسانَنا على مَنْ أحسنَّا إليه، أو نُظهِرَ فضلَنا عليه، أو نذكرَه لأحدٍ من النَّاس حبًّا في الإشاعة.

وجديرٌ بالمسلم أَلَّا يتأخَّرَ عن تنفيذ أمرِ الله في ماله الَّذي استودعه إيَّاه، فإنَّ المالَ مالُ الله استخلفَ عليه مَنْ شاء من عباده، ودعاهم إلى ما ينفعهم، وعَيَّنَ جماعةً محتاجةً إلى المساعدة، فقال تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ﴾ [النُّور: ٣٣]، وقال: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ﴾ [الحَديد: ٧]، وجعل ذلك دَيْنًا يستوفونه ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴿٨٩﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٨-٨٩].

كما يجب على المسلم ألَّا يبالغَ في دفْعِ المال، وأن يدَّخرَ لنفسه ما يحتاجُ إليه، أو أكثر من حاجته حتَّى لا يقعدَ ملومًا محسورًا؛ امتثالًا

لأمر الله: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

ونجدُ كثيرًا من النَّاس يسأل الصَّدقةَ من غير حاجةٍ إليها، وتلك كبيرةٌ من الكبائر تستحقُّ غضبَ الله، وقد ورد في ذمِّ مرتكبِ هذا الإثم كثيرٌ من الأحاديثِ المشتملةِ على التَّهديد والوعيد، من ذلك ما رواه الطَّبرانيُّ عن رسول الله ﷺ: «**مَنْ سألَ النَّاسَ وله ما يُغنيه، جاءَ يومَ القيامةِ ومسألتهُ في وجهه خُمُوشٌ**[1] **وخُدُوش**»[2]، وفي حديثٍ آخر قال عليه السَّلام: «**مَنْ فتَحَ على نفسِهِ بابَ مسألةٍ من غيرِ فاقةٍ نزلَتْ به، أو عيالٍ لا يُطيقهم، فتحَ اللهُ عليه بابَ فاقةٍ من حيثُ لا يحتسب**»[3]، والله تعالى يقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطّلاق: ٢-٣].

وأمرنا ربُّنا أن نشكرَ نعمَه علينا بإظهارها، وأن نتجمَّلَ أمامَ الآخرين، حتَّى لا يروا علينا أثرَ الحاجةِ، وقد مدح اللهُ قومًا اتَّصفوا بهذه الصِّفة، فقال عَزَّ مِنْ قائل: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣]، فهؤلاء ظهروا أمام النَّاس بما يدلُّ على أنَّهم غير محتاجين، وحدَّثوا بنعم اللهِ عليهم شكرًا له، واللهُ ﷻ وعد بأن يزيدَ مَنْ شَكَرَه، أمَّا مَنْ جحدَ وكفرَ بنعمه فإنَّ الله غنيٌّ عنه.

(١) الخموش: الخدوش. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٧/ ١٩٣).
(٢) رواه الترمذي، رقم: (٦٥٠)، وقال: حديث حسن.
(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٣٢٥٠).

٦- البخلُ والاقتصادُ والتَّبذيرُ

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإسراء: ٢٩-٣٠].

في هذه الآية الكريمة علينا أن نفرِّقَ بين ثلاثةِ مصطلحاتٍ: البخلُ، والاقتصادُ، والتَّبذيرُ؛ فالبخلُ: هو الإمساكُ عن الإنفاق أو التَّقتيرُ، والاقتصادُ: هو الإنفاقُ في سبيل الخير والمصلحة والعائلة والنَّفس والمجموع، والتَّبذيرُ: هو الإنفاقُ الَّذي يجلبُ الضَّررَ والإثمَ.

وقد حذَّرنا اللهُ ﷻ من البخل؛ لأنَّه أقبحُ صفات الإنسان، ويُسبِّبُ كثيرًا من الأمراض الاجتماعيَّة كحسدِ الفقراءِ الأغنياءَ، ناهيكَ بهذين الدَّاءين من مُفرِّقٍ بين القلوب وهادم للمجتمع، وحذَّر الرَّسول عليه السَّلام أُمَّتَه من ذلك، فقال ﷺ: «**إيَّاكُمْ والشُّحَّ، فإنَّما هَلَكَ مَنْ كان قبلكم بالشُّحِّ، أمرَهُم بالبخل فبَخِلوا، وأمرَهُم بالقَطِيعة فَقَطعُوا، وأمرَهم بالفجور ففجَرُوا**»(١)، رواه أبو داود عن عبد الله بن عمرٍو.

إنَّ البخلَ يجرُّ إلى معصيةِ الله؛ كمنعِ الزَّكاة الَّذي يؤدِّي إلى غضب الله وسخطه، فكثيرٌ من الأغنياء لا يعطون الفقراءَ ولو جزءًا

---

(١) رواه أبو داود، رقم: (١٦٩٨).

قليلًا من مالهم، فسلبهم اللهُ كثيرًا منه، وأذاقهم الذِّلَّةَ بعد العزَّةِ، والتَّعبَ بعد الرَّاحة، والحزنَ بعد المسرَّة، والفقرَ بعد الغِنى، فأصبحوا مستحقِّين لعطفِ النَّاس، بعد أن كان يُرجى منهم العطف، ولنقرأ قولَ الله ﷻ: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [المدَّثِّر: ٤٢-٤٤]، فإنْ أمهلهم اللهُ سلَّط عليهم أولادَهم، فبذَّروا أموالَهم وبدَّدوها في الحرام، وقد يبتليهم اللهُ بعللٍ أو أمراضٍ يُنفقون فيها أموالهم على الأطبَّاءِ والصَّيادلة أضعاف أضعاف ما أوجب اللهُ عليهم من زكاةٍ، فضلًا عن تشتيتِ أفكارهم، وضيقِ نفوسِهم، وخوفِهم على حياتهم.

والبخيلُ لا يَسلَمُ مالُه من أحد شيئين: حوادثِ الدَّهر، وشراهةِ الوارث؛ فالحادثُ يذهب بماله، فيبقى محرومًا محزونًا عليه، والوارثُ يُنفِقه في معصيةِ الله، وهو المسؤولُ عن كلِّ مثقالِ ذرَّةٍ، مِمَّ جمعها؟ ولِمَ منعَها؟ ويُحاسَب عليها: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٨-٨٩].

وكثيرًا ما نُشاهِدُ في هذه الدُّنيا أنَّ المورِّث يبخل على نفسه وغيره، وسرعانَ ما يُغيَّبُ في التُّرابِ غيرَ مأسوفٍ عليه، ثمَّ يهجمُ الوارث على ماله فَرِحًا مسرورًا بهذا الغِنى والثَّروةِ غير المنتظرة، وما كان غِناه إلَّا بموتِ صاحبها، فهو فَرِحٌ بها وإن بكى وناحَ، فعلامَ يرمي الإنسانُ نفسَه في البلاء، ويمنعُ زكاةَ مالِه، ويَحْرُمُ نفسَه من لذيذِ المأكل وحسنِ الملبس، والتَّمتُّع بِنعَمِ الله الجِسَام، ثمَّ يموتُ وقد أبقى المالَ الَّذي حَرَمَ نفسَه منه لوارثٍ لا يهتمُّ بشأنه، ولا يعبأُ

به؟! وربَّما تخاصمَ الوَرَثةُ فأهلكوا تلك الثَّروة في مصاريفِ المحاكماتِ، ورشوة الحاكمين والقضاة: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وفي حديثٍ رُوي أنَّ الحسنَ البصريَّ دخل ذاتَ يوم على عبد الله بن الأهتمِ يَعُودُه في مرضِه الَّذي ماتَ فيه، فرآه يُصَعِّدُ بصرَه ويُصَوِّبُه إلى صندوقٍ في بيته، ثمَّ التفتَ إليه، فقال: يا أبا سعيدٍ! ما تقولُ في مئةِ ألف دينارٍ في هذا الصُّندوق لم أُؤَدِّ منها زكاةً، ولم أَصِلْ بها رَحِمًا؟ فقال الحسن: ثَكِلَتْكَ أُمُّك، ولِمَ كنتَ جمعْتَها؟ قال: لروعةِ الزَّمان، وجفوةِ السُّلطان، وتكاثرِ العشيرة، ثمَّ مات، فشهده الحسنُ، فلمَّا فرِغَ من دفنه، ضرَبَ بيده على القبر، ثمَّ قال: انظروا إلى هذا، أتاه شيطانُه فخوَّفَه روعة زمانه، وجفوة سلطانه بما استودعه اللهُ إيَّاه وعمَّره فيه، انظروا إليه كيف خرج من هذه الدُّنيا مذمومًا مدحورًا، ثمَّ التفتَ إلى وارِثه، وقال: لا تُخدَعنَّ كما خُدِعُ صُوَيْحبُك بالأمس، أتاك هذا المال حلالًا، فلا يكونَنَّ عليك وبالًا، ثمَّ قال يخاطب الجميع: لم أرَ أشقى بماله من البخيل؛ لأنَّه في الدُّنيا يهتمُّ بجمعه، وفي الآخرة يُحاسَب على منعه، غيرُ آمنٍ في الدُّنيا من همِّه، ولا ناجٍ في الآخرة من إثمه، عيشُه في الدُّنيا عيشُ الفقراء، وحسابُه في الآخرة حسابُ الأغنياء(١).

وليس المالُ خيرًا في ذاته، فلا يَصِحُّ أن يعبدَه النَّاس، ولا هو

(١) انظر: غرر الخصائص الواضحة، للوطواط (١/ ٣٦٤).

شرٌّ في ذاته، فلا يَليقُ أن يَفِرَّ منه النَّاس، وإنَّما هو واسطةٌ للخير أو للشَّرِّ، فإنْ أنفقْتَه في مصالحك، أو منافعِ أهلِكَ ووطنِكَ ودينِكَ أتى بالخيرِ على قدر المشروعِ الَّذي صرفْتَه فيه، وإنْ كَنَزْتَه أو أنفقْتَه في شهواتِكَ وملذَّاتِكَ، أو السُّبلِ المحرَّمة جلبَ لكَ الشَّرَّ؛ فالمالُ آلةٌ إنْ صادفَ يدًا صالحةً نفعَ وأفادَ، وإنْ صادفَ يدًا آثمةً أهلكَ وأباد.

روى الطَّبرانيُّ عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**نشرَ اللهُ عبدينِ من عبادِهِ أكثَرَ لهما من المالِ والولدِ، فقال لأحدِهما: أَيْ فُلانُ بنُ فُلانٍ! قال: لَبَّيْكَ ربِّي وسعدَيْك، قال: أَلَمْ أُكثِرْ لك مِنَ المالِ والولدِ؟ قال: بلَى أَيْ ربِّ، قال: وكيفَ صنعتَ فيما آتيتُك؟ قال: تَركْتُه لولدي مخافةَ العَيْلة**[1]، **قال: أمَا إنَّك لو تعلمُ العلمَ، لَضحِكتَ قليلًا، ولَبَكيْت كثيرًا، أمَا إنَّ الَّذي تخوَّفْتَ عليهم قد أنزلتُ بهم، ويقول للآخر: أيْ فلانُ بنُ فلان! فيقول: لبَّيك أيْ ربِّ وسعديك، قال: أَلَم أُكثِرْ لكَ من المالِ والولدِ؟ قال: بَلى أيْ ربِّ، قال: فكيفَ صنعتَ بما آتيتُك؟ قال: أنفقتُ في طاعتِكَ، ووثِقْتُ لولدي من بعدي بحُسنِ طَوْلِك**[2]، **قال: أمَا إنَّك لو تعلم العلمَ، لَضَحِكْتَ كثيرًا، وبكيتَ قليلًا، أمَا إنَّ الَّذي وثِقتَ به قد أنزلتُ بهم**»[3].

وهذا مَثَلٌ من أمثالِ النُّبوَّةِ، فيه دليلٌ على أنَّ مَن أحسنَ الظَّنَّ بالله

---

(١) العائل: الفقير. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٣/ ٣٣٠).

(٢) الطَّوْل: هو الفضل والعلو على الأعداء. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٣/ ١٤٥).

(٣) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم: (٤٣٨٣).

كان اللهُ عندَ حسن ظنِّه به، ومَن أساء الظَّنَّ بالله كان اللهُ عندَ سوء ظنِّه به.

والَّذين يمدحونَ المالَ ويعشقونه، ويتهالكون في جمعه، ويتكاثرونَ به، ويَقْبِضُون أيديهم عن صرفه، هم جَهَلَةٌ آثِمون، كما أنَّ الَّذين ينامون ويَغْفُلُون عن السَّعي في سبيلِ المال؛ كُرْهًا له، وأَنَفَةً من جمعه، وزهدًا فيه، ويُنفِّرونَ النَّاسَ من السَّعي في طلبه، والعملِ والكَسْبِ، هم جُبناءُ ومُقصِّرون.

والقعودُ عن تحصيل المالِ عجزٌ وخَوَرٌ؛ لأنَّ المالَ عَصَبُ الحياة، بل دمُها الَّذي يجري في عروقها، ولا حياةَ بلا دمٍ، ولا خيرَ في جسمٍ ليس فيه عَصَبٌ، وهذا الأمرُ يحتاجُ إلى اعتدالٍ وتوسُّطٍ كما قال النَّبيُّ ﷺ: «**خيرُ الأمورِ أوساطها**»[1]، فلا هذا ولا ذاك، فاجمعِ المالَ، واسعَ في طلبه، ولا تتهالكْ، ولا تُكاثر، ولا تقبضْ يدك، واجمعِ المالَ وأنفِقْه في صالحِكَ وصالحِ دينِك، ووطنِك الإسلاميِّ، وأُمَّتِك الإسلاميَّة، تَعِشْ سعيدًا محبوبًا، وتكنْ عضوًا في جسدٍ قويٍّ، ولَبِنَةً في بناءٍ متماسِك، ونِعْمَ المالُ الصَّالحُ للرَّجلِ الصَّالح، وأمَّا البخلُ أو الشُّحُّ فمِن مهلِكاتِ الأمم، وأمَّا العجزُ والبؤس فمضعفٌ للهمم، ومفسدٌ للذِّمم، ووطنٌ لا مالَ فيه تسوءُ أخلاقُ أهلِه، ويكثُرُ فيه الفسادُ والسَّرقةُ، ويقِلُّ فيه الأمنُ.

والوطنُ الَّذي يكثُر فيه المال، وينتشر فيه البخل يتفرَّقُ شملُه،

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٥٨١٩).

وتتشتَّتُ قلوبُ أهلِه، بخلاف الوطن الَّذي يكثُر مالُه، ويجود أهله، فإنَّك تراهم متماسكين متَّحِدين؛ يسعى غنيُّهم لخدمة فقيرهم، ويتفانى فقيرُهم في حبِّ غنيِّهم.

روى التِّرمذيُّ، والبيهقيُّ في حديثهما عن رسولِ الله ﷺ أنَّه قال: «**السَّخيُّ قريبٌ من الله، قريبٌ من النَّاس، قريبٌ من الجنَّة، بعيدٌ عن النَّار، والبخيلُ بعيدٌ من الله، بعيدٌ من النَّاسِ، بعيدٌ من الجنَّة، قريبٌ من النَّار، ولَجاهِلٌ سَخِيٌّ أحبُّ إلى الله من عابدٍ بخيلٍ**»(١)؛ لأنَّ البُخلَ هو طمعٌ في الدُّنيا وملذَّاتها، والسَّخاءُ ثمرة الزُّهد فيها، فمَن تصدَّق بما تيسَّر من ماله، وأجاب نداءَ الله وعظَّمه، واتَّبع سُنَّةَ نبيِّه واحترَمَه، وأظهرَ الشَّفقةَ على الفقراء مِنْ خَلْقِ الله وواساهم بماله، فهو قريبٌ من رحمة الله؛ لأنَّه امتثلَ أمرَه، وقريبٌ من النَّاس؛ لأنَّه أحسنَ إليهم، فأحبُّوه واحترموه، أمَّا مَن شَحَّ بماله، كان خلافَ ذلك تمامًا، ولهذا كان السَّخيُّ أحبَّ إلى الله من البخيل؛ لأنَّه رقيقُ القلب، ليِّنُ الجانب، رحيمٌ بالمخلوق، سريعُ الانقياد لما يُؤمَر به.

ومن طُرقِ الاقتصاد الَّتي علَّمنا إيَّاها نبيُّنا ﷺ الابتعادُ عن الدَّينِ، فقال: «**أَقِلَّ من الدَّيْن تَعِشْ حُرًّا**»(٢)؛ أي: إنَّ على الإنسان أن يوازنَ بين كَسْبِهِ وإنفاقِه؛ فلا يدَعُ نفسَه تحتاجُ إلى الدَّيْن فيعتاده، ثمَّ تتراكمُ عليه الدِّيون، فيكون عبدًا للدَّائنين، والدَّين هَمٌّ باللَّيلِ، وذلٌّ في

(١) رواه الترمذي، رقم (١٩٦١)، وقال: هذا حديث غريب، والبيهقي في شعب الإيمان، رقم (١٠٣٥٣).
(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٥١٦٨).

النَّهار، ومن وصاياه عليه السَّلام قوله: «**مَن باعَ منكم دارًا أو عَقارًا فليعلمْ أنَّه مالٌ قَمِنٌ**(١) **ألَّا يُبارَكَ فيه إلَّا أَنْ يجعلَه في مثِله**»(٢)، رواه الإمام أحمد عن سعيد بن حريث.

ومنها قولُه ﷺ: «**ما عالَ مَنِ اقتصدَ**»(٣)؛ أي: ما افتقرَ مَن وازنَ بين كسبه وإنفاقه، وفي الآية الكريمة: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧﴾ [الفرقان: ٦٧]، فالوسطيَّةُ والاعتدالُ خيرُ منهجٍ للموظَّفِ محدودِ الدَّخلِ؛ إذ عليه أن يُوفِّقَ ويُوازِنَ بين ما يقبِضُ وما يُنفِق، أمَّا من كَبُرتْ عائلته، وقلَّ دخلُه، واستدانَ؛ أملًا بالله، محسِنًا الظنَّ به فأرجو أن يكون اللهُ عندَ حُسنِ ظنِّه، ومَن كانَ مع الله، كانَ اللهُ معه.

---

(١) قمِنٌ؛ أي: خليق وجدير. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٤/ ١١١).

(٢) رواه ابن ماجه، رقم: (٢٤٩٠)، وأحمد، رقم: (١٥٨٤٢).

(٣) رواه أحمد، رقم: (٤٢٦٩).

٧- تربية الأولاد

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء: ٣١].

كانوا في الجاهليَّة يقتلون البنات؛ خوفًا من العار، أو من مشاركتهم في المعيشة، معتقدين أنَّ البنتَ عالةٌ، لا تحمل سلاحًا، ولا تقاتل مُحارِبةً أو مُهاجِمَةً، فاللهُ ﷻ بيَّن أنَّه هو الرَّزَّاق، وأنَّ قتلَ الأولادِ لا يَجلِبُ غِنًى، ولا يدفع فقرًا، وأنَّ فيه إثمًا كبيرًا، وشررًا عظيمًا.

والولدُ ثمرةُ الحياة، وأملُ العائلةِ، والغايةُ المقصودةُ من الزَّواج، فهو ريحانةُ البيتِ وبركته، كما قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «**بيتٌ لا صِبيانَ فيه لا بركةَ فيه**»(١)، وقوله ﷺ: «**ريحُ الولدِ من ريحِ الجنَّة**»(٢)، وكلمةُ الولد تشمل الذَّكر والأنثى، وقد أوجب اللهُ على هذا الولد بِرَّ والديه، والقيامَ بحقوقهما، وأوجب على الأبوين بِرَّ أولادهما، والقيام بحقوقهم، فكما للوالد على الولدِ الإحسانُ والبرُّ والطَّاعة، فعلى الوالد تجاه ولده الإنفاقُ والتَّربية والتَّعليم على نحوٍ يكفلُ المستقبلَ للولد.

(١) أورده السيوطي في الجامع الصغير، رقم: (٦٠٩٦).
(٢) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم: (٥٨٦٠).

والله ﷻ الَّذي خلقكم، وخلقَ أولادكم تكفَّل بأرزاقِكم وأرزاقِهم، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هُود: ٦]، فالله ﷻ جعل الأمورَ كلَّها مقرونةً بمشيئته، وإنَّ عملك أيُّها الإنسان لا يردُّ قضاءً ولا قدرًا، وإذا وقعَ أمرٌ فذلك مكتوبٌ ومقدَّرٌ.

وسواءٌ كان المولودُ ذكرًا أم أنثى فأوَّلُ الواجباتِ الَّتي على الوالدين فِعْلُها هي شُكْرُ اللهِ ﷻ على هذا المولود، والرِّضا بما قَسَمه لهم، قال تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [الشّورىٰ: ٤٩]، فجعل الأولادَ هبةً منه لمَن شاءَ مِن خَلْقه، وحثَّ على شكرها، وأمرَ الآباءَ بالقيامِ بواجِباتهم من تربيةٍ وإنفاقٍ وعنايةٍ، فإنَّه سبحانه وتعالى حَذَّرَ من إهمالِ الأولاد، والتَّفريطِ في تربيتهم، وعدَّها جنايةً من أكبر الجنايات، فقال: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التّحريم: ٦]، وقال ﷺ: «**أَكْرِمُوا أولادكُم، وأَحْسِنُوا آدابَهم**»(١)؛ لأنَّ الولدَ هِبةٌ وهديةٌ من الله إليكَ، فيجبُ عليكَ أن تقبلَها بفرحٍ، وتعتنيَ بها، وتحافظَ عليها، لا أن تُفرِّطَ فيها؛ فإنَّ ذلك موجِبٌ لغضبه، لا سيَّما إذا كان مطَّلعًا عليك يعلمُ سِرَّك وجهرك، ولا تخفى عليه خافيةٌ منك.

وقد روى البيهقيُّ عن أبي رافعٍ، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**حقُّ الولدِ على الوالدِ أنْ يُعَلِّمَه الكتابةَ والسِّباحةَ والرِّمايةَ، وألَّا يرزقه إلَّا حلالًا طيِّبًا**»(٢)، وكانتْ هذه المهاراتُ أهمَّ علومِ الشُّبَّان في ذلك

(١) رواه ابن ماجه، رقم: (٣٦٧١).

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٨٢٩٨).

الوقت، أمَّا اليوم؛ فقد تبدَّلتِ الأوضاعُ، واختلفتِ الأحوالُ، وحدثت علومٌ، وانقرضتْ أخرى، وظهرت اختراعاتٌ، وهلكت غيرُها، وتغيَّر الزَّمن، فوجب على الآباء أن يعلِّموا أولادَهم جميعَ المهاراتِ الَّتي تلزمهم، حتَّى يضمنُوا مستقبلَهم، وحينئذٍ يكون الأبُ بريئًا أمامَ الله، ويكون حظُّه كما قال الشَّاعرُ ابنُ السِّنديِّ الملقَّب كشاجم:

وَعَلَيَّ أَنْ أَسْعَى وَلَيْـ ... ـسَ عَلَيَّ إِدْرَاكُ النَّجَاحِ[1]

وقد ورد عن أحد الحكماء: «خَلِّقوا أولادَكم بغيرِ أخلاقكِم، فإنَّهم خُلِقُوا لزمانٍ غيرِ زمانِكم»[2]، فعلى الآباء أن يُقدِّروا الاختلافَ الزَّمنيَّ بينهم وبين أبنائهم، وأن يُواكبوه.

ووضَّحَ الشَّارعُ عليه السَّلام أنَّ واجبَ الأمِّ العكوفُ على تربيةِ أولادها؛ لأنَّها أَوْلَى من الرَّجل في ذلك، فهي ترعى شؤونَهم، وتقوم بتغسيلهم وتنظيفهم ومداواتهم وحياكةِ ثيابهم، وتحضيرِ الطَّعام لهم، وتعليمِهم مبادئَ العلوم إنْ كانت ممَّن يُحسِنُ العلمَ؛ ولهذا قال ﷺ: «**أيُّما امرأةٍ قعدتْ على بيتِ أولادِها، فهي معي في الجنَّة**»[3]، بينما على الأب مراعاتُهم، والسَّعيُ لكسبِ الرِّزقِ، والإنفاقُ في شراء المأكل والملبس ومصاريفِ التَّعليم، وفِعْلُ كلِّ ما يصبُّ في مصلحةِ الأولاد وتربيتهم.

(١) انظر: محاضرات الأدباء، للأصفهاني (١/ ٥٧٦).
(٢) انظر: لباب الآداب، لأسامة بن منقذ (١/ ٢٣٧).
(٣) أورده السيوطي في الجامع الصغير، رقم: (٥٠٣٤).

ومن الواجبِ على الأبوين أنْ يعدِلا بين الأولاد؛ لأنَّ الله يحبُّ العدلَ في كلِّ الأمور، فعليهما أن يعدلا في العطاءِ والتَّعليمِ والكساءِ والإنعامِ، وفيما كَبُرَ أو صَغُرَ من شؤونهم حتَّى في القُبلة؛ لأنَّ إيثارَ بعضهم على بعضٍ يُولِّد بينهم التَّحاسدَ؛ والتَّحاسدُ يجرُّ إلى التَّباغُضِ، وأَعْظِمْ بهما من هادِمَينِ للبيوت، مشتِّتَيْنِ لِلْأُسَرِ، مفرِّقَيْنِ بين الإخوان!

وكم رأينا من أُسَرٍ، وسمعنا أنَّ ثروتَها هلكتْ، وشملَها تشتَّت بسبب البغضاء الَّتي زرعها الآباءُ في الأبناء؛ ولهذا قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «**إنَّ الله يحبُّ أن تَعْدِلوا بينَ أولادِكم حتَّى في القُبَل**»[(١)]، ويقول ﷺ أيضًا: «**ساوُوا بينَ أولادِكم في العطيَّة، فلو كنتُ مُفضِّلًا أحدًا لَفضَّلْتُ النِّساءَ**»[(٢)]؛ لأنَّ النِّساءَ أحقُّ بالرَّحمة، وأجدرُ بالعطاء، وهُنَّ للبرِّ واللُّطفِ أحوجُ من الذُّكور، ولكنَّ النَّبيَّ ﷺ نهى عن التَّفضيل وحذَّرَ منه؛ خشيةَ التَّنافسِ بين الأبناء، وخشيةَ أن يحقدوا على آبائهم، أو يحسدَ الأولادُ بعضَهم بعضًا، والأبُ مأمورٌ أنْ يُعِينَ ولدَه على برِّه، وألَّا يجعلَ لشيطانِ العقوقِ طريقًا إلى قلبِ ولده، فقد قال ﷺ: «**رحمَ اللهُ والِدًا أعانَ ولدَه على بِرِّهِ**»[(٣)]، وقال أيضًا: «**أَعِينُوا أولادَكُم على البِرِّ، مَن شاءَ استخرجَ العقوقَ من ولدِه**»[(٤)]، وبهذا نبَّه ﷺ أنَّ بِيَدِ الوالدِ عقوقَ ولده له أو برَّه؛ كأنْ يُفضِّل ابنًا

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم: (٧٧).
(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم: (١١٩٩٧).
(٣) أورده السيوطي في الجامع الصغير، رقم: (٦٨٦٣).
(٤) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم: (٤٠٧٦).

على آخر بوصيَّةٍ أو عطيَّةٍ أو إطراءٍ أو ابتسامةٍ، أو اصطحابٍ في سفر، أو توليةٍ على عمل، أو ما شابَهَ ذلك؛ فَلْيَكُن الأبُ عادلًا حكيمًا، وإلَّا جَرَّ على نفسِه وبالًا يلحقه إلى قبره.

وروى التِّرمذيُّ، والحاكمُ عن عمرو بن سعيدٍ، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**ما نَحَلَ والدٌ ولدًا مِن نَحْلٍ أفضلَ مِن أدَبٍ حَسَنٍ**»(١)، مثلَ أن يُعلِّمَه كيف يأكلُ ويشربُ، وكيف يُعامَلُ النَّاسَ، ويعيشُ بينهم، و يعاشرهم، وما يجب عليه تُجَاه ربِّه ووالديه ونفسِه والنَّاسِ أجمعين، ويقول ﷺ: «**إنَّما سمَّاهم اللهُ الأبرارَ؛ لأنَّهم بَرُّوا الآباءَ والأمَّهاتِ والأولادَ، كما أنَّ لوالديكَ عليكَ حقًّا كذلكَ لولدِك**»(٢)، رواه الطَّبرانيُّ.

وإنَّ صلاحَ الأبناءِ وتربيتَهم الصَّالحةَ تنفع الآباء، ويجري ثوابُها لهم بعد موتهم؛ ولهذا يقول ﷺ: «**إذا ماتَ ابنُ آدمَ، انقطعَ عملُه إلَّا من ثلاثٍ: صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ يُنتفع به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له**»(٣)، وقال ﷺ أيضًا: «**إنَّ الرَّجلَ تُرفَع درجتُه في الجنَّة، فيقول: أنَّى لي هذا؟ فيُقالُ له: باستغفارِ ولدِك لك**»(٤)، رواه ابن ماجه عن أبي هريرة.

---

(١) رواه الترمذي، رقم: (١٩٥٢)، وقال: هذا حديث غريب، والحاكم في المستدرك، رقم: (٧٦٧٩).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم: (١٣٨١٤).

(٣) رواه مسلم، رقم: (١٦٣١)، وابن ماجه، رقم: (٢٤١)، بلفظ: «خير ما يخلف الرجل من بعده ثلاث: ولد صالح يدعو له، وصدقة تجري يبلغه أجرها، وعلم يعمل به من بعده».

(٤) رواه ابن ماجه، رقم: (٣٦٦٠).

وعلى الوالد أن يكون أُنموذجًا صالحًا لولده، وأن يتجنَّبَ أمامَه فِعْلَ كلِّ قبيحٍ؛ لأنَّ الولد دائمًا يُقلِّد أباه، وهذا يُوجِبُ على الأب أن يكون أمامَ ولده مثالًا طيِّبًا للأعمال الصَّالحة، والأخلاق الجميلة؛ ليشبَّ الولدُ صالحًا ذا خلُقٍ كريم، وأمَّا الحنوُّ على الولد، والرَّأفةُ به، والصَّبرُ على طَيْشِه، فأمرٌ طبيعيٌّ أودَعَهُ اللهُ في الآباءِ، إلَّا مَنْ ندرَ منهم، ولا عبرَة للنَّادر.

وقد روى الشَّيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ الأقرعَ بنَ حابِسٍ رأى رسولَ الله ﷺ يُقبِّل ولديه الحسنَ والحسين، فقال له: إنَّ لي عشرةً من الولد ما قبَّلتُ أحدًا منهم، فقال ﷺ: «**مَن لا يَرْحَمْ لا يُرْحَم**»[(١)].

وروى البخاريُّ عن عائشة، قالت: جاء أعرابيٌّ إلى النَّبيِّ ﷺ، فقال: أَتُقبِّلونَ الصِّبيان؟ فمَا نقبِّلُهم! فقال النَّبيُّ ﷺ: «**أَوَ أَمْلِكُ لكَ أن نزعَ اللهُ من قلبكَ الرَّحمةَ!**»[(٢)].

كما روى التِّرمذيُّ عن عمر بن عبد العزيز، قال: زعمت المرأة الصَّالحة خولةُ بنتُ حكيمٍ أنَّ النَّبيَّ ﷺ خرج ذات يومٍ وهو مُحْتضِنٌ أحدَ ابني ابنته يقولُ: «**إِنَّكُم لتُبخِّلون، وتُجبِّنُون، وتُجهِّلون، وإنَّكم لمن رَيْحَانِ**[(٣)] **الله**»[(٤)].

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٥٩٩٧)، ومسلم، رقم: (٢٣١٨).

(٢) رواه البخاري، رقم: (٥٩٩٨)، ومسلم، رقم: (٢٣١٧).

(٣) الريحان: الرحمة والرزق والراحة، وبالرزق سُمِّي الولد ريحانًا. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٢٨٨).

(٤) رواه الترمذي، رقم: (١٩١٠).

وكثيرٌ من النَّاس يحزَنُ إذا رُزِق الأنثى، وهذه خَصْلةٌ ذميمةٌ عيَّر اللهُ مُرتكِبيها وذمَّهم بقوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ۝٥٨﴾ [النّحل: ٥٨]، والإنسانُ لا يعلم أين يكون الخير، مع أنَّ الاثنين الذَّكر أو الأنثى عطيَّةُ اللهِ، وممَّا قاله ﷺ: «**لا تَكْرَهُوا البناتِ، فإنَّهنَّ المُؤنِساتُ الغالِياتُ**»(١).

كما أفادَ النَّبيُّ ﷺ أنَّ تربيةَ البنت أعظمُ ثوابًا وأكثرُ أجرًا من تربية الابن، وأنَّ رزقها أوفرُ من رزقه، فقد روى البخاريُّ ومسلمٌ والتِّرمذيُّ عن عائشة، قالت: جاءتني امرأةٌ ومعها ابنتان لها تسألني، فلم تجد عندي غيرَ تمرةٍ واحدةٍ، فأعطيتُها إيَّاها، فقسَمَتْها بين ابنتيها، ولم تأكل منها، ثمَّ قامت، فخرجَتْ، فدخل النَّبيُّ ﷺ، فحدَّثْتُه، فقال: «**مَنِ ابْتُلِيَ مِن هذهِ البناتِ بشيءٍ، فأحسنَ إليهنَّ كُنَّ له سِتْرًا مِنَ النَّارِ**»(٢).

ومن أحسن ما قِيلَ في الولدِ قولُ الأحنف بن قيسٍ لمعاويةَ لمَّا سأله: ما تقول في الولد؟ قال: «**يا أمير المؤمنين! ثمارُ قلوبنا، وعمادُ ظهورنا، ونحن لهم أرضٌ ذليلةٌ، وسماءٌ ظَلِيلَةٌ، وبهم نَصُولُ على كلِّ جليلةٍ، فإن طلبوا، فأعطِهم، وإن غَضِبُوا، فأَرْضِهم، يمنحوك وُدَّهم، ويُحبُّوك جُهدَهم، ولا تكنْ عليهم قفلًا ثقيلًا، فيَمَلُّوا حياتَك، ويَوَدُّوا وفاتَك، ويكرهوا قُربَك**»(٣)، ويقول الشَّاعر ابنُ المعلَّى:

---

(١) رواه أحمد، رقم: (١٧٣٧٣).

(٢) رواه البخاري، رقم: (٥٩٩٥)، ومسلم، رقم: (٢٦٢٩).

(٣) انظر: إحياء علوم الدين، للغزالي (٢/٢١٨).

لَوْلَا بُنَيَّاتٌ كَزُغْبِ[1] الْقَطَا[2] رُدِدْنَ مِنْ بَعْضٍ إِلَى بَعْضِ
لَكَانَ لِي مُضْطَرَبٌ واسِعٌ في الأَرْضِ ذاتِ الطُّولِ وَالْعَرْضِ
وَإِنَّمَا أَوْلَادُنَا بَيْنَنَا أَكْبَادُنَا تَمْشِي عَلَى الأَرْضِ
لَوْ هَبَّتِ الرِّيحُ عَلَى بَعْضِهِمْ لَامْتَنَعَتْ عَيْنِي عَنِ الغَمْضِ[3]

---

(١) الزغب: ما يعلو ريش الفرخ. انظر تاج العروس، للزبيدي (٣/ ١٨).

(٢) القطاةُ: طائرٌ مشهورٌ. انظر تاج العروس، للزبيدي (٣٩/ ٣٢٠).

(٣) انظر: شرح ديوان الحماسة، للتبريزي (١/ ١٠٢).

٨- الإنفاق على العيال

قال الله تعالى: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ﴾ [الإسراء: ٣١].

وعيالُك هم أهلُ بيتك، وكلُّ عاجزٍ تحتَ كنفك ممَّن أمركَ اللهُ بالإنفاقِ عليه؛ كالأولادِ والزَّوجةِ والوالدينِ، والإخوةِ والأخواتِ الَّذين لا يستطيعون الكسبَ.

والإنفاقُ على العيال أعظمُ أجرًا حتَّى من الإنفاق في سبيل الله، بدليل ما رواه مسلمٌ في «صحيحه» عن أبي هريرة، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«دينارٌ أنفقْتَهُ في سبيل الله، ودينارٌ أنفقْتَه في رَقَبَةٍ، ودينارٌ تصدَّقتَ به على مسكين، ودينارٌ أنفقْتَه على أهلك، أعظمُها أجرًا الَّذي أنفقْتَهُ على أهلِكَ»**[١].

فليعتبرِ البخلاءُ الَّذين يُقتِّرون على أطفالهم ونسائهم، وقد أغناهم الله، وأمدَّهم بواسع فضله، وزادهم من رزقه، وليعتبرِ المبذِّرون الَّذين يَبخَلُون على أهليهم بما يقوِّم أَوْدَهم[٢]، ويُهمِلُون شؤونَهم، وينفقون أموالَهم في سبيلٍ ليس لهم من وراء الإنفاق فيها إلَّا الوِزرُ أو السُّمعةُ السَّيِّئة: ﴿إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ﴿٢٧﴾﴾ [الإسراء: ٢٧].

(١) رواه مسلم، رقم: (٩٩٥).

(٢) أَوِدَ الشيء: اعوجَّ. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٧/ ٣٩٤).

وقد روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي مسعود البدريِّ رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ، قال: «**إذا أنفقَ المسلمُ نفقةً على أهلِه وهو يحتَسِبُها، كانت له صدقةً**»[١]؛ يعني: أنَّ الرَّجل إذا أنفق نفقةً على أهله امتثالًا لأمر الله، واحتسابًا لما عند الله، وأنفقَها بصدقٍ ومحبَّةٍ، وإخلاصِ نيَّةٍ، كان له أجران: أجرٌ لاكتسابه تلك النَّفقة، وأجرٌ آخرُ لإنفاقه إيَّاها، والله عز وجل لم يكلِّفْنا في الإنفاق شططًا[٢]، بل قال لنا: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾ [الطّلاق: ٧]؛ أي: مَن وسَّع اللهُ عليه في رزقه، فعليه أن يُرَفِّهَ عن عائلته، ويوسِّعَ عليهم في الإنفاق، ويُعِدَّ لَهُمْ من وسائل الرَّاحة والهناء ما لا يضرُّ في دينِهم وصحَّتِهم، كما قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «**ليسَ مِنَّا مَنْ وَسَّعَ اللهُ عليه، ثمَّ قَتَّر على عيالِهِ**»[٣].

أمَّا مَن ضاق رزقُه، وقلَّت ذاتُ يده، فلينفقْ حسبَ استطاعته، ولا يكلِّفْ نفسَه شططًا؛ لأنَّ الله عز وجل قال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطّلاق: ٧]، وإذا احتسب الإنسانُ النَّفقةَ، ولم يُضيِّقْ على عياله، بل أنفق حسب سَعَتِه وطاقته؛ امتثالًا لأمر ربِّه، فإنَّ اللهَ لا يُخلِف وعدَه بأن سيجعلُ له من بعد عسرٍ يُسرًا، وروى الطَّبرانيُّ عن أبي أمامة، عن النَّبيِّ ﷺ: «**شَرُّ النَّاسِ المُضَيِّقُ على أهلِهِ**»[٤].

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٥٣٥١)، ومسلم، رقم: (١٠٠٢).
(٢) شطَّ: بعُدَ. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٩/ ٤١٥).
(٣) أورده السيوطي في الجامع الصغير، رقم: (١٠٤٠٧).
(٤) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم: (٨٧٩٨).

وروى الشَّيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ، قال: «**ما مِنْ يوم يُصبِحُ العبادُ إلَّا مَلَكانِ ينزلانِ، فيقولُ أحدهما: اللَّهمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، ويقولُ الآخر: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا**»(١)، وهذا يؤيِّده قولُ الله عز وجل: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سَبَإ: ٣٩].

وإذا أنفقَ الإنسانُ على أهلِه في مأكلِهم وملبسهِم وراحتِهم كفاهم شرَّ التَّطلُّعِ إلى ما في أيدي النَّاس، وكفاهم شرَّ الحاجةِ إليهم؛ ولهذا قال ﷺ في حديثٍ رواه الحاكم وغيرُه عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «**كلُّ معروفٍ صدقةٌ، وما أنفقَ الرَّجلُ على أهله كُتِبَ له صدقةٌ، وما وَقَى به المرءُ عِرْضَه، كُتِب له صدقةٌ، وما أنفق المؤمنُ من نفقةٍ، فإنْ خَلَفَها على الله، واللهُ ضامنٌ، إلَّا ما كان في بنيانٍ أو معصيةٍ**»(٢).

واللهُ عز وجل وعدَ المنفِقَ على أهله، أو ما يحفظ به عِرْضَه بأن يخلفَ عليه، أمَّا إذا أنفقَ في معصيةٍ، أو حاجةٍ زائدةٍ عنه، أو بنى بنيانًا ليتطاولَ به على النَّاس، أو يتباهى به أمامَهم، فهذا المُنفِقُ ليس له على اللهِ وعدٌ ولا عهدٌ، بل ربَّما دخل في زمرة المبذِّرين، كما قال ربُّنا جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإسرَاء: ٢٧].

---

(١) رواه البخاري، رقم: (١٤٤٢)، ومسلم، رقم: (١٠١٠).

(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى، رقم: (٢١١٣٣)، والحاكم في المستدرك، رقم: (٢٣١١).

وروى ابنُ حبَّان عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه، عن رسولِ الله ﷺ أنَّه قال: «**إنَّ اللهَ سائِلٌ كلَّ راعٍ عَمَّا استرعاهُ**(١)، **حَفِظَ أَمْ ضَيَّعَ، حتَّى يُسْأَلَ الرَّجلُ عن أهلِ بيتِه**»(٢)؛ أي: إنَّه يُسْأَلُ عن تربيتهم ورعايتهم وإنفاقه عليهم، وهل يَسَّرَ عليهم وقتَ ميسرته أم قَتَّرَ، ويؤيِّد ذلك قولُه ﷺ: «**كُلُّكم راعٍ ومسؤولٌ عن رعِيَّته، الإمامُ راعٍ ومسؤولٌ عن رعِيَّته، والرَّجلُ راعٍ في أهلِه ومسؤولٌ عن رعِيَّته، والمرأةُ راعيةٌ في بيتِ زوجِها ومسؤولةٌ عن رعِيَّتها، والخادمُ راعٍ في مالِ سيِّده ومسؤولٌ عن رعيَّته، وكُلُّكم راعٍ ومسؤولٌ عن رعيَّته**»(٣)، رواه البخاريُّ ومسلمٌ عن ابن عمر.

ويتبيَّنُ لنا من هذا الحديث أنَّ الرَّجلَ في أهله راعٍ، كما أنَّ الحاكم في حكومته راعٍ ومسؤولٌ عن رعِيَّته وعدلِه فيهم، ورعايتِه لهم، وحفظه إيَّاهم، وكذلك المرأةُ راعيةٌ في بيتِها ونفسِها ومالِ زوجها وتربيةِ أولادها، والرَّجلُ مسؤولٌ عن رعيَّته الَّذين هم أولادُه وزوجتُه، ومَنْ كانوا تحت رعايته ممَّن تلزمُه نفقتُه في كلِّ ما يتعلَّق بشؤونهم حسبَ حالته الماليَّة من سَعَةٍ أو ضيقٍ، و﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطَّلَاق: ٧] فإذا كان الأمر كذلك، فكيف يستطيع ذو دِينٍ ووجدانٍ أن يُهمِل أمرَ رعِيَّته؟

وقد مَنَّ اللهُ على الرَّجل بأن جعله قَوَّامًا على بيتٍ يضمُّ بين

---

(١) رواه الترمذي، رقم: (١٧٠٥).

(٢) رواه النسائي، رقم: (٩١٢٩)، وابن حبان، رقم: (٤٤٩٣).

(٣) رواه البخاري، رقم: (٨٩٣)، ومسلم، رقم: (١٨٢٩).

جدرانه زوجةً وبنينَ وبناتٍ، وجعلَ هذه الرَّعيَّة كإمارةٍ صغيرةٍ، أمَّرَه عليها لِيتصرَّف كما أمرَه فيها، فيأمر وينهى بالمعروف، ويَعدل ويُحسِن ويؤدِّب؛ فواجبٌ على ذي الدِّين أن يشكرَ الله على هذه النِّعمة، ولكنْ هناك قومٌ لئامٌ أهملوا أمرَ هذه الإمارة الصَّغيرة، وذهبوا ملبِّين نداءَ الشَّيطان، وأهملوا النِّساء والصِّغار والكبار، وربَّما وصلت بهم الخِسَّةُ إلى إهمالهم حتَّى في الإنفاق عليهم؛ ولهذا أخبرنا الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام في حديثٍ رواه أبو داود عن عبد الله بن عمرو: «**كَفَى بالمرءِ إثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ**»(١)، وفي روايةٍ: «**كَفَى المَرْءَ لؤمًا أَنْ يُضيِّعَ مَنْ يَعُول**»(٢).

وهذا الحديثُ خاصٌّ بمَن تركَ أهلَه ولم يُنفِق عليهم مع أنَّه يقدر على ذلك ولديه كسبٌ ومالٌ، أمَّا إذا لم يكن له مالٌ وكسبٌ، وإنَّما تركهم باحثًا عن رزقٍ لهم، فهذا لم يَأثم، وإنَّما خرج في سبيل الله.

وقد نَوَّهَ ﷺ بشأن العمل، والسَّعي إلى الإنفاق على النَّفس والأسرة في حديثٍ رواه الطَّبرانيُّ عن كَعْب بنِ عُجْرَة يُفِيد أنَّه ﷺ كان جالسًا ذاتَ يومٍ في نفَرٍ من أصحابه، إذ نظروا إلى شابٍّ ذي جَلَدٍ وقوَّةٍ، وقد بَكَّر يسعى، فقالوا: وَيْحَ هذا! لو كان شبابُه وجَلَدُه في سبيل الله! - ؛أي: في الجهاد، أو الطَّاعة البدنيَّة -، فقال ﷺ:

---

(١) رواه مسلم، رقم: (٩٩٦)، بلفظ: «كفى بالمرء إثمًا أن يحبس، عمن يملك قوته»، وأبو داود، رقم: (١٦٩٢).

(٢) رواه مسلم، رقم: (٩٩٦)، بلفظ: «كفى بالمرء إثمًا أن يحبس، عمن يملك قوته»، والنسائي، رقم: (٩١٣١).

«لا تقولوا هذا، فإنَّه إنْ كان خرجَ يسعى على نفسِه لِيُعِفَّها، فهو في سبيل الله، وإن كان خرجَ ليُعِفَّها صغارًا، فهو في سبيلِ الله، وإنْ كانَ خرجَ يسعى على أبوينِ شيخينِ كبيرينِ، فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياءً ومفاخرةً، فهو في سبيل الشَّيطان»(١).

وهذا الحديثُ يؤيِّده حديثٌ آخرُ رواه البخاريُّ، ومسلمٌ، يفيد أنَّ رجلًا جاء يستأذن النَّبيَّ ﷺ في الجهاد، فقال ﷺ: **«أَحَيٌّ والداكَ؟»**، قال الرَّجل: نعم، قال ﷺ: **«ففيهما فَجَاهِدْ»**(٢)؛ أي: إنَّك إذا أنفقتَ عليهما، ورعيتَ حقَّهما فلَكَ أجرُ مجاهدٍ في سبيل الله.

وممَّا ورد في فضلِ النَّفقةِ على الصَّدقةِ عندَ الحاجة إليها أنَّ رجلًا من بني عُذْرَةَ أعتقَ عبدًا له عن دُبُرٍ؛ أي: أعتقه بعد موته، أو قال: عبدي هذا حُرٌّ بعدَ وفاتي، وكان لا يملك غيرَه، فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ، فقال: **«أَلَكَ مالٌ غيرُه؟»**، قال: لا، فقال: **«مَنْ يشتريهِ منِّي؟»**، فاشتراه نُعَيمُ بنُ عبدِ الله العدويُّ بثمانِمئةِ درهم، فجاء بها إلى النَّبيِّ ﷺ، فدفعها إليه، ثمَّ قال: **«ابدأْ بنفسِكَ فتصدَّقْ عليها، فإن فَضَلَ شيءٌ، فَلِأَهلك، فإنْ فَضَلَ عن أهلك شيءٌ فلذي قرابتك، فإنْ فَضَلَ عن ذي قرابتك شيءٌ، فهكذا، وهكذا»**(٣)؛ يعني: أنفِقْ على المحتاجين ممَّن حولك، ومعناه: أنَّ رسولَ الله ﷺ باعَ العبدَ، وأعطى ثمنَه إلى الرَّجلِ، فقال: ابدأ بنفسك، ثمَّ أَنفِقْ ما فضَلَ بيدك

(١) سبق تخريجه.
(٢) رواه البخاري، رقم: (٣٠٠٤)، ومسلم، رقم: (٢٥٤٩).
(٣) رواه مسلم، رقم: (٩٩٧).

على أهلك وذوي قرابتك، وإنْ زادَ شيءٌ فتصدَّقْ به، أمَّا أن تأخذَ الدَّراهمَ فتُنفِقَ منها، وتتصدَّقَ بما بقي، وتبقى خاويَ الوِفَاض[١] صفرَ اليدين، فلا.

وعلى ربِّ العائلة ألَّا يكونَ شيطانًا متسلِّطًا على عائلته وأهله، فيَمُنَّ عليهم بالإنفاق، ويذكرَ أفضالَه عليهم، بل عليه أن يتركَ الغِلْظَة، ويُحسِنَ المعاملةَ، ويشكرَهم على ما يقومون به من شؤونٍ كُلِّفُوا بها، ويلتزمَ الرِّفقَ، ويكونَ من خير الرِّجال الَّذين مدحهم الرَّسولُ ﷺ بقوله: «**خيرُ الرِّجالِ من أمَّتي الَّذين لا يتطاولون على أَهْليهم، ويُحسنون إليهم ولا يظلمونهم**»[٢]، فإنَّه حينئذٍ يكون محبوبًا مألوفًا، يتمنَّون ساعةَ دخولِه عليهم، وجلوسِه معهم.

وقال عليه الصَّلاة والسَّلام: «**إنَّ مِن أكْمَلِ المؤمنين إيمانًا أحسنَهم خُلُقًا، وألْطَفَهم بأهلِه**»[٣]، رواه التِّرمذيُّ، والحاكم عن عائشة.

ومن الأحاديث الواردة في فضل القيام بشؤونِ البناتِ والإنفاقِ عليهنَّ قولُه ﷺ: «**مَنْ كُنَّ له ثلاثُ بناتٍ يُؤَدِّبهنَّ ويرحَمُهُنَّ ويَكْفُلُهُنَّ،**

---

(١) الوَفْضَة: شيء مثل الجَعْبَة من أدم ليس فيها خشب. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٩/ ١٠٧).

(٢) لم أقف عليه ولم أجده فيما توفر لي من مصادر حديثية، وأورده الثعلبي في تفسيره (٢/ ١٧٢)، بلفظ: «وخير الرجال من أمتي من يلطف بأهله لطف الوالدة بولدها...».

(٣) رواه الترمذي، رقم: (٢٦١٢)، وقال: هذا حديث حسن، والحاكم في المستدرك، رقم: (١٧٣).

وَجَبَتْ لهُ الجَنَّةُ البتَّةَ»، قِيل: يا رسولَ الله! فإن كانتا اثنتين؟ قال: «**وإن كانتا اثنتين**»[١]، فرأى بعضُ القوم أنْ لو قال: واحدةً، لقال: واحدةً. رواه أحمد عن جابر.

وممَّا ورد أيضًا في هذا الباب قوله ﷺ: «**خِيارُكُم خيارُكُم لنسائِهم وبناتِهم**»[٢]، أخرجه ابن ماجه عن ابنِ عمرٍو.

(١) رواه أحمد، رقم: (١٤٢٤٧).

(٢) رواه الترمذي، رقم: (١١٦٢)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه، رقم: (١٩٧٨).

٩- الكسبُ

قال الله تعالى: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ﴾ [الإسراء: ٣١].

ليس بين واجبات النَّفس واجبٌ أعزمُ وآكدُ على المرء من واجب السَّعي للمعاش، فعلى الرَّغم من أنَّ الله ﷻ كفل الرِّزقَ للإنسان بقوله: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ﴾ [الإسراء: ٣١]، فإنَّ الرِّزق يحتاج إلى سعيٍ، والسَّعي واجبٌ؛ لهذا قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ [الجُمُعَة: ١٠]، فأمرَنا بعد تأديتنا الصَّلاةَ الَّتي هي الواجب الرَّبَّانيُّ على المرءِ أن ننتشرَ في الأرض، ونسعى فيها ابتغاءَ فضل الله تعالى ورزقه، ولكن بشرط ألَّا ننسى ذِكْرَ خالِقنا في أثناء طلبنا الرِّزق لأيِّ سببٍ، سواءٌ كان تجارةً أم أداء عملٍ؛ فإنَّ بذكر الله تخشع قلوبنا، ونتجنَّبُ ما نهانا عنه ربُّنا، كما أنَّ ذكر الله سببٌ للبركة الَّتي ليس لنا غِنًى عنها.

ومن المعروف أنَّ الرَّجلَ مسؤولٌ عن قوتِ عياله، يعمل بالزِّراعة والتِّجارة والصِّناعة والوظيفة والحرف، وكلٌّ ميسَّرٌ لِما خُلِقَ له، كما يقول الله: ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ﴾ [الزّخرُف: ٣٢]، وقال رسولُ الله ﷺ: «**إنَّ الله يحبُّ العبدَ المؤمنَ**

المحترفَ»[١]، وقال أيضًا: «**مَنْ أَمْسى كَالًّا من عملِ يدِه، أَمْسَى مغفورًا له**»[٢].

والمالُ هو العينُ الَّتي يطلبها الإنسان في كلِّ سبيلٍ؛ ليتوصَّل بها إلى رزقه؛ مأكله، ومَلْبَسِهِ، ومَشْرَبِهِ؛ لذلك حدَّد الدِّين الإسلاميُّ لكسب هذا المال قانونًا لا تصحُّ مخالفته، ووضع أصولًا تجب مراعاتُها؛ فبيَّنَ الحلالَ والحرام في كَسْبِ المال والمأكل والملبس والمشرب، وجعل لكلِّ ذلك حدودًا مَنْ تعدَّاها ظَلَمَ نفسه، حتَّى في الفقر؛ لأنَّه لا يُبِيح الحرام، وإذا كان كَسْبُ الحرام قبيحًا بالنِّسبة إلى الفقير، فهو إلى الغني أقبحُ.

وقد جعلَ اللهُ عمرانَ هذا الكون مُتَرَتِّبًا على السَّعي وراء الرِّزق، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [المُلك: ١٥]، وجعل تحصيلَ الرِّزق متوقِّفًا على اختلاف الأسباب والأعمال؛ فالزَّارعُ يجد سبب رزقه في التَّاجر، والتَّاجرُ يجده في العامل، والنَّجَّار يجده في البَنَّاءِ، والحدَّادُ يجده فيهما، والموظَّفُ يخدمُ الجميع، يقول أسامة بن منقذ:

النَّاسُ بالنَّاسِ مِن بَدْوٍ وحاضرةٍ ... بَعْضٌ لِبَعْضٍ وَإِنْ لَمْ يَشْعُرُوا خَدَمُ[٣]

إنَّ السَّعي خَلْفَ الرِّزق من أفضل الأعمال، وهو في درجة الجهاد - كما سيأتي -، لا سيَّما إذا كان الرَّجل العامل مُكَلَّفًا بأُسرةٍ فيها

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم: (٨٩٣٤).
(٢) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم: (٧٥٢٠).
(٣) سبق تخريجه.

الصِّغار والعجزة، وهو قادرٌ على السَّعي والكسب لإعالتهم، وممَّا وردَ في السُّنَّة الشَّريفة في الحثِّ على العمل ما رواه الطَّبرانيُّ عن كَعْبِ بنِ عُجْرَةَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان جالسًا مع أصحابه ذاتَ يوم، فنظروا إلى شابٍّ ذي جَلَدٍ وقوَّةٍ، وقد بَكَّرَ يسعى فقالوا: وَيْحَ هذا! لو كان شبابهُ وجَلَدُه في سبيل الله! فقال ﷺ: «**لا تقولوا هذا؛ فإنَّه إنْ كان خَرَجَ يسعى على وَلَدِهِ صغارًا، فهو في سبيل الله، وإن كانَ خَرَجَ يسعَى على أبوين شيخين كبيرين، فهو في سبيل الله، وإن كانَ خَرَجَ يسعى على نفسِه يُعِفُّها، فهو في سبيل الله، وإن كانَ خَرَجَ يسعى رياءً ومفاخرةً، فهو في سبيلِ الشَّيطان**»[1]، وسبيلُ الله تعالى - كما هو واضحٌ في هذا الحديث - كلُّ طريقٍ يسلُكُه الإنسان لتحصيل ما فيه خيرُه وسعادتُه وهناؤه؛ بشرط أن يكون سعيُه مرتكزًا على نيَّةٍ صالحةٍ، وقَصْدٍ كريمٍ.

ومن النِّيَّة الصَّالحة والقصد الكريم صِدْقُ التَّاجر؛ فلا يحلف بالله كاذِبًا مُتَعَمِّدًا، ولا يَغُشُّ، ولا يروِّجُ سلعةً فاسدةً، وصِدْقُ الصَّانعِ؛ فلا يُخَادع، ولا يماطل، ولا يُخْلِف وعدًا، وصِدْقُ الموظَّفِ؛ فلا يهمل، ولا يرتشي، وصِدْقُ الوكيلِ؛ فلا يخون، وصِدْقُ القاضي والحاكم؛ فلا يتأثَّر حكمه برشوةٍ، ولا برجاءٍ أو واسطةٍ، فيميلُ عن الحقِّ، والرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام يقول: «**مَنْ غَشَّنا فليس منَّا**»[2].

إنَّ الكذب والغِشَّ، والإخلافَ والإهمالَ، والرَّشوةَ والخيانةَ كلُّها

(١) سبق تخريجه.
(٢) رواه مسلم، رقم: (١٠١).

سبلٌ دنيئةٌ؛ فقد روى التِّرمذيُّ عن أنس بن مالكٍ ﵁ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**مَنْ كانتِ الآخرةُ هَمَّهُ، جَعَلَ اللهُ غِناه في قلبه، وجمعَ له شَمْلَه، وأَتَتْهُ الدُّنيا وهي راغمةٌ، ومن كانت الدُّنيا هَمَّهُ، جعل الله فَقْرَه بين عينيه، وفَرَّقَ عليه شملَه، ولم يأتِه من الدُّنيا إلَّا ما قُدِّرَ له**»[(١)]، وكثيرًا ما حذَّرَ النَّبيُّ ﷺ من البطالة وسوء نتائجها، فقال: «**البطالةُ تُقَسِّي القلبَ**»[(٢)]، وقال أيضًا ﷺ: «**إِذا قصَّرَ العبدُ في العمل، ابتلاهُ اللهُ بالهَمِّ**»[(٣)].

إنَّ الهمومَ، والأكدارَ، والأمانيَّ الباطلةَ، وقسوةَ القلب، والجرأةَ على ارتكاب المحرَّمَاتِ والآثام، والاعتداءَ على الغير، والإجرامَ، لا تكون إلَّا من ذوي البَطَالة والفراغ، ومتى انتشرت البطالة في أمَّةٍ، انتشرت معها هذه الآفات، وقد رغَّبَ الشَّارعُ عليه السَّلام في السَّفر، وحثَّ عليه مَنْ ضاقَ رِزْقُه في بلده، فقال: «**سَافِروا تَصِحُّوا وتَغْنَموا**»[(٤)]، رواه البيهقيُّ عن ابن عمر، وفي رواية: «**تُرْزَقوا**»[(٥)]؛ يعني: أنَّ الرِّبحَ والمنافعَ الدُّنيويَّةَ، إذا لم تتوفَّر في وطنٍ ما غَادِرُوهُ وسافِروا؛ لتحصلوا عليها في وطنٍ آخرَ؛ فإنَّكم إن سافرتم نلتم ما تريدون من الأرباح والمكاسب علاوةً على الصِّحَّة والقوَّة الجسديَّة، فلا تتقاعسوا، أو تَخْلُدوا إلى الرَّاحة والفقر؛ فإنَّ ذلك ليس من شأن

---

(١) رواه الترمذي، رقم: (٢٤٦٥).

(٢) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٦٠٦١).

(٣) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٦٧٨٧).

(٤) رواه البيهقي في السنن الكبرى، رقم: (١٣٥٨٨).

(٥) رواه السيوطي في الجامع الصغير، رقم: (٦٩٥٦).

الإسلام، وإنَّما عليكم أن تعملوا وتسعَوا؛ امتثالًا لقول النَّبيِّ عليه السَّلام: «**اعملوا، وكلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ له**»(١).

ومن شروطِ العملِ وأسبابِ نجاحه الثَّباتُ والاستقامةُ من غير مَلَلٍ أو ضَجَرٍ؛ كما قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «**قُلْ: آمَنْتُ باللهِ، فاسْتَقِمْ**»(٢)، رواه مسلم عن سُفيانَ بنِ عبد الله.

إنَّ العملَ القليلَ إذا رافقتْه همَّةٌ ونشاطٌ واستقامةٌ أحبُّ إلى اللهِ من العملِ الكثيرِ الَّذي يؤدِّي المَلَلُ منه إلى تركه والانقطاع عنه، ومن أَحْسَنِ الأعمال وأحبِّها إلى الله تعالى العملُ المَقْرُون بالتَّوكُّل والاعتمادِ عليه؛ كالزِّراعة، والصِّناعة، والغَوصِ، والتِّجارة، وأمَّا العمل مرجوُّ الفائدة؛ كالوظيفة، واليوميَّة؛ فإنَّه أقلُّ فضيلةً، ولكنَّه خيرٌ من البطالة.

أمَّا أولئك الَّذين تقاعسوا عن العمل، وسَمَّوْا أنفسَهم مُتَوَكِّلين، وقالوا: رزقُك يطلبُك ويأتيك، حتَّى لو كنت في جُحرِ ضَبٍّ، وقالوا: إنَّ الله قدَّرَ في الأزلِ الحظوظَ، فإنَّهم ليسوا من التَّوكُّل في شيءٍ، وهم بعيدون عمَّا يريده الإسلام منهم؛ لأنَّ الإسلام ينهى عن هذه الفكرة، ويأمر المسلمين أن يسلكوا الطُّرُقَ الموصلةَ إلى خيراتِ الدُّنيا، والدَّرجاتِ العُليا في الآخرة، وكلُّ إنسانٍ سيأتيه ما قُدِّرَ له من حظٍّ، فالله ﷻ يُيَسِّرُ لكلِّ واحدٍ ما قضاه وقدَّرَه له؛ لأنَّ القضاء والقَدَرَ غيبٌ علمه عند الله، فلا يعلمه نبيٌّ مرسَلٌ ولا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ،

(١) رواه البخاري، رقم: (٤٩٤٩)، ومسلم، رقم: (٢٦٤٧).
(٢) رواه مسلم، رقم: (٣٨).

وعلى المسلم الإيمانُ به والرِّضا بما كتبه الله له، وأَلَّا يشغلَ فكرَه ونفسَه في قَدَرٍ غائب.

قال الإمامُ جعفرُ الصَّادقُ رضي الله عنه: «**إنَّ اللهَ أرادَ بنا شيئًا، وأراد منَّا شيئًا؛ فما أرادَه بنا، طواه عنَّا، وما أراده منَّا، أظهرَه لنا، فما بالنا نشتغل بما أراده لنا عمَّا أراده منَّا؟!**»(١) فعلى المرءِ المسلم صادقِ الإيمانِ أَلَّا يشغلَ نفسه بتوكُّلٍ كاذبٍ مَقْرُونٍ بالإهمال والتَّقاعدِ عن العمل، بل يسعى ويعمل، ويَصْدُقَ بعمله، ويتوكَّل على ربِّه، فهذا هو التوكُّلُ الشَّرعيُّ، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «**لو أَنَّكم تَتَوَكَّلون على اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُم كَما يَرْزُقُ الطَّيرَ، تَغْدُو خِمَاصًا(٢)، وتَرُوح بِطَانًا(٣)**»(٤).

وكان في الصَّحابةِ والتَّابعين رضوان الله عليهم التَّاجرُ والزَّارع والبنَّاء والجزَّار والبَحَّار والمتطوِّعُ في الجيش، فلا استكبر أحدُهم عن عملٍ، ولا أَنِفَ من فعلٍ؛ لأَنَّهم كانوا يرون هذا العمل فرضًا محتَّمًا عليهم، ومع ذلك لم يردَّهم العملُ في كسب عيشهم عن طاعةٍ، ولا عن فعلِ معروفٍ، وفي الحديث: «**إنَّ الله قَسَمَ بينكم أخلاقَكم كما قَسَمَ بينكم أرزاقَكم، وإنَّ الله يُعطي الدُّنيا من يُحِبُّ**

---

(١) انظر: الملل والنحل، للشهرستاني (١/ ١٦٦).

(٢) خماصًا: جياعًا. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٧/ ٣٠).

(٣) بطانًا: ممتلئة الأجواف. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٧/ ٣٠).

(٤) رواه الترمذي، رقم: (٢٣٤٤)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه، رقم: (٤١٦٤)، وأحمد، رقم: (٢٠٥).

ومن لا يحبُّ، ولا يعطي الدِّينَ إلَّا لِمَنْ أحبَّ، فمن أعطاهُ الله الدِّينَ فقد أحبَّهُ، والَّذي نفسي بيده لا يُسْلِمُ عبدٌ حتَّى يَسلَمَ قلبُه ولسانُهُ، ولا يؤمنُ عبدٌ حتَّى يأمنَ جارُه بوائِقَه، قالوا: وما بوائِقُه؟ قال: غَشْمُه وظُلْمُه، ولا يكسب عبدٌ مالًا حرامًا، فيُنْفِق منه فيبارِكَ له فيه، ولا يتصدَّق به فيُقْبَل منه، ولا يترُك خلفَ ظهره إلَّا كانَ زادَهُ إلى النَّار، إنَّ الله لا يمحو السَّيِّئَ بالسَّيِّئِ، ولكن يمحو السَّيِّئَ بالحَسَن، إنَّ الخبيثَ لا يمحو الخبيث»[١]، رواه أحمد.

ووالله! لن يكشفَ اللهُ غُمَّتَنا، ولن يرفع عنَّا كُرْبتَنا، ولن يستجيبَ لنا دعاءنا ما دام المالُ معبودًا لنا، ولا نبالي أَمِنْ حلالٍ كسبناه أم من حرامٍ، إنَّ الله طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلَّا طيِّبًا، ولا يصعد له من العمل والدُّعاء إلَّا ما كان طيِّبًا، وفي هذا المعنى قال ﷺ: «**إنَّ اللهَ طيِّبٌ لا يَقْبُل إلَّا طيِّبًا، وإنَّ اللهَ أَمَرَ المؤمنين بما أَمَرَ به المرسَلينَ، فقالَ:** ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]، ثمَّ ذكر الرَّجلَ يُطِيلُ السَّفرَ أشعثَ أَغْبَرَ، يمدُّ يديه إلى السَّماء: يا ربِّ يا رَبِّ، ومطعمُهُ حرامٌ، ومشربُهُ حرامٌ، وملبسُهُ حرامٌ، وغُذِّيَ بالحرام؛ فأنَّى يُستَجاب له؟!»[٢]، رواه مسلمٌ عن أبي هريرة.

---

(١) رواه أحمد، رقم: (٣٦٧٢).

(٢) رواه مسلم، رقم: (١٠١٥).

١٠- الزِّنا

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء: ٣٢]؛ أي: لا تَزْنُوا، ولا تقربُوا مَوَاطِنَ الزِّنا، ولا ما يُقَرِّب منه من لمسٍ أو قبلةٍ أو ما شابهها؛ فإنَّ الزِّنا فاحشةٌ ممقوتةٌ في جميع الأديان؛ لأنَّها معصيةٌ جاوزت حدَّ العقل والشَّرع والقُبْحِ؛ لِمَا فيها من كَثْرَةِ المفاسد، واختلاطِ الأنساب، وانتشارِ الأمراض، وضَيَاعِ الذُّرِّيَّة، وانقطاع النَّسل، وكلُّ ذلك مُسَبِّبٌ لِخَراب العالم الَّذي أراد الله تعميرَه وبقاءه وفق مشيئته، وقد أَمَرَ الله عبادَه المؤمنين بِغَضِّ البصر، فقال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ﴾ [النُّور: ٣٠]، وقال لأصحاب النَّبيِّ ﷺ: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، وبهذا يكون قد رسم حدودًا لأدنى تعاملٍ بين الرَّجل والمرأة؛ درءًا لما هو أعظم.

إنَّ الله ﷻ أحلَّ للمؤمنين دائرةً طيِّبَةً ليس فيها ضَرَرٌ عليهم، ولا تَعَدٍّ بها على غيرهم، فيَصِفُهم ويُثني عليهم بأنَّهم لفروجهم حافظون؛ فلا ينظرون إلى ما يَمْلِكُه غيرهم، ولا يَتَطَلَّعون إلى ما يَحِلُّ لسواهم ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [المعارج: ٣٠]؛ فهم قانعونَ بزوجاتٍ خيِّراتٍ طاهراتٍ، أخذوهنَّ بأمانةِ الله، واستحلوهنَّ بكلمةِ الله، ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ [المعارج: ٣١] من غير الزَّوجات والمملوكاتِ ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٧]؛ لأنَّ

المؤمنَ لا يرضى بالجناية على عِرْضِ امرأةٍ في عصمةِ غيره، فيفسدها على زوجها، أو يُشَتِّتُ أسرةً كانت تتمتَّعُ بنعمةِ الاجتماع والتَّعاون على شؤون الحياة، فتثور العداوة والمنازعات الَّتي حذَّر الله منها ونهى عنها بين أسرةِ الزَّوج والزَّوجة؛ بسبب هَتْكِ العرض، أو الطَّعنِ فيه، فالعِرْضُ أثمنُ شيءٍ عند النُّفوس الكريمة الحُرَّة، والمؤمن لا يرضى أن يَسْقِيَ بمائه أرضَ غيره، فتُنْبِتُ أولادًا يُنْسَبُونَ إلى غير أبيهم، فإن كانت تلك في عِصْمَةِ زوجٍ، أنفق ذلك الزَّوج عليهم ظنًّا منه أنَّه يُنْمِي زرعَهُ، وإنَّما هو يعملُ في زرع غيره؛ فالزَّاني أضاع زَرْعَهُ، وأولادَه، والزَّوجُ ظُلِمَ بالتَّعدِّي على فراشه، وإنفاقِهِ على غير ولَدِهِ طوالَ حياته، وتوريثِهِ بعد وفاته، والانتماءِ إليه، وهو بريءٌ من ذلك الانتماء، وهذا هو نهاية الظُّلم والتَّعدِّي.

فليتَّقِ الزُّناةُ اللهَ؛ فإنَّ رسول الله ﷺ قال: «**البِرُّ لا يَبْلى، والذَّنْبُ لا يُنْسى، والدَّيَّانُ لا يموتُ، اعملْ ما شئتَ، فكما تدينُ تُدان**»(١)، والله ﷻ للظَّالمين بالمرصاد، ورُوِيَ عن أنس بنِ مالكٍ، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**مَنْ زَنَى، زُني به، ولو بِحِيْطَانِ دَارِه**»(٢)، فإذا زنى الرَّجلُ المتزوِّجُ وعلمتْ بذلك زوجتُه اتَّبعتْ طريقَه، فسَفَلَت وباعت عِرْضَها؛ انحطاطًا منها، وانتقامًا من زوجها الَّذي فتح أمامها بابَ الإثم، وسار أمامها في مهاوي الخطيئة، والمرأةُ على دين زوجها، أفلا يكون هذا الرَّجلُ هو الآثمُ بذلك؟! لأنَّ «**مَنْ سَنَّ سُنَّةً سيِّئةً،**

---

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء، رقم: (١٩٩٦).

(٢) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (١٢٩٩٨).

فعليهِ وِزْرُها وَوِزْرُ مَنْ عملَ بها»[١]، وربَّما كان مثالًا سيِّئًا لابنته أو أخته، وكانت الَّتي زنى بها زوجةً أو ابنةً أو أختًا، فإن كانت غيرَ متزوِّجَةٍ، فإنَّ هذا المتعدِّي تعدَّى على شرفِ أسرتها وشرفها، فأفسدَ حياتها، وأساءَ سُمْعَتَها، وعرَّضَها للقتل إن كانت ذاتَ أسرةٍ، أو عرَّضَ عِرْضَها للسُّقوط في بُؤْرَةٍ لا ينقذها منها إلَّا الموت، فإن قُتِلَت فهو السَّبب الأوَّل في قتلها، وإن سقطت فهو الجاني، والإثْمُ أوَّلُه وآخرُه على ذلك الغادر المعتدي الَّذي خرج باعتدائه هذا من عباد الرَّحمن الَّذين وصفهم الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾ [الفُرقان: ٦٨-٧١].

عجبًا للزَّاني كيف لا تأنفُ نفسُه ممَّا يعمل! ولا سيِّما أولئكَ الَّذين لهم زوجاتٌ وأخواتٌ وبناتٌ؛ كيف يرضون أن يعتدوا على بنات النَّاس وزوجاتهم وأخواتهم في أعزِّ شيءٍ لهم، وهو العِرض والشَّرف، ولو سألهم أحدٌ: هل ترضون أن يعتدي النَّاسُ على زوجاتِكم وأخواتِكم وبناتِكم، لَثَارُوا وبَطَشُوا، وربَّما فتكوا، كأنَّهم من طينةٍ غير طِيْنَةِ النَّاس، وذلك هو الغرور، والنَّبيُّ ﷺ يقول: «**لا يُؤْمنُ أحدُكم حتَّى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسِه**»[٢]، رواه البخاريُّ عن أنس.

---

(١) رواه مسلم، رقم: (١٠١٧).

(٢) رواه البخاري، رقم: (١٣)، ومسلم، رقم: (٤٥).

وأكثرُ عجبي من أولئك الَّذين يدخلون المَحَالَّ العموميَّةَ، ويأكلون ممَّا يأكل الكلابُ والخنازير؛ لأنَّ الإنسان تَعَافُ نفسُه أن يأكل من فَضْلةِ غيره، أو يشربَ من ماءٍ شَرِبَ منه غيرُه؛ فكيفَ لا تأنف نفسُ ذلك الزَّاني من مِيْلَغٍ(١) وُضِعَ لكلِّ كلبٍ والغٍ، ومَشْرَبٍ أُبيح لكلِّ سافلٍ ساقطٍ؟! وربَّما نَقَلَ من الأمراض السِّرِّيَّة والعِلَلِ المعدية إلى من وَلَغَ(٢) فيه ما يَضُرُّ بصحَّتِهِ، ويودي بحياته، ولو كان عند هذا ذرَّةٌ من العقل والحكمة لَما تَرَكَ موضِعًا أعدَّهُ الله له وحدَه، وذهب يتلمَّسُ أوساخَ النَّاس ويتذوَّق أقذارَهم، ولكنَّه انعدام الحياء فيه، والرَّسولُ عليه الصَّلاة والسَّلام يقولُ: «**إنَّ ممَّا أدركَ النَّاسُ من كلام النُّبوَّةِ الأولى: إذا لم تستحِ، فاصنعْ ما شئتَ**»(٣)، لو كانت عنده ذَرَّةٌ من الغَيْرَة أو الإنسانيَّة لم يَدَعْ تلك الَّتي أخلصَتْ له حبَّها، وملأَت به قلبَها، وقَصَرَتْ عليه طَرْفَها، ويذهب إلى عاهرةٍ تزعم أنَّ كلَّ داخلٍ عليها أحبُّ النَّاس إليها؛ فهل يَدَعُ عاقلٌ غيورٌ رئيسةَ بيته، ومربِّيةَ ولده، وأمينتَهُ على ماله وعرضه، وصاحبتَهُ في ليله ونهاره، ويأوي إلى بَغِيٍّ لا علاقةَ بينه وبينها؟!

تالله! ما ذلك إلَّا دليلٌ واضحٌ على قِلَّة عقل الزَّاني وضَعْفِ بصيرته وفَسَادِ فطرته، وخروجه عن حدِّ الإنسانيَّة، وإلَّا فما الفرقُ بينه وبين سائر الحيوان؟! ولعلَّ بعض الحيوانات أشرفُ وأعفُّ، وقد روى

(١) المِيلَغ: الإناء يلغ فيه الكلب. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٢/ ٥٩٥).

(٢) ولغ: إذا شرب من الإناء بلسانه وحرَّكه، وهو خاص بالسِّباع. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٢/ ٥٩٥).

(٣) رواه البخاري، رقم: (٦١٢٠)، وأحمد، رقم: (١٧٠٩٠).

أبو داودُ والحاكمُ عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إذا زَنَى العبدُ خرجَ منه الإيمانُ، فكان على رأسِه كالظُّلَّةِ، فإذا أقلعَ رجع إليه وتابَ**»(١)، وروى البخاريُّ، ومسلمٌ عنه، عن النَّبيِّ ﷺ، قال: «**لا يزني الزَّاني حين يزني وهو مؤمنٌ، ولا يسرقُ السَّارقُ حين يسرقُ وهو مؤمنٌ، ولا يشربُ شاربُ الخمر حين يشربُها وهو مؤمنٌ**»(٢)؛ فإذا فعل ذلك «**فقد خلعَ رِبْقَةَ**(٣) **الإيمانِ من عُنُقه**»(٤).

إنَّ الفُسَّاق لا يُبالون أين يُلقون نُطفَهُم، فمنهم من يزني بذاتِ الفِراش، فيُلْحِق ولدَه بغيره كما قدَّمنا، ومنهم من يزني بمن لا فراشَ لها، فيَحْمِلُهَا على قتل حملها، أو إلقائه في إحدى الطُّرقات حيث يلتقطه من يربِّيه، فيجعله خادمًا أو يبيعه، فيعيش لا أَبَ له ولا أُمَّ، وربَّما كانت نهايته عارًا وشنارًا(٥)، وذلك هو الغالب، والفاسقُ لا يبالي أيخرجُ ولدُه شقيًّا أم سعيدًا، مؤمنًا أم كافرًا؛ إنَّما غايته إشباعُ شهوته الحيوانيَّة، والاستمتاعُ بلذَّتِه الجنسيَّة فقط، والدِّينُ يحبُّ سَتْرَ عورات النَّاس، والعاقلُ يأبى الفَضِيْحَةَ ولا يرضاها، والإباحيُّون المُلْحِدون يريدون بقاءَ البِغاء في البلاد، ويقولون: إنَّ حَصْرَهُ في

---

(١) رواه الترمذي، رقم: (٢٦٢٥)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم: (٥٦)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين.

(٢) رواه البخاري، رقم: (٥٥٧٨)، ومسلم، رقم: (٥٧).

(٣) الربقة: عروة في حبل تُجعَل في عنق البهيمة أو يدها تمسكها. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٢/ ١٩٠).

(٤) رواه الترمذي، رقم: (٢٨٦٣)، وأبو داود، رقم: (٤٧٥٨).

(٥) الشنار: أقبح العيب والعار. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٢/ ٢٤٥).

منطقةٍ واحدةٍ أمرٌ لا بدَّ منه، وشرٌّ لا مَحِيصَ[(١)] عنه؛ لأنَّه أَمْرٌ اتَّفقت عليه الدُّول، وأجمعت عليه الأمم، بينما الأمم غيرُ الإسلاميَّة أحسَّت بضَرَرِه، وشعرت بشرِّه، وسعى عقلاؤها للخلاص منه.

أمَّا نحن ففي حالٍ لا نُحسَدُ عليه من الفساد المنتشر في كلِّ مكانٍ، والَّذي بسببه سرى الشَّكُّ إلى قلبِ كلِّ رجلٍ، فأصبحَ لا يُفرِّق بين الحُرَّةِ والسَّاقطة، ويتوجَّسُ من كلِّ امرأةٍ يراها؛ ولهذا أعرضَ كثيرٌ من شبابنا عن الزَّواج الَّذي هو سوق الحلال، وأصبحنا في حال نخشى منه نزولَ البلاء الَّذي وَعَدَ الله به عندما قال: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: ١٦].

وممَّا ورد في الأثر في ذلكَ أنَّ سعدَ بن عبادة قال لرسول الله ﷺ: لو وجدتُ مع أهلي رجلًا أُمْهِلُه حتَّى آتيَ بأربعةِ شهداءَ؟ قال: «**نعم**»، قال سعد: كلَّا، والَّذي بعثَكَ بالحقِّ، إن كنتُ لأُعَاجِلُه بالسَّيف قبلَ ذلك، فقال رسول الله: «**اسمعوا ما يقولُ سيِّدُكم، إنَّه لغَيُور، وأنا أَغْيَرُ منه، واللهُ أَغْيَرُ منِّي**»[(٢)]، وروى البيهقيُّ عن ابن عمرَ رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ، قال: «**يا معشَرَ المهاجرينَ، خِصالٌ خمسٌ إن ابْتُليتم بهنَّ، ونزلْنَ بكم، وأعوذُ باللهِ أن تدركوهنَّ: لم تظهرِ الفاحشةُ في قومٍ قطُّ حتَّى يُعلنوا بها، إلَّا فشا فيهم الطَّاعونُ، والأوجاعُ الَّتي لم تكنْ في أسلافهم، ولم يُنقصوا المكيالَ والميزانَ إلَّا أُخِذُوا**

(١) المحيص: المهرب. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٧/ ٥٤١).
(٢) رواه البخاري، رقم: (٦٨٤٦)، ومسلم، رقم: (١٤٩٨)، واللفظ لمسلم.

بالسِّنين، وشِدَّةِ المؤونة، وجَوْرِ السُّلطانِ عليهم، ولم يمنعوا زكاةَ أموالهم، إلَّا مُنِعُوا القَطْرَ من السَّماء، ولولا البهائمُ لم يُمْطَروا، ولم ينقضوا عهدَ الله وعهدَ رسوله إلَّا سلَّطَ عليهم عدوًّا من غيرهم، فأخذوا بعضَ ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمَّتُهم بكتاب الله، إلَّا جَعَلَ بأْسَهُم بينهم»(١).

إنَّ الله ﷻ لم يمنعنا من شيءٍ عبثًا، وقد منعنا من الزِّنا؛ لأنَّه مَضْيَعَةٌ للنَّسل، مذهبةٌ للأموال، جنايةٌ على الأعْرَاض، مَجْلَبَةٌ للأمراض، فالزِّنا يُوْرِثُ الفقرَ، ويُفْسِدُ الأخلاق، ويسبِّبُ العداوةَ بين الأُسَر، وكفى بالعداوة قاتلًا للأمم مبيدًا لها، فيقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣].

---

(١) رواه ابن ماجه، رقم: (٤٠١٩)، والطبراني في المعجم الأوسط، رقم: (٤٦٧١).

١١- الفاحشة

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ۝٣٢﴾ [الإسراء: ٣٢].

تكلَّمنا في السَّابق عن فاحشة الزِّنا، وأضرارِها الخُلُقيَّةِ والاجتماعيَّةِ والدِّينيَّة، ونتكلَّم في هذا الباب عن فاحشةٍ أُخْرَى أعظمَ من الزِّنا قُبْحًا، وأسوأ سبيلًا، وهي اللِّوَاطُ، قال الله تعالى حكايةً عن لوطٍ وقومه: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ۝١٦٦ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ۝١٦٧ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ۝١٦٨ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ۝١٦٩ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝١٧٠ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ۝١٧١ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ۝١٧٢ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝١٧٣﴾ [الشُّعَراء: ١٦٥-١٧٣]، وقال تعالى في مَوْطِنٍ آخر: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٨ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ﴾ [العَنكبوت: ٢٨-٢٩].

أَطلَقَ الله على هذا العملِ القبيحِ اسمَ الفاحشة؛ لأنَّ النُّفوس السَّليمة تراه أكثرَ فُحشًا من الزِّنا؛ لقذارة محلِّه، فضلًا عن إفساده للنُّفوس، ولأنَّه مُضِرٌّ بالمجتمع ضررَ الزِّنا بل هو أشدُّ؛ لأنَّ الأعزبَ يتلهَّى به عن الزَّواج، وبذلك تتعطَّل به طائفةٌ من النِّساء عن أن تجدَ لها زوجًا يُعِفُّها، وإذا كان متزوِّجًا، ترك زوجته، وعَرَّضَها للتَّهاونِ

بعرضِها؛ وبذلك ينقطع السَّبيل الَّذي خلقه الله لبقاء الكون، زد على ذلك ما يَلْحَقُ الأمَّةَ من ضررٍ عامٍّ في تقليل المواليد، وذهابِ الشَّهامة والرُّجولة من نفس المفعول.

وقد ورد في التَّحذير من هذه الفاحشة أحاديثُ كثيرةٌ؛ فمن ذلك: ما رواه الطَّبرانيُّ عن جابر بنِ عبدِ الله ﷺ عن النَّبيِّ ﷺ: «**إذا ظُلِمَ أهل الذِّمَّة كانت الدَّولةُ دولةَ العَدُوِّ، وإذا كَثُرَ الزِّنا كَثُرَ السِّبَاء، وإذا كَثُرَ اللُّوطِيَّةُ رفع الله يده عن الخَلْقِ، فلا يُبالي في أيِّ وادٍ هلَكُوا**»(١).

وروى البيهقيُّ، وابن حبَّان عن ابن عبَّاسٍ، عن النَّبيِّ ﷺ: «**لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لغير الله، ولعنَ اللهُ من غَيَّرَ تُخومَ الأرض، ولعنَ اللهُ مَنْ كَمَّهَ أعمى عن السَّبيل، ولعن اللهُ مَنْ سَبَّ والديه، ولعنَ اللهُ مَنْ تولَّى غيرَ مواليه، ولعنَ اللهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قوم لوطٍ**»(٢)، قالها ثلاثًا في عَمَلِ قومِ لوطٍ، وروى الحاكم عن بُرَيْدَةَ قولَ رسولِ الله ﷺ: «**ولا ظهرتِ الفاحشةُ في قومٍ، إلَّا سَلَّطَ الله عليهم الموتَ**»(٣).

وكلا الفاحشتين مَضَرَّةٌ في المجتمع، مَفْسَدَةٌ للأخلاق، جنايةٌ على الأعراض، مَضْيَعَةٌ للنَّسل، مَذْهَبَةٌ للأموال، مَجْلَبَةٌ للأمراض، مَضْيَعَةٌ للدِّين، مَغْضَبَةٌ للرَّحمن، ولو عوَّدَ الإنسان نفسَه اتِّباعَ أَمْرِ ربِّه مرَّةً أو مرَّتين أو ثلاثًا لكان له في ذلك عادةٌ، ولكن إذا وقع في

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم: (١٧٥٢).

(٢) رواه أحمد، رقم: (٢٩١٣)، والبيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٤٩٨٨)، وابن حبان، رقم: (٤٤١٧).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم: (٢٥٧٧).

الذَّنب مرَّةً أو مرَّتين أو ثلاثًا اعتاد الذَّنب؛ كما ورد في معنى حديث: «**إنَّ الإنسان إذا وقعَ في الذَّنب، رانَ على قلبه، فنُكِتَت فيه نُكْتَةٌ سوداءُ، ثمَّ إذا أقلعَ، انمحَتْ، فإذا عادَ، نُكِتَ في قلبه نُكْتَةٌ سوداءُ أكبرُ من الأولى، وإن زادَ زادَتْ حتَّى يُغَلَّفَ بها قلبُهُ، فوجد الرَّانَ[١] الَّذي ذكر الله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ [المطفِّفين: ١٤]**»[٢].

وواجبٌ على الإنسان أن يتجنَّبَ طُرُقَ الشُّبهات، أو ما يَحْمِل الإنسان على سوءِ الظَّنِّ به؛ فقد جاء رجلٌ إلى الإمام أحمد رحمه الله ومعه صبيٌّ حسنُ الوجه، فقال له: «**من هذا منك؟ قال: ابن أختي، قال: لا تَجِئ به إلينا مرَّةً أخرى، ولا تمشِ معه في الطَّريق؛ لئلَّا يظنَّ بك من لا يعرفك ويعرفه**»[٣].

إنَّ كلَّ البلاء من النَّظر، وقيل: البصرُ بَريدُ الخطر، وإذا استحسنت العينُ منظرًا أوحت به إلى النَّفس، والنَّفسُ أمَّارَةٌ بالسُّوء، ولهذا قال الله تعالى آمرًا بغَضِّ البصر: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ [النُّور: ٣٠]؛ لأنَّهم إذا غضُّوا الأبصار، حَفِظُوا الفروج، وإذا غضُّوا الأبصار وحفِظُوا الفروج، زكت عندهم النُّفوس، ويقول الشَّاعر:

كُلُّ الْحَوَادِثِ مَبْدَاهَا مِنَ النَّظَر   وَمُعْظَمُ النَّارِ مِنْ مُسْتَصْغَرِ الشَّرَرِ

(١) الرَّان: اسوداد القلب من الذنوب. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٥/ ١٣٠).
(٢) رواه الترمذي، رقم: (٣٣٣٤)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد، رقم: (٧٩٥٢).
(٣) انظر: أحكام النساء، للإمام أحمد (١/ ٢٧).

كَمْ نَظْرَةٍ فَعَلَتْ فِي نَفْسِ صَاحِبِهَا فِعْلَ السِّهَامِ بِلَا قَوْسٍ وَلَا وَتَرِ[(١)]

روي عن ابن عبَّاسٍ أنَّ رجلًا جاء إلى رسول الله ﷺ يَتَشَلْشَلُ[(٢)] دمًا، فقال له: مالك؟ قال: مرَّت بي امرأةٌ، فنظرت إليها، فلم أزل أُتْبِعُها بصري، فاستقبلني جدارٌ، فضربني فصنعَ بي ما ترى، فقال ﷺ: «**إذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خيرًا عَجَّلَ له عقوبَتَه في الدُّنيا**»[(٣)]، ولو أنَّ هذا امتثلَ أمرَ ربِّه، فغضَّ نظرَهُ، لم يُصِبْهُ ما أصابه، ولم يُفْتَضَح.

إنَّ الفاحشة لا تَقْتَصِرُ على اللَّذَّة الجنسيَّة والاتِّصال المحرَّمِ، فكلُّ ما قَرَّبَ من الفاحشة فاحشةٌ، وفي حديثٍ رواه الشَّيخان عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**العينانِ زِناهما النَّظَرُ، واللِّسَانُ زِناهُ الكلامُ، والأذنان زناهما الاستماعُ، واليدُ زناها البطشُ، والرِّجْلُ زناها الخُطَا، والقلبُ يهوى ويتمنَّى، ويُصَدِّق ذلك الفرجُ، أو يكذِّبُ**»[(٤)]، وفي حديثٍ طويلٍ رواه المنذريُّ من الأحاديث القدسيَّة، يقول الرَّبُّ جلَّ جلاله: «**النَّظرةُ سهمٌ من سهامِ إبليسَ، من تركَها من مخافتي، أبدلته إيمانًا يجدُ حلاوتَه في قلبه**»[(٥)].

(١) انظر: الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، لابن قيم الجوزية (١/ ١٥٣).

(٢) يتشلشل: يتقاطر دمًا. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٩/ ٢٨١).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم: (١٢٩١)، بلفظ: «أنت عبد أراد الله بك خيرًا... إلخ».

(٤) رواه البخاري، رقم: (٦٦١٢)، ومسلم، رقم: (٢٦٥٧)، بلفظ: «إن الله كتب على ابن آدم حظَّه من الزِّنا... إلخ».

(٥) رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم: (١٠٣٦٢)، والحاكم في المستدرك =

وإنَّ الفواحشَ إذا انتشرت في البلاد انتشرت معها الأوبئة والأمراض المتنوِّعَة، كما قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «**لم تظهر الفاحشةُ في قوم قَطُّ حتَّى يُعلنوا بها، إلَّا فشا فيهم الطَّاعونُ، والأوجاعُ الَّتي لم تكنْ في أسلافِهم**»(١)، وحديثُ الطَّبرانيِّ والحاكم عن ابن عبَّاسٍ، عن النَّبيِّ ﷺ: «**إذا ظهرَ الزِّنا والرِّبا في قريةٍ، فقد أَحَلُّوا بأنفسِهم عذاب الله**»(٢)، ونظرةٌ إلى الزُّنَاةِ والزَّواني ومَنْ على شاكلتهم تُرينا أنَّ أكثرهم أُصيبَ بأمراضٍ وأوجاعٍ متنوِّعَةٍ يَحَارُ الطِّبُّ في مداواتها مع تقدُّمه في الأزمنة الأخيرة، وقد سمَّاها بأسماء لم يعرفها أسلافنا؛ منها: السَّيلان، والزُّهريُّ، والقرحة الإفرنجيَّة وما أشبهها، وهذه الأمراض المزمنة والأمراض السِّرِّيَّة(٣) قد أحلَّها اللهُ في أهل الفاحشة من غير تحديدٍ، كما أنَّنا نرى أغلبَ الزُّناة والزَّواني يموتون في سِنٍّ مبكِّرَةٍ بسبب أمراض سرِّيَّة لا تقفُ عند حدِّ إجرامهم، بل تتعدَّاهم إلى قومٍ أبرياء بعيدين عن الشَّرِّ؛ وهم زوجاتُهم وأولادُهم، وقد قيل: الآباء يأكلون الحِصْرِم والأولادُ يضرسون.

وأمَّا اللُّوطِيُّون فإنَّهم - فضلًا على ما يصيبهم من أمراضٍ في

= على الصحيحين، رقم: (٧٨٧٥)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم: (٢٢٦١)، والطبراني في المعجم الكبير، رقم: (٤٦٠).

(٣) الأمراض السرية: أمراض معدية تنتقل عن طريق الاتصال الجنسي. انظر: معجم اللغة العربية المعاصر، لأحمد مختار عمر (٣/ ٢٠٨٨).

صحَّتهم - يُصابون بأمراضٍ خُلُقيَّةٍ؛ منها: قتلُ الرُّجولة والشَّجاعة وقِلَّةُ الحياء، وانعدامُ الشَّهامة، وفساد الخُلُقِ، وذهاب الكرامة والشَّرف، ولهذا وصف القرآن الكريم أصحابَ هذا الفعل الشَّائن بقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [يس: ١٩]؛ لأنَّهم أسرفوا في إشباع شهواتهم في غير طريقها، وقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٦٦]؛ لأنَّهم جاوزوا المعقول فاعتدوا، وقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النَّمل: ٥٥]؛ لأنَّهم جهلوا الطَّريق المستقيم.

إنَّ الأمَّة في حاجةٍ إلى رجولةٍ وشجاعةٍ وقوَّةٍ، وشرفٍ ونخوةٍ، واللِّواطُ عدوٌّ ذلك كلِّه؛ لأنَّه عدوُّ الأخلاق الفاضلة وجرثومتها القاتلة، فيقول الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [يُونس: ٣٣]، والَّذين لا يؤمنون مصيرهم مع أصحاب النَّار.

روى ابن أبي الدُّنيا أنَّ خالدَ بنَ الوليد رضي الله عنه كتب إلى أبي بكرٍ رضي الله عنه: أنَّه وجد رجلًا في بعض ضواحي العرب يُنْكَح كما تُنكَحُ المرأةُ، فجمع لذلك أبو بكرٍ رضي الله عنه أصحابَ رسولِ الله ﷺ، وفيهم عليٌّ رضي الله عنه، وكرَّمَ الله وجهه، فقال: «**إنَّ هذا ذنبٌ لم يعملْ به إلَّا أمَّةٌ واحدةٌ، ففعلَ الله بهم ما علمتُم، أرى أن تُحرقوه بالنَّار، فاجتمعَ رأيُ أصحابِ رسولِ الله ﷺ على أن يُحرقوه بالنَّار، فأمر أبو بكر، فأحرقه خالدٌ**»(١).

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٥٠٠٥).

وروى الطَّبرانيُّ والبيهقيُّ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**أربعةٌ يصبحون في غضبِ الله، ويُمسون في سَخَطِ الله: المتشبِّهون من الرِّجالِ بالنِّساء، والمتشبِّهَاتُ من النِّساء بالرِّجال، والَّذي يأتي البهيمة، والَّذي يأتي الرِّجال**»(١).

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم: (٦٨٥٨)، والبيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٥٠٠١).

١٢- الزَّواج

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقد تقدَّم الكلامُ على الفاحشة وما يتعلَّق بها، وإنَّ خيرَ حَامٍ من الوقوع فيها الزَّواج، فالزَّواجُ حالةٌ تدعو إليها طبيعة البشرِ، وفطرتُهم الَّتي فطرهم خالقُهم عليها، وفرضَتْها الشَّرائع على الإنسان، وجعلها بارئ الإنسانِ سُنَّةً في خلقه؛ لدوامِ العمرانِ، وحِفْظًا لكيانِ البشر، وصونًا لكرامة الإنسان وشرفه وإكمالًا لنقصه، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الرُّوم: ٢١]، فجَعَلَ من علامات ربوبيَّتِهِ أن خلقَ لنا من جنسنا أزواجًا نميلُ إليها ونألفها، وترتاح نفوسنا معها وإليها، وجعلَ بيننا مودَّةً ورحمةً من غير سابقِ معرفةٍ ولا قرابةٍ، ولا موجبٍ للتَّعاطف إلَّا ميلًا فطريًّا.

إنَّ في ذلك لآياتٍ ودلائلَ على عظمة الله وقدرته، فيعلمون أنَّ قوام الدُّنيا ببقاء التَّناسل، وأنَّ خرابها بانقطاعه، يقول الله تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ﴾ [الشّورى: ١١].

وفوائد الزَّواج كثيرةٌ منها: حفظُ النَّسل والأنساب والأموال والفروج والعيون، وفيه أيضًا التَّعاون على المعيشة وتربية الذُّرِّيَّة، وقد حثَّ الشَّرعُ الإسلاميُّ على الزَّواج بآياتٍ وأحاديثَ كثيرةٍ منها:

قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [النساء: ٢٥]، وروى البخاريُّ عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه، قال: جاء ثلاثةُ رهطٍ إلى بيوت أزواج النَّبيِّ ﷺ، يسألون عن عبادة النَّبيِّ ﷺ، فلمَّا أُخبروا كأنَّهم تَقالُّوها[١]، فقالوا: وأين نحنُ من النَّبيِّ، وقد غفر اللهُ له ما تقدَّمَ من ذنبه وما تأخَّر؟! فقال أحدهم: أمَّا أنا، فأصلِّي اللَّيلَ أبدًا، وقال الآخر: وأنا أصومُ الدَّهر ولا أُفْطِرُ، وقال الآخر: وأنا أعتزلُ النِّساء فلا أتزوَّج أبدًا، فجاء رسولُ الله ﷺ إليهم، فقال: «**أنتم الَّذين قلتمْ كذا وكذا؟ أمَّا والله! إنِّي لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكنِّي أصومُ وأُفْطِرُ، وأُصَلِّي وأَرْقُد، وأتزوَّجُ النِّساءَ، فمن رَغِبَ عن سُنَّتي فليس منِّي**»[٢]؛ لأنَّ الزَّواج وتأسيسَ البيت والتماسَ الذُّرِّيَّة والتَّعاون على شؤون الحياة ممَّا رضيه ﷺ لنفسه ولأمَّتِه؛ فمن تركه زاهدًا فيه لم يكن من جماعته، ولا عاملًا بشريعته.

والغرضُ من ترغيبِ رسولِ الله ﷺ في الزَّواج وتحذيرِه من تركِه هو بقاءُ النَّسل وتكثيرُ سَوَادِ الأمَّةِ، لا التَّمتُّعُ فقط، ودليلُ ذلك ما رواه أبو داود، والنَّسائيُّ عن مَعْقِلِ بنِ يسارٍ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**تَزَوَّجُوا الوَدُودَ الوَلُودَ؛ فإنِّي مُكاثِرٌ بِكُمُ الأُمَمَ**»[٣]، وذلك أنَّه جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله! إنِّي أصبتُ امرأةً

---

(١) تقالَّ الشيء: عدَّه قليلًا ورآه كذلك. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٠/ ٢٧٦).

(٢) رواه البخاري، رقم: (٥٠٦٣)، ومسلم، رقم: (١٤٠١)، بنحوه.

(٣) رواه أبو داود، رقم: (٢٠٥٠)، والنسائي، رقم: (٥٣٢٣).

ذاتَ حَسَبٍ ونَسَبٍ ومالٍ، إلَّا أنَّها لا تَلِدُ، أفأتزوَّجُها؟ فنهاه، ثمَّ أتاه الثَّانية، فقال له مثلَ ذلك، ثمَّ أتاه الثَّالثة، فقال له ما تقدَّم.

فالشَّارعُ إنَّما حثَّ على الزَّواج لغرض تكثيرِ النَّسل، وهو ﷺ يَحُثُّ على التَّبكير في الزَّواج؛ احتفاظًا بالعِفَّةِ، وصونًا لها من الإثم، ولكنَّه من جهةٍ ثانيةٍ يوصي الشَّباب أَلَّا يُقْدِمُوا على الزَّواج إلَّا بعد إعداد العُدَّة له؛ لكي تتوفَّر للزَّوجين أسبابُ الهناء؛ فقد روى البخاريُّ ومسلمٌ، وغيرهما عن ابن مسعودٍ، قال رسولُ الله ﷺ: «**يا مَعْشَرَ الشَّباب! من استطاعَ منكم الباءَةَ، فليتزوَّجْ؛ فإنَّه أَغَضُّ للبصر، وأَحْصَنُ للفَرْجِ، ومن لم يستطعْ، فعليه بالصَّوم؛ فإنَّه له وِجاءٌ**»(١)، والباءَةُ: المنزلُ وتكاليفه، والباءةُ من المباءة، وهي المَرْجِعُ، أصلُه باءَ يَبُوءُ إليه؛ يعني: رَجَعَ يرجِعُ.

فإذا كان الزَّواج واجبًا اجتماعيًّا، فإنَّ الأوجبَ منه أن يقعَ موقعَهُ، ويُثمِرَ ثمرتَهُ، ويَستوفيَ شرائطَهُ الَّتي من شأنها أن تجعلَ الزَّوجين سعيدين قريري العين، فلا ينبغي أن يتزوَّج وهو مُنْطَوٍ على فقرٍ، فيحمِّلَ نفسه ديونًا كثيرةً، ويعيش بعد ذلك في نَكَدٍ دائمٍ وشقاءٍ، مع أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**التمسوا الرِّزقَ في النِّكاح**»(٢)؛ لأنَّ الرَّجل إذا تزوَّج، كَوَّنَ أسرةً، والأسرةُ تحفِّزه على السَّعي وراءَ الرِّزق، وتبعثُ في الكسول المتقاعدِ روحًا قويَّةً تُنهِضُهُ للعمل سدًّا لحاجة عائلته؛ فيُغْنِيه الله، ويُوَسِّعُ عليه الرِّزق، ويكون النِّكاح نِعْمَ

(١) رواه البخاري، رقم: (٥٠٦٥) و(١٩٠٥)، ومسلم، رقم: (١٤٠٠).
(٢) أورده السخاوي في المقاصد الحسنة، رقم: (٣٣٠).

الطَّريق إليه، وخيرَ باعثٍ لنشاطه، وروى ابن ماجه عن أنسِ بن مالكٍ رضي الله عنه أنَّه سمع رسولَ الله ﷺ يقول: «**مَنْ أراد أن يلقى الله طاهرًا مُطَهَّرًا، فليتزوَّجِ الحرائرَ**»(١)، وروى البيهقيُّ عن أنس بن مالكٍ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إذا تزوَّجَ العبدُ فقدِ استكملَ نصفَ الدِّين، فليتَّقِ الله في النِّصفِ الباقي**»(٢)، وروى الطَّبرانيُّ عن أبي نجيح رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ: «**مَنْ كان مُوْسِرًا لِأنْ ينكحَ ثمَّ لم ينكحْ، فليس منِّي**»(٣).

إنَّ الدُّنيا متاعٌ، وخيرُ متاع الدُّنيا المرأةُ الصَّالحة؛ فهي حَسَنةُ الدُّنيا الَّتي يسألها الصَّالحون، وهي البيت والسَّكن ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾ [النِّساء: ٣٤]؛ فإذا رَزَقَ الله العبدَ امرأةً كهذه فلِيعلم أنَّها نعمةٌ من الله ساقَها الله إليه، وواجبُ النِّعمة أن تُشكر.

وفي «الصَّحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ: «**تُنكَحُ المرأةُ لأربعٍ: لمالِها، ولحسبِها، ولجمالِها، ولدينِها؛ فاظفرْ بذاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاك**»(٤)، فذاتُ الدِّين تستطيع أن تأمنَهَا على نفسها ومالك وولدك وبناتِكَ من غيرها، وعلى كلِّ ما تخاف عليه منها أو من غيرها، وقد أخبرنا ﷺ في حديثٍ آخر رواه الطَّبرانيُّ عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه: «**مَنْ تزوَّجَ امرأةً لعزِّهَا، لم يزدْهُ الله إلَّا ذُلًّا، ومن**

(١) رواه ابن ماجه، رقم: (١٨٦٢).
(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٥١٠٠).
(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم: (٩٢٠).
(٤) رواه البخاري، رقم: (٥٠٩٠)، ومسلم، رقم: (١٤٦٦).

تزوَّجها لمالها، لم يزده اللهُ إلَّا فقرًا، ومن تزوَّجها لِحَسَبِها لم يزده اللهُ إلَّا دناءةً، ومن تزوَّجَ امرأةً لم يردْ بها إلَّا أن يَغُضَّ بصرَهُ، ويُحْصِنَ فَرْجَه، أو يَصِلَ رحمَهُ، بارك الله فيها، وبارك لها فيه»(١).

واللَّائق بذوي المروءة والإنسانيَّةِ والدِّين أن يكون الدِّين مطمحَ نظرهم في كلِّ شيءٍ، لا سيَّما فيما يدوم ويعظم خطرُه؛ لهذا قال ﷺ: **«اظفر بذات الدِّين»**(٢)؛ لأنَّ الظَّفرَ هو غاية الأمانيِّ ومنتهى الاختيار، وكان ﷺ يقول: **«إذا أَفَادَ أحدُكم امرأةً أو دابَّةً أو خادمًا، فليأخذ بناصيتها، وليقلْ: اللَّهمَّ إنِّي أسألُكَ خيرَها وخيرَ ما جَبَلْتَها عليه، وأعوذُ بكَ من شَرِّها وشَرِّ ما جَبَلْتَها عليه»**(٣).

وعن عبد الله بنِ عمرِو بنِ العاص، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«الدُّنيا متاعٌ، وخيرُ متاعِها المرأة الصَّالحة»**(٤)، وقال: **«مسكينٌ مسكينٌ رجلٌ لا امرأةَ له، مسكينةٌ مسكينةٌ امرأةٌ لا زوجَ لها»**(٥)، وروى الحاكم عن محمَّد بن سعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ، عن أبيه رضي الله عنهما أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: **«ثلاثةٌ من السَّعادة: المرأةُ تراها تعجبك، وتَغِيبُ فتأمنها على نفسِها ومالِكَ، والدَّابَّةُ تكون وطيئةً، فتُلْحِقُك بأصحابك، والدَّارُ تكون واسعةً كثيرةَ المرافق، وثلاثةٌ من الشَّقاوة:**

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم: (٢٣٤٢).
(٢) سبق تخريجه.
(٣) رواه النسائي، رقم: (١٠٠٢١)، وابن ماجه، رقم: (٢٢٥٢).
(٤) رواه مسلم، رقم: (١٤٦٧).
(٥) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم: (٦٥٨٩).

المرأةُ تَراها تَسوءُكَ، وتَحمِلُ لسانَها عليك، وإن غبتَ عنها لم تأمنها على نفسِها ومالِكَ، والدَّابَّةُ تكون قَطُوفًا، فإن ضَرَبتَها أتعَبَتْكَ، وإن تركْتَها لم تُلحقك بأصحابِك، والدَّارُ تكون ضيِّقَةً قليلةَ المَرَافِقِ»[(١)].

وروى ابن ماجه عن عبد اللهِ بنِ عمرِو بنِ العاص رضي الله عنهما، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**لا تزوَّجوا النِّساءَ لحُسْنِهِنَّ، فعسى حُسْنُهُنَّ أن يُردِيَهُنَّ، ولا تزوَّجُوهنَّ لأموالهنَّ، فعسى أموالهنَّ أن تُطْغِيْهُنَّ، ولكن تزوَّجوهُنَّ على الدِّين، ولَأمةٌ خَرْمَاءُ سوداءُ ذاتُ دِينٍ أفضلُ»**[(٢)]، ويقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ﴾ [النساء: ٣٤]، والنُّشوز: هو التَّكبُّر والعصيان، ولا سيَّما عند نساء هذا الزَّمان، ولقد أخبرنا ﷺ قبل ألفٍ وأربعمئةِ عامٍ عمَّا سيكون عليه نساء هذا الزَّمان من فتنةٍ وإغراءٍ، وذهابِ حِشمةٍ وحياءٍ، فقال في حديثٍ رواه مسلمٌ عن أبي هريرة: «**صِنْفَانِ من أهلِ النَّارِ لم أَرَهُما: قومٌ معهم سِياطٌ كأذْنَابِ البقرِ يَضْرِبُون بها النَّاسَ، ونساءٌ كاسياتٌ عارياتٌ، مائِلاتٌ مُمِيلَاتٌ، رؤوسُهُنَّ كأَسْنِمَةِ البُخْتِ**[(٣)] **المائلةِ، لا يَدْخُلْنَ الجَنَّةَ، ولا يَجِدْنَ رِيحَها، وإنَّ ريحَها ليوجَدُ من مسيرةِ كذا وكذا»**[(٤)].

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم: (٢٦٨٤).

(٢) رواه ابن ماجه، رقم: (١٨٥٩).

(٣) البخت: الإبل الخراسانيَّة، تنتج من عربية وفالج. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٤/ ٤٣٧).

(٤) رواه مسلم، رقم: (٢١٢٨).

١٣- المعاشرة بين الزوجين

قد تقدَّمَ الكلام على مشروعيَّة الزَّواج، وبقي أن نتكلَّم فيما يجب لكلٍّ من الزَّوجين على الآخر بعده، قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النِّسَاء: ١٩]؛ أي: عاشروا النِّساءَ عشرةَ إحسانٍ ومعروفٍ في كلامكم، ومبيتكم، وإنفاقكم، أو عاملوهنَّ بما تحبُّون أن يعامِلْنَكم به، فإن كرهتم صحبتَهنَّ، وآثرتم فراقَهنَّ ففكِّروا في الأمر، وتَرَوَّوْا قبل أن تَبُتُّوا فيه؛ فعسى أن تكرهوا شيئًا يرزُقكم الله منه ولدًا صالحًا تقرُّ به عيونُكم؛ فربَّما كرهت النَّفسُ ما هو أصلحُ للحالِ والمآل.

وقلنا: إنَّ الزَّوجَ يَجِدُ في زوجته خيرَ رفيقٍ في حياته، يشاطرها سرَّاءَه وضرَّاءَه، ويصون بها عِرْضَه ونفسه، ويحفَظُ بها ماله وصحَّتَه، ويُخَلِّدُ بأبنائه منها ذكرَاهُ، وهي تتَّخذ منه زوجًا يحميها من عاديات الحوادث، ومِحَنِ الزَّمان ورزاياه، وتَكْفُل به راحتها وهناءها، وتصون عِرْضَها ومالها، وتضع به ثقتها، وتحظى منه بذرِّيَّةٍ صالحةٍ تُخَلِّدُ ذكراهما، فإذا حَصَلَ الوِفَاقُ بين الزَّوجين، وسارا على المنهج القويم لحياتهما الزَّوجيَّة كما أراد الله، وتبادلا الإخلاصَ، وعَرَفَ كلٌّ منهما ما عليه للآخر من حقوقٍ وواجباتٍ، وأدَّى ما عليه منها لصاحبه عاشا في سعادةٍ لا يخالطها عناءٌ، وهناءٍ لا يشوبه شقاءٌ، وكان بيتُهما جنَّةَ عَدْنٍ، وحياتُهما راحةً ونعيمًا، ولهما في الآخرة جنَّةٌ

ونعيمٌ؛ لأنَّهما أرضيا الضَّمير والفِطْرَة الَّتي أرادها الله تعالى لعباده.

وأمَّا حقوق المرأة على زوجها، فمنها:

١- الإنفاق: وهو واجبٌ على الرِّجال بطبيعة الحال؛ لأنَّ الرِّجال قوَّامون على النِّساء، والإنفاقُ الواجبُ هو الإنفاق المعتدل من غير تقتيرٍ ولا إسرافٍ، والله تعالى يقول: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾ [الطَّلَاق: ٧].

٢- العدلُ بين الزَّوجات لمَنْ له زوجتان فأكثر في كلِّ شيءٍ؛ في المَأْكَلِ والمَلْبَسِ والمَشْرَبِ والمبيت؛ لقول الله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً﴾ [النِّسَاء: ٣]، وقد روى الحاكم عن أبي هريرةَ رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**مَنْ كانت عندَه امرأتان، فلم يعدلْ بينهما، جاء يومَ القيامة وشِقُّه ساقطٌ**»(١).

والقصدُ من العدل: أَلَّا يؤثرَ إحداهما على الأخرى بشيءٍ من الظَّواهر، أمَّا الباطن، وهو الميلان القلبيُّ، فأمرُه بيد الله، والله تعالى يقول: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِۚ﴾ [النِّسَاء: ١٢٩]، وروى أبو داود، والتِّرمذيُّ عن عائشة، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**اللَّهُمَّ هذا قَسْمي فيما أَمْلِكُ، فلا تَلُمْني فيما تَمْلِكُ ولا أملِكُ**»(٢).

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم: (٢٧٥٩).

(٢) رواه أبو داود، رقم: (٢١٣٤)، والترمذي، رقم: (١١٤٠).

٣- إرشادُ الزَّوجة إلى كلِّ معروفٍ، وتعليمُها أمورَ دينها، وما يجب عليها لربِّها وزوجها وولدها وبيتها ووطنها وللنَّاس، وأن يعاملها بالأخلاق الحسنة؛ ليكونَ لها قُدْوَةً حسنةً، مُتَّبِعًا بذلك قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التّحْريم: ٦].

٤- عدم الاعتداء عليها بما يأتي:

أوَّلًا: الهجر بلا سببٍ؛ لأنَّ الهجرَ أمرٌ مذمومٌ، فضلًا عن كونه ذنبًا كبيرًا، وجنايةً عُظْمَى، والله ﷻ حرَّمَ علينا ذلك بقوله: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النِّسَاء: ٣٤]، وبعض الرِّجال الَّذين لا ضميرَ لهم ولا خُلُق يهجرون زوجاتهم اللَّيالي الطِّوال، فلا يحضرون إلَّا في ساعةٍ متأخِّرةٍ من اللَّيل، وربَّما كان غيابهم في مَعَاصٍ؛ فيسبِّبُ ذلك مَلَلًا في قلب الزَّوجة، وارتيابًا وحبًّا للانتقام، إنَّ الرَّجل العاقل هو الَّذي يَعْمُرُ بيتَهُ بحضوره ساعاتِ فراغه، ويؤنسُ أهلَه بحديثه، ويملأُ عيونَ زوجته وأولاده بالنَّظَر إليه، ويُوْدِعُ في قلوبهم محبَّته، وقد روى التِّرمذيُّ عن أبي هريرة، عن رسولِ الله ﷺ أنَّه قال: «**أكملُ المؤمنينَ إيمانًا أحسنُهم خُلُقًا، وخيارُكم خيارُكم لنسائهم**»(١).

ثانيًا: إمساكها ضِرارًا ليسلبها حقَّها، أو يستحصلَ منها ما أمهرَها به؛ فإن ذلك ظُلْمٌ وتَعَدٍّ، والله يأبى الظُّلمَ، وقد أَذِنَ الله بالطَّلاق فقال: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [النِّسَاء: ١٣٠]، وقال:

---

(١) رواه الترمذي، رقم: (١١٦٢)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ﴾ [البَقَرَة: ٢٣١].

ثالثًا: التَّضييق عليها، فيمنعها حقَّ التَّصرُّف بمالِها الخاصِّ، أو يمنعها زيارةَ أهلِها وأقاربِها، ويمنعها حقوقها المفروضة عليه لها.

وقد نهانا الله تعالى عن هذا، حبًّا بالأُلْفَة، ودفعًا للخصام الَّذي ينتهي بالفراق.

وأمَّا حقوقُ الزَّوج على الزَّوجة، فمنها:

١- أن تطيعَه في كلِّ ما لم تكن فيه مخالفةُ الله؛ لِما روى الإمام أحمدُ عن عمرانَ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصيةِ الخالق**»(١)، وألَّا تخالف نهيًا ليس فيه معصيةُ الله.

أمَّا المرأة المطيعة، فلها أجرُ مجاهدٍ، وهي أفضلُ النِّساء على الإطلاق، كما قال ﷺ: «**جهادُ المرأةِ حُسْنُ التَّبَعُّل لزوجها**»(٢)، وقيل له: أيُّ النِّسَاء خيرٌ؟ فأجاب ﷺ: «**خيرُ النِّساءِ مَنْ تَسُرُّكَ إذا أبصرتَ، وتُطيعك إذا أمرتَ، وتحفظُ غيبتكَ في نفسِها ومالِكَ**»(٣)، رواه الطَّبرانيُّ عن عبد الله بن سَلَام رضي الله عنه.

٢- أن تحافظَ على أموالِ زوجِها وأولادِه وبيته محافَظَتَها على

---

(١) رواه أحمد، رقم: (١٠٩٥)، والطبراني في المعجم الأوسط، رقم: (٤٣٢٢).

(٢) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٤٣٥٦٦).

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم: (٣٨٦)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم: (٢٦٨٢).

عِرْضِهَا وشرفِها وأعراضِ بناتها؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾ [النِّسَاء: ٣٤].

٣- أن تحافظَ على نظافةِ بدنها ونفسها ومنزلها وأولادها وخَدَمِها؛ لأنَّ ذلك مَجْلَبَةُ السُّرور، والنَّظافة من الإيمان.

٤- أن تكون مُدَبِّرَةَ بيتها، فلا تُسْرِفَ ولا تُقتِّر، ولا تكلِّف زوجها ما لا يطيق؛ حتَّى تكون مثلًا صالحًا لمن حولها.

٥- أَلَّا تعمل شيئًا ليس مفروضًا إلَّا بإذنه: فلا تُدخِلُ بيتَه إلَّا مَنْ يحبُّ، ولا تَخرجُ منه إلَّا بإذنه، ولا تعطي منه شيئًا إلَّا بعلمه، ولا تصومُ نفلًا إلَّا بإذنه، وقد روى البخاريُّ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**لا يحِلُّ لامرأةٍ أن تصومَ وزوجُها شاهدٌ إلَّا بإذنِهِ، ولا تأذَنَ في بيته إلَّا بإذنِهِ**»[1].

٦- أن تكون بارَّةً بأَبَوَيْ زوجها بِرَّها بأبويها؛ من حيثُ احترامُهما وطاعتُها لهما، وأن تَسْلُكَ مَسْلَكَ المروءة معَهما، ومع مَنْ تَضمُّه دارُه من أخواته وبناته وذوي قرباه، وأن ترأفَ بأولاده من غيرها رأفتَها بأولادِهِ منها؛ حتَّى يكونوا لها نِعْمَ المؤازر والنَّصير؛ لتستعينَ بهم متى حَصَلَ بينها وبين زوجها من الشِّقَاق ما لم يكن على بالٍ، وهذه المعاملة تدعو لها المروءةُ الإسلاميَّةُ، وهي أعظمُ دليلٍ على شرف المَنْبَتِ، وطِيْبِ الأصلِ، وقوَّةِ الدِّين.

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٥١٩٥).

روى التِّرمذيُّ، وابن ماجه عن عمرِو بن الأحوصِ الجُشميِّ رضي الله عنه أنَّه سَمِعَ النَّبيَّ ﷺ في حَجَّةِ الوداع بعد أن حمدَ الله وأثنى عليه يذَكِّرُ ويَعِظُ، فيقول: «**أَلَا واسْتَوْصوا بالنِّساءِ خيرًا، فإنَّما هُنَّ عَوَانٌ عندَكُم، ليس تملِكُون منهنَّ شيئًا غيرَ ذلك، إلَّا أن يأتينَ بفاحشةٍ مُبَيَّنَةٍ؛ فإن فعلنَ، فاهجروهنَّ في المَضَاجع، واضربوهنَّ ضربًا غيرَ مُبَرِّح، فإنْ أطعنَكُم، فلا تبغوا عليهنَّ سبيلًا، أَلَا إنَّ لكم على نسائكم حقًّا، ولنسائكم عليكم حقًّا، فحقُّكم عليهنَّ أَلَّا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُون، ولا يأذَنَّ في بيوتكم لمن تكرَهُون، أَلَا وحقُّهُنَّ عليكم أنْ تُحسِنُوا إليهنَّ في كِسوتهنَّ وطعامِهِنَّ**»(١).

وواجبٌ عليهما حِفْظُ سرِّهما؛ فقد روى مسلمٌ وأبو داود عن أبي سعيدٍ الخدريِّ رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال: «**إنَّ من شرِّ النَّاس عندَ اللهِ منزلةً يومَ القيامةِ الرَّجلَ يُفضي إلى امرأته، وتُفضي إليه، ثمَّ يَنْشُرُ أحدُهما سِرَّ صاحبه**»(٢)، وروى أحمدُ عن أسماءَ بنتِ يزيدَ رضي الله عنها أنَّها كانت عند رسول الله ﷺ، والرِّجالُ والنِّساءُ قعودٌ عنده، فقال: «**لعلَّ رجلًا يقولُ ما فعلَ بأهله، ولعلَّ امرأةً تُخبِرُ بما فعلَتْ مع زوجها**»، فأَرَمَّ(٣) القومُ، فقلتُ: إي واللهِ يا رسول الله! إنَّهم ليفعلون، وإنهنَّ ليفعلنَ، قال: «**لا تفعلوا؛ فإنَّ مثلَ ذلك مثلُ**

---

(١) رواه الترمذي، رقم: (١١٦٣)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي، رقم: (٩١٢٤).

(٢) رواه مسلم، رقم: (١٤٣٧)، وأبو داود، رقم: (٤٨٧٠).

(٣) أرمَّ: إذا سكت ولم يجب. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٢/ ٢٦٧).

شيطانٍ لَقِيَ شيطانةً، فغشيها، والنَّاسُ ينظرون»(١).

أمَّا الفِراقُ فمباحٌ فيما إذا كان دوامُ الزَّوجيَّة يؤدِّي إلى فساد نظامِ الأسرة، ويعرِّضهما لشقاءٍ ونكدٍ دائمٍ، وقد فسَّرَ بعضُهم قوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النِّساء: ١٩]، فقال: اصبرْ على زوجك، فلربَّما يكون بعد الكُرْهِ وِفَاقٌ وتفاهمٌ.

وممَّا وردَ في التَّنفير من الطَّلاق قولُه ﷺ: «**تَزَوَّجُوا ولا تُطَلِّقُوا؛ فإنَّ الطَّلاقَ يهتزُّ منه العرشُ**»(٢)، وقوله: «**أبغضُ الحلالِ إلى اللهِ الطَّلاقُ**»(٣)، وقوله: «**ما أحلَّ اللهُ شيئًا أبغضَ إليه من الطَّلاق**»(٤)، ويُفْهَمُ من هذا الحديث أنَّ أحبَّ الحلال إليه النِّكاحُ؛ لأنَّه جلَّ جلاله يكره الفُرْقَةَ بالطَّلاق، وضِدُّ المكروه محبوبٌ.

---

(١) رواه أحمد، رقم: (٢٧٥٨٣)، والطبراني في المعجم الكبير، رقم: (٤١٤).
(٢) أورده السيوطي في الجامع الصغير، رقم: (٦١٧٨).
(٣) رواه أبو داود، رقم: (٢١٧٨)، وابن ماجه، رقم: (٢٠١٨).
(٤) رواه أبو داود، رقم: (٢١٧٧)، والبيهقي في السنن الكبرى، رقم: (١٤٨٩٥).

١٤- حقن الدِّماء

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١]؛ أي: لا تقتلوا النَّفسَ المؤمنةَ الَّتي تشهد أن لا إلهَ إلَّا الله، وأنَّ محمَّدًا رسولُ الله إلَّا بالحقِّ، وهو سببٌ يُبِيْحُ سفك الدَّم، وقد أخبرنا عليه الصَّلاة والسَّلام «**أنَّ الحقَّ الَّذي تُباح به النَّفسُ هو واحدٌ من ثلاثةٍ: النَّفسُ بالنَّفس، والثَّيِّبُ الزَّاني، والمرتدُّ التَّاركُ لدينه**»(١)، وهذا أيضًا أمرُه للسُّلطان؛ إذ إنَّ الحدودَ والقصاصَ بيده دونَ سواه، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وقتلُ النَّفس من الكبائر الهادمة للعمل الصَّالح، ومن الفواحش الَّتي حذَّرنا الله تعالى منها بقوله ﷻ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وأفردها بالذِّكر؛ تعظيمًا لجريمة القتل، ولأنَّها كَبِيْرَةٌ مُهْلِكَةٌ، وقد عَدَّهَا عليه الصَّلاة والسَّلام من مُحْبِطَات العمل والموبقات، وهي المُهْلِكات، فقال ﷺ في حديثٍ رواه البخاريُّ ومسلمٌ: «**اجتنبوا السَّبعَ المُوْبِقَاتِ**»، قيل: ما هنَّ يا رسول الله؟ قال: «**الشِّركُ بالله، والسِّحرُ، وقتلُ النَّفسِ الَّتي حَرَّمَ اللهُ إلَّا بالحقِّ، وأكلُ الرِّبَا، وأكلُ**

(١) رواه البخاري، رقم: (٦٨٧٨)، ومسلم، رقم: (١٦٧٦).

مالِ اليتيم، والتَّولِّي يومَ الزَّحف، وقذفُ المُحْصَنات الغافلاتِ المؤمناتِ»[١].

ومِثْلُ قتلِ النَّفس العَوْنُ على قتلها، سواءٌ بالكلام أو الإرشاد أو الدِّلالة؛ فقد روى ابنُ ماجه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**مَنْ أعانَ على قتلِ مؤمنٍ بشطرِ كلمةٍ، لقيَ اللهَ مكتوبًا بينَ عينيه: آيِسٌ من رحمةِ الله**»[٢]، ويُباح للرَّجل قتلُ مَنْ شَهَرَ عليه السِّلاحَ، ولا يستطيع حِفْظَ نفسه إلَّا بقتله، كما يُبَاحُ له قتلُ من اعتدى عليه في دارِه أو عِرْضِه أو ماله، إذا لم يستطع تخليصَ نفسه من المعتدي عليه إلَّا بالقتل.

وقد ورَد في التَّحذير من قتل النَّفس أحاديثُ كثيرةٌ تُبيِّنُ عِظَمَ هذه الجريمة وخطرَها الاجتماعيَّ، وأنَّها لا ينفع معها عملٌ، وأنَّها فاحشةٌ ومنكرٌ، فقد روى البخاريُّ عن ابن عمرَ قولَ الرَّسول ﷺ: «**لن يَزَالَ المؤمنُ في فُسْحَةٍ من دينِهِ ما لم يُصِبْ دمًا حرامًا**»[٣]، ونهى الدِّينُ الإسلاميُّ والأديان السَّماويَّة الَّتي قبله عن قتل النَّفس وحذَّر منه وشدَّد عليه، فقال الله ﷻ: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾ [المَائدة: ٣٢].

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٢٧٦٦)، ومسلم، رقم: (٨٩).

(٢) رواه ابن ماجه، رقم: (٢٦٢٠)، والبيهقي في السنن الكبرى، رقم: (١٥٨٦٥).

(٣) رواه البخاري، رقم: (٦٥٦٢).

وروي أيضًا أنَّ ابن عبَّاسٍ رضي الله عنه سُئِلَ عَمَّنْ قتلَ مسلمًا متعمِّدًا، ثمَّ تَابَ واهتدى، فقال: «**أنَّى له التَّوبة؟**» سمعتُ نبيَّكم ﷺ يقول: «**يجيءُ المقتولُ متعلِّقًا بالقاتل تَشْخَبُ**[١] **أوداجُه دمًا، فيقول: أَيْ رَبِّ! سَلْ هَذَا فيمَ قَتَلني؟**»[٢]، وروى البخاريُّ ومسلمٌ عن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا تُقتل نفسٌ ظلمًا، إلَّا كانَ على ابنِ آدم الأوَّلِ كِفْلٌ**[٣] **منها؛ لأنَّه كانَ أوَّلَ مَنْ سَنَّ القتلَ**»[٤].

ومثلُ قتل النَّفس الانتحارُ، وهو أن يَقْتُلَ الإنسانُ نفسَه، والله عز وجل أمرَنَا أن نحفظَ نفوسَنا بقوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البَقَرَة: ١٩٥]؛ أي: لا يُعَرِّض أيُّ مؤمن نفسَه للخطر؛ لأنَّ ذلك يؤدِّي إلى الضَّرر، والضَّررُ يعطِّلُ الجسمَ، فتَتَعطَّل مصالحُ الشَّخص الدِّينيَّة والدُّنيويَّة، وربَّما كان هذا الشَّخص من ذوي المكانةِ، ويُعتَمَدُ عليه في المصالح العامَّة، فإذا انتحر أو عرَّضَ نفسه لتهلكةٍ تعطَّلت بتعطيله، ويقول عز وجل تحذيرًا من ذلك: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [النِّسَاء: ٢٩-٣٠].

---

(١) الشخب: السيلان، وتشخب دمًا: إذا قطعها فسالت. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١/ ٤٨٥).

(٢) رواه الترمذي، رقم: (٣٠٢٩)، وقال: هذا حديث حسن، والنسائي، رقم: (٣٤٥٤)، بلفظ: «يجيء المقتول بالقاتل يوم القيامة ناصيته ورأسه بيده وأوداجه تشخب. . .إلخ».

(٣) الكفل: الحظُّ. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١١/ ٥٨٩).

(٤) رواه البخاري، رقم: (٣٣٣٥)، ومسلم، رقم: (١٦٧٧).

فالمؤمنون ما داموا أهلَ دينٍ واحدٍ، فهم كنفسٍ واحدةٍ؛ فلا يحِلُّ اعتداءُ بعضِهم على بعض، ومن اعتدى على مؤمنٍ كان كمن اعتدى على نفسه، ومن اعتدى على نفسه كان كمن اعتدى على غيره من المؤمنين، وروى البخاريُّ، ومسلمٌ عن جُنْدُبٍ، عن رسول الله ﷺ، قال: «**كان فيمَنْ كان قبلَكم رجلٌ به جُرْحٌ، فجَزِعَ، فأَخَذَ سكِّينًا، فحَزَّ بها يَدَهُ، فما رَقأَ**[١] **الدَّمُ حتَّى ماتَ، فقالَ اللهُ تعالى: بادَرَني عبدي بنفسِه، حَرَّمْتُ عليه الجنَّةَ**»[٢].

والانتحارُ شطرٌ من الجنون، ومحاربةٌ للخالق ﷻ؛ لأنَّه جَزَعٌ، والجزعُ من قضاء الله وقدَرِهِ محاربةٌ له، وقد روى البخاريُّ، ومسلمٌ عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**مَنْ تَرَدَّى من جبلٍ فقتلَ نفسَه، فهو في نار جهنَّم يَتَرَدَّى خالدًا مُخَلَّدًا فيها أبدًا، ومَنْ تَحَسَّى سُمًّا فقتلَ نفسَه، فسمُّه في يده يَتَحسَّاه في نارِ جهنَّمَ خالدًا مُخَلَّدًا فيها أبدًا، ومن قتلَ نفسَه بحديدةٍ فحديدتُه في يده يَجَأُ بها في بطنه في نار جهنَّمَ خالدًا مخلَّدًا فيها أبدًا**»[٣]، وهذا يبيِّن أنَّ قاتلَ النَّفس مُخَلَّدٌ في النَّار أبدًا، ودليلُ ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النِّسَاء: ٩٣].

---

(١) رقأ الدم: سكن وانقطع. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١/ ٨٨).

(٢) رواه البخاري، رقم: (٣٤٦٣)، ومسلم، رقم: (١١٣)، واللفظ للبخاري.

(٣) رواه البخاري، رقم: (٥٧٧٨)، ومسلم، رقم: (١٠٩).

وقد اختلف العلماء في القاتلِ عمدًا هل له توبةٌ أم لا؟ فقال بعضهم: لا، أنَّى له التَّوبة(١)، كما قال ابن عبَّاس، وقال آخرون: «نعم»؛ لأنَّ الله ﷻ قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النِّساء: ٤٨]، وقال: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: ٨٢].

أمَّا قتلُ الخطأ، فقد وضَّحَهُ الله لنا في كتابه، كما وضَّحَ كفَّارته، فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ [النِّساء: ٩٢]، فلا سبيل لمؤمنٍ إلى قتل مؤمنٍ آخرَ إلَّا بالخطأ، ومن غير قصدٍ لذلك، والخطأ كثيرٌ؛ كصدم سيَّارةٍ، أو رميةٍ طائشةٍ، أو وقوعٍ عليه، أو نحو ذلك، والإسلام لم يُوجِب على قاتل الخطأ القصاص، وإنَّما أوجب عليه كفَّارةً، وهي تحرير رقبةٍ مؤمنةٍ، فوجب عليه أن يُخَلِّصَ بكلِّ عضوٍ منه عضوًا يقابله؛ رقبةَ مسلمٍ من الملك إلى الحرِّيَّة؛ على أن تكون هذه الرَّقبة سالمةً من العيوب؛ لتكون عضوًا عاملًا في المجتمع الإسلاميِّ، وكذا ديةٌ مسلَّمةٌ إلى أهله تؤخَذ من عاقِلَته في مدَّةٍ لا تزيد على ثلاث سنين، ومقدارها مئةٌ من الإبل، أو قيمتها، وقد قرَّر المشرِّعون قيمتَها بألف دينارٍ ذهبًا، أو اثني عشر ألفِ درهمٍ فضَّةً.

والمحافظة على النَّفس مشروعةٌ، بل مفروضةٌ على كلِّ مؤمنٍ، بحيث لا يعرِّض نفسَه للأخطار، ولا يتركها عرضةً للأخطار؛ فقد

(١) رواه الترمذي، رقم: (٣٠٢٩).

أَمَرَ الشَّارع عليه الصَّلاة والسَّلام بالتَّداوي دفعًا للأمراض، وقال: «**إنَّ الله أنزل الدَّاءَ والدَّواءَ، وجعلَ لكلِّ داءٍ دواءً؛ فتداوَوْا، ولا تَداوَوْا بحرامٍ**»(١).

وروى الإمام أحمد عن أسامة بن شريك، قال: أتيت النَّبيَّ ﷺ وأصحابَه، وكأنَّما على رؤوسهم الطَّير، فسلَّمت عليه، ثمَّ قعدتُ، فجاءت الأعراب من هاهنا وهاهنا، فقالوا: يا رسول الله! أنتداوى؟ فقال ﷺ: «**تَداوَوْا عبادَ الله؛ فإنَّ اللهَ لم يضعْ داءً إلَّا وضعَ له دواءً، غيرَ داءٍ واحد: الهَرَمُ**»(٢)، وأَمَرَ عليه الصَّلاة والسَّلام بالسِّواك؛ دفعًا لأمراض الأسنان، فقال: «**السِّواك مَطْهَرَةٌ للفَمِ مَرْضَاةٌ للرَّبِّ**»(٣)، وقد أثبتَ الطِّبُّ الحديثُ أنَّ أكثرَ ما يحصُل للجسم من تسمُّماتٍ سَبَبُها الأسنان.

وحَرَّم الإسلام شربَ الخمر؛ لِما فيها من كحول تعطِّل الأنسجةَ وتخدِّرها، ولا سيَّما أنسجة الأعضاء الهضميَّة الَّتي إذا وصل إليها عشرة جراماتٍ من الكحول تعطَّلت، ولا يمكن أن تعمل حتَّى يصل إليها مثلها، وحرَّمَ الزِّنا؛ لِما فيه من أمراضٍ سِرِّيَّةٍ، وحرَّم دخول الأراضي الموبوءةِ، وهذا ما يسمَّى الآن بالحَجْر الصِّحِّي، إلى غير ذلك من الأمور الَّتي لا نستطيع حصرَها، والَّتي تدلُّ على أنَّ الدِّين الإسلاميَّ دينٌ يجمع بين مصالح الدِّين والدُّنيا.

---

(١) رواه أبو داود، رقم: (٣٨٧٤).

(٢) رواه أحمد، رقم: (١٨٤٥٥).

(٣) رواه البخاري، رقم: (١٩٣٣).

إنَّ لدينا أوامرَ ونواهيَ يجب أن نُطيعها طاعةً تعبُّديَّةً، وإنَّ ما نذكره من الحكم والأسباب إنَّما هو رأيٌ، والدِّين فوق الرَّأي، فيجب على المسلم أن يؤمنَ أنَّ أوامرَ الله ونواهيَه جاءت لنفع العباد وإسعادِهم في حياتهم وآخرتهم، وليكون كلُّ فردٍ منهم عضوًا عاملًا ينفع المجتمعَ الإسلاميَّ كما ينفع نفسه، يقول عليه الصَّلاة والسَّلام: «**المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضَّعيف، وفي كُلٍّ خيرٌ**»[١]، وروي عن سعد بن أبي وقَّاصٍ ﵁ أنَّ الرَّسولَ عليه الصَّلاة والسَّلام أَمَرَه - وكان مريضًا - أن يأتي الحارثَ بنَ كلدةَ أخا ثقيفٍ - وكانَ طبيبًا -؛ ليتداوى عنده[٢].

---

(١) رواه مسلم، رقم: (٢٦٦٤).

(٢) رواه أبو داود، رقم: (٣٨٧٥)، بلفظ: «إنك رجل مفئود، ائت الحارث بن كلدة أخا ثقيف... إلخ».

١٥- رعاية اليتيم

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الإسراء: ٣٤]، ومعناه: لا تأكلوا من مال اليتيم، ولا تقربوه بسوءٍ، ولا تعرِّضوه لخسارةٍ أو غرقٍ أو حرقٍ، ولا تعاملوه إلَّا بالَّتي هي أحسن، وهي تنميته وحِفْظُهُ حتَّى يبلغ ذلك اليتيم أَشُدَّه، وهو كمالُ عقلِه ورشدِه وقدرته على التَّصرُّف بماله، وإلَّا فليس برشيدٍ، وإن بَلَغَ من العمر ما بلغ، ولا ينفكُّ عنه الحَجْر، فإن كان القيِّم بالمال غنيًّا، فلا يأخذ من مال اليتيم شيئًا؛ لأنَّ الله أغناه عنه، وإن كان فقيرًا، فليأكل بالمعروف، ومتى رَشَدَ اليتيمُ دفع إليه ماله كاملًا بنمائه، واليتيم هو الطِّفل الَّذي فَقَدَ أبًا يرعاه بنفسه وماله، ويحبُّه من أعماق قلبه، ويُؤْثِرُ مصلحته على مصلحته، ويخشى عليه مِحَنَ الحياة وصروفَ الدَّهر، ويُحسِنُ إليه بعطفه وبِرِّه.

أرأيت أبًا يحتضر وله صِبيةٌ صغارٌ ضعفاء، وهو ينظر إليهم، يتمنَّى لهم وليًّا مرشدًا يرعاهم كرعايته، ويجدون فيه من العناية بمصالحهم والرَّأفة بهم ما يُطَمْئِن نفسَ والدهم وهو في لَحْدِه، ويُنسيهم مرارةَ اليُتم وشقاوته؟! إنَّه منظرٌ يفتِّتُ الكبدَ، ويُؤْلِمُ القلبَ، لا شَكَّ! فالَّذي يَكْفُلُ اليتيم ويتعهَّده، ويُنْمِي ثروتَهُ، ويهذِّب نفسه، ويعوِّضه عن والده، ويكون له كافلًا رفيقًا، وراعيًا رحيمًا، وينسيه مرارةَ اليُتْمِ وألمه جزاؤه عند الله صُحْبةُ الرَّسول الكريم، والتَّمتُّعُ

بجنَّاتِ النَّعيم.

والقيامُ برعاية اليتيم إحسانٌ عظيمٌ دعا إليه الشَّرع الإسلاميُّ، ودعت إليه الإنسانيَّة، ورغَّبَ فيه القرآن الكريم في مواضعَ عديدةٍ، منها قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٠]، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾ [الضّحىٰ: ٩]، وفي تنمية مال اليتيم وتثميره أجرٌ كبيرٌ؛ لأنَّ إهمالَ شأنِ اليتيمِ وتركَه لنفسه مفسَدَةٌ لخُلُقِهِ، ومضيَعَةٌ لحقوقه، وفي القيام بواجبه خيرٌ له؛ لِما فيه من صلاحه وتربيته، وخيرٌ للقائمِ عليه والكافلِ له؛ لِما فيه من دَرْءِ المفاسد، وإهمالِ المصلحة العامَّة، وليكون القائم قُدْوَةً حسنةً لغيره في الدُّنيا، وفائزًا برضا الله وثوابه في الآخرة.

ومن أفضل المؤسَّسات في البلاد الإسلاميَّة دوائرُ أموال الأيتام؛ لِمَا فيها من حِفْظِ أموالهم وتثميرها ووضع اللِّجان لها ومراقبتها، ممتثلةً في ذلك قولَ الله ﷻ: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٠]، كما أنَّ دُوْرَ الأيتام ومدارسهم وملاجئهم من أعظم المؤسَّسات نفعًا، وأكبرِها أجرًا، وأكثرها مصلحةً للعامَّة؛ لأنَّ في ذلك حفظَهم من التَّشرُّد، وحفظًا لخُلُقهم من المفاسد، وقد حثَّنَا المصطفى ﷺ على ذلك، وأفادنا «**أنَّ من قام بكفالة اليتيم، فأحسن إليه وعلَّمه، فهو معه في الجنَّة سواء**»[(١)]، وأشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النِّسَاء: ٦]، وفي ذلك إشارةٌ إلى تعليمهم علوم

(١) رواه البخاري، رقم: (٥٣٠٤)، بلفظ: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا...»، ومسلم، رقم: (٢٩٨٣).

الإسلامِ الَّتي هي دينٌ وحياةٌ، وكيفيَّة التَّصرُّف بأموالهم، وكيفيَّة استقلالهم حتَّى لا يكونوا عالةً على غيرهم، أو سائمةً بلا تعليم ولا تربيةٍ، وقال أيضًا: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٠] وهذا إرشادٌ منه ﷻ إلى تهذيب الأيتام وتربيتهم وتعليمهم، وعدم إهمال نفسيَّتهم، ومعاملتهم معاملة أولادنا، وحثٌّ على العناية بمالهم أكثرَ من عنايتنا بنفوسنا، فلو كان هذا اليتيمُ ولدَنا أفلا نحبُّ له كافلًا أمينًا؟!

ولنستمع قول الله ﷻ فيه: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝٩﴾ [النِّسَاء: ٩]؛ إذن: فلنحبَّ لليتيم ما نحبُّه لأبنائنا، فإنَّ من تمام الإيمان «**أن يحبَّ المرءُ لأخيه ما يحبُّه لنفسِه**»[(١)].

وقد ذمَّ الله ﷻ في كتابه العزيز ذلك الَّذي كذَّب بالدِّين وأساء إلى اليتيم، فلم يرحمه، ولم يحنَّ عليه، ولم يحسن إليه بكلمةٍ طيِّبةٍ تسلو بها نفسُه، ويعود بها أنسه، ولم يَرْعَه رعايةً جميلةً، حتَّى يظنَّ أنَّ الله أبدلَه بأبيه أبًا كريمًا، وبرًّا رحيمًا، بعد أن فَقَدَ مَنْ كان يحنو عليه، ويسعى لراحته، ويودُّ له الحياة الطَّيِّبة، والسَّعادة الكاملة، فهذا الَّذي أساء إلى اليتيم كذَّب بالدِّين، وكان جزاؤه عند الله ويلًا وغضبًا وحرمانًا، فإذا كان الله ﷻ حرَّم علينا أن نقول له كلمةً سيِّئةً، فأكلُ ماله أولى بالتَّحريم؛ لقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝١٠﴾ [النِّسَاء: ١٠]، وإذا كان اليتيمُ عاجزًا عن المحاسبة والمراجعة، والحاكم لاهيًا، والرَّقيب

---

(١) رواه البخاري، رقم: (١٣)، ومسلم، رقم: (٤٥).

غافلًا؛ فما ربُّك بغافلٍ عمَّا يعمل الظالمون، والدَّهر قُلَّبٌ[(١)]، والله بالمرصاد، و«**الدَّيَّان لا يموت، وكما تُدين تُدان**»[(٢)]، وسيموت هذا الظَّالم، ويترك أولادًا صغارًا يكون نصيبهم كنصيب ذلك اليتيم.

وأمَّا اليتيم المُعْدَمُ فإنَّه من الرَّعيَّة، والله سائلٌ كلَّ راعٍ عمَّا استرعاه، فإن لم يكن للحكومة قُدْرَةٌ على رعايته، ففي المسلمين مُتَّسَعٌ وقُدْرةٌ، وقد روى ابن ماجه عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**من عَالَ ثلاثةً من الأيتام، كان كمن قامَ ليلَه، وصامَ نهارَه، وغدا وراح شاهرًا سيفَه في سبيل الله، وكنتُ أنا وهو في الجنَّة أخوين، كهاتينِ أُختان، وألصقَ أصبعيهِ السَّبابةَ والوسطى**»[(٣)].

وروى الإمام أحمد أنَّ رجلًا شكا إلى النَّبيِّ ﷺ قسوةَ قلبه، فقال له: «**امسحْ رأسَ اليتيمِ، وأطعمِ المسكينَ**»[(٤)]، ولم يقصد النَّبيُّ ﷺ بمسح رأس اليتيم أن يضع يدَهُ على رأسه، وإنَّما قَصَدَ بذلك رعايتَهُ وبِرَّه؛ لأنَّ اليُتْمَ مظهرٌ من مظاهر العطف، فالعطف على اليتيم تذكيرٌ للإنسان بأنَّ أولادَه عُرضةٌ لِأَن يكونوا كذلك، فليخترْ لأولادِ إخوانه المسلمين ما يختاره لأولاده، والبِرُّ لا يبلى، والإحسان لا يضيع، وفي الحديث الَّذي رواه التِّرمذيُّ عن ابن عبَّاس أنَّ نبيَّ اللهِ ﷺ قال: «**من قَبَضَ يتيمًا من بين مسلمين إلى طعامِه وشرابه، أدخله الجنَّة**

(١) دهر قلب: أي: يتقلَّب كيف يشاء. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٤/ ٧٥).
(٢) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٤٣٧٢٤).
(٣) رواه ابن ماجه، رقم: (٣٦٨٠).
(٤) رواه أحمد، رقم: (٩٠١٨).

البتَّةَ، إلَّا أن يعمل ذنبًا لا يُغْفَرُ له»[(١)]، فليحافظِ الأوصياءُ على إحساس اليتامى وشعورهم؛ فلا يجرحوا يتيمًا بكلمة بذيئةٍ.

ومن كان له أولادٌ، وفي بيته يتيمٌ أو يتامى، فليُنَبِّه أولاده على عدمِ مسِّ خاطرِ اليتيمِ بسوءٍ، وليجتهدْ في تربيته وتعليمه، وليعمل على إصلاح نفسه كما يعمل لأولاده، وقد أخبرنا المصطفى ﷺ «**أنَّ خيرَ بيتٍ في المسلمين بيتٌ فيه يتيمٌ يُحْسَنُ إليه، وشرَّ بيتٍ في المسلمين بيتٌ فيه يتيمٌ يُساء إليه**»[(٢)].

وروى أبو داود عن عوف بن مالكٍ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**أنا وامرأةٌ سَفْعاءُ**[(٣)] **الخَدَّيْنِ كهاتينِ يومَ القيامة**»[(٤)]، وسَفْعَاءُ الخدَّين هي امرأةٌ ذاتُ منصبٍ وجمالٍ، مات زوجُها عن مالٍ وأطفالٍ، فحبستْ نفسَها على يتاماها، وقعدتْ على تربيتهم وتنشئتهم حتَّى شَحَبَ لونُها من قيامها على خدمتهم إلى أن رشدوا، فأخبرَ ﷺ «**أنَّها تبادِرُه الدُّخولَ عندما يفتح باب الجنَّة، ويسألها: من أنت؟ فتقول: أنا امرأةٌ قعدتُ على أيتامٍ، فيعرفها، وإذا هي تلك الَّتي كانت معه يوم القيامة**»[(٥)].

وهناك أيتامٌ آباؤهم أحياءٌ، قال فيهم الشَّاعر أحمد شوقي:

---

(١) رواه الترمذي، رقم: (١٩١٧).

(٢) رواه ابن ماجه، رقم: (٣٦٧٩).

(٣) السفعة: نوع من السواد ليس بالكثير، وقيل: هو سواد مع لون آخر، وأراد أنها بذلت نفسها وتركت الزينة والترفه حتى شحب لونها واسودَّ إقامة على ولدها بعد وفاة زوجها. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٢/ ٣٧٤).

(٤) رواه أحمد، رقم: (٢٤٠٠٦).

(٥) أورده الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، رقم: (٥٨).

لَيْسَ الْيَتِيمُ مَنِ انْتَهَى أَبَوَاهُ مِنْ ... هَمِّ الْحَيَاةِ وَخَلَّفَاهُ ذَلِيلًا
إِنَّ الْيَتِيمَ هُوَ الَّذِي تَلْقَى لَهُ ... أُمًّا تَخَلَّتْ أَوْ أَبًا مَشْغُولًا[١]

---

(١) انظر: شعر شوقي في ميزان النقد، للمجذوب (١/ ٨٢).

١٦- الوفاء بالعهد وحِفْظُ الأمانة

قال الله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٤]، والعهدُ هو ما يُلزِمُ به الإنسانُ نفسَه، والعهدُ والوعدُ معناهما واحد، إلَّا أنَّ الوعدَ يتعلَّقُ غالبًا بالمصالح الشَّخصيَّة الوقتيَّة، والعهد يتعلَّق بأمورٍ خطيرةٍ وذاتِ شأنٍ، يَنْتُج من الإخلال بها فسادٌ كبيرٌ، وغالبًا ما يكون العهدُ مقترنًا بأَيْمَانٍ، ومقيَّدًا بشروطٍ، ومسجَّلًا بكتابٍ أو صحيفةٍ، وموقَّعًا بتوقيع المتعاهدين، وتسمَّى تلك الصَّحيفة عقدًا؛ لذا كان أمرُ العهدِ أخطرَ، ووجوبُ مراعاته أوكدَ، ومَنْ نَقَضَ العهدَ فقد غَدَرَ وخَانَ، ومن وَفَّى به فهو أمين، ومن تَرَكَ إنجازَ الوعد فهو مُخْلِفٌ، ومن صَدَقَ فيه فهو مُنْجِزٌ.

ومن هذا نفهم أنَّ العقدَ والعهدَ شيءٌ واحدٌ، والوفاء بالعقود والعهود من أهمِّ الفرائضِ، وأَلْزَمِ الواجبات الَّتي فرضها الله في الإسلام لنظامِ المعيشةِ وبقاءِ العمرانِ ودوام الثِّقة بين النَّاس، وترويج الصِّناعات والتِّجارات، وتبادل المنافع الحيويَّة الَّتي لا غنى عنها بين الأفراد والأمم، وقد أَمَرَ الله تعالى نبيَّهُ وأتباعَ نبيِّه بالوفاء بالعهدِ والعَقْدِ والوعد فيما يزيد عن ثلاثين موضعًا في كتابه العزيز، ونبَّه سبحانه وتعالى إلى أنَّ مَنْ نقضَ العهدَ فاسقٌ وخاسرٌ ومُفْسِدٌ وقاطعٌ، فقال: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ

أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٦-٢٧]، وبهذا كان الوفاء بالعهودِ أعمَّ أثرًا ونفعًا، وأطيبَ ثمرًا وفائدةً، وكان الغدرُ والإخلافُ بالوعد أبينَ ضررًا، وأبشعَ خبرًا؛ لأنَّ الإخلاف بهما هادمٌ للنِّظام، مُقَوِّضٌ لدَعائمِ العمرانِ، قاتلٌ للشُّعوب والأمم.

ومن عُرف بالغدر من النَّاس قلَّت ثقةُ النَّاس به، وتجنَّبوا مشاركتَه والارتباطَ معه في الأعمال الماليَّة والاقتصاديَّة، وما فقدت أُمَّةٌ الوفاءَ بالعهد إلَّا فقدتْ ركنَ الأمانةِ، وقوامَ الصِّدق، وحلَّ بها من أنواع العقاب الإلهيِّ العاجلِ ما تستحقُّه؛ لهذا عَدَّ النَّبيُّ ﷺ ناقضَ العهد خارجًا من الإسلام، فقال: «**لا إيمانَ لِمَنْ لا أمانةَ له، ولا دينَ لمن لا عهدَ له**»(١)، وقال أيضًا في حديث طويلٍ: «**وما نقضوا عهدَ الله وعهدَ رسوله إلَّا سلَّطَ اللهُ عليهم عدوًّا من غيرهم، فأخذَ بعضَ ما في أيديهم**»(٢).

إنَّ أوَّلَ شيءٍ تفقده الأمَّة إذا ما أُصيبت بداءِ الإخلافِ بالوعد هو الأمانة؛ لأنَّ ثقة النَّاس في بعضهم تموت، فلا يَثِقُ الرَّجل بأهله ولا بأولاده، ولا بأقربِ النَّاس إليه، فيعيشون عيشةَ الأفراد، متفرِّقين وإن كانوا مجتمعين، ضعفاءَ وإن كانوا كَثْرَةً، تحسبهم جميعًا وقلوبُهم شتَّى، فلا تحابُبَ بينهم ولا تعاونَ، ولا يأمن أحدُهم الآخرَ على التَّعامل معه إلَّا أن يستوثقَ منه بكلِّ ما يقدر عليه، ويحترس منه بكلِّ ما أمكن، يقول الله ﷻ: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ

(١) رواه أحمد، رقم: (١٢٣٨٣).
(٢) رواه ابن ماجه، رقم: (٤٠١٩).

ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ [النحل: ٩١]، ويقول: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]، ويقول: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾ [الأنعام: ١٥٢]، ويقول: ﴿أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، ويقول: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة.

وورد أيضًا من الأحاديث الشَّريفة في التَّرهيب من غدر العهد ما رواه البخاريُّ، ومسلمٌ عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**أربعٌ مَنْ كُنَّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خَصْلَةٌ منهنَّ، كانت فيه خَصْلَةٌ من النِّفاق حتَّى يَدَعَها: إذا ائْتُمِنَ خان، وإذا حَدَّثَ كذبَ، وإذا عاهدَ غدرَ، وإذا خاصَمَ فجرَ**»(١)، وما روياه أيضًا عن عمران بن حصين عنه ﷺ، قال: «**خيرُكم قرني، ثمَّ الَّذين يَلونَهم ثمَّ الَّذين يلونهم، ثمَّ يكونُ بعدي قومٌ يَشهدون ولا يُستشهدون، ويخونون ولا يُؤْتمنون، ويَنْذرون ولا يوفون، ويظهرُ فيهم السِّمَن**»(٢)، وما رواه البخاريُّ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله تعالى: ثلاثةٌ أنا خَصْمُهم يومَ القيامة: رجلٌ أعطى بي ثمَّ غَدَرَ، ورجلٌ باعَ حُرًّا ثمَّ أكلَ ثمنَهُ، ورجلٌ استأجرَ أجيرًا، فاستوفى منه، ولم يُعْطِ أجرَه**»(٣)، وما رواه مسلمٌ عن عبد الله بن عمر أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إذا جَمَعَ اللهُ الأوَّلين والآخرين يومَ القيامة، يُرْفَعُ لكلِّ غادرٍ**

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٣٦)، ومسلم، رقم: (٥٨).
(٢) رواه البخاري، رقم: (٦٤٢٨)، ومسلم، رقم: (٢٥٣٥).
(٣) رواه البخاري، رقم: (٢٢٢٧).

لواءٌ، فيقال: هذه غدرةُ فلانِ بن فلانٍ» [(١)].

وقد بيَّنَ الله سبحانه وتعالى أنَّ الوفاءَ بالعهد من أسباب الفلاح، فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾ [المؤمنون: ١-٧]، وذكر أوصافهم حتَّى قال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾ [المؤمنون: ٨-١١].

ومن ضروب العهد: عقدُ الزَّواج، والوفاءُ به يكون بحسن المعاشرة بين الزَّوجين؛ لأنَّ الرَّجل استحلَّ زوجته بكتاب الله، وسنَّة رسوله؛ فإمَّا إمساكٌ بمعروفٍ وإمَّا تسريحٌ بإحسانٍ، وعلى المرأة أن تطيع أمرَهُ، وتحفظ أمانته؛ فإذا خالفا، أو خالف أحدُهما هذا العهد فقد أخلفَ.

ومن ضُروب العهد: الوظيفةُ، والوفاءُ بها يكون بقيامِ الموظَّف بعمله بإخلاصٍ وصدقٍ، سواءٌ كانت الوظيفة خاصَّةً؛ كوظيفةٍ عند تاجر، أو عامَّةً؛ كوظيفة حكومة.

ومن ضروب العهد: الاستشارةُ، فمن استشاركَ فأشرْ عليه بما تحبُّه لنفسك، قال ﷺ: «**مَنْ أشارَ على أخيه بأمر يعلم أن الرُّشدَ في**

(١) رواه مسلم، رقم: (١٧٣٥).

غيره، فقد خَانَه»[(١)].

ومنه: تربيتُك لأولادك، وإنفاقُك على أهلك وعيالك؛ لأنَّ الله ﷻ أودعَكَ إيَّاهم، وأمرك بتربيتهم، وأخذ عليك عهدًا بذلك؛ فإن وفيت به كنت من المفلحين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التّحريم: ٦].

ومن ضروبه: الوديعة يودِعُك إيَّاها صاحبُها، وعهدُ صاحبها عليك حِفْظُها، ثمَّ ردُّها سالمةً في حين طلبها، فأصبحَ من الواجب عليك الوفاءُ بهذا العهد، والوديعةُ هي الأمانة، وقد أمرنا الله بحفظِهَا بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النِّسَاء: ٥٨]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٢٧﴾ [الأنفال: ٢٧].

ومنه: حفظُ السِّرِّ، وإيفاءُ الوزن والكيل، ونصحُ الصَّانع إذا صنع، والعاملِ إذا استؤجر.

ومنه: أحاديث النَّاس في مجالسهم؛ لقوله عليه الصَّلاة والسَّلام: «**المجالسُ بالأمانةِ إلَّا ثلاثةَ مجالسَ: سَفْكُ دمٍ حرامٍ، أو فَرْجٌ حرامٌ، أو اقتطاع مالٍ بغيرِ حَقٍّ**»[(٢)].

ومنه: قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: «**تَرْكُ السَّلامِ على الضَّريرِ خيانةٌ**»[(٣)]؛ فإنَّ الضَّرير قد لَحِقَهُ من المُصَاب ما أوجب عليك أيُّها

(١) رواه أبو داود، رقم: (٣٦٥٧).
(٢) رواه أبو داود، رقم: (٤٨٦٩).
(٣) أورده الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، رقم: (٢٣٤٩).

البصيرُ حمدَ الله وشكرَه بأن مَنَّ عليك بما سَلَبَهُ؛ فوجب عليك أن تسلِّم عليه، وتَهديه الطَّريقَ، وتُسرع إليه بالمعونة؛ فإن لم تفعل فقد خنته.

وقد بيَّنَ ﷺ أنَّ أداءَ الأمانة سِرُّ بركة أمَّتِه، فقال: «**لا تزال أمَّتي بخيرٍ ما لم تَرَ الأمانة مَغْنَمًا، والصَّدقةَ مَغْرَمًا**»[(١)]؛ أي: إنَّ الأمَّة الإسلاميَّة باقيةٌ بخيرٍ وسعادةٍ وصلاحِ حالٍ إلى وقتٍ تتغيَّر فيه النُّفوس، وتقِلُّ الثِّقة بين الأفراد، فيرون الأمانةَ غنيمةً ويستحلُّونها، والصَّدقة والزَّكاةَ ضريبةً فيمنعونها؛ فعندها يتبدَّلُ حالهم من خيرٍ إلى شرٍّ، ومن سعادةٍ إلى شقاءٍ، ومن صلاحٍ وفلاحٍ إلى خُسْرَان وفسادٍ.

وقد كانت الأمانة والوفاء بالعهد والمحافظة على الوعد من أَخَصِّ صفاته ﷺ؛ حتَّى إنَّ مشركي مكَّةَ الَّذين لم يؤمنوا به وأنكروه وأنكروا دعوته ائتمنوه على أموالهم، ووثقوا به في حفظ ودائعهم.

وفَّقَنا الله للاقتداء بسنَّتِهِ، واتِّبَاعِ شريعته.

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ، ورواه الترمذي، رقم: (٢٢١٠)، بلفظ آخر وهو: «إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء. . .إلخ»، وقال: هذا حديث غريب.

١٧- التَّطفيف في الكيل والوزن

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ [الإسراء: ٣٥]، ومعناه: أتمُّوا الكيل والوزن في بيعكم وشرائكم، أو عندما تكونون واسطةً بين البائع والشَّاري؛ لأنَّ التَّفاوت فيه قليلٌ، والوعيدَ عليه كبيرٌ، والوفاءَ خيرٌ، ومآلَهُ أحسن، وبخس الكيل والميزان والذَّرْعِ[١] خيانةٌ؛ لأنَّ الإتمام أمانةٌ، وسرقةٌ؛ لأنَّ المشتري والبائع لا يعلم ما بخستَ من حقِّهِ، وتدليسٌ؛ لأنَّه خديعةٌ وغِشٌّ، وكلُّ ذلك إثمٌ؛ لهذا أكَّد الله تعالى النَّهيَ عنها، وشدَّدَ الوعيدَ لمرتكبيه، فقال: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ [المطفّفين: ١-٣]، وقد يكون لبعض النَّاس مكيالان أو عياران أو ذراعان، يبتاع بأحدهما، ويبيع بالآخر، وهذا هو التَّطفيف أو البخس.

وقد حكى الله في كتابه العزيز عن شعيب مع قومه عندما بُعِثَ إليهم، فقال لهم: ﴿أَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ۝١٨١ وَزِنُوا بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۝١٨٢ وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝١٨٣ وَٱتَّقُوا ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٨٤ قَالُوٓا إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ

---

(١) ذرع الثوب: قدَّره بالذراع، وذرع كل شيء: قدره من ذلك. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٨/ ٩٤).

ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ١٨١-١٨٩]، فلمَّا كذَّبوه كانت عاقبتهم أنَّ الله ﷻ أرسلَ عليهم الظُّلَّة؛ وهي غبارٌ خانِقٌ أهلكهم عن آخرهم، ولم يُفدهم بخسُهم.

وقد أنزل الله ﷻ الميزانَ حاكمًا عدلًا، فلم يكلِّف المعطيَ أن يعطي أكثر ممَّا وجب عليه، ولم يكلِّف الآخذَ الرِّضا بأقلَّ من حقِّه؛ فإذا حكم الميزان وجب الرِّضا بحكمه؛ لأنَّه عدلٌ، ولا حقَّ لأحد على أحد، وقد نُهينا عن أكل أموالِ بعضنا بالباطل، وأيُّ باطلٍ أشدُّ من التَّطفيف؟! كما أنَّ المصطفى ﷺ أخبرنا «**أنَّ الله يعذِّب من يبخس المكيال والميزان بالسِّنين، وشدَّةِ المؤونة، وجَوْرِ السُّلطان**»، كما تقدَّم في الحديث الَّذي رواه ابن ماجه عن ابن عمر رضي الله عنه(١)، فالسُّنون: هي الجفاف والقحط، وشِدَّةُ المؤونة: عسرُ المعيشة، وجورُ السُّلطان: ظلمُهُ وبغيُهُ، وأفادنا أصحاب النَّبيِّ ﷺ أنَّ أوَّل ما يُحَاسَب عليه الإنسان الصَّلاة والمكيال؛ كما روي عن سلمان الفارسيِّ رضي الله عنه أنَّه قال: «**الصَّلاة مكيالٌ، فمن أوفى أُوفي له، ومن نَقَصَ فقد علمتم ما قال الله تعالى في المطفِّفين**»(٢).

وروى الطَّبرانيُّ عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه قال: «**القتلُ في سبيل الله**

(١) رواه ابن ماجه، رقم: (٤٠١٩)، بلفظ: «يا معشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهن... إلخ».
(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٢٨٨١).

يُكَفِّر الذُّنوب كلَّها إِلَّا الأمانة»[١]، وقال: «**يُؤْتَى بالعبد يوم القيامة، وإن قُتل في سبيل الله، فيقال له: أَدِّ أمانتَكَ، فيقول: أَيْ ربِّ! كيفَ وقد ذهبت الدُّنيا؟ فيقال: انطلقوا به إلى الهاوية، فينطلق به إلى الهاوية، ويُمَثَّلُ له أمانتُه كهيئتها يومَ دُفعت إليه، فيراها فيعرفها؛ فيهوي في أثرها أبدَ الآبدين**»، ثمَّ قال ابن مسعود: «**الصَّلاة أمانةٌ، والوُضُوء أمانةٌ، والوزن أمَانةٌ، والكيل أمانةٌ، وأشياءُ عدَّدها، وأشدُّ ذلك الودَائِعُ**»[٢].

والحقُّ كما قال ابن مسعود أنَّ الوزن والذَّرْعَ والعدَّ أمانةٌ، ونَقْصُهُ وبَخْسُهُ سرقةٌ وخيانة، وقد مرَّ علينا الحديث الشريف: «**لا إيمانَ لمن لا أمانةَ له**»[٣]، وأشبه بذلك شَدُّ اليدِ في الذَّرْع وقتَ البيع، وإرخاؤها عند الشِّراء.

ومن الواجب على الكيَّالين والوزَّانين والعدَّادين الَّذين يكيلون ويَزِنُون ويعدُّون لغيرهم ألَّا يفضِّلوا شاريًا على شارٍ، ومن الواجب على القسَّامين الَّذين يَثِقُ النَّاس بهم في قِسْمَة أراضيهم أو بيوتهم إبراءُ ذِمَمِهم، فلا يميل إلى أحد الخصمين ظالمًا الآخرَ، و«**شرُّ النَّاس مَنْ ظَلَمَ النَّاسَ للنَّاس**»[٤]، واللهُ لا يحبُّ المعتدين، فالأرزاق

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم: (١٠٥٢٧) بهذا اللفظ، ومسلم، رقم: (١٨٨٦)، بلفظ: «القتل في سبيل الله يكفر كل شيء إلا الدَّين».

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٤٨٨٥).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) راواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٧٠٥٦)، بلفظ: «...من أظلم الناس؟ قال: من ظُلِمَ لغيره».

لا تكون بالخِدَاع، ولا بالمقدرة على الكذب والخيانة؛ فلا العاجزُ يفوِّت رزقَه الَّذي قُسِمَ له، ولا الغادر القويُّ والمحتال يحصِّلُ فوقَ ما قُدِّرَ له، إنَّما هي كالآجالِ مقدَّرَةٌ ومقرَّرَةٌ، وسعيٌ واجبٌ محتَّمٌ لإيصال هذا الأمر المُقَدَّر، والمقسوم المقرَّر، وهي وعدٌ من الله، والله لا يخلِفُ وعدَه.

إنَّ الخائنَ في عمله مرذولٌ لا ينجح، والمُدَلِّسَ في صناعته خاسرٌ لا يُفْلِحُ، والغاشَّ في تجارته أبدًا لا يربح، و«**مَنْ غشَّنا فليسَ منَّا**»[1] كما قال ﷺ، وخسران الكيل والميزان ونحوهما غشٌّ وسرقة، والرَّسول عليه السَّلام يقول: «**لا يَسْرِقُ السَّارقُ حينَ يَسْرِقُ وهو مؤمنٌ**»[2].

إنَّنا نرى الغاشَّ المدلِّسَ أُوْتِيَ جشعًا وحبًّا في هذه الدُّنيا، وكلَّما أتته الدُّنيا زاده إتيانُها طمعًا بما في أيدي النَّاس، وهذا مصداقُ الحديث القدسيِّ؛ فقد قال ﷺ فيما يرويه عن ربِّه: «**عبدي! إن رضيتَ بما قسمتُه لك أرحتَ نفسَك بذلك، وكنتَ عندي محمودًا، وإن لم ترضَ سَلَّطْتُ عليك الدُّنيا تركضُ فيها رَكْضَ الوحشِ في البرِّيَّة، ولا ينالُكَ منها إلَّا ما قسمتُه لك، وكنتَ عندي مذمومًا**»[3].

(١) رواه مسلم، رقم: (١٠١).
(٢) رواه مسلم، رقم: (٥٧).
(٣) لم أجده بهذا اللفظ، وذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول في أحاديث الرسول (٢/ ٧٧)، بلفظ آخر، وهو: «عبادي، أنتم خلقي وأنا ربكم أرزاقكم بيدي، فلا تتعبوا فيما تكلفت لكم... إلخ».

فما أحسنَ التَّاجر الأمين إذا فَتَحَ محلَّه صباحَ كلِّ يومٍ معتمدًا على الله، مبتغيًا فضلَه، أمينًا معه، صادقًا مع عباده، لا يعتمدُ على وظيفةٍ محدودة الرَّاتب، ولا عملٍ معدودِ الأجر، وهذا غايةُ التَّوكُّلِ مع العمل، و«**التَّاجرُ الصَّدوقُ الأمينُ مع النَّبيِّين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين**»، كما أخبر بذلك سيِّدُ المرسلين(١).

ومن ضروب التَّطفيف: شراءُ السَّرقةِ من السَّارق، وبيعُها للنَّاس؛ فقد روى الحاكم وغيرُه عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**من اشترى سَرِقةً، وهو يعلم أنَّها سرقةٌ، فقد شُرِكَ في عارِها وإثمِها**»(٢).

ومن ضروب التَّطفيف: الغشُّ، وكتمان العيب؛ لما روى مسلم: أنَّ رسول الله ﷺ مَرَّ على صُبْرَةِ طعام، فأدخلَ يده فيها، فنالت أصابعُه بللًا، فقال: «**ما هذا يا صاحب الطَّعام؟**»، قال: أصابته السَّماء يا رسولَ الله، قال: «**أفلا جعلتَه فوقَ الطَّعام كي يراه النَّاسُ، مَنْ غشَّ فليسَ منِّي**»(٣).

ومن ضروب التَّطفيف: الاحتكار، وفي حديث رواه ابن ماجه عن عمر بن الخطَّاب أنَّ الرَّسول ﷺ قال: «**الجالبُ مرزوقٌ، والمحتكرُ ملعون**»(٤)، وقال: «**من احتكرَ على المسلمين طعامَهم،**

---

(١) رواه ابن ماجه، رقم: (٢١٣٩)، بلفظ: «التاجر الأمين الصدوق المسلم مع الشهداء يوم القيامة».

(٢) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم: (٢٢٥٣)، والبيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٥١١٢).

(٣) رواه مسلم، رقم: (١٠٢).

(٤) رواه ابن ماجه، رقم: (٢١٥٣).

ضربَهُ اللهُ بالجُذام، والإفلاس»[١]، والجذام: كلُّ مرض يأبى النَّاسُ الاختلاطَ بصاحبه؛ كالجَرَبِ، والسِّلِّ، وسائر الأمراض السِّرِّيَّة، وروي عن معاذ بن جبل، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**بئس العبد المحتكرُ، إنْ أرخصَ اللهُ الأسعارَ حَزِنَ، وإن أغلاها فَرِحَ**»[٢].

ومن ضروبه: النَّجْشُ: وهو أن يزيدَ في ثَمَنِ السِّلعة وهو لا يريد شراءها، أو يمدحها ليروِّجَها.

ومن ضروب التَّطفيف أيضًا: إنفاقُ السِّلع بالحَلِفِ، وقد روي عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه: أنَّ النَّبيَّ عليه الصَّلاة والسَّلام قال: «**ثلاثةٌ لا ينظرُ الله إليهم، ولا يزكِّيهم، ولهم عذابٌ أليم**»، قلت: خابوا وخسروا، مَنْ هم يا رسول الله؟ قال: «**المنَّان، والمُسْبِلُ إزاره**[٣]**، والمُنْفِقُ سلعتَه بالحَلِفِ الكاذب**»[٤].

وفي رواية: «**ثلاثةٌ لا ينظر الله إليهم يومَ القيامة: أُشَيْمِط**[٥] **زَانٍ، وعائلٌ**[٦] **مُسْتَكْبِرٌ، ورجلٌ جعل الله بضاعةً، لا يشتري إلَّا بيمينِهِ، ولا**

(١) رواه ابن ماجه، رقم: (٢١٥٥).

(٢) أورده ابن الأثير الجزري في جامع الأصول، رقم: (٤٣٨).

(٣) المسبل إزاره: هو الذي يطوِّل ثوبه ويرسله إلى الأرض إذا مشى. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٢/ ٣٣٩).

(٤) رواه الترمذي، رقم: (١٢١١)، وقال: حديث حسن صحيح.

(٥) الشَّمَط: بياض شعر الرأس يخالط سواده. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٩/ ٤٢١).

(٦) العائل: الفقير. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٣٢٣).

يبيعُ إلَّا بيمينِهِ»[١].

وأعظمُ الأيمان وِزْرًا، وأكبرُها إثمًا اليمينُ الغموس، وهي اليمين الكاذبة؛ فسواءٌ حَلَفَ بالله أو صفاته أو حقِّه أو كتابه فكلُّها أيمانٌ، وحكمُها حكمُ اليمين.

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم: (٦١١١).

١٨- الرِّبا

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، ومعناه: إمَّا: أنَّ الَّذين يعاملون بالرِّبا لا يقومون من قبورهم إلَّا كما تقوم النَّاقة الخَبوطُ الَّتي تخبطُ الأرضَ بقوائمها؛ لِما بها من مسٍّ، ومعنى المسِّ: الجنون.

أو: أنَّ الَّذين يأكلون الرِّبا عندما يقومون لشؤونهم يقومون وكأنَّهم مأخوذون؛ لِمَا بهم من جَشَعٍ وطمعٍ، أو خوفٍ على أموالهم الَّتي في أيدي النَّاس، وهذا شأنُ كلِّ مُرابٍ؛ فهو دائمًا في وَجَلٍ وخوفٍ على ماله، ولا ينسى ذلك إلَّا عندما يأتيه زبونٌ لاقتراض مالٍ منه، ولا يرتاح إلَّا عندما تنتهي المعاملة، فإذا انتهت داخَلَهُ الخوفُ والوَجَل، فهو دائمًا في هَلَعٍ على ماله، وفي طمعٍ لتجديد معاملةٍ مع غيره.

والله ﷻ حرَّمَ الرِّبا، وأحلَّ البيع؛ لأنَّ البيعَ أَخْذُ ربحٍ بحقٍّ مشروعٍ؛ يبتاع شيئًا، ثمَّ يبيعه، وهذا المال يشترك فيه كلٌّ من: الحمَّال، والجالب، والبائع بالجملة، والبائع بالقطاعيِّ، وصاحب السَّفينة، والزَّارع، والتَّاجر، وكثير من النَّاس؛ من عمَّالٍ، وأصحاب مِهَنٍ مختلفةٍ، أمَّا الرِّبا فإنَّه أَخْذُ ربحٍ من غير طريقه المشروع، وليس فيه تبادلُ مصلحةٍ، ولا معاملةٌ إلَّا بين اثنين، وفي ذلك تعطيلٌ للمصالح، وموجبٌ لانقطاع المعروف بين النَّاس، فقد رُوِي في

الحديث الَّذي رواه مسلم عن جابر بن عبد الله **«أنَّ رسول ﷺ لعنَ آكلَ الرِّبا، ومُؤكِلَهُ، وكاتِبَه، وشاهِدَيْه، وقال: هُمْ سَواء»**(١).

والرِّبا نوعان: فضلٌ، ونسيئة؛ فالفضلُ هو الزِّيادة، والنَّسيئة هو الأجل، وقد ورد في الحديث الَّذي رواه مسلم عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: **«الذَّهبُ بالذَّهب وَزْنًا بوزن، مِثْلًا بمِثْلٍ، والفِضَّةُ بالفِضَّةِ وزنًا بوزنٍ، مِثْلًا بمثلٍ؛ فمن زاد، أو استزاد، فهو ربًا»**(٢)، وفي رواية: **«التَّمرُ بالتَّمرِ، والبُرُّ بالبُرِّ، والشَّعيرُ بالشَّعيرِ، والملحُ بالملح؛ سواءً بسواءٍ مِثْلًا بمِثْلٍ، فمن زادَ واستزادَ فقد أَرْبى»**(٣).

وروى مسلم عن أبي سعيدٍ الخدريِّ رضي الله عنه قولَه ﷺ: **«الذَّهبُ بالذَّهبِ، والفِضَّة بالفِضَّة، والبُرُّ بالبرِّ، والشَّعيرُ بالشَّعير، والتَّمرُ بالتَّمر، والملحُ بالملح؛ مِثْلًا بمثل، يدًا بيدٍ، فمن زاد أو استزاد فقد أَرْبَى، الآخذُ والمُعْطِي فيه سواءٌ»**(٤).

ومثل ربا النَّسيئة ما رواه البخاريُّ، ومسلمٌ عن عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال: **«الذَّهبُ بالذَّهبِ رِبًا إلَّا هاءَ وهاءَ، والبُرُّ بالبُرِّ ربًا إلَّا هاءَ وهاءَ، والتَّمرُ بالتَّمر ربًا إلَّا هاءَ وهاءَ، والشَّعير بالشَّعير ربًا إلَّا هاءَ وهاءَ»**(٥).

---

(١) رواه مسلم، رقم: (١٥٩٨).
(٢) رواه مسلم، رقم: (١٥٨٨).
(٣) رواه أحمد، رقم: (٢٢٦٨٣).
(٤) رواه مسلم، رقم: (١٥٨٤).
(٥) رواه البخاري، رقم: (٢١٣٤)، ومسلم، رقم: (١٥٨٦)، واللفظ للبخاري.

والنَّوع الثَّالث: ربا القرض، وهو المعروف بين النَّاس في زمننا هذا، وتحريمه أشدُّ من غيره، وهو كلُّ قَرْضٍ جَرَّ نفعًا إذا اشترط المُقْرِض على المُسْتَقْرِض أن يردَّ عليه فضلًا مع ما أسلفه، فإن لم يشترط فضلًا في وقت القرض، فردَّ المُسْتَقْرِضُ أفضلَ ممَّا أخذ، جاز، ويدلُّ على ذلك ما رُوي عن مجاهد: «**أنَّ ابنَ عمرَ** رضي الله عنه **استلف دراهمَ، فقضى صاحبَها خيرًا منها، فأبى أن يأخذها، فقال: هذه خيرٌ من دراهمي، فقال ابن عمر: قد علمتُ، ولكن نفسي بذلك طيِّبةٌ**»(١).

قال الله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البَقَرَة: ٢٧٥]، ومعناه: أنَّ الله أحلَّ البيعَ؛ لِمَا فيه من مصالح تتعلَّق بمجموعةٍ كبيرةٍ من النَّاس، وحرَّمَ الرِّبا؛ لأنَّه سببٌ في انقطاع المعروف بين النَّاس، فمن عَلِمَ ذلك وتحقَّقَهُ، وتذكَّر أنَّ الله لا يريد إلَّا خيرًا، ولا يريد لهذا العالم إلَّا عمرانًا، وضحَّى بمصالحه الخاصَّة للنَّفع العامِّ، وتركَ منها ما فرضه على النَّاس ربحًا خاصًّا، واستحصل من ديونه رأسَ ماله فقط، فأمرُه إلى الله، واللهُ لا يريد بالنَّاس إلَّا مصلحتَهم، ورحمتُه وَسِعَتْ كلَّ شيء، أمَّا من عاد إلى أكل الرِّبا، واستحلَّه بعد أن حرَّمَهُ الله فذلك من الخالدين في عذاب الله.

---

(١) أورده مالك في الموطأ، رقم: (٩٠).

قال الله تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٧٦]؛ لأنَّ المُرَابي لا يستفيد من ماله شيئًا؛ فهو دائمًا في فقرٍ وشقاءٍ، وليس له من الأعمال الصَّالحة شيء؛ فلا تُقْبَلُ منه صدقةٌ ولا حجٌّ ولا صِلة، وأمَّا الكسبُ الحلالُ فإنَّ الله يبارك فيه لصاحبه في الدُّنيا، ويضاعف له الثَّواب في الآخرة بما يقدِّمه من أعمالٍ طيِّبةٍ ومنافعَ مثمرةٍ، وهذا مصداقٌ للحديث الَّذي رواه مسلم مرفوعًا إلى رسول الله ﷺ: «**ما تَصَدَّقَ أحدٌ بصدقةٍ من طيِّبٍ - ولا يَقْبَلُ اللهُ إلَّا الطَّيِّبَ - إلَّا أخذَها الرَّحمنُ بيمينه، وإن كانت تمرةً، فتربُو في كَفِّ الرَّحمنِ حتَّى تكونَ أعظمَ من الجبل، كما يُرَبِّي أحدُكم فَلُوَّهُ**[1] **أو فَصِيله**»[2].

ثُمَّ يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٧٧]؛ لأنَّهم آمنوا بالله ورسوله، وتجنَّبوا ما نهى الله عنه، وعملوا الصَّالحات الَّتي أمرهم بها، وأدَّوا ما عليهم من واجبات في أبدانهم وأموالهم، فهؤلاء لهم أجرُهم عند ربِّهم ثوابًا لأعمالهم، ولا خوفٌ عليهم في الدُّنيا، ولا هم يحزنون في الآخرة.

ومن الأحاديث الواردة في تغليظ تحريم الرِّبا، وما أُعِدَّ لآكله من العقوبة الشَّديدة، والعذاب الأليم ما رواه البخاريُّ عن سَمُرَةَ بن

---

(١) الفلو: المُهْرُ الصغير، وقيل: هو الفطيم من أولاد ذوات الحافر. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٣/ ٤٧٤).

(٢) رواه البخاري، رقم: (٧٤٣٠)، ومسلم، رقم: (١٠١٤)، واللفظ لمسلم.

جُنْدُبٍ رضي الله عنه قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «**رأيتُ اللَّيلةَ رجلين أتياني، فأخرجاني إلى أرضٍ مُقَدَّسَةٍ، فانطلقا حتَّى أتينا على نهرٍ من دمٍ فيه رجلٌ قائمٌ، وعلى وَسَطِ النَّهرِ رجلٌ بين يديه حِجارة، فأقبل الرَّجلُ الَّذي في النَّهر، فإذا أراد أن يخرج، رمى الرَّجلَ بحجر في فيه، فردَّه حيثُ كانَ، فجَعَلَ كلَّما جاءَ ليخرجَ رمى في فيه بحجر، فيرجع كما كان، فقلت: ما هذا الَّذي رأيته في النَّهر؟ قال: آكل الرِّبا**»[1].

وروى الحاكم عن ابن عبَّاسٍ، قال: نهى رسولُ الله ﷺ أن تُشْتَرى الثَّمرةُ حتَّى تطعم، وقال: «**إذا ظَهَرَ الزِّنا والرِّبا في قريةٍ، فقد أحلُّوا بأنفسهم عذابَ اللهِ**»[2]، وروى ابن ماجه عن عبد الله بن مسعودٍ، عن النَّبيِّ ﷺ، قال: «**ما أحد أكثرَ من الرِّبا إلَّا كانَ عاقبة أمرِه إلى قِلَّةٍ**»[3].

ومن الرِّبا: الدَّراهم الَّتي يأخذها الدَّائن على المدين حين حلول الوعد، وكذلك انتفاع المُرْتَهِن بالمال المرهون، أو الحيلة في التَّخلُّص من الرِّبا بأشياءَ كثيرةٍ، والله سبحانه وتعالى لا تخفى عليه حيلةُ مُحْتَالٍ، ومنها البيع والشِّراء الصُّوريُّ لاستحلال الرِّبا، وقد روى البيهقيُّ عن أبي أمامة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**يبيتُ قومٌ من هذه الأمَّة على طعامٍ وشرابٍ، ولهوٍ ولعبٍ، فيصبحون وقد مُسِخُوا قردةً**

(١) رواه البخاري، رقم: (٢٠٨٥).
(٢) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم: (٢٢٦١)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
(٣) رواه ابن ماجه، رقم: (٢٢٧٩).

وخنازيرَ، ولَصيبنَّهَم خسفٌ وقذفٌ، حتَّى يصبح النَّاس، فيقولون: قد خُسِفَ اللَّيلةَ ببني فلانٍ، وخُسِفَ اللَّيلة بدارِ فلانٍ، وليُرْسِلَنَّ عليهم حاصبًا من السَّماء كما أُرسلت على قوم لُوْطٍ على قبائلَ فيها، وعلى دورٍ، وليُرْسِلَنَّ عليهم الرِّيحَ العقيمَ الَّتي أهلكت عادًا على قبائلَ فيها، وعلى دورٍ بشربهم الخمرَ، ولُبْسِهِمُ الحَرير، واتِّخاذِهم القَيْنَاتِ، وأكلِهم الرِّبا، وقطيعتهم الرَّحم، وخَصْلَةٍ نسيها جعفر»[١].

وممَّا وردَ من الأحاديث في تغليظ تحريم الرِّبا وبشاعته وسوء فعل مرتكبه الحديثُ الَّذي رواه أحمدُ عن عبد الله بن حنظلةَ، عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «درهمُ رِبًا يأكُلُهُ الرَّجلُ وهو يعلمُ، أشدُّ عندَ الله من ستَّةٍ وثلاثينَ زَنْيَةً»[٢].

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٥٢٢٦).

(٢) رواه أحمد، رقم: (٢١٩٥٧).

١٩- حفظُ السَّمعِ والبصرِ واللِّسانِ

قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦]؛ أي: فلا تتَّبع ما ليس لك به علمٌ؛ فلا تقلْ: رأيتُ ولم ترَ، ولا تقل: سمعتُ ولم تسمعْ، ولا علمتُ ولم تعلمْ، ولا ترمِ أحدًا بما ليسَ لكَ به علمٌ، ولا تنقلْ خبرًا لم تعتقدْ صحَّتَه، فإنَّكَ مسؤولٌ عن سمعِك وبصرِك ولسانِك وقلبِك يومَ القيامةِ، فالسَّمعُ يُسألُ، والبصرُ يُسألُ، والفؤادُ يُسأل ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النُّور: ٢٤].

فعلى المسلمِ أن يحفظَ سمعَه ولسانَه عن الغِيبة والنَّميمةِ والكلامِ المحرَّمِ، وبصرَه عن النَّظرِ الحرامِ، وفُؤادَه عن الظَّنِّ الحرامِ، واللهُ يقولُ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [النُّور: ٣٠]، ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ [النُّور: ٣١]، ويقول تعالى: ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحُجرات: ١٢].

وإنَّ أعظمَ الأعضاءِ خطرًا: اللِّسانُ؛ ولهذا كانَ هو أوَّلَ الشَّاهدين على المرءِ يومَ القيامةِ، وهو ليسَ كغيرِه من الأعضاءِ، فهو يجولُ في كلِّ شيءٍ، ولهذا قالَ عليهِ الصَّلاةُ وأزكى السَّلامُ: «**وهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ**

في النَّارِ على وجوهِهم إلا حصائِدُ[١] **ألسنتِهم؟**»[٢]، وفي حديثٍ رواه أحمدُ عن أنسِ بنِ مالكٍ، عن النَّبيِّ ﷺ: أنَّه قالَ: «**لا يستقيمُ إيمانُ عبدٍ حتَّى يستقيمَ قلبُه، ولا يستقيمُ قلبُه حتَّى يستقيمَ لسانُه**»[٣]؛ لذلك وجب على المسلمِ المكلَّفِ أن يحفظَ لسانَه من كلِّ كلامٍ إلَّا ما ظهرتْ فيه المصلحةُ الدِّينيَّةُ؛ كأمرٍ بمعروفٍ أو نهيٍ عن مُنكرٍ أو دِفاعٍ عن عِرضٍ ودينٍ أو إرشادٍ أو ذِكرٍ، وما ظهرَت فيه المصلحةُ الدُّنيويَّةُ؛ ككلامٍ في بيعٍ أو شراءٍ أو تعليمٍ أو سياسةٍ أو أيِّ كلامٍ مُباحٍ في مجلسٍ، ولكن قد يجُرُّ المباحُ أحيانًا إلى مكروهٍ، وذلكَ كثيرٌ في العادةِ، فعلى المؤمنِ أن يحذرَ، ولا ينسى قولَ اللهِ ﷻ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [ق: ١٨]، ومن خافَ سَلِمَ.

روى البخاريُّ ومسلمٌ في «صحيحه»: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «**إنَّ العبدَ ليتكلَّمُ بالكلمةِ من رضوانِ اللهِ لا يُلقي لها بالًا يرفعُه اللهُ بها درجاتٍ، وإنَّ العبدَ ليتكلَّمُ بالكلمةِ من سَخَطِ اللهِ لا يُلقي لها بالًا يَهْوي بها في جهنَّمَ**»[٤].

---

(١) حصائد: أي ما يقتطعونه من الكلام الذي لا خير فيه، واحدتها حصيدة، تشبيها بما يحصد من الزرع. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (١/ ٣٩٤).

(٢) رواه الترمذي، رقم: (٢٦١٦)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) رواه أحمد، رقم: (١٣٠٤٨).

(٤) رواه البخاري، رقم: (٦٤٧٨)، ومسلم، رقم: (٢٩٨٨)، بلفظ: «إن العبد ليتكلم بالكلمة، ما يتبين ما فيها، يهوي بها في النار، أبعد ما بين المشرق والمغرب».

أمَّا الآن، فإنَّنا نأسفُ إذا قلنا: إنَّ المسلمينَ قد كثُرَ فيهم خطأُ اللِّسانِ، وعدمُ المبالاةِ في الكلامِ، حتَّى إنَّنا نرى المتكلِّمَ يتكلَّمُ في المجلسِ العامِّ أو الخاصِّ يقصدُ إضحاكَ السَّامعين، ولو كانَ في ذلكَ هلاكُه، أو هلاكُ مَنْ سمعَ، أو هلاكُ مَنْ سمعَ عنهُ، ومن كانت هذهِ صفتَه، فهو اللَّطيفُ خفيفُ الدَّمِ والرُّوحِ، وهو أفضلُ الرِّجالِ، وهو المقدَّمُ في المجالِسِ كائنًا مَن كان.

ومن محرَّماتِ الكلامِ: الفجورُ في المُخاصمةِ، والإخبارُ بما لم يقعْ، وفي الحديثِ الَّذي رواهُ البخاريُّ ومسلمٌ وغيرهُما عن عبدِ اللهِ بنِ عَمْرِو بنِ العاصِ، قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**أربعٌ مَنْ كُنَّ فيهِ كانَ مُنافقًا خالصًا، ومن كانت فيهِ خَصلةٌ منهنَّ، كانت فيه خَصلةٌ من النِّفاقِ حتَّى يَدَعَها: إذا اؤتُمِن خانَ، وإذا حدَّثَ كذبَ، وإذا عاهدَ غدرَ، وإذا خاصمَ فجرَ**»[1].

ومن مُحرَّماتِ الكلامِ: السِّبابُ وقد نهى الإسلامُ عنه، وبيَّن ﷺ أنَّه فُسوقٌ، وأنَّ مَن تعوَّد السَّبَّ كان فاسقًا؛ فقد روى البخاريُّ ومسلمٌ: أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «**سِبابُ المسلمِ فُسوقٌ، وقتالُه كفرٌ**»[2].

ومنه اللَّعنُ: وقد شدَّدَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ في النَّهي عنه؛ لحديثٍ رواه أبو داود عن سَمُرَةَ بنِ جُنْدُبٍ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «**لا**

(١) رواه البخاري، رقم: (٣٤)، ومسلم، رقم: (٥٨).
(٢) رواه البخاري، رقم: (٦٢٠٤٤)، ومسلم، رقم: (٦٤).

تَلاعَنُوا بلعنةِ اللهِ ولا بغضبِه ولا بالنَّار»[١]، والحديثُ الَّذي رواهُ أبو داود عن أبي الدَّرداءَ، عن رسولِ اللهِ ﷺ، قالَ: «**إنَّ العبدَ إذا لعنَ شيئًا، صَعِدَتِ اللَّعنةُ إلى السَّماءِ، فتغلقُ أبوابُ السَّماءِ دونَها، ثمَّ تأخذُ يمينًا وشمالًا، فإنْ لم تجدْ مَسَاغًا**[٢]**، رجعتْ إلى الَّذي لُعِنَ؛ فإن كانَ أهلًا، وإلَّا رَجعتْ إلى صاحِبِها**»[٣].

فالكذبُ والفجورُ والمخاصمةُ والسِّبابُ واللَّعنُ صفاتٌ تحرَّمُ في كلِّ شيءٍ، وعلى كلِّ شيءٍ، لا على ابنِ آدمَ فقط، بل على جميعِ شأنِك: عملِكَ وأمتعتِكَ وحيوانِكَ، فلا يليقُ بالمسلمِ المؤمنِ أن يكونَ فَحَّاشًا بلسانِهِ، شديدًا على أهلِه، بذيئًا على حيوانِه، كذوبًا في أقوالِه، مُدَّعيًا بما ليسَ فيهِ أو عندَهُ؛ فإنَّ المؤمنَ هيِّنٌ ليِّنٌ، وآلِفٌ مألوفٌ، والرَّسولُ ﷺ أخبرَنا في حديثٍ رُوي عن أنسِ بنِ مالكٍ، قالَ: «**ما كانَ الرِّفقُ في شيءٍ إلَّا زَانَه**[٤]**، ولا نُزِعَ من شيءٍ إلَّا شَانَه**[٥]»[٦]، وروى التِّرمذيُّ عن ابنِ عمرَ رضي الله عنه، قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**لا تُكثرُوا الكلامَ بغيرِ ذكرِ اللهِ؛ فإنَّ كثرةَ الكلامِ بغيرِ ذكرِ اللهِ**

---

(١) رواه الترمذي رقم: (١٩٧٦)، وقال: وهذا حديث حسن صحيح، وأبو داود، رقم: (٤٩٠٦).

(٢) مساغا: أي مدخلا. انظر: النهاية في غريب الأثر، لابن الأثير، (٢/ ٤٢٢).

(٣) رواه أبو داود، رقم: (٤٩٠٥).

(٤) الزينة: تحسين الشيء بغيره من لبسة أو حلية أو هيئة. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٥/ ١٦١).

(٥) شانه: ضد زانه؛ أي: عابه. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٥/ ٢٩٩).

(٦) رواه المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٥٣٦٧).

قسوةٌ للقلبِ، وإنَّ أبعدَ النَّاسِ من اللهِ القلبُ القاسي»(١)، وإنَّ اللهَ تعالى يقول: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزُّمَر: ٢٢]، ويقول: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ [الكهف: ٢٨].

ومن عثراتِ اللِّسانِ والقلبِ: النِّفاقُ وهو أن تقولَ بلسانِك ما ليسَ بقلبِك، وذلكَ هو الخداعُ، أو التَّزلُّف(٢)، وقد يكونُ نتيجةً لحسدٍ، وقد يكونُ نتيجةً لمكرٍ بدليلِ قولِ النَّبيِّ ﷺ كما روى الشَّيخان: «**وتجدونَ شَرَّ النَّاسِ ذا الوجهينِ الَّذي يأتي هؤلاءِ بوجهٍ وهؤلاءِ بوجهٍ، ومن كانَ لهُ وجهان في الدُّنيا، كانَ لهُ يومَ القيامةِ لسانانِ من نار**»(٣).

وممَّا رويَ من الأحاديث المرغِّبةِ في حفظِ اللِّسانِ والسَّمعِ والبصرِ والقلبِ، والمُرَهِّبة من إطلاقِها فيما لا يحلُّ من الكَلامِ: ما رواه البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي هريرةَ: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**إيَّاكُم والظَّنَّ؛ فإنَّ الظَّنَّ أكذَبُ الحديثِ، ولا تَحَسَّسُوا ولا تَجَسَّسُوا ولا تَنافَسُوا ولا تَحاسَدوا ولا تَباغَضوا ولا تَدَابَروا وكونُوا عبادَ الله إخوانًا كما أَمركم**(٤) **المسلمُ أخو المسلمِ، لا يظلمُه ولا يخذلُه ولا يحقرهُ، التَّقوى هاهنا ويشيرُ إلى صدرِه، بحسبِ امرئٍ من الشَّرِّ أن يحقِّرَ أخاهُ**

(١) رواه الترمذي، رقم: (٢٤١١)، وقال: هذا حديث غريب.
(٢) التزلف: التقرب. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٣/ ٤٠٤).
(٣) رواه البخاري، رقم: (٣٤٩٣)، ومسلم، رقم: (٢٥٢٦)، بلفظ: «وتجدون شر الناس ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه».
(٤) رواه البخاري، رقم: (٦٠٦٤).

المسلمَ، كلُّ المسلمِ على المسلمِ حرامٌ: دمهُ وعرضُه ومالُه»(١).

وروى البخاريُّ عن أَبي بكرةَ رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ في خُطبةِ الوداعِ: «**إنَّ دماءَكم وأموالَكم وأعراضَكم حرامٌ عليكُم، كحُرمةِ يومِكم هذا في بلدِكم هذا، ألَا هَلْ بلَّغتُ؟**»(٢).

وروى التِّرمذيُّ عن معاذِ بنِ جبلٍ رضي الله عنه، قالَ: قلتُ: يا رسولَ اللهِ! أخبرْني بعملٍ يُدخلُني الجنَّةَ، ويُباعدني عن النَّارِ، قالَ ﷺ: «**لقد سألتَ عن عَظيمٍ، وإنَّه ليسيرٌ على مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ تعالى عليهِ، تعبدُ اللهَ لا تشركُ بهِ شيئًا، وتقيمُ الصَّلاةَ، وتؤتي الزَّكاةَ، وتصومُ رمضانَ، وتحجُّ البيتَ إن استطعْتَ إليه سبيلًا**»، ثمَّ قالَ: «**ألا أدلُّكَ على أبوابِ الخيرِ؟ الصَّومُ جُنَّة، والصَّدقةُ تُطفِئ الخطيئةَ كما يُطفِئ الماءُ النَّارَ، وصلاةُ الرَّجلِ في جَوفِ اللَّيلِ**»، ثمَّ تلا: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السَّجدَة: ١٦-١٧]، ثمَّ قالَ: «**ألا أُخبرُكِ برأسِ الأمرِ وعمودِهِ وذِرْوةِ سَنَامِه؟**»، قلتُ: بلى يا رسولَ اللهِ! قالَ: «**رأسُ الأمرِ: الإسلامُ، وعمودُه: الصَّلاةُ، وذروةُ سنامِه: الجهادُ**»، ثمَّ قالَ: «**ألا أخبرُك بمِلاكِ ذلكَ كلِّهِ؟**» قلتُ: بلى يا رسولَ اللهِ! فأخذَ بلسانِه، ثمَّ قالَ: «**كُفَّ عليكَ هذا**»، قلتُ: يا رسولَ اللهِ! وإنَّا لَمُؤاخَذون بما نتكلَّمُ؟ فقالَ: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ، وهلْ يَكُبُّ النَّاسَ في النَّارِ على وجوهِهم إلا**

---

(١) رواه مسلم، رقم: (٢٥٦٤).

(٢) رواه البخاري، رقم: (٦٧)، ومسلم، رقم: (١٢١٨).

حَصائدُ ألسنتِهم؟»[(١)].

فمن هذا الحديثِ الجامعِ نفهمُ أنَّ اللِّسانَ فارسُ الميدانِ: يجولُ ويصولُ في كلِّ شيءٍ، وأنَّ خطأَهُ قد يؤدِّي إلى الهَلاكِ، كما قالَ الأعرابيُّ: لسانُك حصانُك إن صُنته صانَك، وإن هِنتَه هانَك، وإنَّ عثراتِ اللِّسانِ أشدُّ على المرءِ من وَقْعِ السِّنانِ، وكم كلمةٍ فصلَتْ رؤوسًا عن أجسادٍ، وكم كلمةٍ أودعَتْ قائلَها غياهبَ السُّجونِ، وأوقعَت صاحِبَها في المهالكِ، وكم كلمةٍ قالتْ لصاحبِها: دعني!

فليجتهدِ العاقلُ في حِفظِ لسانِه، وليتَّقِ اللهَ في نفسِه، وليتقيَّدْ في كلماتِه، وليحذرْ من هفَواتِه؛ فإنَّ اللهَ معَ المتَّقينَ.

(١) رواه الترمذي، رقم: (٢٦١٦)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

٢٠- النِّفاق

قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾ [النِّسَاء: ١٤٢-١٤٣].

إنَّ المنافقينَ يُخادعونَ رسولَ اللهِ وأولياءَه؛ لأنَّهم يُخفونَ غيرَ ما يُظهرونَ، - ومن يُخادعِ اللهَ ورسولهَ فهو أَولى بمُخادعةِ النَّاسِ - فهُم إن صَلَّوا راءوا بصلاتِهم ولم يصلُّوها للهِ وإنَّما صلُّوها للنَّاسِ، وإذا كانوا بمعزلٍ تركُوها، ولا يذكرونَ اللهَ إلَّا إذا كانوا في النَّاسِ، فلا هم مع المسلمينَ في شيءٍ، ولا مع الكافرينَ في شيءٍ ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البَقَرَة: ١٤]، وربَّما أخفى بعضُهم مخادعةَ النَّاسِ؛ خوفًا من شرٍّ يُصيبُه أو أَذًى يلحقُ بهِ، فهو يخشى النَّاسَ، واللهُ أحقُّ أن يَخشاهُ، ولكنَّ اللهَ خادعُهم، ولا شكَّ أنَّ الغلبةَ للهِ سبحانه.

شأنُ المنافقين في كلِّ مِلَّةٍ وفي كلِّ أُمَّةٍ، أنهم يُخادعونَ ويَكذبونَ ويَكيدونَ ويَمكرونَ ويَغشُّونَ ويَخونونَ، ويَتولَّونَ أعداءَ أمَّتِهم ودينِهم، ويتَّخذونَ لهم يدًا عندَهم، يستميلونهَم بها إذا دالتِ الدَّولةُ على قومِهم ولكنَّ حالَهم لا يخفى على الأمَّتين، كما قالَ الشَّاعرُ زهيرُ بنُ أبي سُلمى:

وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ(١)

فالمنافقونَ يُخادعونَ قومَهم، وأعداء أعداءَ قومِهم، وربَّما أخلصُوا للأعداءِ طَمعًا فيما يُصيبونَه من حُطامٍ زائلٍ، ولكنَّهم يهدمونَ بناءَ الثِّقةِ بهم بأيديهم، وكم من مُنافقٍ كانت خيانتُه لأمَّتِهِ ومساعدتُه لأعدائِها سببًا في هلاكِهِ بيدِ أولئكَ الَّذينَ ساعدَهم في إهلاكِ أمَّتِه، وكأنَّهم يقولُون: لو كانَ في هذا خيرٌ، لكانَ قومُهُ أولى بخيرِه، فإن كانَ قد خانَهم، فستكونُ خيانتُه لنا أشدَّ، وكُتُبُ التَّاريخِ ملأى بحوادثَ المنافقين الَّذين ساعدُوا الأعداءَ على قومِهم ثمَّ هلكُوا، وخلَّدَ التَّاريخُ لهم سُبَّةً يتحدَّثُ بها الخلفُ عن السَّلفِ، ولا يمحوها كَرُّ السِّنين، والمنافقونَ طلَّابُ منافعَ، ولو فيما يضرُّ أمَّتَهم، أو النَّاسَ أجمعين، فهم كما قالَ المتنبِّي:

كَرِيشَةٍ بِمَهَبِّ الرِّيحِ ساقطةٍ لَا تَسْتَقِرُّ عَلَى حَالٍ مِنَ الْقَلَقِ(٢)

وهم لا تروَّجُ تجارتُهم إلَّا في وقتِ ضَعْفِ الأمَّةِ وقوَّةِ أعدائِها فهم كما قال الإمام علي رضي الله عنه:

ولا خيرَ في ودِّ امرئٍ متلوِّنٍ إذا الرِّيح مالت مالَ حيثُ تميلُ(٣)

والمنفعةُ تُلتمسُ من الأقوياءِ فهُم يطلبونَها ويسعَونَ لها ويعملونَ في سبيلِها، وإن اقترنَ التماسُها بالعارِ والذِّلةِ والصَّغارِ؛ لأنَّهم كما قالَ المثلُ: خُدَّامُ مصلحةٍ.

---

(١) انظر: شرح المعلقات السبع، للزويني (١/ ١٥١).

(٢) انظر: خزانة الأدب وغاية الأرب، لابن حجة الحموي (١/ ١٩٣).

(٣) انظر: صيد الأفكار في الأدب، للمهدي (١/ ٦٧٣).

وصَفَ لنا رسولُ اللهِ ﷺ المنافقَ لنحذرَه، ونبتعدُ منهُ بهذا الحديثِ الَّذي أخرجَه البخاريُّ ومسلمٌ عن عبدِ الله بنِ عمرِو بنِ العاصِ: **«أربعٌ مَنْ كُنَّ فيهِ كانَ مُنافِقًا خالصًا، ومن كانت فيه خَصْلَةٌ منهنَّ، كانت فيه خَصلةٌ من النِّفاقِ حتَّى يَدَعَها: إذا اؤتُمِنَ خانَ، وإذا حَدَّثَ كذبَ، وإذا عاهدَ غدرَ، وإذا خاصمَ فجرَ»**(١).

فالنِّفاقُ وصفٌ عامٌّ لمن اجتمعتْ فيهِ هذهِ الخِصالُ الشَّائنةُ: الكذبُ والخيانةُ والغدرُ والفجورُ، وهو أعمُّ من الكذِبِ؛ لأنَّ الكاذبَ يُخبرُ بالقولِ عن وقوعِ أمرٍ ليسَ بواقعٍ، أمَّا المنافقُ فإنَّه يُخبرُ بلسانِ قولِه تارةً، وبلسانِ حالِه تارةً أُخرى عن أمرٍ يزعمُ أنَّهُ مُنطوٍ عليهِ وثابتٌ في نفسِه، والحقيقةُ ضدُّ ذلكَ، ثمَّ هو يوهمُ النَّاسَ ويُقنعُهم زورًا بحُسنِ حالِه وطيبِ سريرتِه، فكأنَّهُ عاهدَهم على الثِّقةِ بهِ والاعتمادِ عليهِ فيبقى خائنًا لهم إلى ما شاءَ اللهُ، ويبقَون هم مخدوعينَ بهِ ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [التوبة: ٥٦-٥٧]، ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [التوبة: ٦٢]؛ ولهذا نرى القرآنَ الكريمَ لم يحمِلْ على خُلُقٍ من مَساوئِ الأخلاقِ مثلَما حَملَ على النِّفاقِ، ولم يتوعَّدْ على مُنكَرٍ كما توعَّدَ عليهِ، حتَّى إنَّه جعلَ منزلةَ المنافقينَ في نارِ جهنَّمَ تحتَ منزلةِ المشركينَ، فقالَ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء: ١٤٥].

(١) سبق تخريجه.

وذلكَ كلُّه لِما للنِّفاقِ من قبيحِ الأثرِ في الإفسادِ، وإنَّ النَّاسَ الأحياءَ تراهُم في نهارٍ من ظواهرِهم، ولكنَّهم في ليلٍ أَلْيَلَ من بواطنِهم، تحسبُهم أيقاظًا في أحاديثِهم وأمانيِّهم، وهم رُقودٌ(١) في هِمَمِهم، نيامٌ عن خِدمةِ مصالحِهم العامَّةِ، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾ [المنافِقون: ٤].

يقضُون حياتَهم في الغَفَلاتِ وجرِّ المصالحِ الخاصَّةِ بأنفسِهم، ويُمنُّون أُمَّتَهم وقومَهم بالأماني الباطلةِ؛ لكي يُسندوا لهم أمرًا، أو يحفظُوا لهم صوتًا في كرسيِّ انتخابٍ أو مركزٍ بارزٍ، ثمَّ هم لا يعرفون إلَّا أنفسَهم إذا فازُوا، فإذا تولَّوا الأمورَ يومًا ما، قضَوا على الأمَّةِ المسكينةِ بالمواثيقِ الغاشمةِ والمعاهداتِ الكاذبةِ والأماني المزوَّرةِ، حتَّى يقضيَ اللهُ فيهم أمرَه، وينفِّذَ فيهم سنَّتَهُ.

وربَّما أظهرَ المنافقُ أمامَ النَّاسِ أنَّهُ على عِلمٍ غزيرٍ أو أخلاقٍ حَسنةٍ أو أعمالٍ صالحةٍ أو مساعٍ مبرورةٍ في خِدمة الدِّينِ أو القوميَّةِ أو الوطنِ أو الإنسانيَّةِ، وقد يكلِّفهُ قومُهُ القيامَ بمسعًى مبرورٍ في المصالحِ العامَّةِ أو في المشاريعِ الخاصَّةِ، فيظهرُ لهم موافقتَه، وربَّما يرتبطُ معَهم فيهِ، وهو ينوي في باطنِه مخالفتَهم، أو هدمَ مشروعِهم، وقد يقفُ هذا الموقفَ مع آخرينَ وآخرينَ، فيكونُ مع كلِّ أحدٍ، وهو ليسَ في الحقيقةِ إلَّا معَ نفسِه: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عِمرَان: ١٦٧]، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي

(١) الرقود: النوم. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٨/ ١١١).

قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٠٤-٢٠٦].

قالَ بعضُ الحكماءِ القدماءِ: «**إنَّ للهِ عبادًا ألسنتُهم أحلى من العسلِ، وقلوبُهم أَمَرُّ من الصَّبرِ، لبسُوا للنَّاسِ جلودَ الضَّأنِ من اللِّين؛ ليجرُّوا الدُّنيا بالدِّين**»(١) هذا هو النِّفاقُ الاجتماعيُّ.

أما النِّفاقُ الدِّينيُّ، فقد تقدَّمَ الكلامُ عليهِ في الدَّرسِ الأوَّلِ، وهو أن يُسِرَّ المرءُ من دينِه غيرَ ما يظهرُه.

ومن النِّفاقِ: أن يلتمسَ المرءُ رضاءَ النَّاسِ بما يُغضبُ ربَّه فيوافقُ الظَّالمَ على ظُلمِه لمصلحتِه، ويكونُ دائمًا على الضَّعيفِ مع القويِّ فقد أخرجَ الإمامُ أحمدُ عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ لكعبِ بنِ عُجْرَة: «**أعاذك اللهُ من إمارة السُّفهاء**»، قالَ كعبٌ: وما إمارةُ السُّفهاءِ يا رسول الله؟ قالَ ﷺ: «**أمراءٌ يكونون بعدي لا يهتدون بهديي، ولا يستنُّون بسُنَّتي؛ فمن صدَّقهم بكذبِهم، وأعانَهم على ظلُمِهم، فأولئكَ ليسُوا منِّي، ولستُ منهُم، ولا يَرِدُون على حوضي، ومن لم يُصَدّقهم بكذبهم، ولم يُعِنْهم على ظلمهم، فأولئكَ منِّي، وأنا منهم، وسَيَرِدُون على حوضي، يا كعبُ بنُ عجرةَ! الصِّيامُ جُنَّةٌ، والصَّدقةُ تُطفِئُ الخطيئةَ، والصَّلاةُ قربان، يا كعبُ بنُ عجرةَ! النَّاسُ غاديان: فمبتاعٌ نفسَه فمعتقُها، وبائعٌ نفسَه فموبقُها**»(٢).

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٦٥٥٧).
(٢) رواه أحمد، رقم: (١٤٤٤١).

وأخرجَ ابنُ ماجه عنِ ابنِ عبَّاسٍ عن النَّبيِّ ﷺ قالَ: «**إنَّ أناسًا من أمَّتي سيتفقَّهون في الدِّين، ويقرؤون القرآنَ، يقولونَ: نأتي الأمراءَ فنصيبُ من دُنياهم، ونعتزلُهم بديننا، ولا يكونُ ذلك؛ كما لا يُجْتنى من القَتادِ[1] إلا الشَّوكُ، كذلكَ لا يُجتنى من قُربِهم إلا الخطايا**»[2].

(١) القتاد: شجر صلب له شوكة كالإبر. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٥/ ٩).
(٢) رواه ابن ماجه، رقم: (٢٥٥).

٢١- النَّميمةُ والحسدُ

[عن كتابِ «الأخلاقِ والواجباتِ» للشَّيخِ عبدِ القادرِ المغربيِّ، بتصرُّف].

قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦].

والنَّميمةُ من عثراتِ القلبِ واللِّسانِ، وهي أن ينقل شَخصٌ لآخرَ من أحوالِ ثالثٍ وأخبارِه ما يسوءُهُ ويغضبُه، فيفسدُ عليهِ أمرًا دبَّره أو مصلحةً يحاولُ قضاءَها، ولا يخفى ما ينتجُه ذلكَ من فسادٍ وشرٍّ وتباغُضٍ بين الأحبَّاءِ؛ ولهذا حرَّمَ الدِّينُ الإسلاميُّ النَّميمةَ، وعابَها القرآنُ وذمَّ من كان هذا خُلُقَه، فقالَ ﷻ: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [القَلَم: ١٠-١١].

وبيَّن عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أنَّ النَّميمةَ من الأخلاقِ الدَّنيئةِ الَّتي تُبعدُ صاحبَها من الإيمانِ، فقالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**ليسَ مِنِّي ذو حَسَدٍ ولا نميمةٍ ولا كهانةٍ، ولا أنا منه**»(١).

ومن النَّميمة: التَّجسُّسُ؛ وهو نقلُ أخبارِ النَّاسِ إلى الحكَّامِ وذوي السُّلطةِ للإيقاعِ بهم، أو مصادرةِ أملاكِهم أو نفيهم، وهذا أفحشُ

(١) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٧٤٤٥).

النَّمائمِ، وأشدُّها ضررًا نهانا عنها القرآنُ بقولِه: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟﴾ [الحُجرَات: ١٢]، وذمَّ مَنْ يفعلُها بقولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب: ٥٨].

ومن كريمِ خُلُقِ المصطفى ﷺ وشدَّةِ مقتِه لهذا الخُلُقِ الشَّائنِ: ما رواهُ أبو داود عن ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه: أنَّه قالَ: «**لا يبلِّغني أحدٌ من أصحابي عن أحدٍ شيئًا؛ فإنِّي أحبُّ أن أخرجَ إليهِم وأنا سليمُ الصَّدر**»(١)، كما بيَّن ﷺ أنَّ صاحبَ هذا الخُلُقِ الشَّائنِ معذَّبٌ في البرزخِ، موعودٌ بحرمانِه من النَّعيم في الآخرةِ، فقد روى البخاريُّ ومسلمٌ أنَّ ابنَ عبَّاسٍ رضي الله عنه قالَ: إنَّ النَّبيَّ ﷺ مرَّ بقبرين، فقالَ: «**إنَّهما لَيُعَذَّبان، وما يعذَّبان في كبيرٍ: أمَّا أحدُهما، فكان لا يستترُ من البولِ، وأمَّا الآخرُ فكانَ يمشي بينَ النَّاسِ بالنَّميمةِ**»(٢)، كما رويا عن الحذيفةَ رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ قالَ: «**لا يدخلُ الجنَّةَ قَتَّات**(٣)»(٤)، وفي رواية: «**نمَّام**»(٥)، وإنَّما كانَ إثمُ المتجسِّسِ عظيمًا؛ لأنَّهُ يعمدُ إلى أناسٍ ابتُلوا بزلَّاتٍ أو هنَّات(٦) ارتكبُوها،

(١) رواه الترمذي، رقم: (٣٨٩٦)، وقال: هذا حديث غريب، وأبو داود، رقم: (٤٨٦٠).

(٢) رواه البخاري، رقم: (٢١٨)، ومسلم، رقم: (٢٩٢).

(٣) قتات: نمام. انظر تاج العروس، للزبيدي (٥/ ٣٧).

(٤) رواه البخاري، رقم: (٦٠٥٦)، ومسلم، رقم: (١٠٥).

(٥) رواه مسلم، رقم: (١٠٥).

(٦) هنات: أي شرور وفساد. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٤٠/ ٣١٩).

واستَخْفَوا بها عن أعينِ النَّاسِ؛ خوفًا من الفضيحةِ أو رهبةً من الحكَّامِ، ولا يزالُ المتجسِّسُ يدأبُ ويسعى، حتَّى يقعَ على خبرِهم، ويهتكَ السَّترَ عن مكتومِ أمرِهم، ثمَّ ينقلَ ذلكَ إلى الحكَّامِ، وهذا لا يجوزُ في الإسلامِ كما علمنا.

ويحذِّرُنا اللهُ جلَّ جلالُه من أن نصغيَ إلى نقلِ النَّاقلِ، أو نأخذَ خبرَه على ظاهرِهِ؛ لأنَّه فاسقٌ بطبعِه، وقد يكونُ فاسقًا بخبرِه، فيقولُ سبحانَه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ۝٦﴾ [الحُجرات: ٦]؛ ناهيًا لنا أن نصدِّقَ ذلكَ المتجسِّسَ إلَّا بعدَ التَّثبُّتِ من خبرِه، وشدَّةِ التَّفحُّصِ في صحَّةِ قولِه.

وسمَّى اللهُ تباركَ وتعالى ذلكَ النَّاقلَ فاسقًا؛ لسوءِ صنيعِه وفسادِ خُلُقِه، ثمَّ إنَّ تتبُّعَ السُّلطانِ لعوراتِ النَّاسِ وبحثَه عن أسرارِهم أمرٌ مذمومٌ؛ لأنَّه يغيِّرُ قلوبَهم عليهِ ويبغِّضُه لهم، وهذا ما عناهُ حديثٌ رواهُ أبو داود والحاكمُ عن أبي أمامةَ وغيرِه من الصَّحابةِ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «**إنَّ الأميرَ إذا ابتغى الرِّيبةَ في النَّاسِ أفسدَهم**»(١)، وحديثٌ رواهُ أيضًا أحمدُ والبخاريُّ عن أبي سعيدٍ، قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «**إنِّي لم أُؤمرْ أن أُنَقِّبَ عن قلوبِ النَّاسِ، ولا أشقَّ عن بطونِهم**»(٢).

ومنشأُ النَّميمةِ الحسدُ، وهو تمنِّي زوالِ نعمةِ الآخرين، فإذا تمكَّن

---

(١) رواه أبو داود، رقم: (٤٨٨٩)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم: (٨١٣٧).

(٢) رواه البخاري، رقم: (٤٣٥١)، ومسلم، رقم: (١٠٦٤).

هذا التَّمنِّي من قلبِ المرءِ وغفلَ عنهُ، ولم يتطهَّرْ منهُ، بقيَ في نكدٍ إلى الأبدِ، وقد قيل: الحسدُ مبراةُ الجسدِ؛ لأنَّ صاحبَه دائمًا في غمٍّ يُضعفُه، وحزنٍ يؤلمُه، ومرضٍ يهدمُ صحَّتَه وكمدٍ(١) يذوي جسدَه.

ورُوي عن الإمام عليٍّ رضي الله عنه قولُه: «**صحَّةُ الجسدِ من قلَّةِ الحسدِ**»(٢)، وقد أمرَ اللهُ نبيَّهُ أن يستعيذَ من الحاسدِ والحسدِ بقولِهِ في سورةِ الفلقِ: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ [الفَلَق: ٥]، كما ذمَّ الباري جلَّ جلالُه في كتابِه العزيزِ أولئكَ الَّذينَ يتمنَّون زوالَ نعمةِ اللهِ عن عبادِه حيثُ قالَ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ۝٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ۝٢٠٥ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝٢٠٦﴾ [البَقَرَة: ٢٠٤-٢٠٦]، فالحاسدُ دائمًا يُخفي من نفسِهِ الغدرَ، ويترقَّبُ الفُرَصَ ليكيدَ بالمحسودِ الغافلِ الَّذي آتاهُ اللهُ من نعمِه، وأمدَّهُ بواسعِ فضلِه، فهو دائمًا في سهرٍ للكَيدِ، وفي كَدَرٍ(٣) ممَّا يرى من نعمِ اللهِ على غيرِه، فإذا واتتهُ الفُرصُ كادَ لصاحبِه، ونعمُ اللهِ على العِبادِ لا تنقطعُ وأنواعُها متعدِّدةٌ، وكمدُ الحاسدِ ينقطعُ بانقضاءِ أجلِه.

وضررُ الحسدِ بالحسُودِ أشدُّ منه بالمحسودِ؛ لأنَّه يأكلُ من قلبِه، ويحرقُ دمَهُ، والمحسودُ في غفلةٍ من متاعبِ الحاسدِ وهمومِه، فهو

---

(١) الكمد: الحزن الشديد. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٩/ ١١٣).

(٢) انظر: ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، للزمخشري (٣/ ١٦٣).

(٣) الكدر: نقيض الصفو. انظر تاج العروس، للزبيدي (١٤/ ٢٢).

في راحةٍ والحاسدُ في تعبٍ، وما أصدقَ قولَ الشَّاعرِ عليِّ بنِ محمَّدٍ التِّهاميِّ:

إِنِّـي لأَرْحَـمُ حَـاسِـدِيَّ لِـحَـرِّ مَـا ... ضَـمَّـتْ صُـدُورُهُـمُ مِـنَ الأَوْغَـارِ
نَـظَـرُوا صَـنِـيعَ اللهِ بِي فَعُـيُونُـهُـمْ ... فِـي جَـنَّـةٍ وَقُـلُـوبُـهُـمْ فِـي نَـارِ(١)

والحسدُ خُلُقٌ ذميمٌ، ومركزُهُ دائمًا نفسُ لئيمٍ؛ لأنَّ الحسودَ عادةً لا يحسدُ البعيدين منهُ، وإنَّما يحسدُ أصدقاءَه وأقرباءَه، وذوي الفضلِ عليهِ على عيشِهم الهنيِّ ورزقِهم الرَّغيدِ، وإذا تجدَّدتْ لأحدِهم نعمةٌ أو جاءَه حظٌّ من دنيا، حسدَه عليهِ، ولا يألُو جهدًا في إيصالِ الشَّرِّ إليهِ، ولكنَّ سُنَّةَ اللهِ في خَلْقِه أنَّ الحسودَ خائبٌ خاسرٌ، وفي الأثرِ: «**للهِ دَرُّ الحسدِ ما أَعْدَلَه! بدأ بصاحبِه فقتلَه**»(٢)، وقيل أيضًا: «**الحسودُ لا يسودُ**»(٣).

ومن الأحاديثِ الواردةِ في ذمِّ هذا الخُلُقِ المذمومِ الممقوتِ ما رواهُ أبو داود عن أبي هريرةَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**إيَّاكم والحسدَ؛ فإنَّ الحسدَ يأكلُ الحسناتِ كما تأكلُ النَّارُ الحطبَ**»(٤)، وما رواه أحمدُ والتِّرمذيُّ عن الزُّبيرِ ﵁، قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**دَبَّ إليكم داءُ الأممِ قبلَكم: البغضاءُ والحسدُ هي الحالقةُ(٥)؛ حالقةُ الدِّينِ، لا**

(١) انظر: صيد الأفكار في الأدب والأخلاق، للمهدي (١/ ٤٨١).
(٢) انظر: غرر الخصائص الواضحة، للوطواط (١/ ٦٠٤).
(٣) انظر: البصائر والزخائر، لأبي حيان التوحيدي (١/ ٢٣٢).
(٤) رواه أبو داود، رقم: (٤٩٠٣).
(٥) الحالقة: الخصلة التي من شأنها أن تحلق؛ أي: تهلك وتستأصل الدين كما يستأصل الموسى الشعر، وقيل هي قطيعة الرحم والتظالم. انظر: النهاية في =

حالقةُ الشَّعَرِ، والَّذي نفسُ محمَّدٍ بيدِه! لن تؤمنوا حتَّى تَحابُّوا؛ ألا أنبِّئكم بشيءٍ إذا أنتُم فعلتُموه تَحاببتُم؟ أفشُوا السَّلامَ بينكم»[(١)].

وقولُه ﷺ: «**ليسَ منِّي ذو حَسَدٍ**»[(٢)] دليلٌ على أنَّ الحسدَ من الأخلاقِ الَّتي تُباعدُ عن الإيمانِ، وما أهلكَ قابيلَ ابنَ آدمَ وأبعدَه عن رضوانِ اللهِ ورضاءِ أبيهِ، وجعلَه يقتلُ أخاهُ، ويتحمَّلُ خطايا القاتلين من النَّاسِ إلَّا الحسدُ، واللهُ ﷻ يقولُ: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النِّسَاء: ٣٢]؛ لأنَّ هذا من الحسدِ.

وفي الحديثِ الَّذي رواهُ الشَّيخانِ وأحمدُ عن أبي هريرةَ، عن رسولِ اللهِ ﷺ أنَّهُ قالَ: «**إذا نظرَ أحدُكم إلى مَنْ فُضِّلَ عليهِ في المالِ والخَلْقِ، فلينظرْ إلى مَنْ هو أسفلَ منه**»[(٣)]، فهذا أنجعُ دواءٍ للحسدِ.

وما أحسنَ مَن وصفَهم القرآنُ بسلامتهِم من هذا الدَّاءِ المهلِك، والخُلُقِ الذَّميم، والخَصْلَةِ الشَّائنةِ ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحَشر: ٩-١٠].

= غريب الحديث والأثر (١/ ٤٢٨).

(١) رواه الترمذي، رقم: (٢٥١٠)، وأحمد، رقم: (١٤١٢).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه البخاري، رقم: (٦١٢٥)، ومسلم، رقم: (٢٩٦٣)، وأحمد، رقم: (٨١٤٧).

أخبرنا النَّبيُّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أنَّ المؤمنَ يَغْبِطُ، والمنافقُ يَحْسُدُ، والغِبطةُ: هي أن تتمنَّى نعمةً مثلَ نِعَمِ الآخرينَ، لا أن تتمنَّى زوالَهَا، وتمنِّي زوالِها هو الحسدُ.

وتقدَّمَ أنَّ شرَّ النَّاسِ ذو الوجهين، الَّذي يكيدُ لكَ من حيثُ لا تعلمُ، يُشهدُ اللهَ على ما في قلبِه أنَّه مُحبٌّ مخلِصٌ يريدُ الخيرَ لكَ، ويتمنَّى النَّجاحَ لمستقبلِكَ، والفوزَ لكَ في مساعيكَ، وهو ألدُّ الخصامِ، وقد حذَّرنا ﷺ ممَّن كانَ هذا خُلُقُه فقد روى البخاريُّ ومسلمٌ عن رسولِ اللهِ ﷺ قالَ: «**وتَجدون شَرَّ النَّاسِ ذا الوجهين، الَّذي يأتي هؤلاء بوجهٍ، وهؤلاء بوجهٍ**»(١).

وروى أبو داود وابنُ حِبَّان عن عمَّارِ بنِ ياسرٍ، قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**من كان لهُ وجهان في الدُّنيا، كانَ لهُ يومَ القيامةِ لسانان من نارٍ**»(٢).

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٣٤٩٤)، ومسلم، رقم: (٢٥٢٦).

(٢) رواه أبو داود، رقم: (٤٨٧٣)، وابن حبان، رقم: (٥٧٥٦).

٢٢- الغيبةُ

قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقال: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

نهانا اللهُ تعالى أن يغتابَ المسلمُ أخاهُ المسلمَ، وقد فسَّرَ لنا النَّبيُّ ﷺ الغيبةَ ما هيَ فقالَ في حديثٍ رواهُ مسلمٌ: «**أتدرونَ ما الغيبةُ؟**»، قلنا: اللهُ ورسولُه أعلمُ، قالَ: «**ذكرُك أخاك بما يكرهُ**»، قيل: أرأيتَ إن كان في أخي ما أقولُ؟ قالَ: «**إن كانَ فيهِ ما تقول، فقد اغتبتَهُ، وإن لم يكنْ فيهِ ما تقولُ فقد بَهَتَّهُ**»(١)؛ أي: كذبتَ عليهِ، واغتبتَه في الوقتِ نفسِه، وارتكبتَ وِزْرَيْن: وزرَ الغِيبة، ووزرَ الكذبِ.

وقد شبَّهَ اللهُ ﷻ الغيبةَ بأشدِّ ما يَنفرُ منهُ طَبعُ الإنسانِ، وهو أكلُ لحمِ بشرٍ ميِّتٍ، فالمُستغابُ غافلٌ لا يعلمُ كالميِّتِ، وما تناولَه المُغتابُ من استطالةٍ في عِرضِ المُستغابِ نَهشٌ للحمِه، والقرآنُ صوَّرَ الغيبةَ بهذا الشَّكلِ البَشِعِ؛ لينفِّرَ النَّاسَ منهُ، وليطهِّروا أخلاقَهم، ولينزِّهوا ألسنتَهم منهُ، وتقوى اللهِ تعالى أساسُ الطَّهارةِ؛ لأنَّها طهارةُ الباطنِ، واللهُ توَّابٌ على مَن تابَ، رحيمٌ لمَن أنابَ.

حرَّمَ الدِّينُ الإسلاميُّ الغيبةَ؛ لما لها من عواقبَ سيِّئةٍ على

(١) رواه مسلم، رقم: (٢٥٨٩).

المجتمع؛ فهي تسبِّبُ العداوةَ والبغضاءَ بينَ النَّاسِ، ومضيعةٌ للوقتِ الثَّمينِ بالاشتغالِ بما يضرُّ ولا ينفعُ، ويَسوءُ ولا يَسُرُّ، واعتراضٌ على الخالقِ جلَّ جلالُه؛ فإنَّ المغتابَ أوَّلُ ما يغتاب مِن المُستغابِ خِلْقَتَه: طولَه أو عرضَه أو مِشيتَه أو شكلَه، وكلُّ ذلكَ من صُنعِ اللهِ، وليسَ للمُستغابِ فيهِ شأنٌ!

ومهما كانت بشاعةُ الغيبةِ، فإنَّ وقعَها على النَّفسِ سارٍ، ولا سيَّما إذا كان المُستغابُ مكروهًا أو عدوًّا، لكن قلْ للمُغتابِ: هل ترضى من عدوِّك هذا أن يغتابَك ويظهرَ من مساويكَ ما سترتَ، كما أظهرتَ ما سترَ من مساويه؟ هل تفرَّغتَ من عيوبِك فأصلحتَها؟ ومن نفسِك فهذَّبتَها؟ ومن سيِّئاتِك فحسَّنتها؟ ومن غلطاتِك فصحَّحتها؟ هل ربَّيت بنيك؟ وأدَّبت ذويكَ؟ وأصلحتَ فسادَك، وراقبتَ أخطاءَك؟ وأصلحتَ عيوبَك حتَّى تذكرَ عيوبَ غيرِك؟

إنَّ نبيَّكَ ﷺ يقولُ: «**طُوبى لمن شغلَه عيبُه عن عيوبِ النَّاسِ**»[١]، ويقولُ أيضًا: «**عاملِ النَّاسَ بما تحبُّ أن يُعاملوك به**»[٢].

لقد تساهلَ النَّاسُ في الغيبةِ؛ لأنَّها بطبيعتِها سهلةٌ ليِّنةٌ، لا تكلِّفهم مشقَّةً سوى تحريكِ اللِّسانِ في الفمِ، لا سيَّما إذا كان المستغابُ عدوًّا لمن في المجلسِ أو لبعضِهم؛ لأنَّهم يتشفَّون بذكرِ معايبِه، ويتلذَّذون بما يسمعونَ عنه من سُوءٍ أو يُذكرُ بهِ من نَقصٍ، كما يتلذَّذُ الظَّمآنُ بالماءِ ليُطفِئَ بهِ حرارةَ جوفِه، ويبلَّ بهِ صداهُ، لكنَّها في

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (١٠٠٧٩).

(٢) لم أقف عليه، ولم أجده فيما توفر لي من مصادر حديثية.

الحقيقةِ انتقامُ عاجزٍ، وسلاحٌ في يد جبانٍ؛ لأنَّ المغتابَ دائمًا ينهزمُ عندما يعلمُ بحضورِ المُستغابِ أو أحدِ مُحبِّيه، وربَّما أبدلَ هجاءَه بمدحٍ، وذمَّهُ بثناءٍ، وما أحسنَ قولَ الشَّافعي:

إِذَا شِئْتَ أَنْ تَحْيَا سَلِيمًا مِنَ الأَذَى ... وَحَظُّكَ مَوْفُورٌ وَعِرْضُكَ صَيِّنُ
لِسَانُكَ لَا تَذْكُرْ بِهِ عَوْرَةَ امْرِئٍ ... فَكُلُّكَ عَوْرَاتٌ وَلِلنَّاسِ أَلْسُنُ
وَعَيْنُكَ إِنْ أَبْدَتْ إِلَيْكَ مَسَاوِئًا ... بِقَوْمٍ فَقُلْ يَا عَيْنُ لِلنَّاسِ أَعْيُنُ
فَعَاشِرْ بِمَعْرُوفٍ وَسَامِحْ مَنِ اعْتَدَى ... وَفَارِقْ وَلَكِنْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ(١)

والغيبةُ تباعدُ صاحبَها عن الإيمانِ الحقِّ، لأنَّ من شروطِ الإيمانِ أن تعاملَ النَّاسَ بما تحبُّ أن يعاملوكَ بهِ، ومن يغتبْ فقد خالفَ ذلكَ.

وقد حرَّمَ الإسلامُ الغيبةَ وشدَّدَ في تحريمِها، إلَّا في المصالحِ الشَّرعيَّةِ ممَّا يتوقَّفُ تحقُّقِها على ذكرِ عيوبِ الآخرِ وقُبحِ أعمالِه، وهذه إمَّا أن تكونَ في مصلحةٍ خاصَّةٍ؛ كأن يظلمكَ رجلٌ، فتصفَ مَنْ ظلمكَ لأولياءِ الأمرِ حتَّى يُنصفوكَ منهُ، أو في مصلحةٍ عامَّةٍ؛ كأن يكونَ الرَّجلُ مجاهرًا بأعمالٍ مُنكرةٍ، أو قائمًا بدعوةٍ مخالفةٍ ومزاعمَ باطلةٍ ممَّا ينشأُ عنها فسادٌ في العقيدةِ أو في البلادِ، أو فتنةٌ بينَ المسلمينَ؛ فلكَ أن تصفَ من أعمالِه ومفاسدِه وسوءِ مقاصدِه للحكَّامِ والرَّأيِ العامِّ، حتَّى تساعدَ على تداركِ أمرِه وكشفِ سترِه وكفِّ شرِّه، وهذا ما عناهُ القرآنُ الكريمُ بقولِ اللهِ ﷻ: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾ [النِّسَاء: ١٤٨]، فاللهُ لا يحبُّ من عبادِه أن يجهرَ

(١) انظر: صيد الأفكار في الأدب والأخلاق، للمهدي (١/ ٤٩٥).

بعضُهم بسيِّئاتِ بعضِهم الآخرِ؛ لأنَّ في ذلكَ فسادًا للمجتمعِ، وتشتيتًا للشَّملِ، وتفكُّكًا في الوحدةِ، ثمَّ إنَّ الجهرَ بالسُّوءِ على مسامعِ السَّامعين يؤثِّر في النُّفوسِ تأثيرًا ضارًّا؛ لأنَّ الإنسانَ مقلِّدٌ، ومن سمعَ شخصًا يذكرُ آخرَ بسوءٍ؛ لكرهِهِ إيَّاهُ أو بُغضِه لهُ، أو لاستيائِه منهُ، قلَّدهُ في ذلكَ القولِ، وربَّما زادَ فيهِ شيئًا من عندِه لم يقلْهُ ذلكَ القائلُ، والتقليدُ من أكبرِ أمراضِ الهيئةِ الاجتماعيَّة، ولا سيَّما في الأحداثِ والعوامِّ؛ لأنَّ الحدثَ يقلِّد مَنْ هو أكبرُ منه سنًّا، والعامِّيُّ يقلِّدُ من هو أكبرُ منهُ قدرًا ومقامًا، وإذا ظهرتِ المفاسدُ والمنكراتُ في الخواصِّ، فلا تلبثُ أن تفشوَ في العوامِّ، وسماعُ السُّوءِ كعملِ السُّوءِ، فإنَّه يؤثِّرُ في نفسِ السَّامعِ كتأثيرِ العملِ في نفسِ النَّاظرِ.

وقد جهلَ كثيرٌ من النَّاسِ مبلغَ تأثيرِ الكلامِ في نفوسِ السَّامعينَ وقلوبِهم، فلم ينزِّهوا ألسنَتَهم عن قولِ السُّوءِ، ولا أسماعَهم عن الإصغاءِ إليهِ، وكما أنَّ اللهَ سبحانَه وتعالى نهانا عن الجهرِ بسيِّئِ القولِ، نهانا عن الإسرارِ بهِ أيضًا، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۝٩﴾ [المجادلة: ٩].

ومنَ الأحاديث الواردةِ في التَّحذيرِ من الغيبةِ ما رواه الدَّيلميُّ عن أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه، قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**طُوبى لمن شَغَلَه عيبُه عن عيوبِ النَّاسِ، وأنفقَ الفضلَ من مالِه، وأمسكَ الفضلَ من قولِه، ووسِعَتْهُ السُّنَّةُ، فلم يعدلْ عنها إلى البِدعة**»[1].

(١) سبق تخريجه.

وقد نظم بعضُهم ذلك فقال:

لَا تَهْتِكَنْ مِنْ مِسَاوِي النَّاسِ مَا سَتَرُوا فَيَهْتِكَ اللهُ سِتْرًا مِنْ مَسَاوِيكَا

وَاذْكُرْ مَحَاسِنَ مَا فِيهِمْ إِذَا ذُكِرُوا وَلَا تَعِبْ أَحَدًا مِنْهُمْ بِمَا فِيكَا[(١)]

ولقد علَّمَنا نبيُّنا عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أَلَّا نلقيَ أنفسنَا في تيَّارِ الغيبةِ الجارفِ مع الَّذينَ يغتابونَ النَّاسَ، ولتكنْ فينا حميَّةٌ دينيَّةٌ نقفُ فيها موقفَ الحقِّ أمامَ المُغتابِ المُعتدي فقد روى ابنُ أبي الدُّنيا عن أنسِ بنِ مالكٍ، عن النَّبيِّ ﷺ: أنَّه قالَ: «**إذا وُقِعَ في الرَّجلِ وأنت في ملأٍ، فكن للرَّجلِ ناصرًا، وللقومِ زاجرًا، أو قُمْ عنهم**»[(٢)].

ودخلتْ امرأةٌ على النَّبيِّ ﷺ في بيتِ عائشةَ تستفتيهِ في أمرٍ، فلمَّا خرجت، قالت عائشةُ: يا رسولَ اللهِ! ما أقصرَها! فقالَ ﷺ: «**مَهْلًا، إيَّاكِ والغيبةَ!**»، فقالت: يا رسولَ اللهِ! إنَّما وصفتُها بأمرٍ هو فيها، فقالَ ﷺ: «**أجل! ولولا ذلكَ لكانَ قولُكِ بهتانًا**»[(٣)].

وقالَ ميمونُ بنُ سيَّاه أحدُ العبَّادِ المعروفين: بينما أنا نائمٌ إذا بجيفةِ زنجيٍّ، وقائلٌ يقولُ: كلْ يا عبدَ اللهِ، قلتُ: وما آكلُ؟ قالَ: كُلْ بما اغتبتَ عبدَ فلانٍ، قلتُ: واللهِ! ما ذكرتُ فيه خيرًا ولا شرًّا، قالَ: ولكن استمعتَ، ورضيتَ، فكانَ ميمونٌ بعدها لا يغتابُ أحدًا،

---

(١) انظر: العقد الفريد، لابن عبد ربه (٢/ ١٨٣)، ولم ينسب لقائل.

(٢) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٨٠٢٨).

(٣) لم أقف عليه ولم أجده فيما توفر لي من مصادر حديثية، وأورده الماوردي في كتاب أدب الدنيا والدين (١/ ٢٦٧).

ولا يدعُ أحدًا يغتابُ أحدًا عندَه.(١)

وقد بيَّن لنا نبيُّنا عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: أنَّ اللِّسانَ عدوٌّ لدودٌ إذا تُركَ وشأنَه، وأنَّه صديقٌ نصوحٌ إذا قُيِّدَ، «**فلا يكبُّ النَّاسَ في النَّارِ على وجوهِهم إلَّا حصائدُ ألسنتِهم**»(٢)، وإنَّ كلمتين خفيفتين يقولهما الإنسانُ يرفعانه عندَ اللهِ درجاتٍ، وإنَّ الأمرَ بالمعروفِ، والنَّهيَ عن المُنكرِ، والإصلاحَ بينَ النَّاسِ، والإرشادَ إلى سبيلِ الخيرِ والتَّعليم كلُّها من ثمار اللِّسان، ترفعُ الإنسانَ إلى درجاتِ الأبرارِ، ولهذا قالَ عليهِ السَّلام في حديثٍ رواه البيهقيُّ عن أبي حنيفة: «**أحبُّ الأعمالِ إلى اللهِ حِفْظ اللِّسانِ**»(٣).

(١) انظر: لباب التأويل في معاني التنزيل، للخازن (٤/ ١٨٣).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٤٥٩٩).

٢٣- التَّكبُّر

قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء: ٣٧].

أي: لا تمشِ في الأرضِ مُختالًا مُتكبِّرًا على النَّاسِ، فخورًا عليهم، متطاولًا فيهم، بل عليكَ أن تقصِدَ في مَشيك بينَ الإسراعِ الَّذي هو نوعٌ من الخُيَلاءِ، والتَّأنِّي الَّذي هو ضَعْفٌ وخَوَرٌ فإنَّكَ مهما بالغتَ في كبريائِك فلن تخرِقَ الأرضَ؛ لأنَّك غيرُ قادرٍ على ذلكَ، ولن تبلغ الجبال طولًا، فهي أقوى منكَ مادةً، وأشدُّ صَلابةً وأعلى هامَةً.

وقالَ اللهُ على لسانِ لقمانَ إذ يقولُ لابنِه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان: ١٨-١٩].

والكِبْرُ: هو التَّعالي على الغَيرِ، وإظهارُ احتقارِهم، وهو خُلُقٌ ممقوتٌ يُكسبُ صاحبَه كُرهَ النَّاسِ، ويوغِرُ[١] عليه صدورَ إخوانِه، ويُخفي أعمالَه المبرورةَ، ويُبرزُ مساويه المستورةَ، ويُعميه عن اتِّباعِ سبيلِ الحقِّ، كما أعمى عظماءَ قريشٍ لمَّا دعاهم رسولَ اللهِ ﷺ إلى

(١) الوغر: الحقد والضغن. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٤/ ٣٦٨).

الدِّينِ واتِّباعِه، فقالوا أنفةً واستكبارًا: ﴿لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾ [الأحقاف: ١١] يعنُون بذلكَ الضُّعفاءَ الَّذين اتَّبعوه.

وشرطُوا على محمَّدٍ ﷺ أن يطردَ عنه أصحابَه المستضعفين كبلالٍ وعمَّار ليستمعُوا إليه؛ لأنَّ التَّكبرَ الَّذي ملأَ نفوسَهم أعماهُم، وأصمَّ أسماعَهم عن الاهتداءِ بهديِه، واستماعِ نصائحِه، واتِّباعِ رشدِه، ومجالسةِ من اتَّبعه من فقراءِ القومِ ومواليهم؛ ظنًّا منهم أنَّهم من طينةٍ غيرِ طينتِهم، أو جنسٍ غيرِ جنسِهم؛ فكان نصيبُهم الحرمانَ في الدُّنيا، والعذابَ في الآخرة، ومثلُ ذلكَ كانت عاقبةُ جَبَلَةَ بنِ الأيهم الَّذي منعَه تكبُّره عن أن ينقادَ إلى الحقِّ، فعاشَ طريدًا، وماتَ شريدًا في بلدٍ غيرِ بلدِه، وبينَ قومٍ غيرِ قومِه.

إنَّ المتكبِّر لا يشعرُ بخطئِه؛ فهو يرى سيِّئَه حسنًا وباطلَهُ حقًّا وضلالَه هُدًى فينصرِفُ عنهُ النَّاسُ، وتتعطَّلُ مصالحُه، وتضيعُ ثروتُه؛ فتقفُ أسبابُ معيشتِه، ويضيقُ رزقُه، ويقلُّ مالُه، وتسوءُ حالُه، ولا ترى أحدًا يحترمُه عن رغبةٍ وإخلاصٍ، ولكن ربَّما عن رهبةٍ وخوفٍ، فإذا تزعزعَ مركزُه، ونُزِعَت عنه صولتُه، أظهرَ لهُ النَّاسُ كُرهًا، وكانوا عليهِ بدلَ أن يكونُوا لهُ؛ لأنَّ النفوسَ البشريَّةَ خُلقت حُرَّةً تكرهُ الذُّلَّ، وهذا المتكبِّرُ يريدُ إذلالَها، وتأبى الضَّيمَ وهو يريدُ ضيمَها، فالتكبُّرُ داءٌ خبيثٌ يسبِّبه مُرَكَّبُ نقصٍ عندَ المتكبِّرِ، وأسبابُه كثيرةٌ، منها: العلمُ؛ فقد يتكبَّرُ العالمُ بعلمِه، فيحتقرُ النَّاسَ ويطلبُ منهم خدمتَه وتعظيمَه، ويرى في نفسِه أنَّه أعلمُ منهُم باللهِ، وبما يقرِّبُ إلى اللهِ وهذا ليسَ بعالمٍ حقيقةً؛ لأنَّ العلمَ يُعرِّفُ الإنسانَ بنفسِه، ويُعلمُهُ

حُجَّةَ اللهِ عليه، فيزيدُه تواضعًا واحترامًا للنَّاسِ؛ لأنَّ النَّاسَ عبادُ اللهِ، وأقربُهم من اللهِ أبرُّهم بعبادِه.

ومنها: كثرةُ العبادةِ والتَّهجُّدِ؛ فقد يتكبَّرُ العابدُ بعبادتِه، ويرى أنَّهُ الوليُّ الوحيدُ للهِ، وأنَّه وارثُ الجنَّةِ، فيحتقرُ النَّاسَ؛ لأنَّهم أقلُّ منه عبادةً، ويعظِّمونه ويحترمونَه؛ لما يرونه من انقطاعِه لها، وهذا فعلُ جهلةِ المتعبِّدين، والرَّسولُ ﷺ الَّذي كانَ أتقى النَّاس وأورعَهم، وأكثرَهم عبادةً للهِ، وأعرفَهم به كانَ يأكلُ على الأرضِ، ويرقِّعُ ثوبَه، ويحلبُ شاتَه، ويجيبُ دعوةَ المملوكِ، ويزورُ المرضى، ويقضي حاجةَ مَنْ يستعينُ بهِ على قضاءِ حاجتِه، ويشتري بنفسِه حاجتَه، ويحملُها بيده، ومع ذلكَ فهو يعلمُ أنَّ اللهَ قد غفرَ لهُ ما تقدَّم من ذنبِه وما تأخَّرَ.

ومنها: شرفُ النَّفسِ؛ فقد يتكبَّرُ الحسيبُ النسيبُ بنسبِه وحسبِه، وينسى قولَه تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجرَات: ١٣]، وقول رسول الله ﷺ: «**ثلاثٌ مُهْلِكات: شُحٌّ مُطاعٌ، وهَوًى مُتَّبعٌ، وإعجابُ المرءِ بنفسِه**»(١).

ومنها: الغِنَى؛ فقد يتكبَّرُ الغنيُّ بغناه، والمالُ يُطغي، والنَّاسُ تعبدُ المالَ، ولو عرفَ الإنسانُ آفاتِ المالِ، لما تكبَّرَ.

ومنها: ادِّعاءُ المرءِ بما ليسَ فيهِ، وذلكَ كَذِبٌ وتكبُّرٌ، ولا سيَّما إذا جالسَ مَنْ هم أقلُّ منه معرفةً، وهو من عَناه القرآنُ الكريمِ بقوله:

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٧٣١).

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [البَقَرَة: ٢٠٤]، وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٨ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٩﴾ [الحَجّ: ٨-٩]، خصوصًا إذا كان لا يقصدُ بذلك وجهَ اللهِ والفضيلةَ، وربَّما يخلو له الجوُّ، فيعجبهُ ادِّعاؤُه، ويرى نفسَه أعلمَ العلماءِ، وأفقهَ الفقهاءِ، ثمَّ يصيِّرُ نفسَه للإفتاءِ والقضاءِ، ويتعالى عن قول: «لا أدري»؛ فيفتي، ويقضي بغيرِ علمٍ، فَيَضِلُّ ويُضِلُّ غيرَه، ويحشرُ نفسَه في زمرةِ أولئكَ الَّذين قالَ عنهم رسولُ الله ﷺ في الحديثِ الَّذي رواه البخاريُّ ومسلمٌ عن عبدِ اللهِ بنِ عمرِو بنِ العاصِ، عن النَّبيِّ ﷺ: أنَّهُ قالَ: «**إنَّ اللهَ لا يقبضُ العلمَ انتزاعًا ينتزعُه من العبادِ، ولكن يقبضُ العلمَ بقَبْضِ العلماءِ، حتَّى إذا لم يُبْقِ عالمًا، اتَّخذَ النَّاسُ رؤوسًا جُهَّالًا؛ فسُئِلوا فَأَفْتَوْا بغيرِ علمٍ، فضَلُّوا وأَضَلُّوا**»(١).

وما أحسنَ قولَ القائلِ:

إِذَا لَبِسَ الْعِمَامَةَ غَيْرُ أَهْلٍ ... يُرِيدُ فَخَارَهَا عَادَتْ ذَمَامَهْ(٢)

ومنها: مخالطةُ غيرِ الأكْفَاءِ من خَدَمٍ وخَوَل(٣)، لأنَّهم يرون ممَّن يخالطُهم إذا كان سيِّدًا لهم، أو أغنى منهم تواضعًا وذلَّةً، ويُخيَّلُ إليهِ

(١) رواه البخاري، رقم: (١٠٠)، ومسلم، رقم: (٢٦٧٣).
(٢) لم أقف عليه، ولم أجده فيما توفر لي من مصادر.
(٣) الخول: ما أعطاك الله تعالى من النعم والعبيد والإماء وغيرهم من الحاشية. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٨/ ٤٤٤).

أنَّهُ أشرفُ النَّاسِ نفسًا، وأزكى منبتًا، وأكرمُ طينةً، وأعلى قدرًا، ثمَّ يطولُ الزَّمنُ، ويتحكَّمُ فيه هذا الدَّاءُ، ثمَّ يصبحُ طبيعةً، وهذا ما نراهُ في أولادِ الأمراءِ، أو مَن يُسمُّونَ أنفسَهم الأشرافَ، وللهِ درَّ القائلِ:

رَأَيْتُ الْفَتَى يَزْدَادُ نَقْصًا وَذِلَّةً إِذَا كَانَ مَنْسُوبًا إِلَى الْعُجْبِ وَالْكِبْرِ
وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ الْعُجْبَ مِنْ كِبْرِ هِمَّةٍ فَإِنِّي رَأَيْتُ الْعُجْبَ مِنْ صِغَرِ الْقَدْرِ(١)

ولو كانت مضارُّ الكِبَرِ قاصرةً على المتكبِّرِ لهانَ الأمرُ، ولكن تكبُّرُ الملوكِ يقتلُ الحرِّيَّةَ في نفوسِ الرَّعيَّةِ، وتكبُّرُ الأمراءِ يقتلُ الهمَّةَ والشَّرفَ والفضيلةَ في نفوسِ المأمورينَ، وتكبُّرُ الرؤساءِ يقبرُ إخلاصَ المرؤوسين، حتَّى إنَّه ربَّما ظلمَهم وهم ساكتون، وتكبُّرُ المعلِّم على تلامذتِه يضعفُ مواهبَهم العلميَّة، ويزرعُ في نفوسِهم كرهَ معلِّمهم، وإذا كرهَ الطَّلبةُ معلِّمَهم كرهوا درسَه، وهناكَ الطَّامَّةُ الكُبرى، إذ تضيعُ الفائدةُ الَّتي وُضِعَت لأجلِها المدرسةُ والدَّرسُ، وتكبُّرُ الرَّجُلِ على أولادِه وأهلِه يميتُ نفوسَهم، ويعوِّدهم على الاستكانةِ والخضوعِ، ويضعُ في قلوبِهم كرهَه.

ومن شؤمِ التَّكبُّرِ على المتكبِّرِ: أنَّ العابدَ المتكبِّرَ يُعْجَبُ بعبادتِه، ويرى أنَّ لهُ مكانةً عندَ ربِّه، فيذهبُ خشوعُه، وما فائدةُ عبادةٍ بلا خُشوعٍ! والعالمُ المتكبِّرُ يُعجبُ بعلمِه، ويمنعُه عُجبُهُ من الازديادِ فيجهلُ، والحسيبُ يُعجبُ بنسبِه وحسبِه، فيحبُّ أن يعظِّمَهُ النَّاسُ، ويقوموا لهُ احترامًا وتبجيلًا، ثمَّ يأنفُ من مجالسةِ مَنْ هُم أقلُّ منه

(١) انظر: غرر الخصائص الواضحة، للوطواط (١/ ٨٨)، ولم يُنسب لقائل.

نسبًا، وأدنى حسبًا، ويغضبُ إذا لم يحترمْه النَّاسُ، والنَّاسُ لا يحترمون إلَّا مَن يحبُّونه، ويظهرُ الكِبْرُ غالبًا في حركاتِ المتكبِّر؛ كجلوسِه ومِشيته ولبسِه وكلامِه.

ألا فليعلمْ هذا المتكبِّرُ: أنَّه خُلِقَ كسائرِ البشرِ من ترابِ الأرضِ، فتحوَّل إلى نُطفةٍ قذرةٍ تقلَّبت في ظُلماتِ الأرحامِ بين دمٍ وفَرْثٍ(١)، ثمَّ غُذِي وعاشَ ضعيفًا لا يستطيعُ أن يدفعَ عن نفسِه أذاها في أدوارٍ تعافُها النَّفسُ، ثمَّ يكونُ بعدَ ذلكَ جيفةً تأبى النُّفوسُ النَّظرَ إليها، ثمَّ تكونُ هذه الجيفةُ طعمةً للدِّيدانِ المتخلِّقةِ منها ومن أقذارِها، ثمَّ هو في هذه الحياةِ وعاءٌ لأقذارٍ وعَذِرَاتٍ ودماءٍ، لا يستطيعُ فصلَها عنه؛ لأنَّها حياتُه الَّتي لا بدَّ لهُ منها، فهل إذا عرفَ المتكبِّر ذلكَ في نفسِه يتكبَّرُ؟

روى البخاريُّ في «التَّاريخ» والطَّبرانيُّ، وغيرُهما عن رسولِ اللهِ ﷺ: أنَّه قالَ: **«طوبى لمن تواضَعَ في غير مَنْقَصَةٍ، وذلَّ في نفسِه من غيرِ مَسْكَنَةٍ، وأنفقَ من مالٍ جَمَعَه في غيرِ مَعْصيةٍ، وخالطَ أهلَ الفقهِ والحكمةِ، ورحمَ أهلَ الذُّلِّ والمسكنةِ، طوبى لمن ذلَّت نفسُه، وطابَ كسبُه، وحَسُنَتْ سريرتُه، وكرمت علانيتُه، وعزلَ عن النَّاسِ شرَّه، طوبى لمن عملَ بعلمِه، وأنفقَ الفضلَ من مالِه، وأمسكَ الفضلَ من قولِه»**(٢).

---

(١) الفرث: الفتات. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٥/ ٣٣٦٩).

(٢) رواه البخاري في التاريخ الكبير، رقم: (٣/ ٣٣٨)، والطبراني في المعجم الكبير، رقم: (٤٦١٥).

٢٤- التَّواضُع

قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ [الإسراء: ٣٧-٣٨]، وتقدَّم تفسيرُ الآيةِ في الدَّرسِ السَّابقِ.

وقد قالَ اللهُ تعالى لنبيِّه محمَّدٍ عليهِ الصَّلاة والسَّلام: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [الشُّعَراء: ٢١٥]؛ أي: أَلِنْ جانبَك لمن اتَّبعكَ وصدَّقَ برسالتِك من المؤمنين؛ رفقًا بهم، كما نهاهُ عن الالتفاتِ إلى الأغنياءِ والكفَّارِ الجبَّارين بقولِه: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الكهف: ٢٨].

والتَّواضعُ خُلُقٌ حميدٌ، وفضيلةٌ محبَّبةٌ تظهرُ في شمائلِ المرءِ: في لينِ قولِه، وطلاقةِ وجهِهِ، وابتسامتِه لمن عرفَ ومَن لم يعرفْ، ولطفِه بالفقيرِ، وكلامِه مع خادمِه، وجلوسِه مع العامَّةِ، وإفشائِه السَّلام؛ لذا ترى المتواضعَ قريبًا من النَّاسِ، محبَّبًا لهم، قد اجتمعتْ حولَه قلوبُهم؛ فهم يتألَّمون لألمِه، ويحزنون لمصابِه، ويفرحون لفرحِه، فكأنَّما خيرُه خيرُهم جميعًا، وكأنَّما مُصابُه مصابُهم جميعًا؛ لأنَّه اتَّصفَ بصفةٍ أفادَت المجتمعَ، خالطَه فكانَ عضوًا عاملًا فيهِ استفادَ منه، وأفادَه بما عندَه من علمٍ ومالٍ.

ومن التَّواضعِ المشهورِ ما رُوي أنَّ عمرَ بنَ الخطَّابِ ﵁ مَرَّ ويَدُهُ على المعلَّى بنِ الجارود، فلقيَته امرأةٌ من قريشٍ، فقالت لهُ: يا عمر! فوقفَ لها، فقالت: كنَّا نعرفُك مرَّةً عُميرًا، ثمَّ صرتَ بعدَ عميرٍ عمرَ، ثمَّ صرتَ بعدُ أميرَ المؤمنين، فاتَّقِ اللهَ يا ابنَ الخطابِ، فانظرْ في أمورِ النَّاسِ؛ فإنَّه من خافَ الوعيدَ، قَرُبَ عليهِ البعيدُ، ومن خافَ الموتَ، خشيَ الفوتَ، فقال لها المعلَّى: إيهًا إليكِ أمةَ اللهِ، لقد أبكيتِ أميرَ المؤمنين، فقالَ لهُ عمرُ: مَهْ أتدري مَنْ هذهِ ويحَك؟ هذه خولةُ بنتُ ثعلبةَ الَّتي سمعَ اللهُ قولَها من سمائِه؛ فعمرُ أحرى أن يستمعَ لقولِها، ويقتدي بهِ(١).

وأعجبُ من هذهِ قصَّتهُ مع أمِّ الصِّبيانِ الَّتي حملَ لها كيسَ الدَّقيقِ ووعاءَ السَّمنِ على كتفِه، وأوقدَ النَّارَ، وطبخَ لصبيانِها بنفسِه، وأطعمَهم حتَّى أشبعَهم، ولم يسترحْ حتَّى سمعَ غطيطَهم في نومِهم، ولا غرابةَ على عمرَ ﵁ أن يكونَ متواضعًا، وقد تعلَّمَ في مدرسةِ رسولِ اللهِ، وكان له فيه أسوةٌ حسنةٌ.(٢)

والرَّسولُ ﷺ كان أكثرَ النَّاسِ تواضعًا؛ وهو البشيرُ النَّذيرُ، المبعوثُ رحمةً للنَّاسِ كافَّةً، والعالمُ يقينًا أنَّ اللهَ قد غفرَ لهُ ما تقدَّمَ من ذنبِهِ وما تأخَّرَ، والعالمُ يقينًا أنَّهُ أفضلُ الخَلْقِ على الإطلاقِ، ومع هذا فقد باعَ واشترى، وسابقَ وصارعَ، وخدمَ أهلَه، وعملَ مع أصحابِه في بناءِ مسجدِه، وفي حفرِ الخندقِ، وجاعَ وشبعَ، وشَيَّعَ

---

(١) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة، للعسقلاني (٨/ ١١٥).

(٢) انظر: شرح نهج البلاغة، لأبي حامد عز الدين (١٢/ ٤٨).

الجنائزَ، وعادَ المرضى، وأضافَ واستضافَ، وقبلَ الدَّعوةَ، وقال: «**لو دُعِيتُ إلى كُراعٍ**[(١)] **لأجبتُ**»[(٢)]، ومشى في حاجةِ أهلِه، وحملَ حاجتَه بيدِه، وخصفَ نعلَه، ورقَّعَ ثوبَه ودلوَه، وعملَ في بيتِه، ومشى مع أصحابِه، تارةً أمامَهم، وتارةً معَهم، وتارةً خلفَهم، وقال: «**خَلُّوا ظهري للملائكة**»[(٣)]، وربَّما توكَّأَ على بعضِهم؛ فأحرى بالمسلم أن يكونَ في خُلقِهِ متأسِّيًا بنبيِّهِ الَّذي أمرَه ربُّه أن يكونَ قدوةً لهُ في شأنِه جميعه.

روى البزَّارُ عن طلحةَ بنِ عُبيدِ اللهِ، عن رسولِ اللهِ ﷺ قالَ: «**من تواضعَ للهِ رفعَه، ومن تكبَّر وضعَهُ الله، ومن اقتصدَ أغناهُ الله، ومن بذَّر أفقرهُ اللهُ، ومن أكثرَ من ذكرِ اللهِ أحبَّهُ اللهُ**»[(٤)]، وروى نحوه أحمد عن أبي سعيدٍ[(٥)].

ومن لطيفِ ما يُروى: أنَّ الفضلَ بنَ يحيى البرمكيَّ دخلَ على أبيهِ يومًا وهو يتبخترُ في مِشيَته، فقالَ لهُ أبوهُ: يا أبا عبدِ اللهِ! إنَّ البخلَ والجهلَ مع التَّواضعِ أزينُ بالرَّجلِ من الكِبْر معَ الجودِ والعلم[(٦)]، فيالها من حسنةٍ غطَّت على عيبين عظيمين، ويالها من سيِّئةٍ غطَّت

---

(١) الكراع من الإنسان: ما دون الركبة إلى الكعب، ومن الدواب: ما دون الكعب. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٢/ ١١٧).
(٢) رواه البخاري، رقم: (٥١٧٨).
(٣) رواه أحمد، رقم: (١٥٢٨١).
(٤) رواه البزار، رقم: (٩٤٦)، والطبراني في المعجم الأوسط، رقم: (٤٨٩٤).
(٥) رواه أحمد، رقم: (١١٧٢٤).
(٦) انظر: نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري (٣/ ٣٧١).

على حسنتين كبيرتين، ثمَّ أومأَ لهُ بالجلوسِ.

قالَ عبدُ اللهِ بنِ أَيُّوب:

تَواضَعَ لَمَّا زَادَهُ اللهُ رِفْعَةً وَكُلُّ رَفِيع قَدْرُهُ مُتَوَاضِعُ[(١)]

وقالَ آخرُ:

دَنَوْتَ تَوَاضُعًا وَعَلَوْتَ قَدْرًا فَفِيكَ تَوَاضُعٌ وَعُلُوُّ شَانِ[(٢)]

والتَّواضعُ خُلُقٌ وسطٌ بينَ التَّكبُّرِ والمذلَّةِ، وأحبُّ الأمورِ إلى اللهِ أوساطُها، فمن تواضعَ لمن هو أقلُّ منه قدرًا؛ كرئيسِ دائرةٍ مثلًا تنحَّى عن مكانِه لفرَّاشٍ، أو كبيرِ أسرةٍ قامَ لصغيرِها عندَ دخولِه عليهِ، أو عالمٍ مشى خلفَ حَمَّالٍ: فهذا تخاسُسٌ وتذلُّلٌ، ولا يُقال له: تواضعٌ، والنبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام قال: «**طوبى لمن تواضعَ في غير مَنْقَصَة**»[(٣)]؛ أي: تواضعَ بينَ أقرانِه وأمثالِه، ولم يتذللْ لمن هم أقلُّ منه قدرًا؛ حيثُ يسبِّبُ لنفسِه المذلَّةَ والمهانةَ.

ومن حملَ متاعَه، واعتقل بعيرَه، وساقَ سيَّارتَه، وخدمَ في بيتِه، وساعدَ أقرانَه على بعضِ أعمالِهم، فقد تواضعَ ولم يتخاسَسْ، ومن تقدَّم على أقرانِه، وتعاظَمَ عليهِم، واستخدمَهم فقد تكبَّر، وربَّما دخلَ الرِّياءُ في التَّواضعِ، وهو أن يتواضعَ أمامَ الجمهورِ، ويتكبَّر على مرؤوسيهِ وخدمِه، وتواضعُه مع سائرِ النَّاسِ حسنٌ، وفي خلوتِه وبين

---

(١) انظر: شرح ديوان الحماسة، للتبريزي (١/ ٣٩٤) وورد بلفظ: وكل رفيع عِنْده متواضع.

(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري (٢/ ٢٤٦)، ولم يذكر اسم الشاعر.

(٣) سبق تخريجه.

خدمِه أحسنُ وأولى بالحمدِ، ومن عرفَ الشَّرَّ اتَّقاهُ، ومَن تباعدَ عنه سلمَ، ومن حامَ حولَ الحِمى أوشكَ أن يقعَ فيه، فقد قال الرسول ﷺ: «**الحلالُ بيِّنٌ، والحرامُ بيِّنٌ، وبين ذلك شبهاتٌ، فمن أوقع بهنَّ فهو قمنٌ أن يأثم، ومن اجتنبهنَّ فهو أوفر لدينه كمرتعٍ إلى جنب حمًى أوشك أن يقع فيه، ولكلِّ ملكٍ حمًى، وحِمَى الله الحرامُ**»(١).

وفي كتاب «الإحياء للغزالي» ما يأتي:

«التَّواضعُ في الخَلْقِ كلِّهم حَسَنٌ، وفي الأغنياءِ أحسنُ، والتَّكبُّرُ في الخَلْقِ كلِّهم قبيحٌ، وفي الفقراءِ أقبحُ، لا عزَّةَ إلا لمن تذلَّلَ للهِ، ولا رفعةَ إلا لمن تواضعَ للهِ، ولا أمنَ إلا لمن خافَ اللهَ، ولا ربحَ إلا لمن ابتاعَ نفسَه من اللهِ»(٢).

وفيه أيضًا: قال أبو علي الجوزاني: «النَّفسُ معجونةٌ بالكِبرِ والحرصِ والحسدِ، فمن أرادَ اللهُ تعالى هلاكَه منعَ منهُ التَّواضعَ والنَّصيحةَ والقناعةَ، وإذا أرادَ بهِ خيرًا لطفَ بهِ في ذلكَ، فإذا هاجَت في نفسِه نارُ الكبرِ، أدركَها التَّواضعُ مع نصرةِ اللهِ، وإذا هاجَت في نفسِه نارُ الحسدِ، أدركتها النَّصيحةُ مع توفيقِ اللهِ، وإذا هاجَت في نفسِه نارُ الحرصِ، أدركتها القناعةُ مع عونِ الله»(٣).

وفيه أيضًا: عن عمرَ بنِ شيبةَ، قالَ: كنتُ بمكَّةَ بينَ الصَّفا والمروةَ، فرأيتُ رجلًا راكبًا بغلةً، وبين يديهِ غِلْمان، وإذا هم يعنِّفون

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير،رقم: (١٠٨٢٤).
(٢) انظر: إحياء علوم الدين، للغزالي (٣/ ٣٤٣).
(٣) انظر: إحياء علوم الدين، للغزالي (٣/ ٣٤٣).

النَّاسَ، ثمَّ عدتُ بعد حينٍ، فدخلتُ بغدادَ، فكنت على الجسرِ، فإذا أنا برجلٍ حافٍ حاسرٍ طويلِ الشَّعرِ، فجعلتُ أنظرُ إليهِ وأتأمَّلُه، فقالَ لي: مالكَ تنظر إليَّ؟ فقلتُ لهُ: شبَّهتُكَ برجلٍ رأيتُه بمكَّةَ، ووصفتُ لهُ الصِّفةَ، فقالَ: أنا ذلكَ الرَّجلُ! فقلتُ لهُ: ما فعلَ اللهُ لكَ؟ فقالَ: إنِّي ترفَّعْتُ في موضعٍ يتواضعُ فيهِ النَّاسُ، فوضَعَني اللهُ حيثُ يترفَّعُ النَّاسُ.(١)

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين، للغزالي (٣/ ٣٤٣).

٢٥- الصَّلاةُ

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن عبدِ اللهِ بنِ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عن رسولِ اللهِ ﷺ قالَ: «**بُنِي الإسلامُ على خمسٍ: شهادةِ أن لا إلهَ إلا اللهُ، وأنَّ محمَّدًا رسولُ الله، وإقامِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاة، والحجِّ، وصومِ رمضان**»[(١)].

شبَّه الرَّسولُ ﷺ الإسلامَ بالبيتِ الَّذي يقومُ على دعائمَ أو أركانٍ، غيرَ أنَّ هذه الأركانَ لا تقومُ إلَّا على أُسسٍ وقواعدَ، إذا نقصَ شيءٌ منها، بطلَ هذا البناء وانتقض، هذه الأركانُ هي: «**شهادة أن لا إله إلَّا الله، وأنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، وإقام الصَّلاة، وإيتاء الزَّكاة، وحجُّ البيت، وصوم رمضان**»[(٢)].

وقد تقدَّم في الدَّرسِ الأوَّلِ ما يُغني القارئَ عن إعادةِ القولِ في توحيدِ اللهِ تعالى، وإخلاصِ العبادةِ لهُ، ويقتصرُ كلامُنا في هذا الدَّرسِ على الصَّلاةِ، قالَ اللهُ تبارك وتعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٣٨].

والصَّلاةُ الوُسطى هي الفُضْلى، ولم يذكرْ عينها؛ لكيلا يقتصرَ النَّاسُ عليها، فلو بدأنا بالفجرِ لكانت الوُسطى العصرَ، والفجرُ أوَّلَ

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٨)، ومسلم، رقم: (١٦).

(٢) سبق تخريجه.

النَّهارِ، ولو بدأنا الصَّلواتِ بالمغربِ لكانت الوُسطى الفجرَ، والمغربُ أوَّلَ النَّهارِ، ولو بدأنا الصَّلواتِ بالمغربِ لكانت الوُسطى الفجرَ، والمغربُ أوَّلَ اللَّيلِ، ولو بدأناها بالعصرِ وهو وقتُ نزولِ الملائكةِ لكانت الوسطى العشاءَ، ولو قلنا: إنَّها الظُّهرُ، فالظُّهرُ وسطُ النَّهارِ وعلى كلٍّ فالصَّلاةُ الوسطى هي الفُضلى، ولم يذكرها؛ تعظيمًا لشأنِها، والقنوتُ هو الخُشوع، وغايتُه هو عدمُ انشغالِ الفكرِ في أثناءِ الصَّلاةِ بما يُخرجُ الإنسانَ عن التَّفرغِ لها.

والصَّلاةُ عمادُ الدِّين؛ لما وردَ في ذلكَ من الأحاديثِ، منها: قولُه ﷺ: «**الصَّلاةُ عمادُ الدِّين**»(١). رواه البيهقيُّ عن عبد الله بنِ عمرَ، وقوله ﷺ: «**رأسُ هذا الأمرِ الإسلامُ، ومن أسلمَ سَلِمَ، وعمودُه الصَّلاةُ، وذِرْوَةُ سَنَامِه الجهادُ، لا ينالُه إلا أفضلُهم**»(٢) رواه الطَّبرانيُّ عن معاذ بن جبلٍ.

وجعلَ ﷺ ترك الصَّلاةِ كُفرًا؛ للحديثِ الَّذي رواهُ أحمدُ ومسلمٌ عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رضي الله عنه: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «**بينَ الرَّجلِ وبينَ الكفرِ تركُ الصَّلاةِ**»(٣)، وللحديثِ الَّذي رواهُ أحمدُ والنَّسائيُّ عن بُريدةَ رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «**العهدُ الَّذي بينَنا وبينهم الصَّلاةُ، فمن تركَها، فقد كفر**»(٤).

---

(١) رواه البيهقي في الشعب، رقم: (٣٨٠٧).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم: (٩٦).

(٣) رواه مسلم، رقم: (٨٢)، وأحمد، رقم: (١٥١٨٣).

(٤) رواه الترمذي، رقم: (٢٦٢١) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، والنسائي، رقم: (٣٢٦)، أحمد، رقم: (٢٢٩٣٧).

وقد أجمعَ أَئمَّةُ المذاهبِ على قتلِ مَنْ تركَ الصَّلاةَ متعمِّدًا، واختلفوا في حقيقةِ كفرِهِ، واللهُ تعالى يقولُ: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]؛ إذن فإن لم يقيموا الصَّلاةَ ويؤتوا الزَّكاةَ، فليسوا إخواننا في الدِّينِ.

والأحاديثُ في معنى هذهِ الآيةِ كثيرةٌ، منها: ما رواه أحمدُ والبخاريُّ عن ابنِ عمرَ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «**أُمرتُ أن أقاتلَ النَّاسَ حتَّى يشهدوا أن لا إلهَ إلا اللهُ، وأنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ، ويقيموا الصَّلاةَ، ويؤتوا الزَّكاةَ، فإن فعلوا، عصموا منِّي دماءَهم، وأموالَهم، إلَّا بحقِّ الإسلامِ، وحسابُهم على اللهِ**»(١)، وما رواه الإمامُ أحمدُ عن عبدِ اللهِ بنِ عمرَ أيضًا: أنَّ النَّبيَّ ﷺ ذكرَ الصَّلاةَ يومًا، فقالَ: «**مَنْ حافظ عليها، كانت لهُ نورًا وبرهانًا ونجاةً يومَ القيامةِ، ومن لم يحافظْ عليها؛ لم يكن لهُ نورٌ ولا برهانٌ ولا نجاةٌ، وكانَ يومَ القيامةِ معَ قارونَ وفرعونَ وهامانَ وأُبيِّ بنِ خَلَفٍ**»(٢). وهؤلاء رؤوسُ الكفرِ، وأشدُّ النَّاسِ عذابًا يومَ القيامةِ.

وكان أصحابُ النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام، ومن تَبِعهم بإحسانٍ لا يرون ترك شيءٍ من الأعمالِ كُفرًا إلَّا الصَّلاةَ، ولكنَّنا نرى في هذا الزَّمانِ كثرةَ المعرِضين عنها ممَّن ينتسبون للمسلمين، حتَّى كثرَ المارقونَ عن الدِّينِ، وأصبحَ الإسلامُ دعوةً جنسيَّةً، لا عقيدةً دينيَّةً، وأصبحَ الاستمساكُ بهذه الدَّعوة مدحَ الكُبراءِ والحكَّامِ، ولو غفلُوا

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٢٥)، ومسلم، رقم: (٢٢)، وأحمد، رقم: (٨٥٤٤).
(٢) رواه أحمد، رقم: (٦٥٧٦).

عن إقامةِ الحدودِ وتنفيذِ الأحكامِ الإسلاميَّة، فالَّذي يلغو بمدحِهم، أو يذمُّ عدوًّا لهم يُعدُّ أكبرَ مناصرٍ للإسلامِ، وإن كان لا يعرفُ حقيقةَ عقيدتِه، ولا يقيمُ أركانَه، ولا يحفلُ بأوامرِه ونواهيه.

ولقد كان مِنْ أثرِ تركِ الصَّلاةِ والتَّهاونِ بأمورِ الدِّينِ: أن فشتِ الفواحشُ والمنكراتُ، وغصَّت بالنَّاسِ بيوتُ الفجورِ، ومواخيرُ القِمارِ، وكثُرتْ حاناتُ الخمورِ، فتجاهرَ النَّاسُ بشربِه وبيعِه، وعبدَ النَّاسُ المالَ، فلا يبالون من أينَ يأتي، ولا أينَ يُصرفُ، وقُبضت الأيدي عن أعمالِ الخيرِ، وانبسطت في أعمالِ الشَّرِّ، وزالَ التَّعاطفُ والتَّراحمُ، وقلَّت الثِّقةُ بينَ المسلمينَ، وصدقَ فينا قولُ اللهِ تباركَ وتعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾ [مريم: ٥٩].

ومن آثارِ تركِ الصَّلاةِ: انحلالُ رابطةِ الدِّينِ حتَّى زالَ ذلكَ التَّكافلُ بالمصالحِ، والتَّعاونُ على الأعمالِ الَّتي تحفظُ وحدةَ المسلمين وتعودُ عليهم بالنَّفعِ العميمِ.

ومن آثارِه: فقدُ الأمنِ بالمدنِ والقُرى، حتَّى كَثُر الاعتداءُ بالقتلِ والسَّرقةِ، وكثُرَ الغِشُّ في البيعِ والشِّراءِ، وتطفيفِ الميزان، وأصبحَ الإنسانُ من أجل حفظ حقوقه يحتاج إلى صكوكٍ وعقودٍ مقيَّدةٍ بإثباتٍ وشهودٍ وموقَّعةٍ من قبلِ جهاتٍ رسميَّةٍ، ومع ذلكَ فكم منها ما أُنكرَت، وكم من حقوقٍ فيها هُدرَت! ولو حافظَ النَّاسُ على الصَّلاةِ لَنهتهم عن الفحشاءِ والمنكرِ، ولكن أضاعوا فضاعوا.

وكان من أثرِ تركِ الصَّلاةِ أيضًا: أنْ آمنَ كثيرٌ من النَّاسِ تقليدًا بما

وجدوا عليهِ آباءَهم، واعتقدوا أن لا نجاةَ لهم من عذابِ اللهِ إلَّا أن ينضمُّوا إلى أحدِ الأولياءِ؛ فيتقدَّموا لضريحِه بالذَّبائحِ والهدايا؛ ظنًّا منهم أن ذلكَ يُنجيهم من عذابِ اللهِ، وإن فعلوا ما فعلوا من المعاصي، وقد رأينا ذلكَ في كثيرٍ من العواصمِ والمدنِ الإسلاميَّةِ وغيرِها.

ومنهم مَنْ يتعلَّم كيفيَّتَها وأعمالَها، ويؤدِّيها غيرَ مبالٍ بها، ولا بوقتِها، وهؤلاءِ هم الَّذينَ قالَ اللهُ تعالى في حقهم: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾ [الماعون: ٤-٥].

ومنهم من لا يبالي بها، ولا بمن يؤدِّيها، بل ربَّما استهزأَ بالمصلِّين، أو وافقَ المستهزئين بهم، فويلٌ لهم ممَّا يصنعون: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [البَقَرَة: ١٥].

أمَّا المحافظةُ على الصَّلاةِ، فهي دليلُ الفلاحِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون: ١-٢].

والمحافظُ على الصَّلاةِ لا يرضى أن يكونَ حِلْسًا(١) في بيوتِ القِمارِ، أو كلبًا من كلابِ بيوتِ الدَّعارةِ، وهو يبذلُ رِفْدَه(٢) للمستحقِّين، ولا يُخْلِفُ وعدًا، ولا يلوي في حقِّ غيرِه، ويعظِّم الحقَّ وأهلَه، ولا يرضى لنفسِه ولا لأمَّتِه الذِّلَّةَ والهَوان، ولا يغترُّ بأعداءِ

---

(١) الحلس: هو حلس بيته، إذا لم يبرح مكانه. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٥/ ٥٤٦).

(٢) الرفد: العطاء والصلة. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٨/ ١٠٧).

دينِه، ولا يوالي أهلَ البغيِ والعُدوانِ، ولا يجزعُ من نائبةٍ تنزلُ بهِ، أو مُصيبةٍ تحِلُّ بهِ، ولا تُبطِرُه نعمةٌ، ولا تخيِّبُ النِّقمةُ رجاءَه بربِّه، ولا تعبثُ بعقلِهِ الخرافاتُ والأوهامُ، فالمحافظُ على الصَّلاة هو المسلمُ الَّذي يسلمُ النَّاسُ من يدِه ولسانِه، وهو المؤمنُ الَّذي يأمنُ النَّاسُ من شرورِه وأذاهُ؛ فهو الَّذي يُرجى خيرُه، وهو الَّذي يُستعان بهِ عندَ الاحتياجِ إليهِ.

ولو أنَّ فينا طائفةً من هؤلاءِ المحافظين على الصَّلاةِ لأقمنا بها الحجَّةَ على الملحِدين الَّذين يريدون أن يطفئوا نورَ اللهِ بأفواهِهم؛ فيضلُّون غيرَهم ويجادلون على غيرِ هُدًى ولا دليلٍ عقليٍّ ولا شرعيٍّ: ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾﴾ [التّوبة: ٩].

إنَّ اللهَ فرضَ علينا الصَّلاةَ، وأوجبَ علينا أن نطيعَه في أدائِها؛ تعبُّدًا وإيمانًا بأنَّه لم يوجبْ علينا شيئًا إلَّا ولنا فيهِ النَّفعُ العظيمُ دُنيا وأُخرى، وأنَّ لذلكَ حِكمًا بالغةً، وأسرارًا غامِضةً لا يعلمُها إلا هُو، وقد بيَّنَ لنا سُبحانَه وتعالى منها أنَّ الصَّلاةَ تَنهى عن الفَحشاءِ والمُنكرِ؛ أي: أنَّها تذكِّر الغافلين المنهمكين في أعمالِهم بمولاهُم، وتهذِّب النُّفوسَ، ولا سيَّما نفوسُ المتكبِّرين الَّذين يأنفون من مسِّ الأرضِ بأرجلِهم، فضلًا عن جباهِهم، واللهُ تعالى أعلمُ بحكمةِ ما أوجبَ.

ثمَّ إنَّ النَّاسَ بانهماكِهم في معايشِهم، واشتغالِهم بلذَّةِ الدُّنيا ونعيمِها؛ مُحتاجون إلى مُذكِّرٍ يذكِّرُهم بمولاهُم المُنعمِ عليهِم بالحسِّ

والعقلِ والحياةِ، والمتفضِّلِ عليهِم بكمالِ حقيقتهِم الإنسانيِّة، هذا المذكِّرُ هو الصَّلاةُ، فهي الَّتي تخلعُ الإنسانَ من تلكَ الشَّواغلِ الَّتي لا بدَّ منها، وتوجِّهُه إلى ربِّه، فتكثرُ مراقبتُه له، وتزكُو نفسُه، وترتفعُ عن البغيِ والعُدوان، وتتنزَّهُ عن دناءةِ الفِسقِ والمعصيةِ، ويحبَّبُ إليها الإحسانُ والعدالةُ والرَّحمةُ؛ لأنَّ الصَّلاةَ بإقامتِها تنهى صاحبَها عن النَّقائصِ، وتحبَّبُ إليهِ المعالي، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ [المعَارج: ١٩-٢٢].

٢٦- صلاةُ الجماعةِ والجُمُعةِ

قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ [النِّساء: ١٠٢].

استدلَّ بعضُ العلماءِ المسلمين بهذهِ الآيةِ الكريمةِ على وجوبِ الجماعةِ على الرِّجالِ الأحرارِ، وفي الحديث الَّذي رواه الإمامُ أحمدُ عن ابنِ أمِّ مكتوم رضي الله عنه: أنَّ الرَّسولَ ﷺ قالَ لهُ: «**إذا سمعتَ النّداءَ، فأجبْ ولو حَبْوًا**»[1]، وكذا في الحديثِ الَّذي رواهُ أحمدُ عن معاذِ بنِ أنسٍ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**الجفاءُ كلُّ الجفاءِ، والكفرُ والنِّفاقُ مَن سمعَ مناديَ اللهِ ينادي إلى الصَّلاةِ، فلا يُجيبُهُ**»[2].

وقالَ بعضُهم: إنَّها سنةٌ مؤكَّدةٌ، وليست شرطًا لصحَّةِ الصَّلاةِ عندَ مَنْ قالَ بوجوبِها إلَّا في الجُمُعةِ والعيدِ؛ فإنَّهما لا يصحَّان إلا بها.

وأخبرَنا النَّبيُّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أنَّ صلاةَ الجماعةِ أفضلُ من صلاةِ المنفردِ، وأنَّها وسيلةٌ لرفع الدَّرجاتِ، واستنزالِ الرَّحمةِ، وأنَّ الإنسانَ في صلاةٍ ما دامَ في مصلَّاهُ ينتظرُ الصَّلاةَ؛ فقد روى الشَّيخان عن أبي هريرةَ، عن النَّبيِّ ﷺ: أنَّه قالَ: «**صلاةُ الرَّجلِ في جماعةٍ تضعفُ صلاتَه في بيتِه وفي سوقِه خمسًا وعشرين درجةً، وذلكَ أنَّه إذا**

(١) رواه أحمد، رقم: (١٤٩٤٨).
(٢) رواه أحمد، رقم: (١٥٦٢٧).

توضَّأَ، فأحسنَ الوُضوءَ، ثمَّ خرجَ إلى المسجدِ، لا يُخرجُهُ إلا الصَّلاةُ، لم يَخْطُ خَطوةً، إلَّا رُفعتْ لهُ بها درجةً، وحطَّ عنهُ بها خطيئةً، فإذا صلَّى، لم تزلِ الملائكةُ تصلِّي عليهِ ما دامَ في مصلَّاهُ ما لم يُحْدِثْ، اللّهمَّ صَلِّ عليهِ، اللَّهمَّ ارحَمْه، ولا يزالُ الرَّجلُ في صلاةٍ ما انتظرَ الصَّلاةَ»(١).

وروى الشَّيخان عن ابنِ عمرَ رضي الله عنهما: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «**صلاةُ الجماعةِ أفضلُ من صلاةِ الفذِّ بسبعٍ وعشرينَ درجةً**»(٢)، ومن فوائدِ الجماعةِ تمرينُ النُّفوسِ على الطَّاعةِ، وإرشادُهم إلى التَّعاونِ والتَّعاضُدِ المبنيِّ على الاجتماعِ، وتعويدُ الإنسانِ على المساواةِ الَّتي هي غايةُ ما يدعو إليهِ الإسلامُ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

ولا يُعذَرُ بتركِ الجماعةِ رفقةُ السَّفرِ، فمتى اجتمعوا صَلَّوا جماعةً، فقد روى أحمدُ والنَّسائيُّ عن أبي الدَّرداءَ رضي الله عنه: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «**ما مِن ثلاثةٍ في قريةٍ ولا بدوٍ لا تقامُ فيهم الصَّلاةُ، إلا قد استحوذَ عليهمُ الشَّيطان؛ فعليكمْ بالجماعةِ، فإنَّما يأكلُ الذِّئبُ من الغنمِ القاصيةَ**»(٣)، إلا أنَّ فعلَها في المسجدِ أفضلُ، وجارُ المسجدِ بذلكَ أولى؛ فقد روى الدَّارقطنيُّ عن أبي هريرةَ، قالَ: قالَ رسولُ

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٤٧٧)، ومسلم، رقم: (٦٤٩).

(٢) رواه البخاري، رقم: (٦٤٥)، ومسلم، رقم: (٦٥٠).

(٣) رواه النسائي، رقم: (٩٢٢)، وأبو داود، رقم: (٥٤٧)، وأحمد، رقم: (٢١٧١٠).

اللهِ ﷺ: «**لا صلاةَ لجارِ المسجدِ إلا في المسجدِ**»(١).

والإمامُ الرَّاتبُ أولى بالإمامةِ من غيرِه، فإن لم يكن راتبًا، فأولى بها الأقرأُ العالمُ فقهَ صلاتِه، ولا تصحُّ إمامةُ الأمِّيِّ الَّذي لا يُحسنُ قراءةَ الفاتحةِ إلا بمثلِه.

وليست الجماعةُ بواجبةٍ على النِّساءِ، أو مؤكَّدةٍ عليهنَّ، ولكنَّها تُستحبُّ لهنَّ إذا اجتمعن؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ أمرَ أمَّ وَرَقَةَ أن تَؤمَّ أهلَ دارِها، ويجوزُ لهنَّ حضورُ المسجدِ بإذنِ أزواجِهنَّ؛ إذا كانَ في المسجدِ محلٌّ خاصٌّ لهنَّ، ولا خوفَ عليهنَّ ولا منهنَّ.

وحضورُ المسجدِ كثيرِ الجماعةِ أفضلُ فقد روى أحمدُ وأبو داودَ من حديث أُبَيِّ بنِ كعبٍ، عن النَّبيِّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: أنَّه قالَ: «**وإنَّ صلاةَ الرَّجلِ مع الرَّجلِ أزكى من صلاتِه وحدَه، وصلاتُه مع الرَّجلين أزكى من صلاتِه مع الرَّجلِ، وكلُّ ما كثر، فهو أحبُّ إلى اللهِ**»(٢)، وكان السَّلفُ الصَّالحُ رضي الله عنهم يرونَ تركَ الجماعةِ خطبًا جسيمًا، وخسرانًا عظيمًا، وبلاءً كبيرًا؛ للحديثِ الَّذي رواهُ مسلمٌ عن ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه أنَّه قالَ: «**من سرَّه أن يلقى اللهَ غدًا مسلمًا، فليحافظْ على هؤلاءِ الصَّلواتِ حيثُ يُنادَى بهنَّ؛ فإنَّ اللهَ شرعَ لنبيِّكم سُنَنَ الهُدى، وإنَّهنَّ من سُننِ الهُدى، ولو أنَّكم صلَّيتُم في بيوتِكم كما يصلِّي هذا المتَخلِّفُ في بيتِه، لتركتُم سُنَّةَ نبيِّكم، ولو تركتُم سنَّةَ نبيِّكم، لضللتُم، وما من رجلٍ يتطهَّر فيحسنُ الطُّهُورَ، ثمَّ يعمدُ إلى**

---

(١) رواه الدارقطني، رقم: (١٥٥٢).

(٢) رواه أبو داود، رقم: (٥٤٤).

مسجدٍ من هذهِ المساجدِ، إلَّا كتبَ اللهُ لهُ بكلِّ خَطوةٍ يخطُوها حسنةً، ويرفعُه بها درجةً، ويَحُطُّ بها عنهُ خطيئةً، ولقد رأيتُنا وما يتخلَّف عنها إلا مُنافقٌ معلومُ النِّفاقِ، ولقد كان الرَّجلُ يؤتى به يُهادى بين الرَّجُلَين حتَّى يُقامَ في الصَّفِّ»(١).

ومن السُّنَّةِ المؤكَّدةِ إعادةُ الجماعةِ ثانيةً وثالثةً إذا انتهت الجماعةُ الأولى؛ فقد روي أنَّ رجلًا دخلَ المسجدَ، وكان النَّبيُّ ﷺ قد فرغَ من الصَّلاةِ، فقال: «**مَنْ يتصدَّقُ على هذا فيصلِّي معه؟**»(٢)؛ يعني: يأتمُّ بهِ. رواه أحمدُ وأبو داودَ عن أبي سعيدٍ الخدريِّ.

ويحرمُ ابتداءُ الإنسانِ في نَفْلٍ بعدَ الإقامةِ؛ للحديثِ الَّذي رواهُ الشَّيخانِ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: «**إذا أُقيمتِ الصَّلاةُ، فلا صلاةَ إلا المكتوبة**»(٣)، ولو شرعَ بها قبلَ الإقامةِ، وجبَ عليهِ إتمامُها؛ لقولِ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمَّد: ٣٣].

ومن دخلَ المسجدَ والإمامُ يصلِّي، وجبَت عليهِ السَّكينةُ والوقارُ حتَّى لا يشوِّشَ على المصلِّين، بل يتَّبعُ قولَ النَّبيِّ ﷺ فيما رواهُ البخاريُّ: «**إذا سَمِعْتُم الإقامةَ، فامشوا إلى الصَّلاةِ وعليكُم السَّكينةُ والوقارُ، ولا تُسرعوا فما أدركتم فَصَلُّوا، وما فاتكُم فَأَتِمُّوا**»(٤).

وعلى الإمامِ أن يُراعي خواطرَ الجماعةِ، فلا ينفِّرهم بفعلٍ أو قولٍ

---

(١) رواه مسلم، رقم: (٦٥٤).

(٢) رواه الترمذي (٢٢٠)، وقال: حديث حسن، وأبو داود (٥٧٤)، وأحمد، (١١٤٠٨).

(٣) رواه مسلم، رقم: (٧١٠).

(٤) رواه البخاري، رقم: (٦٣٦).

أو تطويلٍ مُمِلٍّ، وعليهِ أن يستجلبَ رضاهُم عليهِ، ويتباعدَ عن كرهِهم لهُ؛ حتَّى لا يشمَلَه قولُ النَّبيِّ ﷺ: «**مَنْ أَمَّ قومًا وهم لهُ كارهون، فإنَّ صلاتَه لا تجاوِزُ تَرْقُوَتَه**[1]»[2]. رواه الطبرانيُّ عن جُنَادةَ بنِ أميَّة.

ومن الأمورِ الَّتي نهى النَّبيُّ ﷺ عنها: أن يُطيلَ الإمامُ الصَّلاةَ؛ فلعلَّ أن يكونَ بين المقتدينَ به مريضٌ أو ذو حاجةٍ أو ضعيفٌ لا يستطيعُ الوقوفَ الطَّويلَ، أو السُّجودَ الطَّويلَ؛ لهذا قالَ ﷺ فيما روى البخاريُّ: «**يا أيُّها النَّاسُ! إنَّ منكم مُنَفِّرين، فمن صلَّى بالنَّاس، فليخفِّفْ؛ فإنَّ فيهم المريضَ والضَّعيفَ وذا الحاجة**»[3].

وإنَّ في صلاةِ الجماعةِ من الفوائدِ الاجتماعيَّة الشَّيءَ الكثيرَ؛ حيثُ يقفُ المسلمون بجانبِ إخوانِهم المسلمين صفًّا واحدًا إلى قِبلةٍ واحدةٍ، يعبدون ربًّا واحدًا، لا يشركون بهِ معبودًا سواهُ وكلُّهم أمامَ اللهِ سواءٌ، وفيها تتحقَّقُ المساواةُ الإسلاميَّة؛ لا فضلَ لعربيٍّ على عجميٍّ، ولا لأميرٍ على سوقةٍ، ولا لغنيٍّ على فقيرٍ، ولا لحرٍّ على عبدٍ إلا بالتَّقوى، والتَّقوى لا يعلمُ بها إلا اللهُ؛ لأنَّ التقوى من خبايا القلوبِ.

روى الإمامُ مسلمٌ عن عثمانَ بنِ عفَّان ﵁، قالَ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «**ما من امرئٍ مُسلمٍ تحضرُه صلاةٌ مكتوبةٌ، فيُحسِن**

---

(١) الترقوة: مقدم الحلق في أعلى الصدر حيثما يترقى فيه النفس. انظر: تاج العروس، للزبيدي(٣٨/ ١٧٤).

(٢) رواه الطبراني، في المعجم الكبير رقم: (٢١٧٧).

(٣) رواه البخاري، رقم: (٩٠)، ومسلم، رقم: (٤٦٦).

وضوءَها وخشوعَها وركوعَها، إلَّا كانت كفَّارةً لما قبلَها من الذُّنوبِ، ما لم يُؤتِ كبيرةً؛ وذلكَ الدَّهرَ كلَّهُ»(١) وصلاةُ الجُمُعة واجبةٌ على الرِّجالِ القادرين الَّذين لا عذرَ لهم، والأعذارُ مذكورةٌ في كُتبِ الفقهِ، ويجبُ على مَنْ حضرَ الجُمُعة الإنصاتُ وقتَ الخُطبةِ، ومن لغا والإمامُ يخطُبُ، فلا جُمعةَ له.

ومن شُروطِ الجُمعةِ: الخُطبتان، والغَرضُ منهما تنبيهُ النَّاسِ وإرشادُهم على ما فيهِ نفعُهم دنيا وأُخرى، وتذكيرُهم بما كانَ عليهِ أسلافُهم من دولةٍ عظيمةِ الشَّأنِ مهيبةِ السُّلطان، وإعلامُهم أنَّ التَّمسكَ بالدِّين والعملَ به وسيلةٌ من وسائلِ النَّجاحِ، وأنَّ اللهَ مع مَنْ عمِلَ بأوامرِه، وانتهى عن نواهيه.

وليس الغرضُ من الخُطبةِ تضييعَ الوقتِ فيما لا فائدةَ فيهِ؛ لأنَّ ذلكَ سرقةٌ للوقتِ، وسرقةُ الوقتِ أعظمُ إثمًا من سرقةِ المالِ.

ويُسنُّ التَّبكيرُ للجُمُعة، وقراءةُ سورةِ الكهفِ قبلَها، ويُسنُّ لمن حضرَها أن يُكثرَ الدُّعاءَ في يومِها؛ رجاءَ إصابةِ ساعةِ الإجابةِ؛ لما روى البخاريُّ ومسلمٌ من حديثِ أبي هريرةَ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إنَّ في يوم الجُمُعة ساعةً لا يوافقها عبدٌ مسلمٌ يسألُ اللهَ تعالى شيئًا إلا أعطاهُ إيَّاه**»(٢).

ويُكرهُ لمن حضرَ الجُمُعةَ أن يتخطَّى رقابَ النَّاسِ؛ لما في ذلكَ من سُوءِ الأدبِ والإيذاءِ، روى أحمدُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ وهو على المنبرِ

---

(١) رواه مسلم، رقم: (٢٢٨).

(٢) رواه البخاري، رقم: (٥٢٩٤)، ومسلم، رقم: (٨٥٢).

رأى رجلًا يتخطّى رقابَ النّاسِ، فقالَ لهُ: «**اجلسْ فقد آذيتَ وآنيتَ**»(١)؛ أي: تأخّرت.

ويسنُّ الغسلُ يومَ الجُمُعة، والتّطيُّبُ، ولبسُ جميلِ الثِّيابِ لها، وقد وردَ في فضلِ يومِ الجُمُعة كثيرٌ من الأحاديث؛ ومن ذلكَ ما رواهُ أحمدُ وابنُ ماجَه عن أبي لُبابةَ بنِ عبدِ المنذرِ، قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**إنَّ يومَ الجُمُعة سيِّدُ الأيَّامِ، وأعظمُ عندَ اللهِ من يومِ الأضحى، ويومِ الفطر، وفيه خمسُ خِلالٍ: خلقَ اللهُ فيه آدمَ، وأهبطَ اللهُ فيهِ آدمَ إلى الأرضِ، وفيه تَوَفَّى اللهُ آدمَ، وفيهِ ساعةٌ لا يسألُ العبدُ شيئًا إلَّا أعطاهُ إيَّاه ما لم يسألْ حرامًا، وفيه تقومُ السَّاعةُ، وما من مَلَكٍ مُقَرَّبٍ، ولا سماءٍ ولا أرضٍ ولا رياحٍ ولا جبالٍ ولا بحرٍ، إلا وهُنَّ يُشفقنَ من يومِ الجُمُعة**»(٢).

وروى الإمامُ مالكٌ عن عبيدِ بن السَّبَّاقِ، وروى ابنُ ماجه عنهُ وعن ابنِ عبَّاسٍ، قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ في جُمُعةٍ من الجُمَعِ: «**يا معشرَ المسلمينَ! إنَّ هذا يومٌ جعلَهُ اللهُ عيدًا، فاغتسلُوا، ومَنْ عندَه طيبٌ فلا يضرُّهُ أن يمسَّ منهُ، وعليكُم بالسِّواك**»(٣).

(١) رواه أحمد، رقم: (١٧٦٧٤).
(٢) رواه ابن ماجه، رقم: (١٠٨٤)، وأحمد، رقم: (١٥٥٤٨).
(٣) رواه ابن ماجه،رقم: (١٠٩٨).

٢٧- تركُ الصَّلاةِ

قالَ اللهُ تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدَّثِّر: ٣٨-٤٨].

معناهُ: كلُّ نفسٍ رَهينةٌ بكسبِها، مأخوذةٌ بعملِها، إلا أصحابَ اليمين الَّذين فكُّوا رقابَهم بأعمالِهم الحسنةِ كما يفكُّ الرَّاهنُ رهنَه؛ أولئكَ همُ المؤمنونَ المخلصونَ الَّذين يفوزونَ بالجنَّات، ويتساءَلونَ عن المجرمين، ثمَّ يقولون لهم: ما سلكَكُمُ في سقر؟ وما حبسَكُم في النَّار؟ فيجيبونَهم: إنَّنا تكبَّرنا على ربِّنا، ولم نطعْ أمرَه؛ فما صلَّينا، ولا تصدَّقنا على المسكين، مكذِّبين بيومِ الدِّين، معتقدين أنَّها هي الموتةُ الَّتي لا بعثَ بعدَها، حتَّى أتانا الموتَ ونحنُ لاهونَ، ومَنْ كانت حالتُهم هذهِ، فما تنفعُهم شفاعةُ الشَّافعين.

والشَّفاعةُ نافعةٌ بعدَ الموتِ كلَّ أحدٍ، إلَّا هؤلاءِ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وإنَّ الشَّريعةَ الإسلاميَّةَ قد حثَّت على إقامةِ الصَّلاةِ؛ لما فيها من

أَسرارٍ وحِكَمٍ، وفوائدَ عظيمةٍ تنفعُ العبدَ في دُنياهُ وأُخراهُ، كما شدَّدت الشَّريعةُ النَّكيرَ على تاركِها حتَّى حكمَت عليهِ بالكُفرِ، وقد تقدَّمت الآيةُ الكريمةُ في الدَّرسِ الخامسِ والعشرين، وهي: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ﴾ [التوبة: ١١]، وقولُ النَّبيِّ ﷺ: «**العهدُ الَّذي بيننا وبينهم الصَّلاةُ، فمن تركَها فقد كَفرَ**»[١]، وقولُهُ عليهِ الصَّلاة والسَّلام «**بينَ الرَّجلِ وبينَ الكفر تركُ الصَّلاة**»[٢].

وقد اختُلفَ في حُكم تاركِ الصَّلاةِ، فبعضُهم أخذَ بظاهرِ الحديثِ وقالُوا بارتدادِه، وأنَّه لا يُصلَّى عليهِ، ولا يُدفنُ في مقابرِ المسلمينَ، وبعضُهم قالَ: يُقتل حدًّا، وحكمُه بعدَ الموتِ كالمسلمِ، وأمرُه إلى اللهِ.

يقولُ بعضُ تاركي الصَّلاةِ: إنَّ اللهَ غنيٌّ عن صلاتِنا، وفاتَهم أنَّ اللهَ لم يأمرْهم بالصَّلاةِ إلَّا لمصلحتِهم؛ لأنَّ اللهَ ﷻ لا تنفعُه طاعةُ الطَّائعِ، ولا تضرُّه معصيةُ العاصي، وإنَّما النَّاسُ مَرْضى، ودواؤُهم في طاعةِ اللهِ، وطبيبُهم يأمرُهم بتناولِ الدَّواءِ، فإن امتنعُوا وقالُوا للطَّبيب: نحنُ أغنياءُ عن استعمالِنا هذا الدَّواءَ فقد استعجلُوا الهلاكَ لأنفسِهم، ومثلُ هؤلاءِ القومِ يحتاجون إلى تهذيبٍ وتذكيرٍ، والصَّلاةُ كفيلةٌ لهم بذلكَ، كفيلةٌ بأنَ تنهاهُم عن الفحشاءِ والمُنكرِ، وإن كانَ اللهُ غنيًّا عنهُم وعن صلاتِهم.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

ويقولُ بعضُ تاركي الصَّلاةِ: إنَّ الدِّينَ حُسْنُ الخُلُقِ، وإنَّ الدِّينَ حُسْنُ المعاملةِ، وإنَّنا لم نؤذِ أحدًا، ولم نُسِئ معاملةَ أحدٍ، فماذا تريدون منَّا أكثرَ من ذلكَ؟ ولكنَّ اللهَ ﷻ أمرَ النَّاسَ بعبادتِه، وإنَّ الَّذينَ يستكبرونَ عن عبادتِه سيدخلونَ جهنَّم داخرين، وإن لم يمتثلُوا أوامرَ اللهِ، فليس يفيدُهم حُسْنُ معاملتِهم وحسنُ أخلاقِهم شيئًا، ومن كفرَ بعبادةِ اللهِ، واستكبرَ على أوامرِ اللهِ، فليسَ منَ اللهِ في شيءٍ.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩﴾ [المنافقون: ٩].

قالَ جماعةٌ من المفسِّرين: المرادُ بذكرِ اللهِ تعالى في هذهِ الآيةِ الكريمةِ: الصَّلواتُ الخمسُ؛ فمن شغلَهُ مالُهُ وولدُه عنها، أو شغلَته تجارتُه وصنعتُه عن أدائِها في وقتِها، فقد خابَ وخسرَ، وفي الحديثِ الَّذي رواهُ الطَّبرانيُّ عن عبدِ اللهِ بن قرطٍ رضي الله عنه: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «**أوَّلُ ما يُحاسَبُ به العبدُ يومَ القيامةِ من عملِه الصَّلاةُ؛ فإن صَلُحتْ صَلُحَ سائرُ عملِه، وإن فَسدَتْ فسدَ سائرُ عملِه**»(١).

ففي هذا الحديثِ ما يؤيِّدُ قولَ المفسِّرين الآنفَ الذِّكرِ، واللهُ ﷻ يقولُ أيضًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [التَّحْريم: ٦].

وأيُّ وقايةٍ لأولادِنا وأهلينا أكثرُ من أن نأمرَهم بإقامةِ عمادِ

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم: (١٨٥٩).

الدِّين، ولكنَّا نرى المسلمينَ في هذا الزَّمانِ إذا أخلَّ ولدُ أحدِهم بأمرٍ دنيويٍّ، وَبَّخه وعَنَّفَه وربَّما ضربَه، وإذا أخلَّ بأمرٍ من أمورِ دينِه، تغافلَ وتعامَى عنهُ، فما لهؤلاءِ لا يُبالونَ بأوامرِ اللهِ، وهم المسؤولون عن أنفسِهم وأهليهِم أمامَ ربِّ الأربابِ؟ وكلُّ راعٍ مسؤولٌ عن رعيَّتِه، والنَّبيُّ ﷺ يقولُ: «**مُرُوا أولادكم بالصَّلاةِ وهم أبناءُ سبعِ سنينَ، واضربوهم عليها وهم أبناءُ عشرِ سنينَ**»[١]، إلَّا أنَّ استحواذَ الدُّنيا على القلوبِ - والإنسانُ يطغى إذا استغنى -، وعدمَ الاهتمامِ بأمرِ الدِّينِ، والاشتغالَ بجمعِ المالِ، وعدمَ المبالاةِ بطريقةِ الاستيلاءِ عليهِ، وتحرِّي حلالِه وحرامِه، وإيثارَ الدُّنيا على الأُخرى؛ كلُّ ذلك أمرضَ بصائرَ النَّاسِ، ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٧].

وقد سهَّل الشَّارعُ ﷺ الطَّريقَ إلى الصَّلاةِ حتَّى لا يكونَ عذرٌ لتاركِها؛ فأجازَ التَّيمُّمَ لمن تعذَّرَ عليهِ الماءُ، وسوَّغَ التَّحرِّي لمن اشتبهتْ عليهِ القِبلةُ، وأجازَ القعودَ لمن عجزَ عن القيامِ؛ فإن عجزَ ففي الاضطجاعِ، حتَّى اكتفى منهُ بالإشارةِ، وجوَّزَ القضاءَ لمن تعذَّرَ عليهِ أداؤُها في وقتِها، واللهُ تعالى ما جعلَ علينا في الدِّينِ من حَرَجٍ، قالَ الإمام الحافظ أبو الحسن علي بن المفضَّل المقدسيُّ في أبياته:

خَسِرَ الَّذِي تَرَكَ الصَّلَاةَ وَخَابَا ... وَأَبَى مَعَادًا صَالِحًا وَمَآبَا

إِنْ كَانَ يَجْحَدُهَا فَحَسْبُكَ أَنَّهُ ... أَضْحَى بِرَبِّكَ كَافِرًا مُرْتَابَا

أَوْ كَانَ يَتْرُكُهَا لِنَوْعِ تَكَاسُلٍ ... غَطَّى عَلَى وَجْهِ الصَّوَابِ حِجَابًا[٢]

(١) رواه أبو داود، رقم: (٤٩٥).

(٢) انظر: إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، لابن دقيق العيد (٢/ ٢١٨).

وقد مدحَ اللهُ تعالى في مُحكمِ تنزيلِه أولئكَ الَّذينَ حافظُوا على صلواتِهِم؛ فلم يشغلهُم عنها تجارةٌ رابحةٌ، ولا دنيا مقبلةٌ، فقالَ تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النُّور: ٣٧-٣٨]، وذمَّ آخرين فقالَ: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾ [الجُمُعَة: ١١].

وكانَ آخرُ كلامٍ تكلَّم بهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ما في حديثٍ رواه أحمدُ والخمسةُ عن أنسِ بنِ مالكٍ، وعبدُ اللهِ بنِ عمرَ: أنَّه ﷺ قالَ: «**الصَّلاةَ وما ملكت أيمانُكم، الصَّلاةَ وما ملكت أيمانُكم**»، حتَّى كان يُلَجْلِجُها في صدره، وما يفيض بها لسانه(١)، قالت أمُّ سَلَمَةَ: «**وكانتْ عامَّةَ وصيَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ**»(٢).

ويقول عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**حُبِّبَ إليَّ من دنياكم النِّساءُ والطِّيبُ، وجُعلت قُرَّةُ عيني في الصَّلاة**». رواه أحمد والنَّسائيُّ، وغيرهما عن أنسِ بنِ مالكٍ(٣)، ويعني بالصَّلاة: ذاتِ الرُّكوعِ والسُّجودِ؛ لما فيها من خُضوعٍ ودعاءٍ ومناجاةٍ للهِ ﷻ.

وفي الصَّلاة يكونُ العبدُ متوجِّهًا لربِّه، خاليًا من شواغلِ دُنياه،

---

(١) رواه أبو داود، رقم: (٥١٥٦)، والنسائي، رقم: (٧٠٥٧)، وابن ماجه، رقم: (٢٦٩٧)، وأحمد، رقم: (١٢١٦٩).

(٢) رواه النسائي، رقم: (٧٠٩٧)، وأحمد، رقم: (٢٦٤٨٣).

(٣) رواه النسائي، رقم: (٣٩٣٩)، وأحمد، رقم: (١٤٠٣٧).

مخاطبًا ربَّه بأحبِّ الأوصافِ إليهِ، حامدًا شاكرًا لهُ على نعمهِ، معظِّمًا لهُ، ويقولُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربِّه وهو ساجدٌ، فأكثروا من الدُّعاءِ**»[1]، رواه مسلمٌ عن أبي هريرة.

والصَّلاةُ دعاءٌ، وابتهالٌ، وخشوعٌ وامتثالٌ لأوامرِ الآمرِ، تُوَثِّقُ صلةَ العبدِ بربِّهِ؛ فيَفيضُ اللهُ عليهِ خيرَه، وتطهُرُ نفسُ العبدِ من دَنَسِ المخالفةِ والسَّيرِ وراءَ الشَّهواتِ، والتَّكالبِ على عَرَضِ هذهِ الحياةِ، وتعوِّدهُ الصلاةُ الإخلاصَ، وتُباعدُه عن النِّفاقِ، وتبعثُ في جسمِهِ النَّشاطَ والبهجةَ، وتمرِّنُه على المحافظةِ على المواعيدِ، وأداءِ الأمورِ في أوقاتِها.

يقرأُ العبدُ فيها كتابَ ربِّهِ وهو خاشعُ القلبِ، حاضرُ الذِّهنِ، فيعلمُ من علومِ القرآنِ ما يفتحُ اللهُ لهُ قلبَه، فيهتدي بهُداه، وتصفو نفسُه، ويستنيرُ عقلُه، قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٢-٤] تلكَ الصَّلاةُ دعامةُ الإسلامِ الكُبرى، فأَقِمْها تُقِمْ دينَك وتُوَفَّق بإقامتِها إلى إقامةِ سائرِ الأركانِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النّحل: ١٢٨].

---

(١) رواه مسلم، رقم: (٨٤٢).

٢٨- الطَّهارةُ

قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ﴾ [المائدة: ٦].

المعنى: إذا قُمتُم إلى الصَّلاةِ، وأنتُم على طهارةٍ فتوضَّؤوا، والوضوءُ الواردُ عن رسولِ اللهِ ﷺ: أن يغسلَ الوجهَ من منابتِ شعرِ الرَّأسِ إلى أسفلِ الذَّقنِ، وما بينَ شَحمتي الأُذنين، وأن يغسلَ اليدين مع المرفقين، وأن يمسحَ الرَّأسَ، ثمَّ يغسلَ الرِّجلين إلى الكعبين، ودليلُ ذلكَ حسبما رواه مسلمٌ والتِّرمذيُّ عن أبي هريرةَ رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «**إذا توضَّأ العبدُ المسلمُ أو المؤمنُ، فغسلَ وجهَه، خرجَ من وجهِه كلُّ خطيئةٍ نظرَ إليها بعينيهِ مع الماءِ، أو مع آخر قَطْرِ الماءِ، فإذا غسلَ يديه، خرجَ من يديهِ كُلُّ خطيئةٍ كان بَطَشَتْها يداهُ مع الماءِ، أو مع آخر قَطْرِ الماء، فإذا غسلَ رجليه، خرجَتْ كلُّ خطيئة مَشَتْها رجلاه مع الماء، أو مع آخر قَطْرِ الماء، حتّى يخرجَ نقيًّا من الذنوب**»(١).

وفي الحديثِ الَّذي رواهُ مسلمٌ عن عَمْرِو بنِ عَبَسةَ السَّلميِّ رضي الله عنه: أنَّهُ قالَ: فقلتُ: يا نبيَّ الله! فالوضوء، حدِّثني عنه؟ فقالَ ﷺ:

(١) رواه مسلم، رقم: (٢٤٤)، والترمذي، رقم: (٢).

«ما منكُم رجلٌ يُقَرِّبُ وضوءَه، فيتمَضْمَضُ، ويستنشقُ فيستنثرُ، إلَّا خرَّت خطايا وجهِه من فيهِ وخَيَاشِيمِه، ثمَّ إذا غسلَ وجهَهُ كما أمرهُ اللهُ، إلَّا خَرَّتْ خطايا وجهِه من أطرافِ لحيتِه معَ الماءِ، ثمَّ يغسلُ يديهِ إلى المِرْفقين، إلَّا خَرَّت خطايا يديهِ من أناملِه مع الماءِ، ثمَّ يمسحُ رأسَه، إلَّا خرَّت خطايا رأسِه من أطرافِ شعرِه مع الماءِ، ثمَّ يغسلُ رجلَيه إلى الكعبين، إلا خرَّت خطايا رجليهِ من أناملِه مع الماءِ، فإن هو قامَ وصلَّى، فحمدَ اللهَ، وأثنى عليهِ، ومجَّده بالَّذي هو له أهلٌ، وفرَّغَ قلبَه للهِ تعالى، إلَّا انصرفَ من خطيئتِه كهيئتِهِ يومَ ولدَتْه أمُّه»[1].

والسُّنَّةُ أن يغسلَ كلَّ عضوٍ ثلاثَ مرَّاتٍ إلَّا الرَّأسَ، فإنَّهُ لم يردْ في السُّنةِ مسحُه أكثرَ من مرَّةٍ، روى الإمامُ أحمدُ والتِّرمذيُّ عن عثمانَ رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ **«توضَّأَ ثلاثًا ثلاثًا»**[2]، وروى أحمد أيضًا: أنَّ أعرابيًّا جاءَ إلى الرَّسولِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ يسألهُ عن الوضوءِ، فأراهُ ثلاثًا ثلاثًا، وقالَ: **«هذا الوضوءُ فمن زادَ على هذا، فقد أساءَ وتعدَّى وظلمَ»**[3]، ثمَّ يقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ﴾ [المَائدة: ٦] بالغسلِ عن الجنابةِ، والجنابةُ كما عَرَّفها الفقهاءُ: وصفٌ يقوم بالبدنِ من نحو جِماعٍ أو خروجِ منيٍّ، أو من نحوِ حيضٍ أو نَفَاسٍ، والغسلُ عنها أمرٌ تعبُّديٌّ، وصفةُ الغسلِ كما رواه البخاريُّ

---

(١) رواه مسلم، رقم: (٨٣٢).

(٢) رواه مسلم، رقم: (٢٣٠)، والترمذي، رقم: (٤٤)، وأحمد، رقم: (٤٠٣).

(٣) رواه النسائي، رقم: (٨٩)، وابن ماجه، رقم: (٤٢٢)، وأحمد، رقم: (٦٦٨٤).

عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قالت: «إنَّ النَّبيَّ ﷺ كان إذا اغتسلَ من الجنابةِ، بدأَ فغسلَ يديهِ ثمَّ يُفرغُ بيمينِه على شِمالِه، فيغسلُ فرجَهُ، ثمَّ يتوضَّأُ كما يتوضَّأُ للصَّلاةِ، ثمَّ يُدخلُ أصابعَه في الماءِ يُخَلِّلُ بها أصولَ شعرِه، ثمَّ يصبُّ على رأسِهِ ثلاثَ غَرفاتٍ بيديهِ، ثمَّ يُفيضُ الماءَ على سائرِ جسدِه»(١).

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ [المائدة: ٦].

والمعنى: وإن كُنتم مرضى تخافون تفاقمَ المرضِ أو الهلاكَ منهُ باستعمالِ الماءِ، أو كُنتم على سفرٍ وعَسُرَ عليكُم حصولُ الماءِ، أو لامستمُ النِّساءَ فلم تجدوا الماءَ، أو لم تستطيعوا استعمالَه لمانعٍ شرعيٍّ؛ فتيمَّموا من تُرابٍ طَهورٍ من وجهِ الأرضِ، فامسحوا بوجوهِكم وأيديكُم منهُ؛ لأنَّ اللهَ ﷻ لم يردْ أن يُضَيِّق عليكم، وإنَّما يريدُ أن يُطهرِّكم من أوساخِ الذُّنوبِ وأدرانِ الخطايا، وليتمَّ نعمتَه عليكُم بالتَّسهيلِ، فإنَّهُ ما جعلَ عليكُم في الدِّينِ من حَرَجٍ.

روى الشَّيخان البخاريُّ ومسلمٌ من حديثِ عمَّار بنِ ياسرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قالَ: أجنبتُ فلمْ أصِب الماءَ، فتَمَعَّكْتُ في الصَّعيدِ وصلَّيْتُ، وذكرتُ ذلكَ للنَّبيِّ ﷺ فقال: «**إنَّما كانَ يكفيكَ هكذا**»، وضرب النَّبيُّ ﷺ بكفَّيه الأرضَ، ونفخَ فيهما، ثمَّ مسحَ بهما وجهَه وكفَّيه(٢).

(١) رواه البخاري، رقم:(٢٤٥)، ومسلم، رقم: (٣١٦).
(٢) رواه البخاري، رقم: (٣٣٨)، ومسلم، رقم: (٣٦٨).

والطَّهارةُ شرطٌ من شُروط الصَّلاةِ، لا تصحُّ الصَّلاةُ بدونها؛ لقولِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**لا يقبلُ اللهُ صلاةً بغيرِ طَهورٍ**»(١).

وهي قسمان: طهارةٌ من الأحداثِ وهي الوضُوء، وطهارةٌ من النَّجاساتِ الظَّاهرةِ في الثَّوبِ والجسمِ والمكانِ، ومنها: الدَّمُ والبولُ والغائطُ والخمرُ ونحوها، ويجبُ غسلُها سبعَ مرَّاتٍ بالماءِ الطَّهورِ الَّذي لم يتغيَّرْ لونُه ولا طعمُه ولا ريحُهُ، ولم يُستعملْ في طَهارةٍ عن وضوءٍ وغسلٍ.

والطَّهارةُ من الحدثِ واجبةٌ على مَن يُريدُ الصَّلاةَ، أو لمسَ المُصحفِ، أو الطوافَ بالكعبةِ؛ لأنَّ هذهِ الثَّلاثةَ تحرمُ على المحدثِ حتَّى يتطهَّرَ بوضوءٍ وغسلٍ.

أمَّا الجُنُبُ، فيحرُم عليهِ معها قراءةُ آيةٍ منَ القرآن، ويحرمُ عليهِ اللَّبثُ في المسجدِ حتَّى يغتسلَ، وإن لم يتوضَّأْ.

ومن نواقضِ الوضوءِ: ما خرجَ من السَّبيلينِ؛ بدليلِ قولِه تعالى: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ [النِّسَاء: ٤٣]، وقولُه ﷺ: «**لا وضوءَ إلَّا من صوتٍ أو ريحٍ**»(٢).

ومنها: خروجُ النَّجاسةِ من بقيَّةِ البدن كالدَّم والقيءِ، لقولِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لفاطمةَ رضي الله عنها وقد خرجَ منها دمٌ: «**إنَّه دمُ عرقٍ،**

(١) رواه مسلم، رقم: (٢٢٤).
(٢) رواه الترمذي، رقم: (٧٤)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأبو داود، رقم: (٢٥٤٤) وابن ماجه، رقم: (٥١٥).

فتوضَّئي»[١]، ولقولِ أبي الدَّرداء رضي الله عنه: «**إنَّ النَّبيَّ ﷺ قاءَ فتوضأَ**»[٢].

ومنها: زوالُ العقلِ بجنونٍ أو إغماءٍ أو نومٍ، ودليلُ ذلكَ ما رواه البيهقيُّ عن معاويةَ، عن النَّبيِّ ﷺ قالَ: «**العَيْنُ وِكَاءُ السَّهِ، فإذا نامَتِ العينانِ، استطلقَ الوِكاءُ**[٣]»[٤]. ومعنى السَّهِ: الاستُ.

ومنها: الرِّدَّةُ - أعاذنا اللهُ منها -؛ لأنَّها تُحبطُ جميعَ الأعمالِ، حتَّى الغسلُ والوضوءُ.

ومن مُوجباتِ الغُسلِ: خروجُ المنيِّ؛ لحديثِ: «**إنَّما الماءُ من الماءِ**»[٥]، والجماعُ؛ لقولِ اللهِ تعالى: ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [المَائدة: ٦]، والنِّفَاسُ، وفرضُ الغُسلِ تعميمُ الجسدِ بالماءِ.

ويُسنُّ إسباغُ الوضوءِ، ويُفهمُ منهُ أن يزيدَ في الغسلِ من غيرِ وسوسةٍ، أو أنَّهُ يتوضَّأُ لكلِّ صلاةٍ؛ فقد روى التِّرمذيُّ عن عبدِ اللهِ بنِ عمرَ رضي الله عنه، قالَ: كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يقولُ: «**من توضَّأَ على طُهْرٍ، كُتِبَ لهُ عشرُ حسناتٍ**»[٦].

ويُسَنَّ للمتوضِّئِ أن يصلِّي ركعتين بعدَ الفراغِ من وضوئِه؛

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٢٢٨).

(٢) رواه الترمذي، رقم: (٨٧).

(٣) الوكاء: الخيط الذي تشد به الصرة والكيس، وغيرهما. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٥/ ٢٢٢).

(٤) رواه أبو داود، رقم: (٢٠٣)، وابن ماجه، رقم: (٤٧٧)، وأحمد، رقم: (١٦٨٧٩)، والبيهقي، رقم: (٥٧٩).

(٥) رواه مسلم، رقم: (٣٤٣).

(٦) رواه الترمذي، رقم: (٥٩)، وقال: هو إسناد ضعيف، وأبو داود، رقم: (٦٢)، وابن ماجه، رقم: (٥١٢).

للحديثِ الَّذي رواهُ ابنُ ماجه عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: «**كانَ النَّبيُّ ﷺ إذا توضَّأَ، صلَّى ركعتين، ثمَّ خرجَ إلى الصَّلاة**»(١).

ومن السُّنَّةِ أن يتعهَّدَ الإنسانُ طهارتَه حيث يبقى دائمًا على طهارةٍ؛ لما رُوي في الحديثِ عندَ ابنِ خُزيمة عن عبدِ اللهِ بن بُريدة عن أبيهِ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ أصبحَ يومًا، فدعا بلالًا، وقالَ: «**يا بلالُ! بما سبقتني إلى الجَنَّةِ؟ إنِّي دخلتُ البارحةَ الجنَّةَ، فسمعتُ خَشْخَشَتَكَ أمامي**»، فقالَ بلالٌ: يا رسولَ اللهِ! ما أَذَّنت قَطُّ إلا صلَّيتُ ركعتين، ولا أصابني حَدَثٌ قَطُّ إلَّا توضَّأتُ عندَه، فقالَ ﷺ: «**بهذا!**»(٢).

وأمَّا مَن لم يهتمَّ بأمرِ وضوئِه، فهذا لا شكَّ كمن لم يهتمَّ بأمرِ صلاتِه؛ لأنَّ مَنْ لا وضوءَ له لا صلاةَ لهُ، روى الطَّبرانيُّ عن ابنِ عمرَ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «**لا إيمانَ لمَن لا أمانةَ لهُ، ولا صلاةَ لمن لا طهورَ لهُ، ولا دينَ لمن لا صَلاةَ له**»(٣)، وموضعُ الصَّلاةِ من الدِّينِ كموضعِ الرَّأسِ من الجسدِ، فالصَّلاةُ عمادُ الدِّينِ، والوضوءُ هو الطَّريقُ لها، وهو الَّذي يُعِدُّ المرءَ للوقوفِ بينَ يدي خالقِه للقيامِ بأشرفِ عملٍ أمرَ بهِ، فإذا غَفَلَ عنهُ كانَ من الخاسرين.

---

(١) رواه ابن ماجه، رقم: (١١٤٦).

(٢) رواه الترمذي، رقم: (٣٦٨٩)، وقال: هذا حديث صحيح غريب، وأحمد، رقم: (٢٣٠٤٠).

(٣) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم: (٢٢٩٢)، وفي المعجم الصغير، رقم: (١٦٢).

٢٩- النَّظافةُ وأسرارُ الطَّهارةِ

قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**لا يقبلُ اللهُ صلاةَ أحدِكم إذا أحدثَ حتَّى يتوضَّأَ**»[١] رواه الشَّيخان عن أبي هريرة، وتقدَّم الكلامُ في الدَّرسِ السَّابقِ على بعضِ أحكامِ الطَّهارةِ، وفهمنا من دروسِنا السَّابقةِ أنَّ واجبَ المسلمِ امتثالُ أمرِ دينِه تعبُّدًا، وألَّا يخوضَ فيما خاضَ فيه المتعقِّلون الَّذين جعلوا العقلَ سلطانًا على أحكامِ الدِّين؛ لأنَّ أمرَ اللهِ ﷻ فوقَ العقلِ، وحُكمَهُ فوقَ الإدراكِ، وكلَّما ذكرنا شيئًا من المنافعِ الدُّنيويَّة لما فرضَ اللهُ علينا، فإنَّ إدراكَنا لا يصلُ إلى شيءٍ من ذلكَ، إلَّا كما يأخذُ منقارُ الطَّائرِ من البحرِ، ولعلَّنا نأخذُ من هذا المنقارِ شيئًا نفيضُه على هذهِ الصَّفحاتِ، ونذكرُ فيه فائدتين: دينيَّةً، ودنيويَّةً:

فمن الدُّنيويَّة - واللهُ أعلمُ -: أنَّ مجرَّدَ استعمالِ الماءِ يفيدُ صاحبَه نشاطًا وهِمَّةً، ويزيلُ ما يعرضُ لهُ من فُتورٍ واسترخاءٍ ممَّا يسبِّبُهُ الحدثُ، أو التَّعبُ من اتِّصالِ العملِ، فيقيمُ الصَّلاةَ على وجهِها نشيطًا؛ لأنَّ أسبابَ الحدثِ إذا تعاطاها الإنسانُ، نالَ لذَّةً أعقبها فتورٌ وتعبٌ، فإذا استعملَ الماءَ، انتعشَ وزالَ عنهُ الفتورُ والتَّعبُ.

ومنها: أنَّ الوضوءَ والغسلَ من النَّظافةِ، والنَّظافةُ ركنُ الصِّحَّةِ، والرَّسولُ ﷺ أخبرَنا أنَّ الإسلامَ بُني على النَّظافةِ كما قالَ ﷺ:

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٦٩٥٤)، ومسلم، رقم: (٢٢٥).

«**النَّظافةُ من الإيمانِ**»(١)، وروى البيهقيُّ عن عائشة رضي الله عنها: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «**إنَّ اللهَ يُبغضُ الوَسخَ الشَّعِثَ**»(٢)، كما أنَّه ﷺ أرشدَ متَّبعيهِ إلى العنايةِ بتنظيفِ أجسامِهم وأثوابِهم ومساكنِهم، حتَّى يكونوا جميلي المنظرِ محبوبين؛ فقد روى الحاكمُ عن سهلِ بنِ سعدٍ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «**أَحْسِنوا لباسَكم، وأَصْلِحوا رِحَالكم حتَّى تكونوا كأنَّكم شامَةٌ في النَّاسِ**»(٣).

يريدُ بذلكَ ﷺ أن تكونَ نظافتُهم مبعثَ السُّرورِ، ومركزَ الجمالِ للنَّاظرِ؛ كالشَّامةِ الَّتي تقعُ موقِعَها الحسنَ من الوجهِ الجميلِ، ولمَّا كان للنَّظافةِ أثرٌ صحِّيٌّ في الجسمِ؛ أوجبَ الدِّينُ الإسلاميُّ الاستنجاءَ، وأوجبَ الخِتانَ، وحبَّبَ لمتَّبعيهِ الاستحدادَ، وتنظيفَ الإبطِ، وتقليمَ الأظفارِ، وترجيلَ شعرِ الرَّأسِ واللِّحيةِ، وقد ثبتَ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ قالَ: «**مَنْ كانَ لهُ شعرٌ، فليكرمْه**»(٤) رواهُ الدَّارقطني عن أبي هريرة. وإكرامُ الشَّعرِ: غسلُه، وتسريحُه حتَّى لا يتشعَّث.

كما أنَّ النَّبيَّ ﷺ أمرَنا بغسلِ اليدينِ قبلَ تناولِ الطَّعامِ وبعدَه، وأمرَنا بتعهُّدِ أطرافِنا وأمرَنا بالسِّواكِ، ومن ذلكَ قولُه ﷺ: «**لولا أن أَشُقَّ على أُمَّتي، لأمرتُهم بالسِّواكِ عندَ كلِّ صلاةٍ**»(٥) رواهُ الشَّيخان،

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم: (٧٣١١)، بلفظ: «والنظافة تدعو إلى الإيمان».

(٢) رواه البيهقي في الشعب، رقم: (٥٨١٥).

(٣) رواه أبو داود، رقم: (٤٠٨٩)، والحاكم في المستدرك، رقم: (٧٣٧١) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد.

(٤) رواه أبو داود، رقم: (٤١٦٣).

(٥) رواه البخاري، رقم: (٨٨٧)، ومسلم، رقم: (٢٥٢).

والنَّسائيُّ عن أبي هريرة[١]، وقولُه ﷺ: «**لولا أن أشقَّ على أمَّتي، لأمرتهم بالسِّواكِ والطِّيبِ عندَ كلِّ صَلاة**»[٢] رواهُ ابنُ منصورٍ عن مكحولٍ، وروى نحوه البخاريُّ والبيهقيُّ عن أبي هريرةَ والطَّبرانيُّ عن عليٍّ رضي الله عنه، ولفظُه: «**لولا أن أشقَّ على أمَّتي، لأمرتُهم بالسِّواكِ مع كلِّ وضوءٍ**»[٣]، ومن ذلك: قولُه ﷺ لقومٍ دخلوا عليهِ قد اصفرَّتْ أسنانُهم: «**اسْتاكوا، مالَكُم تدخلونَ عَلَيَّ قُلْحًا**[٤]؟!»[٥]، رواه أحمدُ والبزارُ والطَّبرانيُّ.

ومنها: تكريمُ المسلمِ نفسَه في نفسِه وبينَ أهلِه وقومِه؛ لأنَّ مَن كان نظيفَ البدنِ والثِّيابِ، كان أهلًا لحضور كلِّ مجتمعٍ، وجديرًا بلقاءِ كلِّ إنسانٍ، ويرى نفسَه حريًّا بكلِّ كرامةٍ، أمَّا القذِرُ فإنَّه يكون محتقرًا في نفسِه فضلًا عن غيرِه.

يؤيِّد ذلكَ ما رُوي أنَّ النَّبيَّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أكَّدَ غُسلَ الجُمُعة، وأمرَ بلبسِ جميلِ الثِّيابِ لها؛ لأنَّه يومُ عيدٍ جعلَهُ اللهُ للمسلمين، وقالَ: «**فمن جاءَ الجمعةَ، فليغتسلْ**»[٦]، وأمر مَنْ كان

---

(١) رواه النسائي، رقم: (٦).

(٢) رواه السيوطي في الجامع الصغير، رقم: (١٠٣٢١).

(٣) رواه البخاري، رقم: (٨٨٧) بلفظ: «مع كل صلاة»، والبيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٢٥١٤)، والطبراني في المعجم الأوسط، رقم: (١٢٣٨).

(٤) القلح: صُفرة تعلو الأسنان، ووسخ يركبها. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٤/ ٩٩).

(٥) رواه أحمد، رقم: (١٨٣٥)، والبزار، رقم: (١٣٠٣)، والطبراني في المعجم الكبير، رقم: (١٣٠١).

(٦) رواه البخاري، رقم: (٩١٩)، ومسلم، رقم: (٨٤٤).

عندَه طيبٌ أن يمسَّ منه، وأوجبَ بعضُهم الغسلَ للجُمُعة؛ لقولِه ﷺ: «**غسلُ يومِ الجمعةِ واجبٌ على كلِّ محتلمٍ**»(١) رواه مالكٌ وأحمدُ وغيرهما عن أبي سعيدٍ رضي الله عنه.

أما الفوائدُ الدِّينيَّة: فإنَّ اللهَ عز وجل قالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٢]، وأثنى على أهلِ مسجدِ قباء؛ فقالَ: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ۚ﴾ [التّوبَة: ١٠٨].

وإنَّ الطَّهارةَ الخارجيَّة تسوقُ المرءَ إلى تطهيرِ روحِه بصرفِها عن مشاغلِ الحياةِ، واحتسابِ أعمالِه في طاعةِ اللهِ، بحيثُ يصرفُها حسبَ أوامرِ اللهِ؛ ليدركَ السَّعادةَ المطلوبةَ الَّتي هي غايةُ مطلبِ الإنسانِ، فإذا فعلَ ذلك، طهَّرَ أخلاقَه؛ فأصبحَ طاهرًا في بدنِه وثوبِه، طاهرًا في روحِه، طاهرًا في خُلُقِه، وهنا يصبحُ موضعَ نظرِ اللهِ عز وجل؛ كما في حديثِ مسلمٍ عن أبي هريرةَ رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «**إنَّ اللهَ تعالى لا ينظرُ إلى صورِكم وأموالِكم، ولكن إنَّما ينظرُ إلى قلوبِكم وأعمالِكم**»(٢)؛ لأنَّ أعمالَ القلوبِ هي المصحِّحةُ لأعمالِ الجوارح: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

ثمَّ إنَّ اللهَ سبحانَهُ وتعالى بيَّن لنا في آخرِ آيةٍ من سورةِ المائدة: أنَّه إنَّما يريدُ ليطهِّرنا، وليتمَّ نعمَته علينا؛ لعلَّنا نشكُرُه على إسباغِه الفضلَ

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٨٧٩)، ومسلم، رقم: (٨٤٦)، وأحمد، رقم: (١١٥٧٨)، ومالك، رقم: (٢٣٠).

(٢) رواه مسلم، رقم: (٢٥٦٤).

علينا، فهو يريدُ أن يطهِّر أجسامَنا بالنَّظافةِ من الأقذارِ والأوساخِ، وليطهِّر أرواحَنا من الرَّذائلِ والعقائدِ الفاسدةِ، فنكون حينئذٍ أنظفَ النَّاسِ أبدانًا، وأزكاهم نفوسًا، وبذلكَ نكونُ أصحَّ النَّاسِ أجسادًا، وأرقاهم أرواحًا، ويصدق علينا حينئذٍ قولُه تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ لأنَّه متى زكتِ النُّفوسُ ورقتِ الأرواحُ كانت عاملةً مع خالقِها، تنفِّذُ أمرَه وتتباعدُ عن نهيِهِ، فتأمرَ بالمعروفِ عاملةً بهِ وتنهى عن المنكرِ وتنتهي عنهُ، وتكونَ خيرَ الأممِ، فإذا كنَّا كذلكَ، أتمَّ اللهُ نعمتَه علينا بأن قبلَنا للوقوفِ بين يديهِ في أحبِّ الأعمالِ إليهِ؛ ذلكَ هو الصَّلاةُ الَّتي هي عمادُ الدِّينِ، كما أنَّ الرُّوحَ عمادُ الجسدِ، والصَّلاةُ تطهِّرُ وتزكِّي النَّفسَ، وتعوِّدُ المرءَ مراقبةَ ربِّهِ في السِّرِّ والعلنِ، وخشيتَه عندَ الإساءةِ، ورجاءَه عندَ الإحسانِ، ومتى عرَفنا ذلكَ، عرَفنا كيفَ نشكُرُه على نعمهِ الظَّاهرةِ والباطنةِ، ونسألُه المزيدَ من فضلِهِ.

روى البيهقيُّ وغيرُه عن عُبادةَ بنِ الصَّامتِ رضي الله عنه، قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَن توضَّأَ فأبلغَ الوضوءَ، ثمَّ قامَ إلى الصَّلاةِ، فأتمَّ ركوعَها وسجودَها والقراءَة فيها قالتْ: حفظَكَ اللهُ كما حَفِظْتني، ثمَّ يصعدُ بها إلى السَّماءِ، ولها ضوءٌ ونورٌ، فتُفتحُ لها أبوابُ السَّماءِ حتَّى يُنْتَهى بها إلى اللهِ تعالى، فتشفعُ لصاحبِها، وإذا لم يُتمَّ ركوعَها ولا سُجودَها، ولا القراءةَ فيها، قالت: ضَيَّعَكَ اللهُ كما ضَيَّعْتني، ثم يُصعدُ بها إلى السَّماءِ وعليها ظلمةٌ، فتُغْلَقُ دونَها أبوابُ السَّماءِ، ثمَّ**

تُلَفُّ كما يُلَفُّ الثَّوبُ الخَلَقُ[(١)]، ويُضربُ بها وجهُ صاحبِها»[(٢)].

وروى البخاريُّ ومسلمٌ عن عثمانَ بنِ عفَّانٍ رضي الله عنه، قالَ: واللهِ! لأحدِّثنَّكم حديثًا لولا آيةٌ في كتابِ اللهِ - يعني: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩﴾ [البقرة: ١٥٩] - ما حدَّثتكموهُ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: **«لا يتوضَّأُ رجلٌ فيُحسنُ وضوءَه، ثمَّ يصلِّي الصَّلاةَ، إلا غفرَ اللهُ لهُ ما بينَها وبينَ الصَّلاةِ الَّتي تليها»**[(٣)].

والدِّينُ الإسلاميُّ حَذَّرنا من جميعِ الأقذارِ، وحتَّى من رذاذِ البولِ عندما يجلسُ الإنسانُ لحاجتِه، فقد روى الطَّبرانيُّ عن أبي أمامةَ رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ، قالَ: **«اتَّقوا البولَ؛ فإنَّهُ أَوَّلُ ما يُحاسبُ به العبدُ في القبرِ»**[(٤)].

وأخرجَ البخاريُّ ومسلمٌ، وغيرهما: أنَّه ﷺ مرَّ بقبرينِ، فقالَ: **«إنَّهما يعذَّبان، وما يعذَّبان في كبيرٍ - بلى إنَّه كبيرٌ - أمَّا أحدُهما، فكانَ يمشي بالنَّميمةِ، وأمَّا الآخرُ فكانَ لا يستنزهُ من البولِ»**[(٥)].

---

(١) الخلق: البالي. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٥/ ٢٥٥).

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٢٨٧١)، والطبراني في المعجم الأوسط، رقم: (٣٠٩٥).

(٣) رواه البخاري، رقم: (١٦٠)، ومسلم، رقم: (٢٢٧).

(٤) رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم: (٧٦٠٥).

(٥) رواه البخاري، رقم: (٢١٥)، ومسلم، رقم: (٢٩٢).

٣٠- الزَّكَاةُ

قالَ اللهُ تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التّوبة: ١٠٣].

أمرَ اللهُ نبيَّهُ ﷺ قائلًا لهُ: خذْ من أموالِ المؤمنين - على اختلافِ أنواعِها - صدقةً معيَّنةً تطهِّرُهم بها من دَنَسِ البخلِ والطَّمعِ والدَّناءةِ، وغيرِ ذلكَ من الرَّذائلِ، وتزكِّي أنفسَهم بها، فترفعَها إلى الفضائلِ الخُلُقيَّةِ حتَّى تكونَ أهلًا للسَّعادةِ الدُّنيويَّة والأخرويَّة ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النُّور: ٢١].

فالرَّسولُ ﷺ هو المربِّي الأكبرُ الَّذي بعثَه اللهُ ﷻ إلينا؛ ليعلِّمَنا الكتابَ والحكمةَ، ويتلو علينا آياتِ اللهِ الَّتي تزكِّينا، فإذا آمنَّا بها وفهمناها حقَّ المعرفةِ، وعلمْنا أنَّ ما جاءَنا بهِ هو الحقُّ من عندِ اللهِ وعملْنا بأوامرِه وانتهيْنا عن نواهيه فقد زكَّينا أنفسَنا بتزكيةِ النَّبيِّ ﷺ الَّتي جاءَنا بها من عندِ اللهِ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿١٥﴾﴾ [الأعلى: ١٤-١٥].

وقد تقدَّمَ الكلامُ على الزَّكاةِ في الدَّرسِ الرَّابعِ تحتَ عنوانِ «الصَّدقاتُ المفروضة»، والزَّكاةُ هي الرُّكنُ الثَّالثُ من أركانِ الإسلامِ الخمسةِ، وهي - وإن كانت عبادةً ماليَّةً - عبادةٌ روحيَّةٌ؛ بدليلِ الآيةِ المتقدِّمةِ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التّوبة: ١٠٣]،

ولعلَّ النَّاحيةَ الرُّوحيَّةَ بها أكبرُ من النَّاحيةِ الماديَّةِ كالصَّلاةِ والصِّيامِ، وأداؤها واجبٌ على كلِّ مسلمٍ ملكَ النِّصابَ، ومن امتنعَ عن أدائِها قاتلهُ خليفةُ المسلمين، ولا تسقطُ عن المسلمِ متى وجبَت في مالِه، وتجبُ على مَنْ ملكَ نصابًا شرعيًّا فَضَلَ عن نفقتِه ونفقةِ عيالهِ وديونِه وحاجتِه، وعلى الصَّبيِّ والمجنونِ من المسلمين، ولا تجبُ على غيرِ مسلمٍ، ولا على من لا يملكُ نصابًا يفضلُ عن ديونِه وحاجاتِه.

وهي ربعُ العُشْرِ؛ أي: من كلِّ مئةٍ اثنان ونصفٌ في الذَّهبِ والفضَّةِ وعروضِ التِّجارةِ؛ فنصابُ الذَّهبِ عشرونَ مثقالًا، وهي ما يقاربُ (٨) توله ونصفًا بالوزنِ الهنديِّ ذهبًا صرفًا، ونصابُ الفضَّةِ مئتا درهمٍ، وهي ما يقارب (٥٨) توله بالوزنِ الهنديِّ فضَّةً خالصةً، أمَّا العُروضُ التِّجاريَّةُ، فالعمدةُ في أثمانِها، وأمَّا الزَّكاةُ في الحبوبِ وفي الثِّمارِ وفي المواشي، فقد بيَّنَ الفقهاءُ مقدارَ أنصابِها، وما يؤخذُ منها مفصَّلًا في كتبِهم.

ومصارفُها ووجوهُ إنفاقِها محدَّدةٌ بحدٍّ معروفٍ، ولا تُصرفُ إلَّا لمن ذكرهُم اللهُ في كتابِه العزيزِ في الآية السِّتِّين من سورةِ التَّوبة: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ [التّوبَة: ٦٠]، وقد عرَّفهم الفقهاءُ بنحوِ ما يأتي:

الفقراءُ: مَن تكونُ نفقاتُهم أكثرَ ممَّا يملكونَ، أو كبعضِ الموظَّفين والعمَّالِ الَّذينَ يصرفون أكثرَ من دخلِهم، أو كبعضِ مَستوري الحالِ.

المساكينُ: مَنْ لا يملكون مالًا، ولا عَملًا.

العاملون عليها: وهم موظَّفو الدَّولةِ في جبايةِ الزَّكاةِ وتوزيعها يأخذون أجورَهم منها.

المؤلَّفةُ قلوبِهم: وهم قومٌ يُطمعُ في إسلامِهم، ويرى أولو الأمرِ في التودِّدِ إليهِم استمالتهم للإسلامِ.

وفي الرِّقابِ: وهم الأرقَّاءُ يُعْطَون من مالِ الزَّكاة؛ ليعتقوا أنفسَهم أو تُشترى رقابُهم من مالِ الزَّكاةِ فتعتقَ.

الغارمون: المدِينون.

في سبيلِ اللهِ: الجهادُ وقتالُ الكفَّارِ.

وابنُ السَّبيلِ: هو المسلمُ المسافرُ المنقطعُ عن أهلِه ومالِه.

فإنْ لم يكُن من هذهِ الأصنافِ الثَّمانيةِ أحدٌ، دُفعت إلى بيتِ مالِ المسلمين؛ ليحفظَها، وتُصرفُ عندَ الحاجةِ في أوجهِها.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي هريرةَ رضي الله عنه: أنَّه قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**من آتاهُ اللهُ مالًا فلم يُؤَدِّ زكاتَه مُثِّلَ لهُ مالُهُ يومَ القيامةِ شجاعًا - حيَّةً عظيمةً - أقرعَ لهُ زَبيبتان، يطوَّقه يومَ القيامةِ، ثمَّ يأخذُ بلِهْزِمَتَيْه - شِدْقَيه -، ثمَّ يقولُ: أنا مالُكَ أنا كنزُك**»، ثمَّ تلا هذه الآيــة: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ﴾ [آل عِمرَان: ١٨٠][(١)].

وقد قرنَ اللهُ سبحانهُ وتعالى الأمرَ بإيتاءِ الزَّكاةِ بإقامةِ الصَّلاةِ في

---

(١) رواه البخاري، رقم: (١٤٠٣)، ومسلم، رقم: (٩٨٨) بلفظ: «ما من صاحب إبل، ولا بقر، ولا غنم، لا يؤدي حقها».

كثيرٍ من آياتِ كتابِه الكريم، ومن أقامَ الصَّلاةَ على وجهِها لا ينسى اللهَ، ولا يغفلُ عن رجاءِ فضلِه، كان جديرًا ببذلِ المالِ في سبيلِه مواساةً لعيالِه؛ لأنَّ «**الخلق كلُّهم عِيَالُ الله، وأحبُّهم إلى الله أبرُّهم بعياله**»[1]؛ فإنَّ الإنسانَ إنَّما يكتسبُ المالَ من النَّاسَ بالسَّعي في سبيلِه وبالعملِ معَهم، فهو لم يكن غنيًّا إلَّا بهِم ومنهُم، فإذا عجزَ بعضُهم عن الكسبِ بسببٍ ما، وجبَ على بني دينِه الأخذُ بيده ومعاونتُه؛ حفظًا للمجموعِ الَّذي ترتبطُ مصالحُ بعضِه بمصالحِ بعضهم الآخرِ.

إنَّ الغنيَّ في حاجةٍ دائمةٍ إلى الفقيرِ، كما أنَّ الفقيرَ في حاجةٍ ماسَّةٍ إلى الغنيِّ، ولكنَّ النُّفوسَ تمرضُ، فتغفلُ عن المصلحةِ في بذلِ المالِ حبًّا في المالِ، وشُحًّا بهِ؛ لهذا جعلَ اللهُ تعالى بذلَ المالِ والإنفاقَ في سبيلِ الخيرِ علامةً من علاماتِ زكاةِ النَّفسِ، وآيةً من آياتِ الإيمانِ، وجعلَ البخلَ آيةً من آياتِ النِّفاقِ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

روى البخاريُّ ومسلمٌ وغيرُهما عن عبدِ اللهِ بن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ لمعاذِ بنِ جبلٍ حينَ بعثَه إلى اليمنِ في السَّنةِ العاشرةِ من الهجرةِ واليًا ومعلِّمًا وقاضيًا: «**إنَّكَ ستأتي قومًا أهلَ كتابٍ؛ فإذا جئتَهم، فادْعُهم إلى أن يشهدُوا أَنْ لا إلهَ إلا اللهُ، وأنَّ محمّدًا رسولُ اللهِ، فإن هُم أطاعُوا لكَ بذلكَ، فأخبرْهُم أنَّ اللهَ فرضَ عليهم خمسَ صلواتٍ في اليومِ واللَّيلة، فإن هم أطاعوا لكَ بذلكَ، فأخبرْهُم أنَّ اللهَ قد فرضَ عليهِم صدقةً تؤخَذُ من أغنيائِهم، فَتُرَدُّ على فقرائِهم، فإن**

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم: (١٠٠٣٣).

هُم أطاعُوا لكَ بذلكَ، فإيَّاك وكرائِمَ أموالِهم، واتَّقِ دعوةَ المظلومِ؛ فإنَّها ليسَ بينَها وبينَ اللهِ حجابٌ»(١).

وروى البخاريُّ ومسلمٌ، وغيرُهما عن أبي هريرةَ رضي الله عنه، قالَ: لمَّا تُوفِّي رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم، واستُخلفَ أبو بكرٍ بعدَه، وكفرَ مَنْ كفرَ من العَربِ، قالَ عمرُ بنُ الخطَّابِ لأبي بكرٍ: كيفَ نقاتلُ النَّاسَ وقد قالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: **«أُمرتُ أن أقاتلَ النَّاسَ حتَّى يقولوا: لَا إله إلَّا الله، فمَن قالَها، عصمَ منِّي مالَه ونفسَه إلَّا بحقِّه، وحسابُه على اللهِ»**؟ فقالَ أبو بكرٍ: واللهِ لأقاتلنَّ! مَنْ فرَّق بينَ الصَّلاةِ والزَّكاةِ؛ فإنَّ الزَّكاةَ حقُّ المالِ، واللهِ! لو منعوني عنَاقًا كانوا يؤدُّونه إلى رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، لقاتلتُهم على منعِه، قالَ عمرُ: فوالله! ما هو إلَّا أن شرحَ اللهُ صدرَ أبي بكرٍ للقتالِ، فعرفتُ أنَّهُ الحقُّ(٢)، ثمَّ بعدَ ذلكَ لامَ أبو بكرٍ عمرَ رضي الله عنهما فقالَ لهُ: «أجبَّارٌ في الجاهليَّة، خَوَّارٌ في الإسلام؟ يا عمر! إنَّه قد انقطعَ الوحيُ، وتمَّ الدِّينُ، أينقصُ وأنا حيٌّ؟ يا عمر! واللهِ! لأقاتلنَّ من فرَّق بينَ الصَّلاةِ والزَّكاة»(٣)، وعقدَ أبو بكرٍ أحدَ عشرَ لواءً لقتالِ هؤلاءِ المانعين للزَّكاةِ، المرتدِّين عن الإسلامِ، فانتصرَ عليهم ونصرَ اللهُ بهِ الإسلامَ.

---

(١) رواه البخاري، رقم: (١٤٩٦)، ومسلم، رقم: (١٩).
(٢) رواه البخاري، رقم: (١٣٩٩)، ومسلم، رقم: (٢٠).
(٣) انظر: مشكاة المصابيح، للتبريزي، رقم: (٦٠٣٤).

٣١- الصِّيامُ

قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝١٨٣ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖ﴾ [البَقَرة: ١٨٣-١٨٤].

والصِّيامُ كما عرَّفه الفقهاءُ: إمساكٌ مخصوصٌ في وقتٍ مخصوصٍ عن أشياءَ مخصوصةٍ، وهو حبسُ النَّفسِ عن الشَّهواتِ، وعمَّا أَلِفَتْه من بعضِ العاداتِ، أو هو: إمساكٌ عن المُفطِّراتِ من طُلوعِ الفَجرِ إلى غروبِ الشَّمسِ مع النِّيَّةِ.

والصَّومُ عبادةٌ قديمةٌ عُرفتْ في الأديانِ الَّتي قبلَنا على اختلافِ أنواعِها؛ فمنهُ: صيامُ مريمَ لمَّا قالت: ﴿إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾ [مَريَم: ٢٦] وكان إمساكًا عن الكلامِ، وصيامُ اليهودِ يومًا وليلةً بلا طعامٍ ولا شرابٍ، وصيامُ النَّصارى على اختلافِ مذاهبِهم عن بعضِ أصنافِ الطَّعامِ في موسمٍ معيَّنٍ من السَّنةِ، واللهُ ﷻ كتبَ الصِّيامَ على الأمَّةِ الإسلاميَّةِ كما كتبَه على مَنْ قبلَها من الأمم مع اختلافٍ في التَّشريع، وجعلَه في الإسلام: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ﴾ [البَقَرة: ١٨٧]، وفُرِضَ الصَّومُ على الأمَّةِ الإسلاميَّةِ في السَّنةِ الثَّانيةِ من الهجرةِ، وكانَ فرضُه تخييرًا كما يدلُّ عليهِ ظاهرُ الآيةِ، ثمَّ حُتِمَ بنزولِ الآيةِ الثَّانيةِ: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ

هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البَقَرَة: ١٨٥].

والصِّيامُ عبادةٌ بدنيَّةٌ روحيَّةٌ، وترويضٌ للنَّفسِ على الصَّبرِ عندَ تحمُّلِ المشاقِّ؛ لأنَّهُ كَفٌّ لها عمَّا ألِفَتْه مِن العاداتِ، والنَّفسُ شديدٌ عليها أن تُحرم ممَّا في يدِها؛ لهذا كانَ الأمرُ بالصِّيامِ أمرًا لطيفًا، دعا اللهُ عبادَه المؤمنين إليهِ بأحبِّ الصِّفاتِ إليهم، فقالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البَقَرَة: ١٨٣]، كما قالَ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ [التَّوبَة: ١٢٣]، ولأنَّ الصِّيامَ شاقٌّ على النَّفسِ حقيقةً، قالَ ﷺ: «**الصِّيامُ نصفُ الصَّبرِ**»[١]، «**الصَّبرُ نصفُ الإيمانِ**»[٢].

روى أحمدُ ومسلمٌ عن أبي هريرةَ رضي الله عنه: أنَّ الرَّسولَ ﷺ قالَ: «**قالَ اللهُ ﷻ: كلُّ عملِ ابنِ آدمَ لهُ، إلَّا الصِّيامَ، فإنَّه لي، وأنا أَجْزي بهِ**»، ثمَّ قالَ ﷺ: «**الصِّيامُ جُنَّةٌ، فإذا كانَ يومُ صومِ أحدِكم؛ فلا يرفثْ، ولا يصخَبْ، ولا يجهلْ، فإن شاتَمَهُ أحدٌ، أو قاتله، فليقلْ: إنِّي صائمٌ، إنِّي صائمٌ، والَّذي نفسُ محمَّدٍ بيدِه! لَخُلوفُ فمِ الصَّائمِ أطيبُ عندَ اللهِ من ريحِ المسكِ، وللصَّائمِ فرحتان يفرحُهما: إذا أفطرَ فَرِحَ بفطرِه، وإذا لقيَ ربَّهُ فرحَ بصومِه**»[٣].

---

(١) رواه ابن ماجه، رقم: (١٧٤٥)، والبيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٦٢٢).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم: (٨٥٤٤)، البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٤٧).

(٣) رواه البخاري، رقم: (١٩٠٤)، ومسلم، رقم: (١١٥١)، وأحمد، رقم: (٧٦٩٣).

أسندَ اللهُ تعالى الصَّومَ لنفسِه من دونِ سائرِ العباداتِ؛ لأنَّ أكثرَ العباداتِ - بدنيَّةً كانت أو ماليَّةً - ربَّما يدخلُها الرِّياءُ؛ لاطِّلاعِ البشرِ عليها، ولكنَّ الصَّومَ سرٌّ بينَ العبدِ وربِّه، لا يَطَّلعُ عليهِ أحدٌ سواهُ، ولا يدخلُه رياءٌ؛ ولأنَّه صبرٌ وجهادٌ، فلذا كان جزاؤُه خاصًّا بهِ، فقالَ: «**الصَّومُ لي وأنا أجزي به، يتركُ طعامَهُ وشرابَه وشهوتَه من أجلِي**»(١).

ويجبُ على الصَّائمِ وجوبًا حتميًّا أن يحفظَ جوارحَه من الآثام؛ فينزِّهَ لسانَه عن الكذبِ والغيبةِ والنَّميمةِ، والرفَثِ والفحشِ، ويطهِّرَ نظرَهُ عن الحرام، وسمعَه عن اللَّغوِ والاغتياب؛ لما رواهُ البخاريُّ عن النَّبيِّ ﷺ: أنَّهُ قالَ: «**مَنْ لم يدعْ قولَ الزُّورِ والعملَ بهِ، فليسَ للهِ حاجةٌ في أن يدعَ طعامَه وشرابَه**»(٢).

وللصَّومِ تأثيرٌ عجيبٌ في أنَّه يحفظُ على الجوارحِ صحَّتَها، ويُعيدُ إليها نشاطَها، ويُعوِّضُها ما استلبَته منها أيدي الشَّهواتِ، وفي الحديثِ الَّذي رواهُ الطبرانيُّ عن أبي هريرةَ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «**صُوموا تَصِحُّوا**»(٣) خيرُ دليلٍ على ذلكَ، كما أنَّ في المشاهدةِ أقوى برهانٍ وفي التَّجرِبة أقوى دليلٍ.

وروى أحمدُ عن عبدِ اللهِ بنِ عمرَ ﭭ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «**الصِّيامُ والقرآنُ يَشفعانِ للعبدِ يومَ القيامةِ، يقولُ الصِّيامُ: أيْ ربِّ! منعتُه الطَّعامَ والشَّهواتِ، فَشَفِّعني فيهِ، ويقولُ القرآنُ: منعتُه النَّومَ**

---

(١) رواه البخاري، رقم: (١٨٩٤)، ومسلم، رقم: (١١٥١).

(٢) رواه البخاري، رقم: (١٩٠٣).

(٣) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم: (٨٣١٢).

باللَّيلِ، فشفِّعْني فيهِ؛ فيشفعان»[(١)].

وروى أحمدُ وغيرُه عن أبي أُمامةَ الباهليِّ، قالَ: أتيتُ النَّبيَّ ﷺ، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ! مُرني بعملٍ يُدخلني الجنَّةَ، قالَ: «**عليكَ بالصَّومِ؛ فإنَّه لا عِدْل له**»، ثمَّ أتيتُه الثَّانيةَ فقالَ: «**عليكَ بالصِّيامِ**»[(٢)].

والصَّومُ قسمان: نفلٌ وفرضٌ؛ فالنَّفلُ: منهُ تطوُّعٌ ومنهُ سُنَّةٌ، فالتَّطوُّعُ لم يعتبر بأيَّامٍ معلومةٍ، والسُّنَّةُ كصيامِ يومِ عاشوراء، وعشرِ ذي الحجَّة، وسيأتي الكلامُ عليه في درسٍ مُقبلٍ، والفرضُ ثلاثةُ أنواعٍ: صومُ رمضانَ، وصومُ الكفَّاراتِ، وصومُ النَّذرِ.

وصومُ رمضانَ واجبٌ بالكتابِ لقولِه تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾ [البَقَرَة: ١٨٥]، وبالسُّنَّةِ لقولِ النَّبيِّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**بُني الإسلامُ على خمسٍ: شهادةِ أَنْ لا إلهَ إلا الله، وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ، وإقامِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ، وحجِّ البيتِ، وصومِ رمضانَ**»[(٣)]، وصومُ رمضانَ واجبٌ بالإجماعِ؛ لأنَّ الأمَّةَ الإسلاميَّة أجمعتْ على أنَّ صومَ رمضانَ أحدُ أركانِ الإسلامِ، وأنَّ مُنكِرَه كافرٌ مرتدٌّ.

وفُرِضَ صومُ رمضانَ في اللَّيلةِ الثَّانيةِ أو الثَّالثةِ من شهرِ شعبانَ في السَّنةِ الثَّانيةِ للهجرةِ، وثبتَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ صامَ تسعةَ رمضاناتٍ فقط، ولمَّا حضرَ رمضان، قالَ ﷺ: «**قد جاءَكم شهرٌ مباركٌ، افترضَ اللهُ عليكُم صيامَه، تُفتحُ فيهِ أبوابُ الجنَّةِ، وتُغلقُ فيهِ أبوابُ الجحيمِ،**

(١) رواه أحمد، رقم: (٦٦٢٦).

(٢) رواه أحمد، رقم: (٢٢١٤٩).

(٣) سبق تخريجه.

وتُغَلُّ فيهِ الشَّياطينُ، وفيهِ ليلةٌ هي خيرٌ من ألفِ شهرٍ، مَن حُرِمَ خيرَها، فقد حُرِم»(١).

وأمَّا الآيةُ الكريمةُ: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ﴾ [البَقَرَة: ١٨٥] فإنَّها تحبِّبُنا في الصَّومِ، وأنَّهُ أيّامٌ معدوداتٌ هي كلُّها شهرُ رمضانَ، وهو شهرٌ مباركٌ ميمونٌ، شرَّفهُ اللهُ بأن أنزلَ فيهِ القرآنَ الَّذي هو هدًى للنَّاسِ، وآياتٌ بيِّناتٌ واضحاتٌ كلُّها نورٌ لا غموضَ فيها ولا إشكالَ، فرَّقَ اللهُ بها بينَ الحقِّ والباطلِ، وهدى بها من شاءَ من عبادِه إلى صراطهِ المستقيمِ المؤدِّي لما يحبُّه ويرضاهُ، وأنزلَ هذا الكتابَ في ليلةٍ مباركةٍ من هذا الشَّهرِ، هي ليلةُ القدرِ الَّتي هي خيرٌ من ألفِ شهرٍ، اللَّيلة الَّتي مَنْ قامها إيمانًا واحتسابًا، غُفر له ما تقدَّمَ من ذنبِه، والصَّومُ نعمةٌ من اللهِ، وتكليفٌ لمصلحةِ العبادِ، فمن حضرَ الشَّهرَ وهو سليمٌ معافًى لا عُذرَ لهُ من مرضٍ أو سفرٍ فليصمْهُ، ومن كان مريضًا أو على سفرٍ فعدَّةٌ من أيَّامٍ أخر؛ لأنَّ اللهَ ﷻ يُريدُ بعبادِه اليُسرَ، ولا يُريدُ بهم العُسرَ، أمَّا مَن ليسَ لهُ عذرٌ فليصمْه.

ولِما للصَّومِ من تهذيبٍ روحيٍّ، ولا سيَّما في شهرِ رمضانَ، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: **«مَنْ صامَ رمضانَ إيمانًا واحتسابًا، غُفر له ما تقدَّم من ذنبه»**(٢) رواه أحمدُ وغيره.

---

(١) رواه النسائي،رقم: (٢٤٢٧).

(٢) رواه البخاري، رقم: (٣٨)، ومسلم، رقم: (٧٦٠)، وأحمد، رقم: (٧١٧٠).

وروى التِّرمذيُّ والحاكمُ عنه أيضًا: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «**رَغِمَ أنفُ رجلٍ ذُكِرْتُ عنده فلم يُصَلِّ عليَّ، ورغمَ أنفُ رجلٍ دخلَ عليه رمضانُ، ثمَّ انسلخَ قبلَ أن يُغفر له، ورغم أنفُ رجلٍ أدركَ عنده أبواه الكِبَرَ، فلم يُدخلاه الجنَّةَ**»[1]، واللهُ أعلمُ.

(١) رواه الترمذي، رقم: (٣٥٤٥)، وقال: هذا حديث حسن غريب، وأحمد، رقم: (٧٤٥١)، والحاكم: (٢٠١٦).

٣٢- شهرُ رمضانَ وبعضُ أحكامِ الصَّومِ

روى التِّرمذيُّ عن أبي هريرةَ رضي الله عنه، قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: **«مَنْ أفطرَ يومًا في رمضانَ من غيرِ رُخصةٍ ولا مرضٍ، لم يقضِهِ صومُ الدَّهرِ وإنْ صامَهُ»**(١).

وقد بيَّنَ اللهُ لنا الرُّخصةَ في كتابِه العزيزِ من أنَّها مرضٌ أو سفرٌ، وأطلقَ كلمةَ المرضِ والسَّفرِ، وبيَّنَ لنا العلماءُ والفقهاءُ عليهم رحمةُ اللهِ بأنَّ المرضَ الَّذي يُباحُ معهُ الفطرُ هو ما يتضرَّرُ به البَدنُ بسببِ الصَّومِ، أو أنَّ الصَّومَ يُطيلُ مدَّته، أو تتلفُ بسببهِ النَّفسُ، أو يسبِّبُ تلفَ عضوٍ في البدنِ، وكذا يُباحُ الفطرُ للحَاملِ والمُرضعِ وتَقضيانِه، وعلى وليِّ الطِّفلِ إخراجُ فديةٍ؛ هي إطعامُ مسكينٍ عن كلِّ يومٍ إذا خافتا على الولدِ، أمَّا إذا خافتا على نفسيهِما، فعليهما الإطعامُ، فإن لم يحصلْ خوفٌ عليهِما أو على الولدِ فلا فطرَ، ويباحُ الفطرُ أيضًا لمن عطشَ، فخافَ التَّلفَ على نفسِه.

ومن الأعذارِ المبيحةِ للفطرِ: السَّفرُ المباحُ، وقد ثبتَ عن بعضِ أصحابِ النَّبيِّ ﷺ أنَّهم أفطروا في السَّفرِ، وقالوا لمن لم يفطرْ: قد رغبوا عن هدي محمَّدٍ، وروى مسلمٌ عن أبي سعيدٍ الخدريِّ، قالَ: **«غَزَوْنا مع رسولِ اللهِ ﷺ لِستَّ عشرةَ مضتْ من شهرِ رمضانَ، فمِنَّا**

(١) رواه الترمذي، رقم: (٧٢٣).

مَنْ صامَ، ومن أفطرَ، فلم يعبِ الصَّائمُ على المفطرِ، ولا المفطرُ على الصَّائمِ»[١].

وأمَّا الحائضُ والنُّفساءُ، فيحرمُ عليهما الصِّيامُ ولا ينعقدُ؛ لما روى البخاريُّ عن عائشةَ رضي الله عنها، قالت: «**كنَّا نحيضُ على عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ، فنؤمر بقضاءِ الصَّوم، ولا نؤمرُ بقضاءِ الصَّلاةِ**»[٢].

وأمَّا من أفطرَ لكبرٍ أو مرضٍ قد لا يُرجى بُرؤُهُ، فعليهِ الكفَّارةُ ولا قضاءَ عليهِ، والكفَّارةُ هي إطعامُ مسكينٍ عن كلِّ يومٍ، ومقدَّرُ الطَّعامِ مُدُّ بُرٍّ، أو نصفُ صاعٍ من غيرِه، والمُدُّ هو إناءٌ يسعُ رَطْلًا وربعَ الرَّطلِ من الحِنطةِ النَّقيَّةِ، أو (٥٤٣) غرامًا منها؛ وهو ربعُ الصَّاعِ، والصَّومُ الحقيقيُّ الَّذي يرادُ بهِ وجهُ اللهِ تعالى يقوِّي النَّفسَ على الصَّبرِ والحلمِ؛ وهو تجنُّبُ ما من شأنِه إثارةُ الغضبِ؛ لأنَّ «**الصَّوم نصفُ الصَّبرِ**»[٣]، «**والصَّبرُ نصفُ الإيمان**»[٤]؛ كما قالَ نبيُّ الإسلامِ ﷺ، لما روى النَّسائيُّ عن معاذِ بنِ جبلٍ في حديثِه الطَّويلِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ لهُ: «**ألا أَدُلُّكَ على أبوابِ الخيرِ؟**» قلتُ: بلى يا رسولَ اللهِ، قالَ: «**الصَّومُ جُنَّةٌ**[٥]»[٦] نعم، إنَّ الصَّومَ جُنَّةٌ، إنَّهُ جُنَّةٌ من النَّارِ،

---

(١) رواه مسلم، رقم: (١١١٦).

(٢) رواه البخاري، رقم: (٣١٥)، ومسلم، رقم: (٣٣٥).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) الجنة: الوقاية. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (١/٣٠٨).

(٦) رواه الترمذي، رقم: (٢٦١٦)، وقال: حديث حسن صحيح، والنسائي، رقم: (١١٣٩٤).

وجُنَّةٌ من عذابِ اللهِ، وجُنَّةٌ للمؤمنِ من سُوءِ الأخلاقِ.

ومن يُلاحظْ حالَ الصَّائمين في رمضانَ، وما هم عليهِ من تحرِّي الطَّاعةِ، وتحرِّي سُبُلِ الخيراتِ، وابتعادِهم عن المعاصي، ورغبتِهم في الإحسانِ يدركْ أنَّ الصَّومَ من أعظمِ أسبابِ الهدايةِ، ويدركْ معنى قولِه تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البَقَرَة: ١٨٤]، ويدركْ معنى قوله ﷺ: «**الصَّومُ جُنَّةٌ**»(١).

ولولا الصَّومُ ما عرفَ المترفون ألَمَ الجوعِ؛ ولهذا يُولِّدُ الصَّومُ في نفوسِ الصَّائمين الشَّفقةَ والإحسانَ والرَّأفةَ، ويمرِّنُهم على الرَّحمةِ الَّتي تدعو إلى الكرَم، ويطهِّرُ نفوسَهم من الشُّحِّ والبُخلِ.

وقد توهَّم كثيرٌ من النَّاسِ أنَّ الصَّوم يثيرُ الغضبَ، حتَّى إذا أفحشَ أحدُهم بالكلامِ، اعتذرَ عن نفسِه بأنَّه صائمٌ، أو عذروه بقولهم: لا عتبَ عليهِ إنَّه صائمٌ، وهذا وهمٌ باطلٌ؛ لأنَّهم لم يعرفوا حقيقةَ الصَّومِ بأنَّه جُنَّةٌ من الرَّذائلِ، ولم يسمعوا قولَ النَّبيِّ ﷺ: «**إذا كانَ يومُ صومِ أحدِكُم، فلا يرفُثْ ولا يصخَبْ ولا يجهَلْ، فإن شاتَمَه أحدٌ أو قاتَلَهُ، فليقلْ: إنِّي صائمٌ، إنِّي صائمٌ**»(٢) رواهُ مسلمٌ عن أبي هريرةَ رضي الله عنه، وكثيرٌ من النَّاسِ يترقَّبُ الغروبَ أشدَّ ترقُّبٍ، فإذا توارتِ الشَّمسُ بالحجابِ، انقضَّ على طعامِه انقضاضَ الوحشِ الجائعِ على فريستِه؛ فملأَ معدتَه بأنواعِ المأكولِ والمشروبِ؛ فكأنَّهُ لم يمسكْ نهارَه عن الأكلِ إلَّا ليستكثرَ منهُ ليلًا، فيقعَ في الأمراضِ، وليسَ هذا مقصودَ

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه البخاري، رقم: (١٩٠٤)، ومسلم، رقم: (١١٥١).

الصَّوم، بل تهذيبُ النَّفسِ وتطهيرُها منَ الأخلاقِ الموبوءةِ، وترويضُها على الطَّاعاتِ والصَّبرِ، وإعدادُها لسعادتي الدُّنيا والآخرة، ومن كان ذلكَ فعلُه، كان صومُه مخالفًا لما أرادَ اللهُ تعالى.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن ابنِ عبَّاسٍ، قالَ: «**كانَ رسولُ اللهِ ﷺ أجودَ النَّاسِ، وكان أجودَ ما يكونُ في رمضانَ حينَ يلقاهُ جبريلُ في كلِّ ليلةٍ من رمضانَ، فيدارسُهُ القرآنَ، وكانَ رسولُ اللهِ ﷺ أجودَ بالخيرِ من الرِّيحِ المرسَلَةِ**»[1]، وكانَ ﷺ يُكثرُ في رمضانَ من الصَّدقةِ والإحسانِ، ويحثُّ النَّاسَ عليهما، ويقولُ: «**مَنْ فَطَّرَ صائمًا، كُتِبَ لهُ مثلُ أجرِه، إلَّا أنَّه لا يَنْقُصُ من أجرِ الصَّائم شيءٌ**»[2] رواه التِّرمذيُّ عن زيدِ بنِ خالدٍ الجهنيِّ.

وكان يُكثرُ من تلاوةِ القرآنِ والصَّلاة والذِّكْرِ والاعتكافِ، ومن واجبِ المسلم أن يكونَ لهُ في نبيِّهِ أسوةٌ حسنةٌ في أقوالِه وأفعالِه؛ حتَّى يكونَ مسلمًا حقًّا.

وقد شدَّدَ بعضُ النَّاسِ على أنفسِهم؛ فظنُّوا غيرَ المُفطراتِ مُفطراتٍ؛ فكانَ بعضُهم إذا غلبهُ القيءُ قضى، وإذا دخلَ حلقَهُ غبارٌ أو دُخانٌ قضى، وبعضُهم استهانَ بالصَّومِ؛ فكانَ إذا حصلَ لهُ من ذلكَ شيءٌ أفطرَ، والحقيقةُ غيرُ ذلكَ: فمن ذَرَعَهُ القيءُ، أو دخلَ حلقَهُ غبارٌ أو دخانٌ من غيرِ قصدٍ، أو أنقذَ غريقًا فدخلَ جوفَه الماءُ، أو بالغَ في المضمضةِ والاستنشاقِ، فوجدَ طعمَ الماءِ في حلقِه لم

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٦)، ومسلم، رقم: (٢٣٠٨).

(٢) رواه الترمذي، رقم: (٨٠٧) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

يُفطِر، ولا يفطرُ كذلكَ إن جُرِحَ، أو ظهرَ من أَسنانِه الدَّمُ، أو تطيَّبَ في بدنِه أو ثوبِه، أو أكلَ أو شِربَ ناسيًا، أو أصبحَ جُنُبًا؛ فقد روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي هريرةَ رضي الله عنه أنَّ الرَّسولَ ﷺ قالَ: «**إذا نسيَ أحدُكم، فأكلَ أو شربَ، فليتمَّ صومَه؛ فإنَّما أطعمَهُ اللهُ وسقاهُ**»[(١)]، وروى الشَّيخان عن عائشةَ وأمِّ سلمةَ، قالتا: «كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يُصبحُ جُنبًا وهو صائمٌ، ثمَّ يغتسلْ»[(٢)]، وروى أحمدُ ومالكٌ عن بعضِ أصحابِ النَّبيِّ ﷺ: أنَّهُ قالَ: «لقد رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ يصبُّ على رأسِهِ الماءَ وهو صائمٌ من العطشِ أو من الحرِّ»[(٣)].

وقد أحلَّ اللهُ لنا الاتصالَ بنسائِنا لياليَ رمضانَ، ومخالَطتَهُنَّ مخالطةَ الثَّوبِ للجسدِ، فقالَ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾ [البَقَرَة: ١٨٧].

فقد اطَّلعَ على ما صدرَ منكُم أيَّام كان الاتِّصالُ بالنِّساءِ ليلةَ الصَّومِ محظورًا عليكُم وقد أُبيحَ ذلكَ، فلا مانعَ، وقد عفا اللهُ عمَّا سَلَفَ وتابَ عليكُم، فباشِروا نساءَكم، وابتغوا ما كتبَ اللهُ لكُم من النَّسلِ، وكلُوا واشربُوا من غروبِ الشَّمسِ، واعملُوا المباحاتِ كذلكَ حتَّى يتبيَّنَ لكُم الخيطُ الأبيضُ من الفجرِ، ثمَّ أمسكُوا إلى دخولِ

---

(١) رواه البخاري، رقم: (١٩٣٣)، ومسلم، رقم: (١١٥٥).
(٢) رواه البخاري، رقم: (١٩٢٦)، ومسلم، رقم: (١١٠٩).
(٣) رواه أبو داود، رقم: (٢٣٦٥)، وأحمد، رقم: (٢٣٢٢٣)، ومالك، رقم: (٢٢).

اللَّيلِ، وأوَّلُه غروبُ الشَّمسِ.

فمن هذا نفهمُ أنَّ السَّحورَ فضيلةٌ إسلاميَّةٌ مستحبَّةٌ تحصلُ ولو بأكلِ لُقمةٍ، أو شربِ جرعةِ ماءٍ، ووقتُه ما بينَ منتصفِ اللَّيلِ وطلوعِ الفجرِ، وروى أحمدُ عن أبي سعيدٍ الخدريِّ: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**السَّحُورُ أكلهُ بركةٌ فلا تَدَعُوه، ولو أن يَجْرع أحدُكم جرعةً من ماءٍ؛ فإنَّ اللهَ وملائكتَه يصلُّون على المتسحِّرين**»(١).

وبركةُ السَّحُورِ أنَّه يقوِّي الصَّائمَ وينشِّطُه، ويهوِّنُ عليهِ الصِّيامَ، ورُوي بسندٍ صحيحٍ عن عمرو بنِ ميمونٍ، قالَ: كانَ أصحابُ محمَّدٍ ﷺ أعجلَ النَّاسِ إفطارًا، وأبطأَهُم سُحورًا(٢).

إذن يُستحبُّ للصَّائمِ أن يعجِّلَ الفطرَ متى تحقَّقَ من غروبِ الشَّمسِ، فقد روى البخاريُّ ومسلمٌ عن سهلِ بنِ سعدٍ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «**لا يزالُ النَّاسُ بخيرٍ ما عَجَّلوا الفطرَ**»(٣).

ويُستحبُّ الدُّعاءُ عندَ الإفطارِ، فقد روى ابنُ ماجه عن عبدِ اللهِ بنِ عمرِو بنِ العاصِ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «**إنَّ للصَّائمِ عندَ فِطْره لدعوةً ما تُرَدُّ**»، وكانَ عبدُ الله بنُ عمرٍو إذا أفطرَ يقولُ: «**اللَّهمَّ إنِّي أسألُكَ برحمتِك الَّتي وسعَتْ كلَّ شيءٍ أن تغفرَ لي**»(٤)، وثبتَ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه يقولُ عندَ الفَطرِ: «**ذهبَ الظَّمأُ وابتلَّتِ العروقُ وثبتَ الأجرُ إن**

(١) رواه أحمد، رقم: (١١٠٨٦).
(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى، رقم: (٨١٢٧).
(٣) رواه البخاري، رقم: (١٩٥٧)، ومسلم، رقم: (١٠٩٨).
(٤) رواه ابن ماجه، رقم: (١٧٥٣).

شاءَ اللهُ تعالى»[١]، وكانَ يقولُ: «**اللَّهمَّ لكَ صمتُ، وعلى رزقك أفطرتُ»**[٢]، وروى أحمدُ والتِّرمذيُّ بسندٍ حسنٍ عن أبي هريرةَ: أنَّه ﷺ قالَ: «**ثلاثةٌ لا تُرَدُّ دعوتُهم: الصَّائمُ حين يُفطِرُ، والإمام العادلُ، ودعوةُ المظلومِ يرفعُها اللهُ تعالى فوقَ الغمامِ، وتُفتحُ لها أبوابُ السَّماءِ، ويقولُ الربُّ تباركَ وتعالى: وعِزَّتي! لأنصرَنَّكِ ولو بعد حينٍ»**[٣].

لهذا كانَ على الصَّائمِ أن يُكثرَ من سؤالِ ربِّه العفوَ والمغفرةَ، وأَحسنُ الدُّعاءِ: اللّهمَّ إنَّكَ عفوٌّ كريمٌ تحبُّ العفوَ، فاعفُ عنِّي.

---

(١) رواه أبو داود، رقم: (٢٣٥٧)، والنسائي، رقم: (٣٣١٥).

(٢) رواه أبو داود، رقم: (٢٣٥٨).

(٣) رواه الترمذي (٣٥٩٨)، وقال: هذا حديث حسن، وأحمد، رقم: (٨٠٤٣).

٣٣- قيامُ رمضانَ

سنَّةُ التَّراويحِ:

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي هريرةَ ﷺ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ قامَ رمضانَ إيمانًا واحتسابًا، غُفِرَ له ما تَقدَّمَ من ذنبِه**»[١]، يُرغِّبُ ﷺ في قيامِ رمضانَ من غيرِ أن يأمرَ فيهِ بعزيمةٍ؛ لكيلا يشدِّدَ على أمَّتِهِ.

وأخبرتنا عائشةُ ﷺ كيفَ شُرعَت التَّراويحُ، فقالت: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ خرجَ ليلةً من جوفِ اللَّيلِ، فصلَّى في المسجدِ، وصلَّى رجالٌ بصلاتِه، فأصبحَ النَّاسُ، فتحدَّثوا، فاجتمعَ أكثرُ منهم يعني: في الثَّانية، فصلَّوا معه، فأصبحَ النَّاسُ، فتحدَّثوا، فكثُرَ أهلُ المسجدِ في اللَّيلةِ الثَّالثةِ، فخرجَ رسولُ اللهِ ﷺ فصلَّى فصلَّوا بصلاتِه، فلمَّا كانت اللَّيلةُ الرَّابعة، عجزَ المسجدُ عن أهلِه، حتَّى خرجَ لصلاةِ الفجرِ، فلمَّا قضى الفجرَ، أقبلَ على النَّاسِ، فتشهَّدَ ثمَّ قالَ: «**فإنَّه لم يَخْفَ عليَّ مكانُكم، ولكن خشيتُ أن تُفرضَ عليكُم فتعجِزُوا عنها**» رواهُ البخاريُّ وغيرُه بلفظٍ مختلفٍ ومعناه واحد[٢].

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٣٧)، ومسلم، رقم: (٧٥٩).
(٢) رواه البخاري، رقم: (٩٢٤)، ومسلم، رقم: (٧٦١).

قالَ ابنُ شهاب: «**فتوفِّي رسولُ اللهِ ﷺ والأمرُ على ذلكَ، ثمَّ كانَ الأمرُ على ذلكَ في خِلافةِ أبي بكرٍ ﵁، وصدرًا من خلافةِ عمرَ ﵁**»(١).

وروى البخاريُّ عن عبدِ الرَّحمنِ بنِ القاري، قالَ: خرجتُ مع عمرَ بنِ الخطابِ ﵁ ليلةً في رمضانَ إلى المسجدِ، فإذا النَّاسُ أوزاعٌ متفرِّقون، يصلِّي الرَّجلُ لنفسِه، ويصلِّي الرَّجلُ فيصلِّي الرَّهطُ بصلاتِه، فقالَ عمر ﵁: لو جمعتُ هؤلاءِ على قارئٍ واحدٍ، لكانَ أَمْثَلَ ثمَّ عزمَ، فجمعَهم على أُبَيِّ بنِ كعبٍ، ثمَّ خرجتُ معهُ ليلةً أُخرى، والنَّاسُ يصلُّون بصلاةِ قاريهم، قال عمر: «نِعْمَتِ البدعةُ هذه، والَّتي تنامون عنها أفضلُ من الَّتي تقومون»، يريدُ: أنَّ الذين يصلُّونها آخرَ اللَّيلِ أفضلُ من الَّذين يصلُّونها في أوَّله(٢)، وهي سُنَّةٌ مؤكَّدةٌ للرِّجالِ والنِّساءِ.

قيلَ: كانَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ يأمرُ بها في رمضانَ، ويجعلُ للرِّجالِ إمامًا، وللنِّساءِ إمامًا، قال عَرْفَجَةُ: «فكنتُ أنا إمامَ النِّساءِ»(٣)، واختُلفَ في عددِها، هل هي ثمانٍ، أم إحدى عشرةَ، أم عشرون، والَّذي عليهِ الجمهور أنَّها عشرون ركعةً غيرَ الوترِ.

قالَ التِّرمذيُّ: وأكثرُ أهلِ العلمِ على ما رُوي عن عمرَ وعليٍّ، وغيرِهُما من أصحابِ النَّبيِّ ﷺ أنَّها عشرون ركعةً، وقالَ الشافعيُّ:

---

(١) أورده مالك في الموطأ، رقم: (٣٧٦/ ١١٢).

(٢) رواه البخاري، رقم (٢٠١٠).

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٤٢٧٧).

«هكذا أدركَتُ النَّاسَ بمكَّةَ يصلُّون عشرين ركعةً»[١].

ولم يردْ في قراءةِ التَّراويحِ شيءٌ، وإنَّما ثبتَ عن السَّلفِ الصَّالحِ أنَّهم كانوا يعتمدون على العصيِّ من طُولِ القيامِ.

قالَ الإمامُ أحمدُ بنُ حنبلٍ رحمهُ اللهُ: «يُقْرَأُ في القومِ في شهرِ رمضانَ ما يخفُّ على النَّاسِ ولا يشقُّ عليهم»[٢]، وقالَ القاضي عياض: «لا يُستحبُّ النُّقصانُ من ختمةٍ في الشَّهرِ؛ ليسمعَ النَّاسُ جميعَ القرآنِ، ولا يزيد على ختمةٍ؛ كراهيةَ المشقَّة عليهم»[٣].

ولو اتَّفقَ الجماعةُ على التَّطويلِ، كانَ أفضلَ، ومراعاةُ المأمومين أولى بشرطِ أَلَّا يُخلَّ بالصَّلاةِ، ويجبُ فيها الاطمئنانُ؛ لأنَّ الطُّمأنينةَ ركنُ الصَّلاةِ، روى الطَّبرانيُّ عن أبي مُوسى الأشعريِّ: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ رأَى رجلًا لا يُتمُّ ركوعَه، وينقرُ في سُجُودِه، فقالَ ﷺ: **«لو ماتَ هذا على حالته هذهِ، ماتَ على غيرِ ملَّةِ محمَّدٍ»**، ثمَّ قالَ: **«مثلُ الَّذي لا يُتِمُّ ركوعَه، وينقرُ في سجودِه مثلُ الجائعِ يأكلُ التَّمرةَ والتَّمرتينِ لا يُغنيان عنهُ شيئًا»**[٤].

ورأى حُذَيفةُ بنُ اليمانِ رجلًا يصلِّي، ولا يُتمُّ ركوعَه ولا سجودَه، فلمَّا قضى صلاتَه، قالَ لهُ حذيفةُ: **«ما صلَّيتَ، إنَّكَ لو مُتَّ**

---

(١) رواه الترمذي، رقم: (٨٠٦)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) انظر: المغني، لابن قدامة (٢/ ١٢٤).

(٣) انظر: الشرح الكبير، لابن قدامة (١/ ٧٥٠).

(٤) رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم: (٣٨٤٠).

على هذا مُتَّ على غيرِ سنَّةِ محمَّدٍ ﷺ»(١). وأدنى حدٍّ للطُّمأنينةِ أن يمكثَ بعدَ الانتقالِ بمقدارِ تسبيحةٍ، فلو ركعَ ثمَّ رفعَ اطمأنَّ، ثمَّ قالَ: ربَّنا لكَ الحمدُ، ثمَّ سجدَ، فإذا اطمأنَّ سبَّحَ للسُّجودِ، ثمَّ رفعَ منهُ ثمَّ يطمئنُّ ثمَّ يقولُ: ربِّ اغفرْ لي، ثمَّ يسجدُ وهكذا، أمَّا إذا كانت الصَّلاةُ خاليةً من الاطمئنانِ، فقد خلَتْ من الخشوعِ، ولا خيرَ في صلاةٍ خلَتْ من خُشوعٍ.

وروى البيهقيُّ وغيرُه عن عُبادةَ بنِ الصَّامتِ ﷺ، قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**من توضَّأَ فأبلغَ الوضوءَ، ثمَّ قامَ إلى الصَّلاةِ، فأتمَّ ركوعَها وسجودَها والقراءةَ فيها، قالت: حفظكَ اللهُ كما حفظتني، ثمَّ يصعدُ بها إلى السَّماءِ، ولها ضوءٌ ونورٌ، فتُفتحُ لها أبوابُ السَّماءِ حتَّى يُنتهى بها إلى اللهِ تعالى، فتشفعُ لصاحبِها، وإذا لم يُتِمَّ ركوعَها ولا سجودَها ولا القراءةَ فيها، قالت: ضَيَّعَكَ اللهُ كما ضيَّعتني، ثمَّ يُصعدُ بها إلى السَّماء، ولها ظُلْمَةٌ، فتُغلقُ دونَها أبوابُ السَّماءِ، ثمَّ تُلفُّ كما يُلفُّ الثَّوبُ الخَلَقُ، ويُضربُ بها وجهُ صاحبِها**»(٢).

وروى البزَّارُ عن عبدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ ﷺ، قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**يقولُ اللهُ ﷻ: إنَّما أتقبَّلُ الصَّلاةَ لمن تواضعَ بها لعَظَمَتي، ولم يَسْتَطِل على خَلْقي، ولم يَبِتْ مُصرًّا على معصيتي، وقطعَ النَّهارَ في ذكري، ورحمَ المسكينَ وابنَ السَّبيلِ والأرملةَ، ورحِمَ المصابَ، ذلكَ نورُهُ كنُورِ الشَّمسِ؛ أَكْلَؤُهُ بعزَّتي، وأستحفظُهُ ملائكَتي، وأجعلُ لهُ في الظُّلمة نورًا، وفي الجهالة حِلْمًا، ومثلُه في خلقي كمثلِ**

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٣٨٩).

(٢) سبق تخريجه.

الفردوسِ في الجنَّةِ»[(١)]، والاطمئنانُ في الصَّلاةِ دليلُ الإِيمانِ، وليس الإيمانُ بالشَّيءِ اليسيرِ، يدَّعيهِ الإنسانُ وهو خالٍ منهُ.

إنَّ الإيمانَ عقيدةٌ تدخلُ القلبَ، وترسخُ في النَّفسِ وتمازجُ الدَّمَ، وتخالطُ اللَّحمَ والعظمَ، ثمَّ تجري بعد ذلكَ في سائرِ الجسدِ، وتسيطرُ على الجوارحِ كلِّها، فتسخِّرُ لها الباطنَ والظَّاهرَ، وتظهرُ علامتُها في كلام الإنسانِ وحركاتِه وسكناتِه، وفي كلِّ شأنِه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾ [الأنفال: ٢-٤]، والمؤمنُ يعلمُ أنَّهُ خُلِقَ لعبادةِ خالقِهِ، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذّاريَات: ٥٦]؛ فهو إن وقفَ في صلاتِه، فهو واقفٌ أمامَ المُطَّلِعِ على سرِّهِ وجهرِه، والعالِم بخائنةِ الأعينِ وما تُخفي الصُّدورُ، فإذا خَشَعَ فيها، فقد أفلحَ كما أفلحَ المؤمنون الَّذينَ هم في صلاتِهم خاشعون؛ لأنَّ إيمانَه جعلَ من نفسِهِ رقيبًا على نفسِه في صلاتِه؛ لأنَّه يعبدُ اللهَ كأنَّهُ يراهُ، فإنْ لم يكنْ يراهُ فإنَّ اللهَ يراهُ.

ثمَّ إنَّ الصَّلاةَ الَّتي تكونُ بهذهِ الصِّفةِ تنهى صاحبَها عن الفحشاءِ والمُنكرِ؛ لأنَّها طَهَّرت نفسَ صاحبِها بالإيمانِ الَّذي يراقبُه أينما كانَ وحيثما توجَّه، ومَن كانت هذهِ صفتُه، كانَ معَ اللهِ في معبدِه ومتجرِه وبيتِه ووظيفتِه، ولا يرى شرعًا إلا شرعَ اللهِ، ولا قانونًا إلَّا قانونَه،

---

(١) رواه البزار، رقم: (٤٨٢٣).

ولا حُكمًا إلَّا حُكمَه، ولا طاعةً غيرَ طاعتِه، ولا يطيعُ المخلوقَ إلَّا في حدودِ طاعةِ اللهِ، ومَن كانَ مع اللهِ، كانَ اللهُ معهُ؛ قالَ اللهُ تعالى يصفُ الطَّائعين: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٣ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٤﴾ [النِّساء: ١٣-١٤].

بهذا الإيمانِ سجَّلَ التَّاريخُ صحائفَ بيضاءَ للمسلمين السَّابقين الَّذينَ جاهدُوا في سبيلِ اللهِ بأموالِهم وأنفسِهم، والتَّاريخُ لا يظلم أحدًا، سجَّلَ لهم صحائفَ لم يسبقْ لهُ أن سجَّلَ مثلَها، ولن يستطيعَ أن يسجِّلَ، فكانوا خيرَ أمَّةٍ أخرجتْ للنَّاسِ: يأمرون بالمعروفِ، وينهونَ عن المُنكرِ، ويؤمنون باللهِ، ويدلُّون النَّاسَ على اللهِ.

كلُّ ذلكَ نالُوه بإخلاصِهم مع ربِّهم: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطَّلاق: ٢-٣] أولئكَ الَّذينَ وقفُوا أمامَ اللهِ متذلِّلينَ ساجدينَ راكعينَ، ووقفُوا أمامَ عدوِّ اللهِ أشدَّاءَ، وأمامَ بعضِهم أحبَّاءَ رحماءَ.

أولئكَ الَّذينَ وقفُوا في الصَّلاةِ خاشعين مطمئنِّين، ووقفُوا أمامَ عدوِّهم غيرَ هَيَّابين ولا وَجِلين، وأحبُّوا لأخيهِم في الدِّينِ ما أحبُّوهُ لأنفسِهم.

وقد خلَّدَ اللهُ ذكرَهم في كتابِهِ العزيزِ بقولِهِ: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾ [الفتح: ٢٩].

٣٤- زكاةُ الفِطْرِ «الفطرة»

روى الشَّيخان عن ابنِ عمرَ رضي الله عنه، قالَ: «فرضَ رسولُ اللهِ ﷺ زكاةَ الفطرِ صاعًا من تمرٍ أو صاعًا من شعيرٍ على العبدِ والحرِّ، والذَّكرِ والأنثى والصَّغيرِ والكبيرِ من المُسلمين، وأمرَ بها أن تؤدَّى قبلَ خروجِ النَّاسِ إلى الصَّلاةِ»(١).

وزكاةُ الفطرِ هي الزَّكاةُ الَّتي تجبُ يومَ الفِطرِ من رمضانَ، وهي واجبةٌ على كلِّ مُسلمٍ مُكلَّفٍ أو غيرِ مكلَّفٍ ولو يتيمًا فيُخْرِج عنهُ وليُّه، وشُرعت في شعبانَ من السَّنةِ الثَّانيةِ للهجرةِ؛ لتكونَ طُهْرَةً للصَّائمِ ممَّا عسى أن يكونَ وقعَ فيهِ من لغوٍ ورفَثٍ، ولتكونَ يومَ العيدَ عونًا للفقراءِ والمعوزين من المسلمين.

روى أبو داود وابنُ ماجه عن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما، قالَ: «فرضَ رسولُ اللهِ ﷺ زكاةَ الفطرِ طُهْرةً للصَّائمِ من اللَّغوِ والرَّفَثِ، وطُعْمةً للمساكين، فمن أدَّاها قبلَ الصَّلاةِ، فهي زكاةٌ مقبولةٌ، ومَن أدَّاها بعدَ الصَّلاةِ، فهي صَدَقةٌ من الصَّدقاتِ»(٢).

ومصرِفُها كمصرفِ الزَّكاةِ، ولكنَّها للفقراءِ والمساكين أَوْلى؛ لقولِهِ ﷺ بأنَّها: «**طُعْمَةٌ للمساكين**»(٣)، ولما رواه البيهقيُّ عن ابنِ عمرَ

---

(١) رواه البخاري، رقم: (١٥٠٣)، ومسلم، رقم: (٩٨٤).

(٢) رواه أبو داود، رقم: (١٦٠٩)، وابن ماجه، رقم: (١٨٢٧).

(٣) رواه أبو داود، رقم: (١٦٠٩)، وابن ماجه، رقم: (١٨٢٧).

رضي الله عنهما: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «**أَغْنوهُم عن طوافِ هذا اليومِ**»[١]؛ فهي إذن لهم بمنزلةِ هديَّةِ العيدِ.

وتجبُ بغروبِ شمسِ آخرِ يومٍ من رمضانَ، وهذا ما عليهِ جمهورُ المسلمينَ، وقيلَ: تجبُ بطلوعِ فجرِ يومِ العيدِ؛ فمن أسلمَ بعدَ غروبِ شمسِ آخرِ يومٍ من رمضانَ أو ولِدَ، أو تزوَّجَ، أو كان مُعسرًا فأيسرَ، لم تلزمهُ الفطرةُ، وإنْ وجدَ قبلَ الغروبِ وجبتْ عليهِ، ومن ماتَ قبلَ الغروبِ أو أعسرَ أو طلَّقَ زوجتَه لم تجبْ عليهِ، وإن فعلَه بعدَه وجبت.

فتجبُ إذا فَضُلَ صاعٌ أو أقلُّ عن قوتِه وقوتِ عيالِه يومَ العيدِ وليلَتَهُ، بعد ما يحتاجُه لنفسِه، ولمن تلزمه مؤونتُه؛ من مسكنٍ وخادمٍ ودابَّةٍ وثيابٍ، ودارٍ يؤجِّرها لنفقتِه ونفقةِ عيالِه، وسائمةٍ يحتاجُ إلى نمائِها، وآلةِ صناعةٍ يحتاجُ إلى ربحِها، وكتبِ علمٍ يحتاجُها للنَّظرِ والحفظِ، وحُليِّ امرأتِه للبسِها، أو لكراءٍ يحتاجُ إليهِ.

فيلزمُ أن يُخرِجَ هذا الصَّاعَ الفاضلَ عن نفسِه؛ لحديثِ: «**ابدأْ بنفسِك فتصدَّقْ عليها، فإن فضلَ شيءٌ، فلأهلِك**»[٢] رواه النَّسائيُّ عن جابر بن عبد الله، ومن وجدَ مالًا يؤدِّي عن أُسرتهِ جميعِها، بدأَ بنفسِه، ثمَّ بزوجتِه ثمَّ بأمِّه ثمَّ بأبيه ثمَّ بأولادِه، ويبدأُ بالأنثى، ثمَّ الأقربَ بالأقربِ، ولا تجبُ على الجنينِ، وقيلَ: تُستحبُّ لهُ، ويلزمُ المسلمَ زكاةُ مَنْ يمونُهم من المسلمين، ولو كانَ خادمَ زوجتِه إذا

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى، رقم: (٧٧٣٩).

(٢) رواه مسلم، رقم: (٩٩٧)، والنسائي، رقم: (٢٣٣٨).

أنفقَ عليهِ؛ لما روي عن ابنِ عمرَ، عن رسولِ اللهِ ﷺ: «**أنَّه أمرَهم بصدقةِ الفطرِ عن الكبيرِ والصَّغيرِ، والحرِّ والعبدِ ممَّن تمونون، إلا ظِئْرًا أُجِّرَت بطعامِها وكسوتِها أو بدراهم، فلا تلزمُ من استأجرَها زكاتُها إلَّا إذا تبرَّع بها**»[١].

ومن تبرَّعَ بمؤونةِ مُسلم شهرَ رمضانَ كُلَّهُ لزمَته زكاتُه؛ لما رويَ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: «**أَدُّوا صدقةً عمَّن تمونون**»[٢] ولا تلزمُ الزَّوجَ زكاةُ الفطرِ عن زوجتِه النَّاشزِ وقتَ الوجوبِ، ولو حاملًا، ولا مَنْ عَقَدَ عليها ولم يتسلَّمْها، ومن لزمت زكاتُهُ، فأخرجَ عن نفسِه بإذنِه، أو بغيرِ إذنِه أجزأَ، ومن تبرَّعَ بزكاةٍ أو أكثرَ لغريبٍ بإذنِه أجزأَ، وإلَّا فلا.

والواجبُ فيها صاعٌ من تمرٍ أو بُرٍّ أو شعيرٍ، والصَّاعُ أربعةُ أمدادٍ، والمدُّ ملءُ كفَّي الرَّجلِ المعتدلِ، ومقدارُ الصَّاعِ من الحنطةِ النَّظيفةِ كما يأتي: بالوزنِ الهندي مئةٌ وخمسٌ وتسعون توله، وبالوزنِ الكويتيِّ أربعةُ أرطالٍ وسبعةُ أثمان الرَّطلِ؛ أعني: خمسةَ أرطالٍ إلَّا ثمن الرَّطلِ، وبالوزنِ العراقيِّ ستُّ مئةٍ وستةٌ وتسعون درهمًا، أو هو (٢) كيلو ومئةٌ وخمسةَ وسبعونَ غرامًا؛ فالإناءُ الَّذي يملؤُه هذا الموزون من الحنطةِ النَّقيةِ من كلِّ عيبٍ هو الصَّاعُ عندَ أحمدَ ومالكٍ والشَّافعيِّ، وأمَّا أبو حنيفةَ فالصَّاعُ عندَهُ تسعُ مئةٍ وعشرةُ دراهمَ كما ذكرَ نُعمان الآلوسيُّ رحمهُ اللهُ، وقالَ أبو حنيفةَ: الصَّاعُ من البرِّ بينَ اثنين، أو عنِ اثنين،

(١) رواه الدارقطني، رقم: (٢٠٧٨)، والبيهقي، رقم: (٧٦٨٥).
(٢) أورده العسقلاني في التلخيص الحبير، رقم: (٨٧٠).

ومن غيرِهِ عن واحدٍ؛ أي: أنَّ الصَّاعَ من الحنطةِ عن صدقتي فطرٍ، ومن غيرِها عن صدقة فطرٍ واحدةٍ، وهو مذهبُ أبي حنيفة فقط، كما أجازَ أبو حنيفة دفعَ الثَّمنِ، ولم يجزْه غيرُه، وقالَ الحنفيَّةُ: إنَّ الثَّمنَ أنفعُ، لكن دفعُ الثَّمنِ يُذهبُ معنويَّةَ صدقةِ الفطرِ وهيبتَها، وإظهارَ شأنِها، واشتغالَ النَّاسِ بها، واستقبالَ العيدِ بمظهرِها ومكانتِها، وكثيرٌ من العلماءِ المسلمين في هذا اليومِ يرَون رأيَ الإمامِ أبي حنيفةَ.

وقالَ الشَّافعيَّةُ والمالكيَّةُ: الأفضلُ إخراجُها من غالبِ قوتِ البلدِ، ولا بأسَ من إعطاءِ الجماعةِ فطرةَ الواحدِ، أو إعطاءِ الواحدِ فطرةَ الجماعةِ، وللفقيرِ إخراجُ صدقةِ الفطرِ عنهُ، وإعطاؤها لمن أعطاها إيَّاهُ، ما لم يكنْ في الأمرِ حيلةٌ، وهكذا عاملُ الدَّولةِ إذا اجتمعَت عندَه الصَّدقاتُ، فردَّ بعضَها إلى أهلِها.

ولا يجوزُ إخراجُ المعيبِ والمسوِّسِ والمبلولِ والقديمِ الَّذي تغيَّر طعمُه، روى الإمامُ أحمدُ وأبو داود عن عبدِ اللهِ بنِ ثعلبةَ، عن رسولِ اللهِ ﷺ أنَّهُ قالَ: «**صدقةُ الفطرِ صاعٌ من تمرٍ أو صاعٌ من شعيرٍ، أو صاعٌ من بُرٍّ؛ عن كلِّ رأسٍ صغيرٍ أو كبيرٍ، حرٍّ أو عبدٍ، ذكرٍ أو أنثى، غنيٍّ أو فقيرٍ؛ أمَّا غنيُّكم فيزكِّيه اللهُ، وأمَّا فقيرُكم فيردُّ اللهُ عليهِ أكثرَ ممَّا أعطى**»[1].

---

(١) رواه أبو داود، رقم: (١٦١٩)، أحمد، رقم: (٢٣٦٦٤).

٣٥- الحجُّ

قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران: ٩٦-٩٧].

ومعناهُ: أنَّ الحَجَّ فرضٌ للهِ على النَّاسِ مَنِ استطاعوا إليهِ واسطةً من زادٍ ومركَبٍ، ومصرفٍ لهُ ولعيالهِ بالمعروفِ، وصحَّةٍ وقدرةٍ على السَّفرِ، ومن كفرَ فأنكرَ هذا الفرضَ، أو تقاعسَ عنهُ مع الاستطاعة إهمالًا منه فاللهُ غنيٌّ عنهُ.

فرضَ اللهُ الحجَّ على الأمَّةِ الإسلاميَّة بهذهِ الآيةِ في السَّنةِ الخامسةِ من الهجرةِ، وجعلهُ النَّبيُّ ﷺ خامسَ أركانِ الإسلامِ، وخصَّصَ فرضيَّتَهُ على من استطاعَ إليهِ سبيلًا: وهو من وجدَ سَعَةً وصحَّةً تمكِّنانِه من الوصولِ إليهِ، فقد روى البيهقيُّ عن أبي أمامةَ الباهليِّ رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قالَ: «**مَن لم تحبسْهُ حاجةٌ ظاهرةٌ، أو مرضٌ حابسٌ، أو سلطانٌ جائرٌ، ولم يحجَّ؛ فليمتْ إن شاء يهوديًّا، وإن شاء نصرانيًّا**»[1]، وقد تكلَّمَ العلماءُ في شرحِ هذا الحديثِ، وقالَ بعضُهم: إنَّ من أخَّرَ الحجَّ مع الاستطاعةِ، كانَ كاليهودِ والنَّصارى

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٣٦٩٣).

في تأخيرِهم طاعةَ ربِّهم، حيثُ أُمروا بأوامرَ فأمهلوها وأهملوها، ومن وجدَ سَعَةً وصحَّةً، ولم تحبسهُ الحاجةُ الظَّاهرةُ، ولا المرضُ الحابسُ، ولا السُّلطانُ الجائرُ، ولا خوفُ الطَّريقِ، فلمْ يحجَّ فقد أهملَ، ولا يسلمُ من كونِه تركَ الرُّكنَ الخامسَ من الأركانِ الَّتي بُني عليها الإسلامُ استخفافًا وإهمالًا.

وروى التِّرمذيُّ عن عليِّ بنِ أبي طالبٍ كرَّم اللهُ وجهَهُ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «**مَنْ مَلَكَ زادًا وراحلةً تبلِّغهُ إلى بيتِ اللهِ، ولم يَحُجَّ، فلا عليهِ أن يموتَ يهوديًّا أو نصرانيًّا، وذلكَ أنَّ اللهَ تعالى يقول:** ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عِمرَان: ٩٧]»(١).

وفي الأثرِ ما رواهُ سعيدُ بنُ منصورٍ في «سننه»: أنَّ عمرَ بنَ الخطَّابِ رضي الله عنه قالَ: «لقد همَمْتُ أن أبعثَ رجالًا إلى هذهِ الأمصارِ، فينظروا كلَّ مَنْ كانَ لهُ جِدَةٌ، ولم يَحُجَّ، فيضربوا عليهم الجزيةَ؛ ما هم بمسلمين»(٢).

إنَّ اللهَ جعلَ بيتَه حرمًا آمنًا، ومثابةً للنَّاسِ محلَّ كسبِ المثوبةِ، وأمنًا ومباركًا وهدىً للعالمين، جعلَ فيهِ من الآياتِ البيِّناتِ الَّتي ذكرَها في الآيةِ الكريمةِ: ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [آل عِمرَان: ٩٧]، وجعلَه حَرَمًا لا يُسفكُ فيهِ دمٌ، ولا يُعْضَدُ شجرُه، ولا يُخْتَلى

---

(١) رواه الترمذي، رقم: (٨١٢)، وقال: هذا حديث غريب.

(٢) انظر: نصب الراية، للزيلعي (٤/ ٤١١)، وهو من رواية الحسن عن عمر، وهو لم يسمع منه.

خَلاه[١]، ولا يُنَفَّرُ صيدُه، وجعلَ قصدَه مكفِّرًا للذُّنوبِ، ماحيًا للخطايا، وجعلَ العبادةَ الَّتي تؤدَّى فيهِ لا تؤدَّى في غيرِه؛ كالطَّوافِ والسَّعي والوقوفِ والحلْقِ، والاستلامَيْنِ، وجعلَ استلامَ الحجرِ الأسودِ رمزًا لمبايعةِ اللهِ تعالى على إقامةِ دينِه، والإخلاصِ لهُ فيهِ، وجعلَ الصَّلاةَ فيهِ بمئةِ ألفِ صلاةٍ فيما سواهُ.

هذا البيتُ الَّذي هو أوَّلُ بيتٍ وُضعَ للنَّاسِ بمكَّةَ، فرضَ اللهُ حجَّهُ على كلِّ مُسلمٍ عاقلٍ بالغٍ مُستطيعٍ الزَّادِ والرَّاحلةِ، ونفقةَ ذهابِه وإيابِه، ونفقةَ عيالِه إلى ما بعدِ عودتِه، وأن تكونَ هذهِ النَّفقةُ فاضلةً عن ديونِه وحوائجِه الضَّروريَّةِ كما ذكرَ الفقهاءُ.

روى البيهقيُّ عن أبي سعيدٍ الخدريِّ ﵁ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**يقولُ اللهُ ﷻ: إنَّ عبدًا صحَّحتُ له جسمَه، ووسَّعْتُ عليهِ في المعيشةِ تمضي عليهِ خمسةُ أعوامٍ لا يَفِدُ إليَّ لمحرومٌ**»[٢].

أمَّا الأعمالُ الَّتي يؤدِّيها الحاجُّ هناكَ، فيجبُ أن تكونَ مظهرَ التَّذلُّلِ والخضوعِ؛ اقتداءً بمعاملةِ المُصطفى ﷺ، ولقولِه: «**خُذُوا عنّي مناسِكَكُم**»[٣]، والمناسكُ هي أعمالُ الحجِّ.

روى ابنُ ماجه والتِّرمذيُّ عن أنسِ بنِ مالكٍ ﵁، قالَ: «**حَجَّ النَّبيُّ ﷺ على رَحْلٍ رَثٍّ وقَطِيفةٍ خَلِقَةٍ تُساوي أربعةَ دراهمَ أو لا**

---

(١) الخلا: النبات الرطب الرقيق ما دام رطبًا، واختلاؤه: قطعه. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير(٢/ ٧٥).

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٣٨٣٧).

(٣) رواه مسلم، رقم: (١٢٩٧).

تساوي، ثم قالَ: **اللَّهمَّ حجَّةً لا رياءَ فيها ولا سُمْعةَ**»[(١)].

ويجبُ أن يكونَ أداءُ هذهِ الأعمالُ برهانًا قويًّا على تمامِ الامتثالِ لأوامرِ اللهِ ﷻ في كلِّ ما أمرَ بهِ، سواءٌ أدركَ النَّاسُ حكمتَه، أم لم يُدركُوا؛ لأنَّ عبادَ اللهِ المخلصين يعتقدون أنَّ اللهَ ﷻ لم يشرعْ أمرًا إلَّا وفيهِ الخيرُ والمصلحةُ، وأنَّهُ المحيطُ علمُهُ بكلِّ شيءٍ، يعلمُ من ذلكَ ما لا نعلمُ.

روى البيهقيُّ عن أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه، قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**الحُجَّاجُ والعُمَّارُ وَفْدُ اللهِ، يُعطيهم ما سألوا، ويستجيبُ لهم ما دَعَوْا، ويُخلف عليهِم ما أنفقوا، الدِّرهمَ ألفَ ألفَ درهم**»[(٢)]، وروى الشَّيخان وأبو داود عن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما، قالَ: «إنَّ النَّاسَ في أوَّلِ الحجِّ كَانوا يتبايعون بمنًى وعرفةَ، وسوقِ ذي المجاز، ومواسمِ الحجِّ، فخافوا البيعَ وهم حُرُمٌ، فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]»[(٣)]؛ أي: في مواسمِ الحجِّ.

وروى أبو داود عن أبي أميمةَ التَّميميِّ رضي الله عنه، قالَ: كنتُ رجلًا أكرِّي في هذا الوجهِ؛أي: أؤجِّر الرَّواحلَ للحَجِّ وكانَ ناسٌ يقولون: إنَّه ليسَ لكَ حَجٌّ، فلقيتُ ابنَ عمرَ رضي الله عنه، فسألتُه، فقالَ: أليسَ تُحْرِم

(١) رواه الترمذي في «الشمائل» (صـ١٩١)، وابن ماجه، رقم: (٢٨٩٠).
(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٣٨١٠).
(٣) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم: (١٧٧١)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وأبو داود، رقم: (١٧٣٤).

وتُلبِّي، وتطوفُ في البيتِ، وتفيضُ من عرفاتٍ، وترمي الجِمار؟ قلتُ: بلى، قالَ: لكِ حجٌّ، سألَ رجلٌ رسولَ اللهِ ﷺ عن ذلكَ، فسكتَ عنهُ حتَّى نزلتْ هذه الآية: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ﴾ [البَقَرَة: ١٩٨]؛ فأرسلَ إليهِ، وقرأَها عليهِ، وقالَ: «لكَ حجٌّ»(١).

فهذا ابنُ عمرَ رضي الله عنه عندما سألَه التَّميميُّ أجابَه بالجوازِ، وأسمعهُ الحديثَ، واللهُ ﷻ لا يريدُ بالنَّاسِ عسرًا، وإنَّما يريدُ بهم اليسرَ، ولا مانعَ من أن يكتسبَ الإنسانُ في ذهابِه وإيابِه إلى الحجِّ ومن الحجِّ، وحجُّه صحيحٌ، وإن كانَ الأفضلُ والأكملُ أن يتفرَّغَ عن كلِّ شيءٍ من أعمالِ الدُّنيا، ويُقْبِلَ في حجِّه على اللهِ ظاهرًا وباطنًا.

روى أحمدُ عن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما، عن النَّبيِّ ﷺ، قالَ: «**من أرادَ الحجَّ، فليتعجَّلْ؛ فإنَّه قد يمرضُ المريضُ، وتضلُّ الرَّاحلةُ، وتعرِضُ الحاجةُ**»(٢)، قالَ العلماءُ: في هذا الحديثِ دليلٌ على وجوبِ فوريَّةِ الحجِّ عندَ الاستطاعةِ، وقالَ بعضُهم: إنَّه ﷺ كانَ مستطيعًا يومَ فُرِضَ الحجُّ في السَّنةِ الخامسةِ أو السَّادسةِ، وإنَّهُ ﷺ حجَّ سنةَ عشرٍ، وفي الحديثِ المتقدِّم قولُه ﷺ: «**تمضي عليهِ خمسةُ أعوامٍ لا يفدُ إليَّ لمحرومٌ**»(٣) دليلٌ على التَّراخي.

---

(١) رواه أبو داود، رقم: (١٧٣٣).

(٢) رواه أبو داود، رقم: (١٧٣٢)، وابن ماجه، رقم: (٢٨٨٣)، وأحمد، رقم: (١٨٣٤).

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٣٨٣٧).

روى البخاريُّ: أنَّ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: يا رسولَ اللهِ! نرى الجهادَ أفضلَ العملِ، أفلا نجاهدُ؟ قال: «**لا، لكن أفضلُ الجهادِ حَجٌّ مبرورٌ**»[١] وذلك للنِّساءِ؛ لأنَّ السَّائلةَ منهنَّ، أمَّا الرِّجالُ، فالجهادُ لهم أفضلُ؛ بدليلِ قولِ النَّبيِّ ﷺ: «**لغَدْوَةٌ في سبيلِ اللهِ أو رَوْحَةٌ خيرٌ من الدُّنيا وما فيها**»[٢] رواه البخاريُّ عن أنسٍ، وروى البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي هريرةَ: أنَّ الرَّسولَ ﷺ قالَ: «**والَّذي نفسي بيده! لا يُكْلَمُ أحدٌ في سبيل الله - والله أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَم في سبيله - إلَّا جاء يومَ القيامةِ واللَّونُ لونُ الدَّم، والرِّيحُ ريحُ المسك**»[٣].

وروى البزَّارُ عن حذيفةَ بنِ اليمانِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «**الإيمانُ ثمانيةُ أَسْهُم: الإسلامُ سهمٌ، والصَّلاةُ سهمٌ، والزَّكاةُ سهمٌ، وصومُ رمضانَ سهمٌ، وحجُّ البيتِ سهمٌ، والأمرُ بالمعروفِ سهمٌ، والنَّهيُ عن المنكرِ سهمٌ، والجهادُ في سبيلِ اللهِ سهمٌ، وقد خابَ مَنْ لا سهمَ لهُ**»[٤].

وثبتَ في أحاديثَ عدَّةٍ: أنَّ كثيرًا من الأنبياءِ حجُّوا الكعبةَ فمن ذلكَ ما رواهُ أحمدُ، وغيرُه عن ابنِ عبَّاسٍ، قالَ: لمَّا مرَّ رسولُ اللهِ ﷺ بوادي عُسْفَانَ حينَ حجَّ قالَ: «**يا أبا بكرٍ! أَيُّ وادٍ هذا؟**»، قالَ: وادي عُسفان، قالَ ﷺ: «**لقد مرَّ به هودٌ وصالحٌ على بَكَراتٍ خَطْمُها**

(١) رواه البخاري، رقم: (١٤٤٨).
(٢) رواه البخاري، رقم: (٢٧٩٢)، ومسلم، رقم: (١٨٨٠).
(٣) رواه البخاري، رقم: (٢٨٠٣)، ومسلم رقم: (١٨٧٦).
(٤) رواه البزار، رقم: (٢٩٢٧).

اللِّيف، أُزْرُهُمُ العباءُ، وأَرديتهم النِّمارُ، يَحُجُّون البيت العتيق»[(١)].

وعن أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه، قالَ: قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**لقد مَرَّ بالرَّوْحاء سبعون نبيًّا، فيهم نبيُّ الله موسى، حُفَاةً، عليهم العَبَاءُ، يَؤُمُّون بيتَ الله العتيقَ**»[(٢)]، وقال لمَّا مرَّ بثنيَّة هَرْشَى: «**كأنِّي أنظرُ إلى يونسَ على ناقةٍ حمراءَ جَعْدَةٍ، خِطَامها لِيفٌ، وهو يلبِّي، وعليه جُبَّةُ صوفٍ**»[(٣)].

---

(١) رواه أحمد، رقم: (٢٠٦٧).

(٢) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٣٤٧٢٠).

(٣) رواه مسلم، رقم: (١٦٦).

٣٦- الحجُّ عرفة

روى أحمدُ والحاكمُ والبيهقيُّ، وغيرُهم عن عبدِ الرَّحمنِ بنِ يعمر: أنَّهُ قالَ: أتيتُ النَّبيَّ ﷺ وهو بعرفةَ، فجاءَ نفرٌ من أهلِ نجدٍ، فنادى: يا رسولَ الله! كيف الحجُّ؟ فأمرَ النَّبيُّ ﷺ رجلًا فنادى في النَّاسِ: «**الحَجُّ عَرَفَةُ، مَنْ جاءَ قبلَ صلاةِ الصُّبحِ من ليلةِ جَمْعٍ، فقد تَمَّ حَجُّه، أيامُ مِنًى ثلاثةٌ، فمن تعجَّلَ في يومين، فلا إثمَ عليهِ، ومن تأخَّرَ، فلا إثمَ عليهِ**»[(١)] نفهم من هذا الحديثِ أنَّ الحجَّ هو الوقوفُ بعرفةَ، وأنَّ مَن فاتَهُ الوقوفُ بعرفةَ، فقد فاتَه الحجُّ، وأنَّ وقتَ الوقوفِ بعرفة يبدأُ بطلوعِ شمسِ يوم عرفةَ، وهو تاسعُ ذي الحجَّةِ، وينتهي بطُلوعِ فجرِ يوم العيدِ؛ فمن أدركَ عرفةَ نهارًا، وجبَ عليهِ أن يظلَّ بها، ويُفيضَ مع النَّاسِ، ومن أدركَها بعدَ الغروبِ، كفاهُ المرورُ بها، وعرفةُ كلُّها موقفٌ إلَّا بطنَ عُرنةَ، وحدودُها معروفةٌ محددَّةٌ معلَّمةٌ بعلائمَ ظاهرةٍ، يتعهَّدُها ولاةُ الأمورِ من المسلمين جيلًا بعدَ جيلٍ.

في يومِ عرفةَ تجتمعُ الألوفُ المؤلَّفةُ من المسلمينَ على اختلافِ الطَّبقاتِ، من مختلفِ الأجناسِ واللُّغاتِ والبلادِ، خُشَّعًا خُضَّعًا،

---

(١) رواه الترمذي، رقم: (٨٨٩)، وأحمد (١٨٧٧٣)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم: (١٧٠٣)، والبيهقي، رقم: (٩٨١٢).

متحابِّين في اللهِ، متجرِّدين من فاخرِ الرِّياشِ، مُتَّحدين في لباسِهم وقلوبِهم ووجهتِهم إلى ربِّهم، قد فارقوا ديارَهم لا طمعًا إلَّا في رحمةِ اللهِ، يدعون سميعًا قريبًا يبتغون مرضاتَهُ، لا فرقَ بينَ غنيِّهم وفقيرِهم، وملكِهم وسوقتِهم، وأبيضِهم وأسودِهم، وحُرِّهم وعبدِهم، وكلُّهم قد أطلقَ لسانَه بـ: لَبَّيْكَ اللهمَّ لبَّيك، لبَّيكَ لا شَريكَ لكَ لبيكَ، إنَّ الحمدَ والنِّعمةَ لكَ والمُلك، لا شريكَ لكَ.

إنَّ من شهدَ تلكَ المشاهدَ، وأدَّى تلكَ الأعمالَ بنيَّةٍ خالصةٍ، وسريرةٍ طاهرةٍ، لا شكَّ أنَّهُ يفوزُ بالمطلوبِ، ودليلُ ذلكَ قولُ النَّبيِّ ﷺ: «**مَنْ حَجَّ فلم يَرْفُثْ ولم يَفْسُقْ، خَرَجَ من ذنوبه كيومِ وَلَدَتْهُ أُمُّه**»[1] رواه الشَّيخان عن أبي هريرةَ.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٧-٢٨] فرضَ اللهُ الحجَّ على الأمَّةِ الإسلاميَّةِ لمنافعِ الأمَّةِ الإسلامية أفرادًا وجماعاتٍ، ولو أدركَ المسلمون تلكَ المنافعَ، لكانت كلمتُهم هي العليا، ولكانوا في حصنٍ حصينٍ من اعتداءِ الكافرين المستعمرين، وتسلُّطِ طوفان الغربيين الَّذين أذلُّوهم، وحرموهم من معاني دينِهم، ولذَّةِ تمسُّكِهم بهِ، وهتكوهم بما بثُّوه فيهِم من ملاذَّ سطحيَّةٍ، ومفاتنَ نفسيَّةٍ، ومساوئَ خُلقيَّةٍ.

ولو أدركَ النَّاسُ معنى تلكَ المنافعِ وعرفوها، لقبضوا على الدُّنيا

(١) رواه البخاري، رقم: (١٥٢١)، ومسلم، رقم: (١٣٥٠).

بأكفِّهم، وسَيَّروا أهلَها حسبَ إرادتِهم، وعمَّروها كما عمَّرها الأسلافُ الأوَّلون، ولكنَّ النَّاسَ في غفلةٍ ساهون، وكم من آيةٍ في السَّمواتِ والأرضِ يمرُّون عليها وهم عنها معرضُون!

أسفي على المسلمينَ الَّذين غَفَلوا عن دينِهم، واشتغلوا بما لا يفيدُ، وغفلوا عن قرآنِهم، وتركوا مُثُلَهُ العليا، وجعلوا من الكافرِ الغربيِّ الأجنبيِّ عنهم في دينِهم وشكلِهم مَثَلًا أعلى لهم، يقلِّدونهُ في أقوالِه وأفعالِه، ولقد قالَ الكافرُ: إنَّ الدِّينَ الإسلاميَّ يمنعُ أهلَهُ من الرُّقيِّ، ويحرِّمُ عليهِم المدنيَّة، فقالوا مثلَه، والحقُّ غيرُ ذلكَ، بل إنَّ الدِّينَ الإسلاميَّ هو الَّذي مدَّنَ العربَ، ونصرَ المسلمين، وجعلَ منهم رعاةً للأممِ بعدَ أن كانوا رعاةَ الإبلِ والغنمِ، فأنشؤوا دولةً بسطتْ نفوذَها على الشَّرقِ من أقصاهُ إلى أدناه؛ لم يأتِ التَّاريخُ بمثلِها، ولن يأتيَ، وما ذلكَ إلَّا لأنَّ دينَهم دينُ مدنيَّةٍ، وأنَّ دينَهم دينُ يسرٍ لا عُسْرَ فيهِ، دينُ عدلٍ لا ظُلمَ فيهِ، دينُ حقٍّ لا باطلَ فيهِ، دينُ هدايةٍ لا ضلالةَ فيهِ، دينُ رشدٍ لا طُغيانَ فيهِ.

ولـمَّا تمسَّكوا بهِ، مَكَّنَ اللهُ لهم في الأرضِ، ولـمَّا ضيَّعوه، ضيَّعَهم اللهُ، فصارُوا طُعْمَةً لأعدائِهم، لو عادُوا لدينِهم، لَعَادَ لهم عزُّهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٩﴾ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿١١﴾﴾ [محمَّد: ٧-١١]، وقالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ

وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف: ٩٦].

روى الإمامُ مسلمٌ عن عائشةَ ﵂، قالت: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**ما من يومٍ أكثرُ من أن يُعتقَ اللهُ فيه عبدًا من النَّارِ من يومِ عَرَفَةَ**»(١).

وهو اليومُ المشهودُ الَّذي مَنَّ اللهُ فيهِ على عبادِه المسلمين بإكمالِ دينِهم، ورضيَ فيهِ لهم الإسلامَ دينًا؛ فقالَ تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المَائدة: ٣].

وردَ في الحديثِ عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ ﵁، قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**إذا كانَ يومُ عرفةَ يَنْزِلُ اللهُ تباركَ وتعالى إلى السَّماءِ الدُّنيا، فيُباهي بهم الملائكةَ، فيقولُ: انظرُوا إلى عبادي أتوني شُعْثًا غُبْرًا ضاجِّين من كُلِّ فَجٍّ عميقٍ، أُشْهِدُكم أنِّي قد غفرتُ لهم، فتقولُ الملائكةُ: يا ربِّ! فلانٌ كان يرهق، وفلان وفلانة، فيقولُ اللهُ ﷿: قد غفرتُ لهم**»، قالَ لهم رسولُ اللهِ ﷺ: «**فما من يوم أكثرُ عتيقًا من النَّار من يوم عرفة**» روي في «شرح السُّنَّة»، ورواه ابنُ حبان والبيهقيُّ بنحو لفظه(٢).

وقد حجَّ النَّبيُّ ﷺ حجَّةَ الوداعِ في السَّنةِ العاشرةِ من الهجرةِ، ولم يحجَّ غيرَها قبلَها ولا بعدَها، وفيها قالَ ﷺ: «**خُذوا عني**

---

(١) رواه مسلم، رقم: (١٣٤٨).

(٢) رواه ابن حبان (٣٨٥٣)، والبيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٤٠٦٨)، والبغوي في شرح السنة، رقم: (١٩٣١).

مناسِكَكم»(١)، ولما كان يومُ التَّرويةِ، وهو اليومُ الثَّامن، توجَّه إلى منى، وأهلَّ بالحجِّ، وأمرَ النَّاسَ بذلكَ، روى مسلمٌ عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ ﷺ، من حديثهِ الطَّويلِ الَّذي ذكرَ فيهِ قصَّةَ حجَّةِ الوداعِ، قالَ جابرُ بنُ عبد الله: فلمَّا صلَّى الفجرَ، ومكثَ قليلًا حتَّى طلعتِ الشَّمسُ، أمرَ بقُبَّةٍ من شعرٍ تُضرب لهُ بنَمِرَةَ، فنزلَ بها، حتَّى إذا زاغتِ الشَّمسُ، أمرَ بالقَصْواء، فرُحِلت لهُ، فأتى بطنَ الوادي، فخطبَ النَّاسَ، وقال: «**إنَّ دماءَكم وأموالَكم حرامٌ عليكُم كحرمةِ يومِكم هذا، في شهرِكم هذا، في بلدِكم هذا، ألا كلُّ شيءٍ من أمرِ الجاهليَّةِ تحتَ قدميَّ موضوعٌ، ودماءُ الجاهليَّة موضوعةٌ، وربا الجاهليَّةِ موضوعٌ، وأوّلُ ربًا أَضَعُ من ربانا ربَا عَمِّي العبَّاسِ بنِ عبدِ المُطَّلِب؛ فإنَّه موضوعٌ كُلُّه، واتَّقوا اللهَ في النِّساء؛ فإنَّكم أخذتموهنَّ بأمانةِ اللهِ، واستَحْلَلْتم فروجَهُنَّ بكلمةِ اللهِ، ولكم عليهنَّ أَلَّا يوطئْنَ فُرُشَكُم أحدًا تكرهونه، فإنْ فعلْنَ ذلكَ، فاضربوهنَّ ضربًا غيرَ مُبَرِّحٍ، ولهنّ عليكم رزقُهنَّ وكسوتُهنَّ بالمعروف، وقد تركتُ فيكم ما لن تَضِلُّوا إنِ اعتصمْتُم به: كتابُ اللهِ، وأنتم تُسألون عنِّي، فما أنتم قائلون؟**»، قالوا: نشهدُ أنَّك قد بلَّغتَ وأدَّيتَ ونصحتَ، فقالَ بإصبعِه السَّبَّابَةِ يرفعُها إلى السَّماءِ، وينكتها - أي: يشير بها - إلى النَّاسِ: «**اللَّهمَّ اشهدْ، اللَّهمَّ اشهدْ، اللَّهمَّ اشهدْ**»، ثمَّ أذَّنَ بلالٌ، ثمَّ أقام فصلَّى الظُّهر، ثمَّ أقامَ فصلَّى العصرَ، ولم يصلِّ بينهما شيئًا،

(١) رواه مسلم، رقم: (١٢٩٧)، والنسائي، رقم: (٤٠٥٤)، وأبو داود، رقم: (١٩٧٠).

ثمَّ ركبَ حتَّى أتى الموقفَ، فجعلَ بطنَ ناقتهِ القصواءِ إلى الصَّخرات، وجعل حبلَ المشاة بينَ يديه - مستطيلٌ من الرَّمل -، واستقبلَ القِبلةَ؛ فلم يزل واقفًا حتَّى غربتِ الشَّمسُ، وذهبت الصُّفرة قليلًا حتَّى غابَ القرصُ، وأردفَ أسامةَ خَلْفَهُ، ودفع... حتَّى أتى المزدلفةَ، فصلَّى بها المغربَ والعشاءَ بأذانٍ واحدٍ وإقامتين» إلى آخر الحديث.(١)

وروى التِّرمذيُّ عن عمرِو بنِ شُعيبٍ عن أبيه، عن جدِّه، عن النّبيِّ ﷺ قالَ: «**خيرُ الدُّعاءِ دعاءُ يومِ عَرَفَةَ**»(٢).

---

(١) رواه مسلم، رقم: (١٢١٨).
(٢) رواه الترمذي، رقم: (٢٥٨٥).

٣٧- الأضحية والقُرْبان

روى الحاكم عن أبِي هريرةَ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**من وجد سَعَةً لِأَنْ يُضَحِّيَ فلم يُضَحِّ، فلا يحضُرْ مُصَلَّانا**»(١)، والأُضْحِيَةُ أو الضَّحِيَّةُ عبادةٌ عريقةٌ في القِدَم، وتُسمَّى: قربانًا، وسمَّاها الإسلام: أُضْحِيَة، أو ضَحِيَّة.

وأَوَّلُ ضحيَّة عرفها التَّاريخُ قربانُ ابني آدم ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ﴾ [المَائدة: ٢٧]، ثمَّ كان سيِّدنا إبراهيم عليه السَّلام يتقرَّب إلى الله بالقرابين حتَّى أمره الله - برؤيا رآها في المنام - بذبح ولده، ولـمَّا هَمَّ بذبحه أمره أن يفتديه بكبشٍ يذبحه قربانًا لله، وكانت القرابينُ تُحرق وتُدفن، ولـمَّا جاء الإسلام جعلها صدقاتٍ تُفرَّق على الفقراء.

والذَّبيحةُ الَّتي يُتقرَّب بها إلى الله هي واحدةٌ من ثلاثةٍ:

أوَّلها الأُضحية: وتُذبَحُ في عيد الأضحى، ووَرَدَ في فضلها أحاديثُ كثيرةٌ، منها: ما رواه التِّرمذيُّ وابن ماجه عن عائشة: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**ما عملَ آدميٌّ من عمل يوم النَّحر أَحَبَّ إلى الله من**

(١) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم: (٣٤٦٨)، وأحمد، رقم: (١٨)، بلفظ: «مَن وجد سعةً فلم يضحِّ فلا يقربنَّ مصلَّانا».

إهراقِ الدَّم، وإنَّها لتأتي يومَ القيامة بقرونها وأشعارها وأَظْلَافِها[١]، وإنَّ الدَّم ليقعُ من الله بمكانٍ قبل أن يقعَ من الأرض، فطيبوا بها نَفْسًا»[٢]؛ ولأنَّ قُربةَ كلِّ وقتٍ أخصُّ به من غيرها؛ لهذا أُضيفت قربةُ النَّحر ليوم النَّحر.

ثانيها العقيقة: وهي سُنَّةٌ تُذبح شكرًا لله على مولود يهبه، وهي عن الغلام شاتان، وعن الجارية شاةٌ واحدةٌ، روى أهل السُّنن عن سمرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**كُلُّ غلامٍ رَهِينةٌ بعقيقةٍ تُذبح عنه يومَ سابعِه، ويُسمَّى فيه، ويُحلق رأسُه**»[٣].

ثالثها القربان[٤] أو الصَّدقة: وهذه لا تتقيَّد بنوع المذبوح أو وقتِه، سواءٌ كان من الأنعام أو الطُّيور أو غيرِها من مأكول اللَّحم، فيجزي فيها ما يجزي في الأضحية من الأنعام، والشِّياه أفضلُ، لكن لا يُشرِك في البَدَنَة[٥] والبقرة معه أحدًا.

وأمَّا الأضحية فتنحصر بالأنعام الإبلِ والبقرِ والغنم ولا يجزي فيها غيرُ ثَنِيِّ الضَّأنِ والمعز، وهو ما تمَّ له سنةٌ، وغيرُ ثَنِيِّ البقر،

---

(١) الظلف: ظفر كل ما اجتر. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٤/ ١١٥).

(٢) رواه الترمذي، رقم: (١٤٩٣) وقال: هذا حديث حسن غريب، وابن ماجه، رقم: (٣١٢٦).

(٣) رواه أبو داود، رقم: (٢٨٣٧)، والدارمي، رقم: (٢٠١٢) بلفظ: «كلُّ غلامٍ رهينةٌ بِعقيقته تذبح عنه يوم السَّابع ويحلق رأسه ويدمَّى»، والبيهقي في السنن الكبرى، رقم: (١٩٢٦٤).

(٤) القربان: ما يُتَقرَّب به إلى الله تعالى. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٤/ ١٢).

(٥) البدنة: الإبل. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٤/ ٢٣٨).

وهو ما تمَّ له سنتان، وغيرُ ثَنِيِّ الإبل، وهو ما تمَّ له خمسُ سنين، وقد أجاز أحمدُ جَذَعَ الضَّأن، وهو ما له ستَّةُ أشهرٍ.

وتجبُ الأضحيةُ بالنَّذر، وبقوله: هذه أضحية، وبكونه اشتراها أضحيةً، ويبدأ وقتُ الذَّبحِ بعد الفراغ من صلاةِ العيد حتَّى غروب شمس ثاني أيَّام التَّشريق، وهو اليوم الثَّاني عشرَ من شهر ذي الحجَّة، أو ثالث أَيَّام العيد.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن جندبِ بنِ عبدِ الله، قال: «**شهدْتُ الأضحى يومَ النَّحر مع رسولِ الله ﷺ، فلم يَعْدُ أن صَلَّى وفرغَ من صلاتِه وسلَّم؛ فإذا هو يرى لحمَ أضاحٍ قد ذُبحت، فقال: من كان ذبحَ قبل أن نصلِّي، فليذبحْ مكانَها أُخرى**»[١].

وروى البخاريُّ عن البراء بن عازب، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يخطب، فقال: «**أَوَّلُ ما نبدأُ به يومَنا هذا أن نصلِّي، ثمَّ نرجع فننحر؛ فمن فعلَ هذا فقد أصابَ سُنَّتنا، ومن نحرَ فإنَّما هو لحمٌ يقدِّمه لأهلِهِ، ليس من النُّسك في شيءٍ**»[٢]، **فقال أبو بردةَ: يا رسول الله! ذبحتُ قبل أن أصلِّي، وعندي جَذَعَة[٣] خيرٌ من مُسِنَّة، فقال:**

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٥٥٠٠) بلفظ: «من ذبح قبل الصلاة فليذبح مكانها أخرى، ومن كان لم يذبح حتى صلينا فليذبح على اسم الله»، ومسلم، رقم: (١٩٦٠).

(٢) رواه البخاري، رقم: (٩٦٥)، ومسلم، رقم: (١٩٦١).

(٣) الجذع من الدواب: قبل أن يثنى بسنةٍ، وهو أول ما يستطاع ركوبه والانتفاع به. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٠/ ٤٢٢).

«اجعَلْها مكانَها ولن تجزيَ عن أحدٍ بعدَك»[1]؛ لأنَّ ما يجزي في الأضحية من الإبل هي المُسِنَّة: وهي الَّتي تمَّ لها خمسُ سنين، أمَّا الجَذَعَةُ، فقد أجزأتْ أبا بردةَ خاصةً يومئذ، ولن تجزي أحدًا بعدَه من هذه الأمَّة.

وتجزي الشَّاةُ عن أضحيةٍ واحدةٍ والماعزُ كذلك، والبقرة والبَدَنَة عن سبعةٍ؛ بدليل ما أخرجه مسلمٌ عن جابرٍ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: **«البقرةُ عن سبعةٍ، والجَزُورُ**[2] **عن سبعةٍ»**[3].

وتجزي في الأضاحي: الحاملُ، والجَمَّاء[4]، والقَرْناءُ أفضلُ، ولا تجزي الهزيلةُ، ولا العوراء ولا العرجاء ولا المريضة ولا ذاهبةُ الثَّنايا ولا ما ذهب أكثرُ أذنها أو قرنها بقطع أو مرض، ولا ما نَشِفَ ضرعُها من الكبر.

روى التِّرمذيُّ عن عليٍّ كرَّم الله وجهه أنَّه قال: **«أَمَرَنا رسولُ الله ﷺ أن نستشرف العَيْنَ والأُذن، وأَلَّا نُضَحِّي بمُقَابَلَةٍ ولا مُدَابَرَة ولا شَرْقَاءَ ولا خَرْقاءَ»**[5]؛ فالمقابلة: ما قطعت أذنها من قُبُلٍ، والمدابرة: ما قطعت من دُبُرٍ، والشَّرقاء: ما شُقَّت أذنُها، والخرقاء:

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٥٥٥٧)، ومسلم، رقم: (١٩٦١).

(٢) الجزر: الشاء السمينة الصالحة لأن تجزر. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٠/ ٤١٦).

(٣) رواه مسلم، رقم: (١٣١٨)، بلفظ: «نحرنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة»، وأبو داود، رقم: (٢٨٠٨).

(٤) الجماء: التي لا قرن لها. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١/ ٦٥١).

(٥) رواه الترمذي، رقم: (١٤٩٨) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

ما ثُقبت أذنُها ثقبًا مستديرًا.

وروى ابنُ ماجه أيضًا عن عليٍّ كرَّم اللهُ وجهه قال: «**نهى رسولُ الله ﷺ أن نُضَحِّيَ بأَعْضَب**»(١)، وهو ما ذهب أحد قرنيه.

وأخرج مالكٌ وأحمدُ عن البراءِ بنِ عازبٍ، قال: إنَّ رسولَ الله سُئِلَ: ماذا نتَّقي من الأضاحي؟ فقال: «**أربعًا: العَرْجاء البيِّن ظَلْعها، والعَوْراء البيِّن عَوَرُها، والمريضة البيِّن مَرَضُها، والعَجْفاء الَّتي لا تُنْقِي**»(٢).

وكان من هديهِ ﷺ اختيارُ الأضحية، واستسمانُها، وسلامتُها من العيوب؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ [آل عِمرَان: ٩٢].

روى الشَّيخان عن أنسِ بنِ مالكٍ، قال: «**ضحَّى رسولُ الله ﷺ بكبشين أَمْلَحَين أَقْرَنَين ذبحهما بيده، وسمَّى وكبَّر، قال: ورأيته واضعًا قدمه على صِفَاحِهما، ويقول: باسم الله، والله أكبر**»(٣).

وروى مسلمٌ عن عائشةَ، قالت: إنَّ رسولَ الله ﷺ أمر بكبشٍ أقرنَ يطأُ في سوادٍ، ويَبْرُكُ في سوادٍ، وينظرُ في سوادٍ - يعني: أسودَ الأطراف، أسودَ البطن والصَّدر، أسودَ العينين - فأُتِي به ليضحِّي به، فقال: «**يا عائشة! هلمِّي المُدْيَة**»، ثمَّ قال: «**اشحذيها بحجرٍ**»،

---

(١) رواه الترمذي، رقم: (١٥٠٤) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه، رقم: (٣١٤٥).

(٢) أورده مالك في الموطأ، رقم: (١)، وأحمد، رقم: (١٨٦٧٥).

(٣) رواه البخاري، رقم: (٥٥٦٤)، ومسلم، رقم: (١٩٦٦).

ففعلت، ثمَّ أخذها، وأخذ الكبشَ فأضجَعَه، ثمَّ قال: «**باسم الله، اللَّهمَّ تَقَبَّلْ من محمَّدٍ وآلِ محمَّد، ومن أمَّة محمَّد**»، ثمَّ ضحَّى به[(١)].

ويُسنُّ في الأضحية خاصَّةً وفي النُّسك نحرُ الإبل قائمةً معقولةً يدُها اليسرى، ويُسنُّ ذبحُ البقر والغنم مطروحةً على جنبها الأيسرِ موجَّهة إلى القِبلة، ويجب حين يحرِّك يدَه بالذَّبح أن يقولَ جهرًا بحيث يُسمع نفسه: باسم اللهِ، واللهُ أكبر، ويدعو بما وردَ، ومنه: اللَّهمَّ هذا منكَ ولكَ، اللَّهمَّ تَقَبَّلْ منِّي كما تقبَّلتَ من إبراهيم خليلِك، ومحمَّدٍ نَبِيِّك.

روى أحمد وأبو داودَ عن جابرِ بنِ عبد الله، قال: ذبح النَّبيُّ ﷺ يومِ الذَّبحِ كبشين أقرنين أملحين مَوْجُوءَيْنِ - يعني: خَصِيَّيْن - فلمَّا وَجَّهَهما، قال: «**إنِّي وجَّهتُ وجهي للَّذي فطر السَّمواتِ والأرضَ على ملَّة إبراهيم حنيفًا، وما أنا من المشركين، إنَّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله ربِّ العالمين، لا شريكَ له، وبذلك أُمرت وأنا من المسلمين، اللَّهمَّ هذا منكَ ولكَ عن محمَّدٍ وأمَّته**»[(٢)]، ثمَّ ذبح بيده، وقال: «**باسم الله والله أكبر، اللَّهمَّ هذا عنِّي وعَمَّنْ لم يُضَحِّ من أمَّتي**»[(٣)].

وسُنَّ للمضحِّي أن يأكل من أضحيته ثُلُثًا، ويُهدي ثُلُثًا، ويتصدَّق بثُلُثٍ، ويحرمُ عليه أن يعطي منها أجرةَ الجزَّار، أو يبيعَ شيئًا منها،

(١) رواه مسلم، رقم: (١٩٦٧).

(٢) رواه أحمد، رقم: (١٥٠٢٢)، وأبو داود، رقم: (٢٧٩٥).

(٣) رواه الترمذي، رقم: (١٥٢١) وقال: هذا حديث غريب.

وعلى من نوى الأضحية أَلَّا يأخذَ شيئًا من شعره أو ظفره أو بشرته في العشر الأوائل من ذي الحجَّة.

فقد روى مسلمٌ عن أمِّ سلمةَ، قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إذا دخل العَشْرُ، وأراد بعضُكم أن يُضحِّي، فلا يمسَّ من شَعرْه وبَشَرِه شيئًا**»(١)، وفي روايةٍ: «**مَنْ كان له ذبحٌ يذبحه، فإذا أهلَّ هلالُ ذي الحجَّة، فلا يأخذْ من شعره ولا من أظفارِه شيئًا حتَّى يُضحِّي**»(٢).

وقد أمر ﷺ النَّاسَ بالرِّفق في كلِّ شيءٍ، حتَّى في النَّحر، وكلَّفنا أن نتوخَّاهُ، حتَّى في تخفيفِ الألم عَمَّا نريدُ قتلَه من الحيوان، فأمرنا بسقيه، وشحذِ السِّكِّين حتَّى تكونَ ماضيةً لا تعذِّبه، وألا يجرَّ الذَّبيحةَ بعنفٍ، وأن يسرعَ في جَرِّ السِّكِّين، وقطعِ الوَدَجَيْن(٣) والحلقومِ.

روى أحمدُ ومسلمٌ وغيرُهما عن شدَّاد بن أوس: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إنَّ الله كتبَ الإحسانَ على كلِّ شيءٍ؛ فإذا قتلتم، فأحسنوا القِتْلَةَ، وإذا ذَبَحْتم، فأحسنوا الذِّبْحَةَ، ولْيُحِدَّ أحدُكم شَفْرَتَه، ولْيُرِحْ ذَبِيحَتَه**»(٤).

ويجبُ على المضحِّي أن يحتسبَ أضحيَتَه خالصةً لله، لا رياءَ فيها ولا عجبَ، فإنَّه: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ

---

(١) رواه مسلم، رقم: (١٩٧٧).
(٢) رواه مسلم، رقم: (١٩٧٧).
(٣) الودجان: عرقان متصلان من الرأس إلى السَّحْر. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٦/٢٥٦).
(٤) رواه مسلم، رقم: (١٩٥٥) وأحمد، رقم: (١٧١١٦).

ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ [الحجّ: ٣٧].

٣٨- الدَّعوة والإرشاد

قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٠٤-١٠٥].

لتكنْ منكم - أيُّها المؤمنون - أمَّةٌ لها كيانُها ونظامُها، أمَّةٌ مؤتلفةُ الأعضاءِ موحَّدَةُ الجهاتِ لا ترهب أحدًا، ولا تخافُ شيئًا، ولتكنْ هذهِ الأمَّة داعيةً إلى الخيرِ، ناهيةً عن الشَّرِّ، دينُها قولُ الحقِّ ولو كان عندَ سلطانٍ جائرٍ، ودَيْدَنُها رفعُ الظُّلم، لا تخشى في الدَّعوة إلى الخير لومةَ لائمٍ، ولا بطشَ ظالمٍ، واختصرَ ذلك كلَّه بكلمةِ الـ «أمَّة»، ولم يقلْ جمعيَّةً أو هيئةً أو حزبًا.

إنَّه واجبٌ عليكم - أيُّها المسلمون - أن تكونوا هذه الأمَّة، وأن تكونوا جميعًا بهذا الوضع؛ لأنَّكم خيرُ أمَّةٍ أُخرجت للنَّاس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، أو أنَّكم تكوِّنون هذه الجماعة منكم، وتكونون معها يدًا واحدةً، وتجعلون لهذه الجماعة الدَّاعيةِ إلى الخير السُّلطةَ التَّامَّة؛ ليكون لها حقُّ الإشراف والتَّكوين والتَّوجيه، والعمل على خدمة الدَّعوة إلى الخير والحقِّ، والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر.

والأمَّة الَّتي تكون هداتُها وقادتُها في درجات الكمال، لا شكَّ أنَّها قد أفلحت في آخرتها، ونالت العزَّةَ والتَّمكين في دنياها، وسعدت حكومتُها، وتعارفت شعوبُها؛ فإذا لم تكن بهذه الصِّفة، كانت أمَّةً مفكَّكةً مختلفةً تعرفُ طريقَ الحقِّ ولا تسلكُه، وترى طريقَ الشَّرِّ في الشَّهواتِ فتتبعه ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [آل عِمرَان: ١٠٥].

روى التِّرمذيُّ عن حذيفةَ بنِ اليمان رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**والَّذي نفسُ محمَّدٍ بيده! لتأمرنَّ بالمعروف، ولتنهونَّ عن المنكر، أو ليوشِكَنَّ اللهُ أن يبعثَ عليكم عقابًا منه، ثمَّ تَدْعونه فلا يُستجابُ لكم**»(١).

ولقد أوجبَ اللهُ الدَّعوةَ على الأمَّة الإسلاميَّة بهذهِ الآية الكريمة، وبآياتٍ كثيرةٍ غيرِها، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٣﴾ [فُصّلَت: ٣٣]، وندَّد على من تركَها، وأغفلَ أمرها، ولم يهتمَّ بها، فقال: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩﴾ [المَائدة: ٧٨-٧٩].

روى التِّرمذيُّ وأبو داود عن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ أوَّلَ ما دخل النَّقصُ على بني إسرائيلَ أنَّه كان الرَّجلُ يلقى الرَّجلَ فيقولُ: يا هذا! اتَّقِ الله، ودع ما تصنع؛ فإنَّه لا يحلُّ لكَ، ثمَّ يلقاه من الغد وهو على حاله، فلا يمنعه ذلك أن يكون أَكِيلَه**

---

(١) رواه الترمذي، رقم: (٢١٦٩)، وقال: هذا حديث حسن.

وشَرِيبَه وقَعِيده، فلمَّا فعلوا ذلك، ضربَ اللهُ قلوبَ بعضِهم ببعض، ثمَّ قرأ ﷺ: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [المَائدة: ٧٨]» إلى آخر الآيات الأربع من سورة المائدة: ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المَائدة: ٨١]، ثمَّ قال: «**كلَّا واللهِ لتأمُرُنَّ بالمعروفِ، ولتنهَوُنَّ عن المنكَر، ولتأخُذُنَّ على يد الظَّالم، ولَتَأْطُرُنَّه على الحقِّ أَطْرًا، ولَتَقْصُرُنَّه على الحقِّ قَصْرًا**»(١) وقال أيضًا: «**أو لَيَضْرِبَنَّ الله قلوبَ بعضِكم ببعض، ثمَّ لَيَلْعَنَنَّكُم كما لَعَنَهم**»(٢).

إنَّ في هذا الحديث دليلًا قويًّا على وجوبِ الدَّعوةِ إلى الحقِّ وجوبًا عينيًّا على الأمَّة للحاكمِ والإمامِ، والدَّولةِ والرَّعيَّةِ، وفي الحديث الثَّاني الَّذي رواه أبو داود والتِّرمذيُّ عن أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه: أنَّه قال: يا أيُّها النَّاس! إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْۚ﴾ [المَائدة: ١٠٥]، وإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ النَّاسَ إذا رأوا الظَّالمَ، فلم يأخذوا على يديه، أوشكَ أن يَعُمَّهُمُ اللهُ بعقابٍ من عندِهِ**»(٣).

ولقد قام أسلافُنا الصَّالحون بواجب الدَّعوة إلى هذه الشَّريعة؛ حيث إنَّهم بايعوا الله ورسوله على النُّصحِ للدِّين وللدَّعوةِ وللأمَّة حتَّى

---

(١) رواه أبو داود، رقم: (٤٣٣٦)، والترمذي، رقم: (٢١٦٩) بلفظ: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم» وقال: هذا حديث حسن.

(٢) رواه أبو داود، رقم: (٤٣٣٧).

(٣) رواه أبو داود، رقم: (٤٣٣٨)، والترمذي، رقم: (٣٠٥٧) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

تكون لهذه الشَّريعةِ السَّمحةِ اليدُ العليا، ولمتَّبعيها الكلمةُ النَّافذة، فأمروا بالمعروفِ، ونهوا عن المنكر، ودعوا إلى الله، فدرَّت خيراتُهم، وقويت شوكتهم، ونفذت كلمتُهم، وأنجز الله وعدَه لهم؛ فمكَّن لهم في الأرض، وجعلهم أئمَّةً، وجعلهم الوارثين، وكانوا خيرَ أُمَّةٍ أخرجت للنَّاسِ؛ حكمًا بالعدلِ، وهدايةً للحقِّ، ورعايةً للنَّاسِ، ثمَّ خلف من بعدهم خلْفٌ قَصَّروا في هذا البابِ، وفَضَّلوا مصلحتهم الخاصَّة، وجعلوا غايتهم المادَّةَ، فخرسوا عن الدَّعوة إلى الحقِّ، وتعامَوْا عن المنكر، ثمَّ تسامحوا فيه حتَّى أَلِفوه، وتجاهلوا المعروفَ حتَّى أنكروه، ولم يبقَ للدَّعوةِ الإسلاميَّة من أثرٍ إلَّا خُطَبٌ تُلقى على المنابرِ أيَّامَ الجمعِ مَجَّتْها الأسماع؛ لأنَّها جوفاءُ كَثُرَ تكرارُها، وقام بها أفرادٌ لم تتَّسع بها قلوبُهم، ولم تظهر آثارُها في أخلاقهم وأعمالهم.

﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البَقَرَة: ٤٤]، ولعمري كأنَّ الشَّاعر كان يعنيهم بأبياته هذه، يقول أبو الأسود الدُّؤَلِيُّ:

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ المُعَلِّمُ غَيْرَهُ ... هَلَّا لِنَفْسِكَ كَانَ ذا التَّعْلِيمُ

تَصِفُ الدَّوَاءَ لِذِي السَّقَامِ وَذِي الضَّنَى ... كَيْمَا يَصِحُّ بِهِ وَأَنْتَ سَقِيمُ

ابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَانْهَهَا عَنْ غَيِّهَا[(١)] ... فَإِذَا انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمُ

لَا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ ... عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ[(٢)]

(١) الغي: الضلال والخيبة. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٥/ ٣٣٢٠).
(٢) انظر: شرح شذور الذهب، لابن هشام (١/ ٣١٠).

ولا عجبَ، فكلُّهم مأجورٌ على ما يقول، مأمورٌ بما يقول، ولو أُمِرَ بقول المنكر لقاله، ولو استُؤجِرَ لِنطقِ الزُّور لنطقَ به، فهي خطبٌ قديمةٌ ناقصةٌ أكلَ الدَّهر عليها وشرب، صِيغت بوقتها لوقتها، أمَّا أمراضنا فهي غيرُ تلك؛ تحتاج إلى أطباء حكماء لمداواتها، ولـمَّا أعيتنا الحيلة، وكان أطباؤنا مرضًى جهلةً؛ كانت النَّتيجة أنْ أصبح المسلمون يرجعون كلَّ يومٍ القهقرى، حتَّى صاروا عبرةً للمعتبرين، وطُعْمةً للطَّامعين، وهزأة بين العالمين، وهذا مصداقٌ لما أخبرنا به المصطفى الصَّادق الأمين عليه أفضل الصَّلاة والسَّلام: بأنَّ الأمم ستتداعى علينا كما تتداعى الأكَلة على القصعة[1] في الحديث: «**يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا**»[2]؛ ذلك لأنَّا لا نفعَ في حياتنا، ولا حميَّةَ لبعضنا على بعضنا، ولا حبَّ يرتكز في قلوبنا لبعضنا، ولا جامعةَ تجمع شملنا، ولكنَّنا غثاءٌ[3] كغثاءِ السَّيل لم يهمَّنا الدِّينُ الَّذي كان سببَ نجاحِ سلفِنا، ولو أنَّنا انتبهنا، واتَّبعنا أمرَه، ودافعنا عنهُ، ودعونا لهُ، لما حاقَ بنا السُّوءُ، ولما فقدنا الدَّولةَ العظيمةَ الَّتي بناها السَّلفُ القديمُ، ومَكَّنها عملُ العاملين.

روى الحاكمُ عن أبي هريرة: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**تركتُ فيكم ما**

(١) القصعة: الصَّحفة أو الضَّخمة منها تشبع العشرة. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٧/٢٢).
(٢) رواه أبو داود، رقم: (٤٢٩٧).
(٣) الغثاء: ما يحمله السيل من القماش. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٩/ ١٤١).

لن تَضِلُّوا بعدهما: كتابَ الله، وسنَّتي، ولن يفترقا حتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الحوضَ»[١]، وها هما بين أيدينا، لا نعلم عنهما شيئًا إلَّا شيئًا واحدًا؛ هو أن نقرأَ منه لموتانا، أو نضعَه في دورنا على الرَّفِّ مهجورًا لا نعلمُ عمَّا بين دفَّتيه إلَّا بقصدِ التَّبرُّكِ، وما يفيد التَّبرُّكُ شيئًا إذا لم تُصلِحْ هذه البركةُ القلوبَ، وها هما بين أيدينا لا نعملُ بهما إلَّا أن نجادل غيرَنا فيهما على غير هُدًى ولا كتابٍ منيرٍ.

روى التِّرمذيُّ عن جابر بنِ عبدِ اللهِ ﵁: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ من أحبِّكُم إليَّ وأقربكم منِّي مجلسًا يومَ القيامة أحسنَكُم أخلاقًا، وإنَّ من أبغضِكُم إليَّ وأبعدِكُم عنِّي يومَ القيامة الثَّرثارون والمتشدِّقون والمُتَفَيْهِقون**»[٢] والمتشدِّقُ: اللَّاوي شِدْقَه تفاصُحًا وتعاظُمًا، والمتفيهق: الَّذي يملأ فمه في الكلام، فيظهره فخمَ الألفاظِ، فخمَ الحروفِ.

وأمَّا وُعَّاظنا وخطباؤنا وهداتُنا وكُتَّابنا، فكلُّهم طالبٌ للمادَّة، وكلُّهم كما قال ﷺ: «**شَرُّ النَّاس شِرَارُ العلماء في النَّاس**»[٣] رواه البزَّار عن معاذِ بنِ جبلٍ.

إنَّ ما خرج من اللِّسان لا يتجاوز الآذان، وإنَّ ما خرج من القلبِ فإنَّه يصلُ إلى القلبِ، ينبِّهه إلى الإصلاحِ، ويُنهضه إلى الخيرِ والفلاحِ، والنَّفسُ الصَّالحةُ الكاملةُ يمكنها أن تصلح غيرها وتكمِّلها،

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم: (٣١٩).

(٢) رواه الترمذي، رقم: (٢٠١٨) وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٣) رواه البزار، رقم: (٢٦٤٩)، والطبراني في مسند الشاميين، رقم: (٤٤٧).

والنَّفسُ النَّاقصةُ الدَّنيَّة أولى بها أن تتداركَ عيوبَها، ثمَّ تلتفتَ بعد ذلك إلى إصلاحِ غيرها.

روى مسلمٌ عن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما مِنْ نبيٍّ بعثه الله تعالى في أمَّةٍ قبلي، إلَّا كان له من أمَّته حَوَارِيُّون وأصحابٌ يأخذون بسنَّته، ويقتدون بأمره، ثمَّ إنَّها تَخْلُف من بعدهم خُلُوفٌ يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدَهم بيده فهو مؤمنٌ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمنٌ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمنٌ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبَّةُ خَرْدَلٍ**»[(١)].

هذا دليلٌ على أنَّ الدَّعوةَ إلى الحقِّ واجبةٌ على كلِّ أحدٍ، ولا يُعذر بتركها أحدٌ، وكلُّ أحدٍ يستطيع أن يجاهدَ ويدعو بيده، فإن عجزَ فبلسانه، فإن عجز فباعتزالِ المُنكراتِ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الصَّف: ١٠-١٣].

(١) رواه مسلم، رقم: (٥٠).

٣٩- بعثةُ الرَّسول ﷺ

قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤﴾ [الجُمُعَة: ٢-٤].

الله الَّذي بعثَ في العربِ الأمِّيِّين الَّذين لم يعرفوا من قبلُ كتابةً ولا قراءةً: بعث فيهم رسولًا منهم، أمِّيًّا مثلَهم يتلو عليهم آياتِ الله الَّتي تُبيِّن رسالته إليهم، والَّتي يتميَّزُ بها الحقُّ من الباطلِ، والخيرُ من الشَّرِّ، والنَّافعُ من الضَّارِّ، والحلالُ من الحرامِ، ويطهِّرُهم من دَنَسِ الشِّركِ، ودنايا الأخلاقِ، ويعلِّمهم القرآنَ الَّذي هو كتابُ الله، والحكمةَ والفقهَ في الدِّين، وقد كانوا قبلَ هذا الرَّسول في ضلالِ الكفرِ والجهالة، وكما بعثَه في الأمِّيِّين بعثَه في آخرين منهم لَمَّا يلحقوا بهم؛ لأنَّ رسالتَه دائمةٌ، ولأنَّ اللهَ العزيزَ في قدرِه وجبروته، الحكيمَ في علمِه، جعل لهذا الأمرِ العظيمِ هذا النَّبيَّ الكريم، واختاره من البشرِ كافَّةً، وأعطاه رسالةً دائمةً في العرب وغيرِ العرب، وجعله خَاتم النَّبِيِّين؛ ذلكَ فضلُ اللهِ يؤتيهِ من يشاءُ حسبَ ما تقتضيهِ حكمتُه، واللهُ ذو الفضلِ العظيمِ.

ورسالةُ محمَّدٍ ﷺ رسالةٌ روحيَّةٌ عقليَّةٌ تدعو للحقِّ وللخيرِ والجمالِ، ودعوته ﷺ دعوةٌ مجرَّدةٌ من الطَّمعِ والأنانيَّة والملكِ، في

بدئها وفي غايتها؛ مبنيَّةٌ على العدلِ والعملِ، والنِّظامِ والمساواةِ، والأخوَّةِ، ومقاومةِ الاستبدادِ الشَّخصيِّ.

فالعدل في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النِّسَاء: ٥٨]، والمساواة في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجرَات: ١٣].

وقال النَّبيُّ ﷺ: «**النَّاسُ سواسيةٌ كأسنان المشط**»(١) وقال أيضًا: «**لا فضلَ لعربيٍّ على أعجميٍّ، ولا لأبيضَ على أسودَ إلَّا بالتَّقوى**»(٢).

والعملُ والنِّظامُ في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ [الصَّف: ٢-٣] إلى آخر الآيات.

والأخوَّة في قولُه ﷺ: «**المؤمنُ أخو المؤمن**»(٣) رواه مسلم عن عقبةَ بنِ عامرٍ، وقوله ﷺ: «**لا يؤمنُ أحدُكم حتَّى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه**»(٤) رواه البخاريُّ ومسلمٌ عن أنس.

ولمقاومة الاستبداد الشَّخصيِّ: ما أخرج البخاريُّ عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «**انصرْ أخاك ظالـمًا أو مظلومًا**»، قيل: يا رسول الله! ننصره مظلومًا، فكيف ننصره ظالـمًا؟ قال:

---

(١) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٢٤٨٢٢).

(٢) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٣٠٤٤).

(٣) رواه مسلم، رقم: (١٤١٤).

(٤) رواه البخاري، رقم: (١٣)، ومسلم، رقم: (٤٥).

«**تأخذ فوقَ يدِه**»(١)، وأخرج عن ابن عمر عن النَّبيِّ ﷺ: أنَّه قال: «**الظُّلمُ ظلماتٌ يومَ القيامة**»(٢).

ورسالة محمَّدٍ ﷺ ليست كرسالة موسى؛ لأنَّ موسى بعثه الله تعالى ليخلِّص قومه من بني إسرائيلَ من الاستعبادِ الفرعونيِّ؛ فكانت رسالتُه ضدَّ الظُّلم، وليست كرسالةِ عيسى؛ لأنَّ اللهَ بعثَ عيسى ليخلِّص قومَه من جبروتِ الرُّومانِ واستعمارِهم، ولأنَّها تتمَّةٌ لرسالةِ موسى؛ فكانت رسالتُه ضدَّ الاستعمارِ.

أمَّا رسالةُ محمَّدٍ ﷺ، فكانت للعالَم جميعًا بردًا وسلامًا؛ ليُخلِّصهم من الظُّلم العالميِّ، ومن الجهلِ العالميِّ؛ لهذا كان مفتاحُ السَّعادةِ هو أوَّل ما جاء به؛ فقد جاء بالعلمِ والقلمِ، وقال له ربُّه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال له ربُّه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [الشّورىٰ: ٥٢-٥٣]، وكانت رسالته القرآن الَّذي يقول فيه ﷺ: «**فيهِ نبأُ ما قَبْلَكم، وخبرُ ما بعدَكم، وحكمُ ما بينكم، وهو الفصلُ ليس بالهزل: من تركَهُ من جبَّارٍ، قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره، أضلَّه الله، وهو حبلُ الله المتينُ، وهو الذِّكْرُ الحكيم، وهو الصِّراطُ المستقيم، وهو الَّذي لا تَزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الأَلْسِنَة، ولا يشبعُ منه العلماء، ولا**

(١) رواه البخاري، رقم: (٢٤٤٤).

(٢) رواه البخاري، رقم: (٢٤٤٧)، ومسلم، رقم: (٢٥٧٩).

يَخْلَق من كثرة التَّرداد، ولا تنقضي عجائبه: مَنْ قَالَ به صَدَقَ، ومَنْ عَمِلَ به أُجِرَ، ومن حَكَمَ به عَدَلَ، ومن دَعَا إليه هُدي إلى صراطٍ مستقيم»(١) رواه التِّرمذيُّ عن عليٍّ كرَّم الله وجهه.

وروى مسلمٌ عن أبي هريرة: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**والَّذي نفسُ محمَّدٍ بيده! لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمَّة يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ، ثمَّ يموتُ ولم يؤمنْ بالَّذي أُرسلت به، إلَّا كانَ من أصحاب النَّار**»(٢).

وروى البخاريُّ عن أبي هريرة: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**كلُّ أمَّتي يدخلون الجنةَ إلَّا مَنْ أبى**»، قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: «**مَنْ أطاعَني، دخلَ الجنَّةَ، ومن عصاني، فقد أبى**»(٣).

ومن هذين الحديثين: نفهم أنَّه ﷺ يقصدُ أنَّ كلَّ من سمع باسمه، أو بدعوته؛ سواءٌ آمن به، أم لم يؤمن فهو من أمَّته؛ فمن آمن به كان من النَّاجين، وكان من أصحاب النَّعيم، ومن أعرض عن الإيمان به كان من الهالكين.

والدِّينُ الإسلاميُّ الَّذي جاء به محمَّدٌ ﷺ هو الدِّين الَّذي جَعَلَ من أشتاتِ العربِ أمَّةً موحَّدةً حملت مشعلَ الهدايةِ للعالمِ كلِّه، فقضت على الجهالةِ والظُّلم، والاستبدادِ والاستعباد؛ فكانت أمَّةً عادلةً في حكمِها، رفيقةً في رعايتها، قويَّةً في سلطانِها، حكيمةً في قيادتِها، مهيبةً في أمرها.

---

(١) رواه الترمذي، رقم: (٢٩٠٦) وقال: هذا حديث غريب.

(٢) رواه مسلم، رقم: (١٥٣).

(٣) رواه البخاري، رقم: (٧٢٨٠).

فهو دينٌ يُبَشِّرُ العاملين به بالدَّولة والملكِ والسُّلطانِ، والتَّمكين في الأرضِ، والحياةِ السَّعيدة، فقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ۚ﴾ [النور: ٥٥]، وقال: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ١-٣]، وقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

إنَّه دينٌ يأمر بالمحبَّة والإخلاص في العمل، والتَّعاونِ على البرِّ والتَّقوى، وطهارةِ الظَّاهر والباطن، والسَّعي في مصالح الجميع، لا تَطلب سعادةً إلَّا وجدتَها فيهِ، ولا خيرًا إلَّا وجدتَه سابقًا إليهِ، ولا معروفًا إلَّا وجدته آمرًا به، ولا منكرًا إلا وجدتَه ناهيًا عنه، ولا مخبوءًا بالكونِ إلَّا وجدتَه منبِّهًا عليه، لهذا وجب على كلِّ مسلمٍ أن يكون داعيةً لدينِه، مبشِّرًا به، مُظهرًا محاسنَه لمن يجهلُه، مبرهِنًا على أنَّ هذا الدِّين هو دينُ البشريَّة جمعاء، والحقُّ أنَّ من اعتزَّ بدينِ الإسلامِ أعزَّه الله، ومن اعتزَّ بغيرِه أضلَّه الله، ومن طلب النُّورَ في غيرِه أخطأ سواء السَّبيل، ومن استضاء بنوره هُدِي إلى صراطٍ مستقيمٍ ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٨٥﴾ [آل عمران: ٨٥].

روى البخاريُّ عن ابن عبَّاس: أنَّ أبا سفيانَ بنَ حربٍ أخبره أنَّ هرقل أرسلَ إليه في ركبٍ من قريشٍ كانوا تجَّارًا بالشَّام في المدَّة الَّتي

كان رسول الله ﷺ مادَّ فيها[١] أبا سفيان وكفَّارَ قريش، فأتوه وهم بإِيلْياء، فدعاهم وحَوْلَهم عظماءُ الرُّوم، ثمَّ دعا بالتَّرجمان، فقال: أيُّكم أقربُ نسبًا بهذا الرَّجلِ الَّذي يزعم أنَّه نبيٌّ؟ قال أبو سفيان: فقلت: أنا، فقال: أدنوه منِّي، وقرِّبوا أصحابه، فاجعلوهم عند ظهره، ثمَّ قال لتَرجمانه: قل لهم: إنِّي سائلٌ هذا عن الرَّجل، فإن كذَّبني، فكذِّبوه؛ فوالله! لولا الحياءُ من أن يأثروا عليَّ كذبًا، لكذبت عنه، ثمَّ كان أوَّل ما سألني عنه أن قال: كيف نسبُه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسبٍ، قال: فهل قال هذا القولَ منكم أحدٌ قطُّ قبله؟ قلت: لا، قال: فهل كان من آبائه مَنْ مَلَكَ؟ قلت: لا، قال: فأشرافُ النَّاس اتَّبعوه أم ضعفاؤهم؟ قلت: ضعفاؤهم، قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون، قال: فهل يرتدُّ أحدٌ منهم سخطةً[٢] لدينه بعدَ أن يدخل فيه؟ قلت: لا، قال: فهل تتَّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا، قال: فهل يغدِرُ؟ قلت: لا، ونحنُ منه في مدَّة لا ندري ما هو فاعلٌ فيها، ولم يمكِّنِّي كلمةٌ أدخلُ فيها غير هذه الكلمة، قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم، قال: فكيف كان قتالكم إيَّاه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سِجالٌ: ينال منَّا، وننال منه، قال: فبماذا كان يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا الله وحدَه، ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما كان يعبد آباؤكم، ويأمرنا بالصَّلاة، والصِّدق، والعفاف، والصِّلة.

---

(١) ماد فيها: أي أطالها. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٩/ ١٦٠).

(٢) السخط: الكراهية للشيء وعدم الرضا به. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٣/ ١٩٦٤).

فقال للتَّرجمان: قل له: إنِّي سألتك عن نسبِه، فذكرتَ أنَّه فيكم ذو نسبٍ، وكذلك الرُّسلُ تُبعث في نسب قومها، وسألتك: هل قال أحدٌ منكم هذا القول؟ فذكرتَ أنْ لا؛ فقلتُ: لو كان أحدٌ قال هذا القولَ قبله، لقلتُ: رجلٌ يتأسَّى[1] بقولٍ قيل قبله، وسألتك: هل كان في آبائه مَنْ ملك؟ فذكرتَ أنْ لا؛ فقلتُ: لو كان، لقلتُ: رجلٌ يطلب ملكَ أبيه، وسألتك: هل تتَّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرتَ أنْ لا؛ فقد أعرف أنَّه لم يكن ليذَرَ الكذبَ على النَّاس ويكذبَ على الله، وسألتك: أشرافُ النَّاس اتَّبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرتَ أَنَّ ضعفاءهم اتَّبعوه، وهم أَتبَاعُ الرُّسل، وسألتك: أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرتَ أنَّهم يزيدون، وكذلك أمرُ الإيمان حتَّى يتمَّ، وسألتك: أيرتدُّ أحدٌ منهم سخطةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرتَ أنْ لا، وكذلك الإيمانُ حين تخالطُ بشاشَتُه القلوب، وسألتك: هل يغدر؟ فذكرتَ أنْ لا، وكذلك الرُّسلُ لا تغدر، وسألتك: بماذا يأمركم؟ فذكرتَ أنَّه يأمركم أن تعبدوا الله وحدَه لا تشركوا به شيئًا، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصَّلاة والصِّدق والعفاف؛ فإن كان ما تقول حقًّا، فسيملك موضعَ قدميَّ هاتين، وقد كنتُ أعلمُ أنَّه خارجٌ، ولم أكنْ أظنُّ أنَّه منكم؛ فلو أعلم أنِّي أخلُصُ إليه، لتجشَّمت[2] لقاءه، ولو كنتُ عنده، لَغَسَلت عن قدمه.

---

(١) تأسى به؛ أي: اتبع فعله واقتدى به. انظر لسان العرب، لابن منظور (١٤/ ٣٥).

(٢) تجشم الأمر: تكلفه على مشقة. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣١/ ٤٠٥).

إلى أن قال أبو سفيان: فقلتُ لأصحابي: لقد أَمِرَ أَمْرُ ابنِ أبي كبشَةَ أن يخافَه ملكُ بني الأصفر: فما زلت موقنًا أنَّه سيظهر، حتَّى أدخل اللهُ عليَّ الإسلام.[1]

(١) رواه البخاري، رقم: (٧).

٤٠- أكلُ أموالِ النَّاسِ بالباطل

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [البَقَرَة: ١٨٨]؛ أي: لا يأكلْ بعضُكم مالَ بعض من غيرِ الوجه الَّذي أباحه الله، وأجملَتِ الآيةُ هذا الوجه، ولم تفصِّلْه، ثمَّ خصَّت بالذِّكر ما يُدْلَى به إلى الحكَّام عن طريق الرَّشوة، أو أجرةِ شاهدِ الزُّور، وأفردته بالذِّكر؛ لعظم جُرمِه، فقال: ﴿وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٨٨] أنَّكم على باطل.

ولنذكر بعضَ وجوه الباطل الَّتي أجملت الآية ذكرَها بكلمة الباطل:

فمنها: أن تتعدَّى على النَّاس بغصب شيءٍ من أموالهم عن طريق النَّهب أو السَّرقة أو الأخذ بالقوَّة أو الخيانة أو الغشِّ أو الاحتيال أو التَّدليس على المشتري أو الغبن أو التَّجهيز على الدَّلَّالين ليدفع المشتري الرَّاغب أكثرَ ممَّا تستحقُّ السِّلعة من ثمنٍ أو بيعٍ ما ليس لك أو أخذ المال عن طريق الرِّبا أو القمار أو إنقاص أجرةِ الأجير، أو اغتصابها، أو أن تأخذَ منه أكثرَ من حقِّك عليه، أو أن يعطيك من العمل أقلَّ ممَّا عليه لك ففي الأولى تأثم؛ لظلمك إيَّاه، وفي الثَّانية يأثم؛ لغشِّه لك.

كلُّ ذلك باطلٌ وظلمٌ، والله تعالى يقول: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ [النِّسَاء: ٣٠]، والرَّسول ﷺ يقول: «**أعْطُوا الأجِيرَ أجرَهُ قبلَ أن يَجِفَّ عَرَقُهُ، وأَعْلِمْهُ أجرَهُ وهو في عَمَلِهِ**»(١).

روى ابن ماجه عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ: قال: «**ثلاثةٌ أنا خَصْمُهم يومَ القيامة، ومَنْ كنتُ خصمَه، خصمتُه: رجلٌ أعطى بي ثمَّ غدَر، ورجلٌ باعَ حرًّا فأكلَ ثمنه، ورجلٌ استأجرَ أجيرًا، فاستوفى منه، ولم يُعطه أجره**»(٢).

ومِنْ أكلِ أموالِ النَّاسِ بالباطل: بخسُ(٣) الكيلِ والميزانِ، وخيانةُ الشَّريكِ شريكَه، والأجرةُ على شهادةِ الزُّور، وغصبُ الأرض إمَّا ظلمًا: كاقتطاعها من ضعيفٍ، وإمَّا أخذُها من طريقِ المسلمين.

روى الشَّيخان عن عائشة: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**من ظَلَم قِيدَ شِبْرٍ من الأرض، طُوِّقَه من سبعِ أرضينَ**»(٤).

وروى الطَّبرانيُّ عن الحكمِ بنِ الحارثِ السُّلَميِّ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**مَنْ أخذَ من طريقِ المسلمينَ شبرًا، جاء يومَ القيامة يحملُه من سبع أرضين**»(٥).

ومنه أيضًا: الأجرةُ على الدَّجَل، أو على ما يكتبه الدَّجَّالون،

(١) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٩١٢٦).
(٢) رواه البخاري، رقم (٢٢٧٠)، وابن ماجه، رقم: (٢٤٤٢).
(٣) البخس: النقص. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٥/ ٤٣٧).
(٤) رواه البخاري، رقم: (٢٤٥٣)، ومسلم، رقم: (١٦١٢).
(٥) رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم: (٣١٧٢).

ومنه: الأجرةُ تؤخذ على العبادة؛ كما يعمله بعضهم؛ كالأجرة تؤخذ لقراءة القرآن على قبور الأموات، أو لأرواحهم في بعض المواسم، أو على صيامٍ وصلاةٍ.

وإنَّ العبادة نيَّةٌ يُراد بها وجهُ الله تعالى وابتغاءُ مرضاته بامتثالِ أمره واجتنابِ نهيه، ومتى خالطَ هذه العبادةَ شيءٌ من حظِّ الدُّنيا، خرج العملُ عن كونه عبادةً خالصةً لله، والله تعالى لا يقبلُ إلَّا العبادةَ الخالصةَ من الحظوظ والشَّوائب.

وروى مسلمٌ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**قال الله تعالى: أنا أَغْنَى الشُّركاءِ عن الشِّرك، مَنْ عملَ عملًا أَشْرَكَ فيه معي غيري، تركْتُه وشِرْكَهُ**»(١) وفي حديث آخر: «**إذا كان يوم القيامة، أُتِيَ بصحفٍ مُخَتَّمة، فتُنصَب بين يدي الله تعالى، فيقول الله لملائكته: اقبلوا هذا، وألقوا هذا، فتقول الملائكة: وعِزَّتِك وجَلالِك! ما رأينا إلَّا خيرًا، فيقول: نعم، ولكن كان لغيري، ولا أقبلُ اليومَ إلَّا ما ابْتُغِي به وجهي**»(٢).

وروى التِّرمذيُّ عن أبي سعيد بن أبي فضالة، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**إذا جمعَ الله الأوَّلين والآخرين ليوم القيامة ليومٍ لا ريبَ فيه، نَادى مُنادٍ: مَنْ كان أشركَ في عمله أحدًا، فليطلبْ ثوابه من عنده، فإنَّ الله أغنى الشُّركاءِ عن الشِّرك**»(٣).

---

(١) رواه مسلم، رقم: (٢٩٨٥).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم: (٢٦٠٣).

(٣) رواه الترمذي، رقم: (٣١٥٤) وقال: هذا حديث غريب.

وقيل في سبب نزول هذه الآية: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البَقَرَة: ١٨٨]، وهي: أنَّ ربيعة بنَ عبدان الحضرميَّ وامرأ القيس بنَ عابس اختصموا إلى رسول الله ﷺ في أرضٍ، فقال ﷺ للحضرميِّ: «**ألك بيِّنة؟**»، **قال: لا، قال:** «**فَلَك يَمينُهُ**». **فانطلقَ امرؤ القيس ليحلفَ، فقال ﷺ:** «**أَمَا إنْ حَلَف على ماله ليأكُله ظُلمًا، لَيَلْقينَّ الله وهو عنه مُعرضٌ**»(١)، فأنزل الله الآية.(٢)

وروى البخاريُّ ومسلمٌ عن أمِّ سلمة رضي الله عنها: أنَّ رسول الله ﷺ سمع جَلَبَةَ(٣) خصم بباب حجرته، فخرج إليهم، فقال: «**إنَّما أنا بشرٌ، وإنَّكم تختصمون إليَّ، فلعلَّ بعضَكم أن يكون أَلْحَنَ بحُجَّته من بعض، فأقضيَ له على نحوِ ما أسمعُ، فمن قضيتُ له بحقِّ مسلم، فإنَّما هي قطعةٌ من النَّار، فليأخُذْها، أو ليترُكْها**»، فبكيا، وقال كلٌّ منهما: يا رسول الله! حقِّي لصاحبي(٤).

وقد يظنُّ بعضُ النَّاس أنَّ قولَ الأميرِ أو القاضي بالحقِّ أو الباطل حقٌّ؛ فهو نائبُ الشَّارع في بيان الحقِّ، فإذا حكمَ لإنسانٍ ولو بغير حقٍّ حلَّ له، ولا يكون هذا من الباطل، وهذا محضُ وهم؛ فالحقُّ حقٌّ لا يتغيَّر بقولِ حاكمٍ أو أميرٍ، والباطلُ باطلٌ لا يتغيَّر بقولِ خليفةٍ أو سلطان، وليس على الحاكمِ إلَّا بيانُه وإيصالُه إلى مستحقِّيه

(١) رواه مسلم، رقم: (١٣٩).
(٢) أورده البغوي في تفسيره (١/ ٢١٠).
(٣) جلبة: صياح. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢/ ١٧١).
(٤) رواه البخاري، رقم: (٧١٦٨)، ومسلم، رقم: (١٧١٣).

بالعدل، فإذا حصلَتْ للحاكم شبهةٌ في ذلك، أو كان أحدُ الخصمين أقوى بيانًا، وأظهرَ حجَّةً، فحكمَ له القاضي بغير حقٍ، مقتنعًا ببيانه وحجَّته، والمحكوم له يعلم أنَّه على باطلٍ؛ فقد حكم له القاضي بقطعةٍ من النَّارِ.

أمَّا ما نراه اليوم بين النَّاس من خصامٍ وتقاضٍ، وإدلاءٍ إلى الحكَّام بالأموالِ الضَّخمةِ، وإلى شهودِ الزُّور، وتشجيعهم على الكذب؛ فأمرٌ يحزن، حتَّى إنَّ بعضَهم لا يُطالبُ غريمَه بحقِّه إلَّا بإنذارٍ من المحكمةِ، ولعلَّه لو طالبه أو ذكَّره لما احتاج إلى المحكمةِ، وبعضُهم لا يطالبُ إلَّا للنِّكايةِ والانتقامِ والإيذاء، وإن ناله من ذلك ضررٌ.

روى الطَّبرانيُّ عن عبدِ اللهِ بنِ عمرو بنِ العاصِ، عن النَّبيِّ ﷺ، قال: «**الرَّاشي والمُرْتَشي في النَّار**»(١).

وروى أحمد والتِّرمذيُّ عن أبي هريرة، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**لعنَ اللهُ الرَّاشيَ والمُرْتَشِيَ في الحكم**»(٢).

ولقد جَرَّ الخصامُ على النَّاسِ بلايا ونكباتٍ؛ فكم خرَّب بيوتًا، وأفنى ثرواتٍ، وكم أهانَ نفوسًا، وفرَّقَ جماعاتٍ، ولو تأدَّب النَّاسُ بأدب القرآن، لكان لهم من هدايته ما يحفظ حقوقهم، ويمنع تقاطعهم، ويُحلُّ فيهم التَّراحمَ بدلَ التَّزاحم، ويقودُهم للوئام،

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم: (٩٥١).
(٢) رواه أحمد، رقم: (٩٠٣٢)، والترمذي، رقم: (١٣٣٧) وقال: حديث حسن صحيح.

ويمنعهم عن الخصامِ.

روى الشَّيخان وأصحابُ السُّنن عن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«**مَنْ حلفَ على يمينِ صَبْرٍ أو كاذبةٍ ليقتطعَ بها مالَ امرئٍ مسلمٍ، لَقِيَ اللهَ وهو عليه غضبانُ**»(١)، وفي رواية: «**فليتبوَّأْ مقعدَه من النَّار**»(٢)، فأنزل الله تصديقَ ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [آل عمران: ٧٧]، فدخل الأشعثُ بنُ قيس، فقال: ما حدَّثكم أبو عبدِ الرَّحمن؟ فقالوا: كذا وكذا، قال: فيَّ أُنزلت - يعني: الآية -، كان لي بئرٌ في أرضِ ابن عَمٍّ لي، فجحدني، فقدَّمته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «**شهودك**»، قلت: مالي شهودٌ، قال: «**فيمينه**»، فقلت: إذنْ يحلفُ ويذهبُ بمالي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**مَنْ حَلَفَ على يمين صَبْرٍ، يَقْتَطِعُ بها مال امرئٍ مُسلِمٍ هُوَ فيها فاجرٌ، لَقِيَ اللهَ وهو عَلَيهِ غضبانُ**».(٣)

إنَّ الكذب جريمةٌ عظيمةٌ، فإذا انضمَّ إليها يمينٌ فاجرةٌ، امتهنت فيها أسماءُ الله الحسنى، وصفاتُه المقدَّسة، كانت الجريمة أعظمَ، والذَّنبُ أكبرَ، فإذا أضيف إليهما أكلُ حقِّ امرئٍ مُسلمٍ بالباطل؛ بَلَغَ

(١) رواه البخاري، رقم: (٤٥٤٩) ومسلم، رقم: (١٣٨).
(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم: (٣١٩).
(٣) رواه مسلم، رقم: (١٣٨).

عِظَمُ الجريمة وفُحشُ الذَّنب غايةَ الغاية، ولهذا أخبرنا النَّبيُّ ﷺ أنَّ عقاب ذلك غضبُ الجبَّار، وأنَّ من فعله «**فليتبوَّأ مقعدَه من النَّار**»(١).

وروى مسلمٌ وغيره عن إياس بن ثعلبةَ الحارثيِّ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**من اقتطعَ حَقَّ امرئ مسلمٍ بيمينه، فقد أوجبَ اللهُ له النَّارَ، وحرَّم عليه الجنَّةَ**»، قال: وإن كان شيئًا يسيرًا يا رسول الله؟ فقال: «**وإن كان قضيبًا من أراك**»(٢).

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه مسلم، رقم: (١٣٧).

٤١- الخمرُ والميسرُ

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المَائدة: ٩١].

أي: إنَّما يريد الشَّيطان أن يُحدث فيكم العداوةَ وأنتم متحابُّون، ويوجد بينكم البغضاء وأنتم متآخون، بشربكم الخمرَ الَّتي تزيل عن صاحبها العقل: فيتكلَّم بفحش القول وهو لا يدري، ويهذي بقبيحه وهو لا يَعِي، وقد يجرُّ هذا القول إلى القتال، ويريد الشَّيطان أن يُوقع بينكم العداوة والبغضاء في القمار الَّذي هو كالخمر إثـمًا وشرًّا؛ فقد يقامر المرء على الدِّين إن خسر ماله، فيغلب، فيقعد حزينًا مدينًا ينظر إلى ماله بيد غيره، وربَّما يثور، فيقتل مَنْ سلبَه مالَه، وربَّما انتحر، ثمَّ إنَّ الخمر والميسر يَشْغلان المسلم عن ذكر الله، وعن الصَّلاة، فانتهوا أيُّها المسلمون عنهما؛ لأنَّهما رجسٌ من عمل الشَّيطان واجتنبوهما، تُفْلِحوا.

وقد حرَّم الله الخمرَ والقمارَ البتَّةَ؛ لما فيهما من الأضرار البيِّنة: في الجسم والمال، ويشهد بضرر الخمر كبارُ أطباء العالم الَّذين عرفوا ضررها الشَّامل لكلِّ عضوٍ من أعضاء الجسم، فقالوا: إنَّها تؤثِّر في الكلى فتقتلها، وفي الكبد فتمزِّقها، وفي المعدة فتمدِّدها، وفي الرَّئتين فتهلكهما، وكم من مدمنِ خمرٍ قُطعت كبده، أو حُرِمَ من

مرارته، أو أُصِيبَ بالسِّلِّ لضعف رئتيه ثمَّ مات، ولَقِيَ اللهَ وهو غضبان عليه.

وروى الإمام أحمد عن النَّبيِّ ﷺ: أنَّه قال: «**مدمنُ الخمرِ إن مات، لَقِيَ اللهَ كعابدِ وَثَنٍ**»(١)، وقالوا: في الخمرة كحولٌ إذا وصل الجسمَ منها مقدارٌ معيَّن هو عبارةٌ عن قراريطَ معدودةٍ، وتشبَّعَ الجسمُ بها، يصبح محتاجًا لها كلَّما استهلكها، أو استهلكَ قسمًا منها؛ كاحتياج المعدة إلى الطَّعام أو الشَّراب، وبهذا يصبح مدمنًا، ولا يقتصر ضررُ الخمر والميسر على الجسم والمال فقط، وإنَّما يتعدَّاهما إلى الدِّين والشَّرف.

فالخمرُ تصدُّ الإنسانَ عن ذكر الله، وعن الصَّلاة، وتأمره بالفواحش، وارتكاب المعاصي؛ فقد روى الطَّبرانيُّ عن عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنهما، عن النَّبيِّ ﷺ: أنَّه قال: «**الخمرُ أُمُّ الفواحش، وأكبرُ الكبائرِ، من شربَها، وقع على أمِّه وعمَّته وخالته**»(٢)، وروى أيضًا عن عبدِ الله بنِ عمرِو بنِ العاص: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**الخمرُ أُمُّ الخبائث؛ فمن شربَها، لم تُقبل صلاتُه أربعين يومًا، فإن مات وهي في بطنه، مات مِيتَةً جاهليَّةً**»(٣).

والخمر تجعل في الإنسان أنانيَّةً لا يلتفت معها إلى أخيه الإنسان في حالة بؤسه، وتقتل الشَّرفَ؛ لأنَّها تُتلف عقل الإنسان، فإذا أدمنَها

(١) رواه أحمد، رقم: (٢٤٥٣).
(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم: (١١٣٧٢).
(٣) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم: (٣٦٦٧).

أصبح ما يراه - في حال سكره - طبيعيًّا في حال صحوه، فلو رأى مع أهله في حال سكره أجنبيًّا، ثمَّ رآه في حال صحوه لا يهمه ذلك.

والخمرُ أيضًا مع إتلافها للجسم، وإذهابها للمال، مَجْلَبَةٌ للعداوة والبغضاء، مُضعفةٌ للنَّسل، مُذيعةٌ للسِّرِّ، لا سيَّما إذا كان السِّرُّ يتعلَّق بالمجتمع، أو بشخصِ الحاكم، أو بحياة هذا السَّكران، فيَهلَك أو يُهلِك، فالسِّكِّير إذن لا ثقةَ به.

ومن أضرارها: احتقارُ النَّاس للسِّكِّير، وذهابُ الهيبةِ منه والوقارِ له في أعين النَّاس؛ فالسَّكرانُ في هيئته ومشيته وكلامه وحركاته وسكناته كالمجنون يضحك منه غيرُه، ويستهزئ به سواه، ويستخفُّ به كلُّ مَنْ يراه، حتَّى الأطفال؛ لأنَّه يكون أقلَّ عقلًا منهم، فقد ذكر ابن أبي الدُّنيا أنَّه مرَّ بسكران يبول في يده، ويغسل وجهه، وهو يقول: الحمد لله الَّذي جعل الماء طهورًا مطهَّرًا.(١)

والخمرة تُجَرِّئ شاربَها على ارتكاب الإجرام؛ لأنَّها تُجرِّده من عقله، فيفعل فعلَ البهائم وهو لا يدري، وقد أخبرنا ﷺ عن عابدٍ كان فيمن قبلَنا حبسته امرأةٌ ذاتُ مالٍ وجمالٍ، وخَيَّرَتْه بين أن يبقى محبوسًا لديها، أو يفعلَ واحدةً من ثلاثٍ: أن يقتل طفلًا كان عندها، أو يقعَ عليها، أو يشرب كأسًا من الخمر، فقال: «أمَّا القتل، فإثمُه كبير، وجرمُه عظيم، ولا أقتل نفسًا أحياها الله، وأمَّا الزِّنا، فخطيئة كبرى، وفاحشة عظمى، وسبيل سوء، ولا بأس من أن

---

(١) أورده الرازي في تفسيره (٦/ ٤٠١).

أشرب كأسًا من الخمر لا يلبث أن يزول أثرُها، وإثمُها لا يتعدَّاني»، ثمَّ شرب الكأس، ولما ذهب عقله؛ وقع على المرأة، وقتل الغلام، وباء بالآثام الثَّلاثة.[١]

يقول الشَّاعر عمر بن الورديِّ:

وَاهْجُرِ الْخَمْرَةَ إِنْ كُنْتَ فَتًى كَيْفَ يَسْعَى فِي جُنُونٍ مَنْ عَقَلْ؟[٢]

وقد حرَّم كثيرٌ من العقلاء غيرِ المسلمين الخمرةَ على أنفسهم؛ لأنَّهم رأوا أنَّ مَنْ شربها صار هزأة[٣] القوم، وقد قيل للعبَّاس بن مرداس: لم لا تشرب الخمرة؟ فقال: «ما أنا بآخذٍ الجهلَ بيدي فأدخلَه إلى جوفي، ولا أرضى أن أصبح سيِّدَ القوم، وأمسي سفيههم»[٤].

ويدخل في حكم الخمر كلُّ مسكرٍ؛ فقد أخرج مسلمٌ عن النَّبيِّ ﷺ: أنَّه قال: «**كلُّ مسكرٍ خمرٌ، وكلُّ خمرٍ حرامٌ**»[٥].

ومن أنواع المسكرات: الأفيون، والحشيش، والمورفين، ومنها ما يُمضغ، وما يُشمُّ، وما يُدخَّن، وما يُحقَن تحت الجلد؛ وكلُّ «**ما أسكر كثيرُه، فقليلُه حرام**»[٦] وسواء أُخذ بالفم، أو بغيره.

---

(١) رواه النسائي، رقم: (٥١٥٦) عن عثمان بن عفان، بلفظ: «اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث....».

(٢) انظر: مجاني الأدب في حدائق العرب، لشيخو (٤/ ٩٢).

(٣) الهزء: السخرية. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٦/ ٤٦٥٩).

(٤) انظر: الأشربة وذكر اختلاف الناس فيها، لابن قتيبة (صـ١٣٤).

(٥) رواه مسلم، رقم: (٢٠٠٣).

(٦) رواه الترمذي، رقم: (١٨٦٥) وقال: هذا حديث حسن غريب.

وروى الحاكم: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**مَنْ زنى أو شرب الخمر، نزع اللهُ منه الإيمان كما يخلعُ الإنسانُ القميصَ من رأسه**»(١).

وأمَّا القمار، فهو شرُّ المصائب؛ المفقِرُ المهلِكُ، وطرقُه كثيرةٌ يجمعها أن تغالبَ شخصًا على مال؛ فإن غلبته، أخذته منه، وإلَّا أخذه منك، وكلُّ طرقه محرَّمةٌ، سواءٌ كان بالورق، أو الجوز، أو غيرهما؛ ما دام هناك ما يُسمَّى كاسبًا ومكسوبًا منه، أو غالبًا ومغلوبًا، وهو من أقبح طرقِ أكلِ أموالِ النَّاسِ بالباطل.

وما تغلَّب القمار على إنسان إلَّا أذاقه طعمَ الفاقة وذلَّةَ الفقر، ومَن كسبَ مرةً خسر مراتٍ، ومَن ربحَ فَلْسًا خسر ألوفًا، ويُطمع الشَّيطانُ الخاسرَ في تعويض خسارته، فيُغريه باللَّعب ويُغري الرَّابح بزيادة الرِّبح، فيسوقه إلى المغامرة حتَّى يهلك الاثنان.

وكم خرَّب القمار بيوتًا غنيَّةً ورثت المالَ كابرًا عن كابرٍ، حتَّى إذا جاء أشقاها، أذاق أهلَها ذلَّةَ العسر، وألمَ الفقر، يلتمس أحدُهم كسرة الخبزة من أيدي النَّاس، ولعلَّ أكثرهم كان يلتمسها منه!

وكم أفسدَ القمار أخلاقًا، وكم سبَّبَ فضيحةً، وكم قضى على مستقبلٍ، وكم أوقع في بؤسٍ، وأضاع من شرفٍ!

والمقامر كسولٌ يكره العمل، وينتظر الرِّزق من غير بابه المشروع، فيتوهَّم أنَّه سيربح بدرهمه دينارًا فلا يلبث أن يفرَّ منه الاثنان، ثمَّ لا يستطيع رَدَّهما، فيجلس حزينًا مهمومًا، ثمَّ يستدين

(١) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم: (٥٧).

فلا يجد مَنْ يديِّنه فيخسر شرفه، ويخسر ثقة النَّاس به، ويخسر عزَّة نفسه، ويبيت جائعًا مهمومًا، وقد ينتهي به الأمر إلى الانتحار، أو إلى عيشة المهانة والذِّلَّة والسُّؤال، وما انتشر القمار في بلدةٍ إلَّا وقفَ دولابُ عملها الَّذي عليه مدارُ حياة الغنيِّ والفقير.

رأى بعض العقلاء في ولده ميلًا إلى المقامرة، فأعطاه دينارًا، وقال: اذهبْ وقامرْ بهذا الدِّينار على شرطِ أن تبحثَ عن أقدمِ مقامرٍ في البلد، فتلعبَ معه أوَّلَ مرَّةٍ، وقد امتثلَ الولدُ أمرَ أبيه، ووجد المقامرَ القديم فإذا هو شيخٌ فانٍ بائسٌ ذليلٌ جائعٌ عارٍ إلَّا من أسمالٍ باليةٍ، فقال له الولد: لاعِبْني على هذا الدِّينار، فقال له: ولم اخترتني دون سواي؟ قال: لأنَّ أبي أمرني أن ألعب أوَّلَ مرَّةٍ مع أقدمِ مقامرٍ، وقد قيل لي: إنَّك هو، فقال المقامر: يا بنيَّ! إنَّ أباكَ حكيمٌ، وإنَّه قد مضى عليَّ زُهاءُ[1] خمسين سنة وأنا أقامر، وهذه حالتي كما تراها، وإنَّ نهاية القمار جوعٌ وبوارٌ[2]، وخزيٌ وعارٌ، فانصرفَ الولدُ شاكرًا لأبيه نصيحتَه، مُتَّعِظًا بحكمته[3].

والمقامرُ لا يقدر على ترك القمار إلَّا مَنْ هدى الله؛ لأنَّه كلَّما ربح طمع في الزِّيادة، وكلَّما خسر أمل في التَّعويض، فتضعف قواه ويفقد إرادته، والعاقل مَنْ تباعدَ عن الشَّرِّ، ولم يقارب الطُّرق الموصلةَ إليه، حتَّى لا يكون للشَّيطان عليه سبيلٌ «**ومن حام حول**

---

(١) زهاء: مقدار. انظر: لسان العرب، لابن منظور: (٣/ ١٧٥٦).
(٢) بوار: هلاك. انظر: لسان العرب، لابن منظور: (١/ ٣٨٥).
(٣) انظر: تفسير المنار، للحسيني (٢/ ٢٦٧).

الحمى يوشك أن يقع فيه»(١).

قال الله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ﴾ [البَقَرَة: ٢١٩]، وإذا كان الإثم أكبر من النَّفع، والضَّرر أعظمَ من المصلحة، والخسارةُ أكبرَ من الرِّبح؛ فتركُ الضَّررِ نفعٌ، والبعدُ عن الخسارة أو ممَّا يدني من الخسارة ربحٌ.

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم: (١٠٨٢٤).

٤٢- سعادة الدَّارين في العمل الصَّالح

قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النّحل: ٩٧].

فالعمل الصَّالح في هذه الدُّنيا يُسعد صاحبه، فيحييه حياةً طيِّبةً بالتَّمكين في الأرض، وإبدالِ الخوفِ أمنًا، والضِّيقِ سَعَةً، والعسرِ يسرًا، وفي الآخرة له جنَّاتُ النَّعيم، في سدرٍ مخضودٍ، وطلحٍ منضودٍ، وظلٍّ ممدودٍ؛ يقال لهم: ادخلوا الجنَّة بما عملتم في حياتكم، وبما نصرتم دينكم، وجاهدتم في الله حقَّ جهاده، وعيشوا في هذا النَّعيم ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزّخرُف: ٦٨]

روى البخاريُّ عن عديِّ بن حاتم الطَّائيِّ رضي الله عنه، قال: بينما أنا عند رسول الله ﷺ إذ أتاه رجلٌ، فشكا إليه الفاقةَ، ثمَّ أتاه آخرُ فشكا إليه قطعَ السَّبيل، فقال ﷺ: «**يا عديُّ! هل رأيت الحِيرَةَ؟**» قلت: لم أرها، ولقد أنبئت عنها، قال: «**فإن طالت بك حياة، لترَيَنَّ الظَّعِينَة ترحَلُ من الحِيرة حتَّى تطوفَ بالكعبة لا تخاف أحدًا إلَّا الله، ولئن طالَتْ بكَ حياةٌ، لَتُفْتَحَنَّ كنوزُ كسرى بنِ هُرْمُزَ، ولَئِنْ طالَتْ بكَ حياةٌ، لترينَّ الرجلَ يُخرج ملءَ كفِّه من ذهبٍ أو فضَّةٍ، يطلبُ مَنْ يقبلُه منه، فلا يجد أحدًا يقبله، وليلقَينَّ اللهَ أحدُكم يومَ القيامة وليسَ بينَه وبينَه تَرْجمانٍ يُترجم له، فليقولَنّ: ألَمْ أبعثْ إليك رسولًا يبلِّغك؟**

فيقول: بلى يا ربُّ، فيقول: ألم أعطِك مالًا أفضل عليك؟ فيقول: بلى. فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنمَ، وينظر عن شماله فلا يرى إلا جهنَّم» قال عديٌّ: فرأيت الظَّعِينَة ترحل من الحِيرَة حتَّى تطوف في الكعبة لا تخاف إلَّا الله، وكنت فيمن افتتح كنوزَ كسرى بنِ هرمز، ولئن طالت بكم حياة، لترونَّ ما قال أبو القاسم[1].

لقد كان الإسلام بمن قبلَنا منصورًا مؤيَّدًا مهابًا يوم أن كان العاملون يعملون له، وينصرون الله ورسوله، ولكنَّ الخلف - ولا تزال الأيَّام توقظهم، والمصائب تنبِّههم - رقودٌ جمودٌ، قد قامت أسواق الفواحش فينا، وذهب الوفاء والوقار منَّا، وتعطَّلت معالم الدِّيانة فينا، وسكت العلماء، وسكت الصُّلحاء، وكأنَّهم لا يُبصرون ولا يسمعون، وإنَّه لا يليق بقومٍ يؤمنون بالله ورسوله يَدَّعون الإسلام أن يسكتوا على هذا الحال.

إنَّ ديننا يأمرنا أن نعمل الصَّالحاتِ بقوله: ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحجّ: ٧٧]، ولكنَّنا تركنا هذا، وأنشأنا بيوت اللَّهو والفساد، وتركنا بيوت الله خاويةً على عروشها إلَّا من خَدَمِها وموظَّفيها.

إنَّ ديننا يأمرنا أن نربِّي أولادنا التَّربيةَ الصَّالحة بقوله: ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التّحريم: ٦]، ولكنَّنا تركناهم يتعلَّمون من المناهج الكافرة - مناهجِ العدوِّ الكافرِ - دروسًا لا تَمُتُّ لديننا بِصِلةٍ فتسلخُهم من دينهم، وتجرِّدهم من أخلاقهم الإسلاميَّة ومن شَبَّ على شيءٍ

(١) رواه البخاري، رقم: (٣٥٩٥).

شَاب عليه، ولو أنَّنا زوَّدناهم من ديننا وأخلاقنا الكفاية لكان لهم من ذلك درعٌ يقيهم شرورَ عادية الكفر وأهله.

إنَّ ديننا يأمرنا أن نتجنَّب كلَّ ما من شأنه إثارةُ الفتن والعداوات، فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ﴾ [الحجرات: ١١]، ويقول: ﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ﴾ [الحجرات: ١٢]، ويقول: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦]، ويقول: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ﴾ [الحجرات: ٩]، ولكنَّنا خالفنا هذا كلَّه، فأطلقنا الألسن بالكذب والغيبة والنَّميمة، وإثارة الفتن في الأفراد والجماعات.

إنَّ ديننا يأمرنا أن ندعو إلى دين الله، ويقول: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، ويقول: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٣﴾ [فصلت: ٣٣]، ولكنَّنا تركنا هذا كلَّه، وأصبحنا لا حديثَ لنا إلَّا الدُّنيا وزينتُها، والسُّوقُ وأرباحُه وخسائره، والأخبارُ السِّياسيَّة، وأحاديثُ الصُّحف على اختلافها.

إنَّ ديننا يأمرنا أن نحبَّ لإخواننا ما نحبُّه لأنفسنا، وأن نسعى في نفع المجموعة الإسلاميَّة؛ لأنَّها كجسمٍ واحدٍ، وكلُّ فردٍ منَّا عضوٌ في هذا الجسم، فيجب ألَّا يكون هذا العضو أشلَّ عاطلًا، ولكنَّا فضَّلنا مصلحتنا الشَّخصيَّة على مصلحة المجموع، ولا يهمُّنا هلكَ هذا المجموعُ أو سلمَ ما دام النَّفعُ وصلَ إلينا.

روى الشَّيخان عن أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**المؤمنُ للمؤمنِ كالبنيان المرصوصِ يشدُّ بعضُه بعضًا**»[١].

ورُوِي عن أنسٍ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**لا يؤمنُ أحدُكم حتَّى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسِه**»[٢].

إنَّ ديننا يريد منَّا أن نكون أشدَّاءَ على الكفَّار، رحماءَ بيننا، ونحن اليوم أشدَّاءُ على أنفسنا متملِّقون لأعدائنا الكفَّار، نتقرَّب إليهم بكلِّ الوسائل الَّتي تنافي دينَنا، حتَّى صرنا مغلوبين على أمرنا؛ يُطْعَنُ في ديننا على مسمعٍ منَّا، فنسكت، وربَّما استغفرنا في أنفسنا، ولم يغضب منَّا أحدٌ لله! ويُطعن في قرآننا ونبيِّنا، ونسكتُ، وكأنَّنا لا يهمُّنا أمرُ الطَّاعنِ ولا المطعونِ فيه! ولمَّا رأى عدوُّنا الكافرُ ضَعفَنا وخَوَرَنا واستكانَتَنا، طمع فينا، وتداعَتْ أممُه علينا «كما تتداعى الأَكَلَةُ على القصعة» لا لقلَّةٍ فينا، ولكنَّا كما قال نبيُّنا: «**غُثاءٌ كغُثاء السَّيل**»[٣] فأكلونا لقمةً سائغةً هنيَّةً، وكلُّنا مشغولٌ بنفسه ومتاعه ولذَّته.

إنَّ ديننا يأمرنا بمكارم الأخلاق، وينهانا عن سَفَاسِفِها ورذائلها، ونحن بالعكس من ذلك تَسَرْبَلْنا مفاسدَ الأخلاق، وتركنا محاسنَها، وجَمَّلْنا أسماءَ المفاسد، وقَبَّحْنا أسماءَ المحاسن، كذَّبنا وسمَّينا الكذبَ سياسةً، وخدعنا وسمَّينا الخدعةَ حذرًا، ونافقنا وسمَّينا النِّفاقَ

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٦٠٢٦)، ومسلم، رقم: (٢٥٨٥).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه أحمد، رقم: (٢٢٣٩٧).

مجاملةً، وبخلنا وسمَّينا البخلَ اقتصادًا، وأسأنا الظَّنَّ في بعضنا وجعلناه فطنةً، وتركنا الدِّين وسمَّيناه تحرُّرًا، وأعرضنا عن العادات الإسلاميَّة ودعوناه تجدُّدًا، وجاهرنا بالمعاصي وقلنا: هي حرِّيَّةٌ، وهكذا أصبحنا أبعدَ ما نكون عن الدِّين، ونقول: إنَّنا من المسلمين.

روى الطَّبرانيُّ عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**ما نقضَ قومٌ العهدَ إلا سُلِّطَ عليهم عدوُّهم، وما حكموا بغيرِ ما أنزلَ اللهُ، إلَّا فشا فيهم الفقرُ، ولا ظهرت فيهم الفاحشةُ إلا فشا فيهم الموتُ، ولا طفَّفوا المكيالَ، إلَّا مُنِعوا النَّبات، وأُخذوا بالسِّنين، ولا منعوا الزَّكاة، إلَّا حُبس عنهم القطرُ**»(١).

وروى ابن حبَّان والبيهقيُّ عن ابن عبَّاس: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**لَعَنَ اللهُ مَنْ ذبحَ لغيرِ الله، ولعنَ اللهُ من كَمَّهَ أعمى عن السَّبيلِ، ولعنَ اللهُ من سبَّ والديه، ولعنَ اللهُ من تولَّى غيرَ مواليه، ولعنَ اللهُ من عملَ عملَ قومِ لوط**»(٢) وكلُّ هذه الأعمال يُجاهر شبابُنا وشِيبُنا فيها ولا يستحون، بل يتحدَّثون بارتكابهم لها ويفتخرون.

وإنَّ ارتكابَ المعاصي سببٌ لإحباطِ الأعمال، ومُذهِبٌ لبركة الأرزاق، وإنَّ ارتكاب الفجور يؤدِّي إلى توالي المصائب والكروب، وإنَّ الجهلَ بالدِّين وتركَه ظِهْريًّا يجرُّ إلى فعل القبيح وإتيانِ الفاحشة، وإنَّ ارتكابَ القبيح يسبِّب نقصَ الأموال بإذهاب بركاتها، وإنَّ الفواحش تسبِّب الأمراض والأوبئة فيكثر الموتُ، وتقلُّ المواليدُ،

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم: (١٠٩٩٢).
(٢) تقدم تخريجه.

فتنقص الأنفسُ، وكلَّما تكاثرت الأوزار تزايدَ غضبُ الجبَّار على العباد، فلا يُستجاب الدُّعاء؛ لأنَّه كما قال ﷻ: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ [فاطر: ١٠].

فلا عجبَ إذن أن خُذلنا في عدَّة مواطن، وسَلَّط اللهُ علينا مَنْ لا يرعى لنا عهدًا، ولا يحفظ لنا وعدًا، ولا يحترم لنا كلمةً، ولا يرحم لنا شيخًا، ولا يوقِّر لنا دينًا.

ولا عجبَ أن كنَّا أذلَّاءَ في أوطاننا لأجنبيٍّ عنا في ديننا ولغتنا وعاداتنا وأخلاقنا، ولا عجبَ في ذلك ما دمنا لا تهمُّنا إلَّا شهواتنا ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ١٨ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ١٩﴾ [الإسراء: ١٨-١٩].

إن دامت الحال على ما هي عليه، فتدهورُنا لا يقف عند حدِّه هذا، ولكنَّ الأمم تمرض ولا تموت، ولنا في قول الرَّسول ﷺ أملٌ يتجدَّد: «**بدأ الإسلامُ غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء**»(١). والغرباءُ هم الَّذين ينصرون الدِّين، ويؤدُّون النَّصيحةَ لله ولرسوله وللمؤمنين، ويجاهدون في سبيل مبدئهم، والدَّعوةِ لدينهم، ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

(١) رواه الترمذي، رقم: (٢٦٢٩) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.

٤٣- تفسير أوَّل الفاتحة(١)

قال الله تعالى: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة: ١-٥].

الفاتحةُ أمُّ الكتاب تُقرأ كلَّ يومٍ في كلِّ ركعةٍ من ركعات الصَّلاة، وقلَّ من يفهم معناها، وقد أجملَ الله تعالى فيها بعض ما فصَّله في الكتاب، والكتابُ إنَّما نزل بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ، وواجبٌ على العربيِّ أن يفهم معناه، وإلَّا فليفهم معنى الفاتحة الَّتي لا تصحُّ صلاتُه بدونها؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**لا صلاةَ لمنْ لم يقرأْ بفاتحةِ الكتابِ**»(٢) رواه الشَّيخان عن عبادةَ بنِ الصَّامت.

وروى أصحابُ السُّنن عن عبادة بن الصَّامت أيضًا، قال: كنَّا خلفَ رسول الله ﷺ في صلاة الفجر، فقرأ رسولُ الله، فثقُلت عليه القراءة، فلمَّا فرغ قال: «**لعلَّكم تقرؤون خلفَ إمامكم؟**» قلنا: نعم، نفعل هذا يا رسول الله، **قال**: «**لا تفعلوا إلَّا بفاتحةِ الكتاب؛ فإنَّه لا صلاةَ لمنْ لم يقرأ بها**»(٣).

---

(١) [أغلب هذا الموضوع والذي يليه مأخوذ من كتاب «إصلاح الوعظ الديني» للأستاذ محمد عبد العزيز الخولي]. (المؤلف).

(٢) رواه البخاري، رقم: (٧٥٦)، ومسلم، رقم: (٣٩٤).

(٣) رواه الترمذي، رقم: (٣١١) وقال: حديث حسن، وأبو داود، رقم: (٨٢٣)، =

ومعنى بسم الله الرَّحمن الرَّحيم: استعينوا باسمه؛ لأنَّ المؤمن يعتقد أنْ لا نجاحَ له إذا شرعَ في أيِّ عملٍ من أعماله إلَّا أن يذكرَ الله تعالى، ويطلبَ العونَ رجاءَ أن يوفِّقه لإتمام عمله، فيقول: بسم الله الرَّحمن الرَّحيم.

والله: هو اسمٌ لذاتِ مَنْ ليس له سَمِيٌّ جلَّ جلاله.

والرَّحمن: صفةٌ له سبحانه، وصفاتُه كثيرةٌ، ومعنى الرَّحمن: الَّذي عَمَّتْ رحمتُه الإنسانَ والحيوان، والبَرَّ والفاجر، والمسلمَ والكافر في هذه الدُّنيا، يرزقُهم، ويمدُّهم بالحياة وأسبابِ النِّعمة.

والرَّحيم: الَّذي كَمُلَت رحمتُه، فلا ينسى خلقَه، ولا يغفل عنهم طرفةَ عين، فإنَّ بعض النَّاس يُذنب ويعترف بذنبه، ويقول: إنَّ الله غفورٌ رحيم، ورحمته وسعتْ كلَّ شيءٍ.

والحقُّ أنَّ رحمةَ الله وسعتْ كلَّ شيءٍ، وعَمَّتْ كلَّ مخلوقٍ في الدُّنيا، ولكنَّه كتبها في الآخرة للمتَّقين؛ الَّذين يتَّبعون أوامره، ويجتنبون نواهيه، يخافون عذاب الآخرة، فقال: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: ١٥٦-١٥٧]، وقال أيضًا: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠].

= والدارمي، رقم: (١٢٧٨)، والبيهقي، رقم: (٢٩١٩)، والدارقطني، رقم: (١٢١٤).

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزُّمَر: ٧٥]: إنَّ الله ﷻ علينا من الفضل الجزيل ما لا يُحصى، فقد أوجدنا من عدمٍ حتَّى خرجنا إلى هذا العالم ضعافًا لا نقوى على أيِّ حركةٍ، فسخَّر لنا مَنْ يرحمنا ويغذِّينا، حتَّى ربَّى أجسامَنا بما خلقه لنا في هذه الأرض من مآكلَ ومشاربَ ومساكنَ وملابسَ، ثمَّ ربَّى عقولنا فبعد أن كنَّا لا نفهم ولا نعقل صيَّرنا بفضله عقلاء نعرف كيف نتَّقي الشَّرَّ، وندفع عنَّا الضُّرَّ، وربَّى أرواحنا، وهذَّب نفوسنا، فأرسل لنا رسلًا علَّمونا ما نجهل، وأخرجونا بأمره من الظُّلمات إلى النُّور، ومن الجهل إلى العلم، ومن الباطل إلى الحقِّ، وأنزل عليهم كتبًا فيها الحكمةُ والهداية، والنُّورُ الحقُّ عرفنا منها التَّوراة والإنجيل والزَّبور والفرقان، وكلَّف رسلَه أن يشرحوها لنا قولًا وعملًا، وجعلها بعد وفاتهم قانونًا في أرضه يحكم عبادُه به فيما فيه يختلفون.

فهل ننسى هذا الَّذي ربَّى عقولنا وأرواحنا وأجسامنا، وهذَّبها، وأمدَّنا بكلِّ شيءٍ في الحياة، ونشكر غيره، أو ندعو غيره؟ أو هل نشرك معه معبودًا من خلقه؟ لا والله! إنَّ هذا لظلمٌ عظيمٌ، فالحمد لله وحده، والشُّكر له على نعمه الجسام، وإنَّ غاية حمده وشكره في أن نكون ممتثلين لأوامره، متباعدين عن نواهيه ساعين في إصلاح أنفسنا وأهلينا وأولادنا، داعين إليه وإلى نبيِّه ﷺ، باذلين الخير حسب استطاعتنا لإخواننا المسلمين وللبشريَّة بالدَّعوة لهذا الدِّين، فإذا فعلنا ذلك كنَّا لله حامدين، ولفضله شاكرين.

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [فُصِّلَت: ٢]: وقد تقدَّم تفسير هذين الاسمين

الكريمين في البسملة.

﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفَاتِحَة: ٤]: ويومُ الدِّين هو يومُ النُّشور الَّذي يَبعث فيه الله جلَّ جلاله الأوَّلين والآخرين؛ ليجازي فيه المحسنَ على إحسانه، والمسيءَ على إساءته؛ فينتقم فيه من الظَّالمين، ويحسن الجزاء للعادلين العاملين، وهذا اليوم أمرُه بيد الله، وهو الحكم العادل لا يظلم مثقال ذرَّة، فلا ينفع الإنسانَ مالُه ولا أولادُه، ولا يفيده كذبُه واحتياله، ولا يغنيه صحبه وخلانه ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [الانفِطار: ١٩]، ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ۝٣٧﴾ [عَبَسَ: ٣٤-٣٧]؛ فلا الملائكة المقرَّبون تنفع، ولا الأولياء الصَّالحون تشفع، وما للظَّالمين من حميمٍ يُرجى، ولا شفيعٍ يُطاع، ولا ينفع الإنسانَ يومئذ إلَّا إيمانٌ صحيحٌ، وعملٌ صالحٌ.

هذا اليوم أمرُه بيد الله، هو مالكه وحدَه، ينادي فيه: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ [غَافر: ١٦]، فيُجاب هذا النِّداء بكلمة: ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة: ٥]: يعني: لا نعبد إلَّا إيَّاك، ولا نستعين إلَّا بك، والله ﷻ بيده أمر أُولانا وأُخرانا، وأرزاقنا وأعمارنا، وخيرنا وشرُّنا، وحسابنا وعقابنا، وما أعدَّ لصالحنا من نعيمٍ وجنانٍ، وما أعدَّ لطالحنا من عذابٍ ونيرانٍ؛ فلا يليق بنا ما دمنا نعرف ذلك أن نخضع لغيره، ونتذلَّلَ لمن لا يغني عنَّا من الله شيئًا، بل الواجبُ علينا أن نخصَّه بالعبادة والتَّقديس دونَ

سواه، فنصلِّي له مخلصين، وننفق أموالَنا في سبيله صادقين، وندعو لدينه مجتهدين، وننهى عن مخالفته طائعين.

وإنَّ الله تعالى حَرَّم على خلقه أن يعبدوا سواه، ويتذلَّلوا لغيره، وفرض عليهم أن يُخَلِّصوا أنفسَهم من كلِّ رِقٍّ إلَّا لَهُ، وأن يَفُكُّوا رقابَهم من كل غُلٍّ إلَّا ما قَيَّدَهم به، وأَلَّا يكونوا أذلَّاءَ في هذه الحياة؛ لأنَّه لا يليق بالمسلم أن يكون ذليلًا لغير دينه الَّذي أمره به ربُّه، فلا يذلُّ لغريبٍ عنه يستحلُّ مالَه، ويستحلُّ دمَه وعرضَه؛ لأنَّ الله ﷻ قال للمسلمين: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ [الحَجّ: ٧٨]؛ أي: فَضَّلَكم، فيجب على المسلم أن يرعى هذا الفضل.

وكما نخصُّه سبحانه وتعالى بالعبادة، نخصُّه وحدَه بالاستعانة؛ فإنَّه قال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البَقَرَة: ١٨٦]، والرَّسول ﷺ يقول: «**إذا سألتَ، فاسألِ اللهَ، وإذا استعنتَ، فاستعنْ بالله**»(١).

وكثيرٌ من النَّاس يستعينون بالأولياء، أو الأنبياء، أو الملائكة، فينذرون لهم النُّذورَ لقضاءِ حوائجهم، وتفريجِ كربهم، وهذا شركٌ صِرْف؛ لأنَّ هذا الوليَّ وهذا النَّبيَّ قد انقطع حبلُ حياته، وأصبح رهينَ أعماله، لا يملك لنفسه خيرًا ولا نفعًا؛ فكيف يملكه لغيره؟! وهذا النَّبيُّ أو الوليُّ لا يرضى بمعصية الله ﷻ، ولا يحبُّ أن يُذكر

(١) رواه الترمذي، رقم: (٢٥١٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

ويُنسى خالقُه، ولا يودُّ أن يُنادى ويُغفل عن ربِّه، وإنَّما يحبُّ أن يكون النَّاس مثلَه يتقرَّبون لخالقهم بما أمكنهم من إيمانٍ صحيحٍ، وعملٍ صالحٍ.

روى مسلمٌ عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ فيما يرويه عن ربِّه: أنَّه قال: «**يا عبادي! إنِّي حرَّمتُ الظُّلمَ على نفسي، وجعلتُه بينكم محرَّمًا، فلا تَظالَمُوا، يا عبادي! كلُّكم ضالٌّ إلَّا من هديته، فاستهدوني أهدِكم، يا عبادي! كلُّكم جائعٌ إلَّا من أطعمتُه، فاستطعموني أطعِمْكم، يا عبادي! كلُّكم عارٍ إلَّا من كسوتُه، فاستكسوني أَكْسُكُمْ، يا عبادي! إنَّكم تخطئون باللَّيل والنَّهار، وأنا أغفر الذُّنوبَ جميعًا، فاستغفروني أغفرْ لكم، يا عبادي! إنَّكم لن تبلغوا ضرِّي فتضرُّوني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي! لو أنَّ أوَّلكم وآخركم، وإنسكم وجنَّكم، كانوا على أتقى قلبِ رجلٍ واحدٍ منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي! لو أن أوَّلكم وآخركم، وإنسكم وجنَّكم، كانوا على أفجر قلب رجلٍ واحدٍ منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئًا، يا عبادي! لو أنَّ أوَّلكم وآخركم، وإنسكم وجِنَّكم، قاموا في صعيدٍ واحدٍ، فسألوني، فأعطيتُ كلَّ واحدٍ مسألته، ما نقص ذلك ممَّا عندي إلَّا كما ينقص المِخْيَطُ إذا أُدخل البحرَ، يا عبادي! إنَّما هي أعمالُكم أُحصيها لكم، ثمَّ أوفِّيكم إيَّاها، فمن وجدَ خيرًا، فليحمدِ اللهَ، ومن وجدَ غيرَ ذلك، فلا يلومنَّ إلَّا نفسَه**».(١)

---

(١) رواه مسلم، رقم: (٢٥٧٧).

٤٤- تفسير بقيَّة الفاتحة

قال الله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ٦-٧].

يجب علينا أن نستعين بالله في طلب الهداية والتَّوفيق للحقِّ، ونطلبَ منه أن يرشدَنا إلى الطَّريق المستقيم: طريقِ السُّنةِ والجماعةِ المستحقِّين للجنَّة، وما طريقُهم إلَّا كتابُ الله الَّذي فيه شفاءٌ لما في الصُّدور من الأمراض الأخلاقيَّة، والأسقام النَّفسانيَّة، وهدايتنا إليه هو المنهج الَّذي نَنْشُدُه، والَّذي يوصلنا إلى سعادة الدُّنيا؛ بأن يُخلِّصنا من أمراضنا الاجتماعيَّة، وسعادةِ الآخرة؛ بأن يوصلنا إلى رضا الله ونعيم الآخرة.

والقرآن هو كتابٌ أنزله الله على سيِّدنا محمد ﷺ لينظِّم علاقاتِ النَّاس بخالقهم عن طريق العقيدة والعبادات، وبأنفسهم عن طريق الأخلاق والأطعمة والملبوسات، وببعضهم عن طريق المعاملات والعقوبات، فإذا انتظمت هذه العلاقات، كانت الهداية الَّتي نطلبها من الله تعالى إلى الصِّراط المستقيم مضمونةً.

وإنَّ القرآن الكريم هو القانون الَّذي وضعه للمسلمين مَنْ لا يُبَدَّلُ القولُ لديه، وليس فيه نقصٌ فيزاد، ولا عيبٌ فيغير، ولا منقصةٌ

فتنبذ، وقد قال عزَّ من قائلٍ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال تعالى أيضًا: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الإسراء: ٩].

كثيرٌ من المسلمين يظنُّون أنَّ كلمة: أنا مسلمٌ تكفيه إسلامًا، وأنَّ كلمة: لا إله إلَّا الله محمَّد رسول الله مجرَّدةٌ عن كلِّ عملٍ تُدخله الجنَّة، وبعضهم يعتقد أنَّ إيمان أبيه يُخلِّصه من عذاب الله، وأنَّ تلك الكلمةَ وإيمانَ الأب يُنَجِّيانه من عقاب الآخرة، وبعضُهم يظنُّ أنَّ التحاقَه ببعض الأضرحة، أو انتسابه لأحد الأولياء لا بدَّ أن يخلِّصه من نارٍ وقودُها النَّاسُ والحجارة، وأنَّ ذلك هو الصِّراطُ المستقيم، ولكنَّ حكم الله لا يُغيَّر، وقولَه لا يُبدَّل، وما المؤمنُ حقيقةً إلَّا مَنْ وصفه الله ﷻ بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢-٤].

وما الإيمان إلَّا قوله ﷻ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

والصِّراطُ المستقيم الَّذي نطلب من الله الهدايةَ إليه: صراطُ الَّذين أنعم الله عليهم من النَّبيِّين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين، وهو طريقٌ بين طريقين، من سلك أحدَهما غوى ذلك الطَّريق كتابُ الله،

وسنَّة رسوله، كما قال ﷺ: «**تركتُ فيكم شيئين لن تَضِلوا بعدَهما؛ كتابَ الله، وسنَّتي**»(١).

وهو طريقُ مَنْ تعلَّمَ هذا الدِّينَ من مصدره، ووعاه فعمل بما علم، واتَّخذ من القرآن إمامًا ومنهجًا، واتَّخذ من سنَّة الرَّسول هاديًا ومعلِّمًا: فهذا صراط الَّذين أنعم الله عليهم.

أمَّا الطَّريق الثَّاني: فهو طريقُ المغضوب عليهم، وهم مَنْ تعلَّموا هذا الدِّين وتركوا العملَ به، وأَمروا بالخير وجانبوه، وأرشدوا النَّاس ونَسُوا أنفسهم، وارتكبوا المنكرَ وأكلوا الحرام، وزكَّوا أنفسَهم قولًا، ولم يزكُّوها عملًا، ثمَّ أصبحوا من كبار العلماء الثِّقات، وظنُّوا أنَّ علمهم سينفعهم، وهو لا شكَّ مهلِكُهم ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦].

والصِّنف الثَّالث: الضَّالُّون، وهم قومٌ اتَّبعوا قومًا أضلُّوهم وهم من أولئك الَّذين ذكرنا وصفَهم في ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفَاتِحَة: ٧]، أو أنَّهم اتَّبعوا رؤوسًا جُهَّالًا ممَّن أنبأنا عنهم النَّبيُّ ﷺ بقوله: «**إنَّ الله لا يقبضُ العلمَ انتزاعًا ينتزعُه من العِباد، ولكن يقبضُ العلمَ بقبض العلماء حتَّى إذا لم يُبْقِ عالـمًا، اتَّخذَ النَّاسُ رؤوسًا جُهَّالًا فسئلوا، فأَفْتَوا بغير علمٍ؛ فَضَلُّوا وأَضَلُّوا**»(٢) رواه الشَّيخان عن ابن عمرو.

(١) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم: (٣١٩).
(٢) رواه البخاري، رقم: (١٠٠)، ومسلم، رقم: (٢٦٧٣).

أو أنَّهم عملوا على جهالة، فعبدوا الله بما لم يشرِّعْه الله، وتقرَّبوا إلى الله بما يبعد عن طريق الهدى، وضلَّ سعيُهم في الحياة الدُّنيا، وهم يحسبون أنَّهم يحسنون صنعًا.

روى التِّرمذيُّ وأبو داود عن العِرْباض بن ساريةَ، قال: وعظَنا رسولُ الله ﷺ موعظةً وجلَتْ منها القلوب، وذرفتْ منها العيون، فقلنا: يا رسول الله! كأنَّها موعظةُ مودِّعٍ؟ فأوصِنا، قال ﷺ: «**أُوصيكم بتقوى الله والسَّمعِ والطَّاعةِ، وإن تأمَّر عليكم عبدٌ، وإنَّه من يَعِشْ منكم، فسيرى اختلافًا كثيرًا فعليكم بسنَّتي، وسنَّةِ الخلفاءِ الرَّاشدين المَهْدِيِّين من بعدي عَضُّوا عليها بالنَّواجذ، وإيَّاكم ومُحْدَثاتِ الأمور، فإنَّ كلَّ بدعةٍ ضلالة**»(١).

ثمَّ يوصينا ﷺ فيأمرنا بطاعته ما دام حيًّا، وإذا غاب عن أعيننا، فلنتمسكْ بالكتاب؛ فإنَّ فيه النَّجاةَ من المهلكات.

روى الطَّبرانيُّ عن أبي أيَّوب الأنصاريِّ، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وهو مرعوبٌ، فقال: «**أطيعوني ما كنتُ بينَ أَظْهُرِكُمْ، وعليكم بكتاب الله، أَحِلُّوا حلالَه، وحَرِّموا حرامَه**»(٢).

وبالجملة: فليس من الصِّراط المستقيم أن تَهيم في أودية الضَّلال، أو أن تستكبر على الحقِّ، أو أن تُعرض عنه وأنت به عليمٌ، أو أن تضع في سبيله العقبات والعراقيل، وليس من الصِّراط

(١) رواه الترمذي، رقم: (٢٦٧٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأبو داود، رقم: (٤٦٠٧).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم: (٦٥).

المستقيم أن تقف أمام دينك موقفَ الضَّعف والاستكانة؛ فلا تنصره، ولا تؤازره: مكتفيًا بأنَّ «**ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن**»(١)، وأنَّ المقادير تجري في أعنَّتها، وأنَّ عليكم أنفسكم لا يضرُّكم من ضلَّ، وبأمثال هذه الكلمات الَّتي استعملها النَّاسُ على غير وجهها، وأصبحت في عصرنا هذا - عصرِ الضَّعفِ والاستسلام - من آيات الإيمان والإسلام.

إنّ الصِّراط المستقيم - كما قلنا - وسطٌ بين طرفين: لا جُبْنٌ ولا تهوُّرٌ، ولا إسرافٌ ولا تقتيرٌ، ولا إسراعٌ ولا تبلُّدٌ، وإنَّما هو قَوامٌ بين ذلك: استقامةٌ في الأمور، وإصلاحُ النُّفوس، فهو في العمل اعتدالٌ لا إفراطَ فيه ولا تفريط، فمن كلَّف نفسه ما لا يطيق، أو حرَّم على نفسه زينة الله الَّتي أخرج لعباده، أو حَرَمَ نفسه من الطَّيِّبات من الرِّزق، ليس على الصِّراط المستقيم، ومن تحلَّل من جميع الواجبات، أو استباح الفواحش ما ظهرَ منها وما بَطَنَ ليس على الصِّراط المستقيم، وهكذا الإسلام في عقائده وأخلاقه وأعماله هو الصِّراط المستقيم ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٦١﴾ [الأنعام: ١٦١].

وبعد: فلمَّا كانت سورة الفاتحة قوامَ الصَّلاة، اختلف الفقهاء في فرضيَّة قراءتها، وأصحابُ الحديث يوجبونها؛ فقد روى مسلمٌ عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ، قال: «**مَنْ صلَّى صلاةً لم يقرأ فيها بأمِّ القرآن، فهي خِدَاجٌ خِدَاجٌ خِدَاجٌ، غيرُ تَمامٍ**»؛ فقيل لأبي هريرة: إنَّا

(١) رواه أبو داود، رقم: (٥٠٧٥).

نكون وراء الإمام، فقال أبو هريرة: اقرأها، فإنِّي سمعتُ النَّبيَّ ﷺ يقول: «**قال الله ﷻ: قسمتُ الصَّلاةَ بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل؛ فإذا قال العبد: الحمد لله ربِّ العالمين، قال الله ﷻ: حَمِدَني عبدي، وإذا قال: الرَّحمنِ الرَّحيم، قال الله ﷻ: أثنى عليَّ عبدي، وإذا قال: مالكِ يومِ الدِّين، قال: مجَّدني عبدي، وإذا قال: إيَّاك نعبدُ وإيَّاك نستعين، قال: هذا بيني وبينَ عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: اهدِنا الصِّراطَ المستقيمَ صراطَ الَّذين أنعمتَ عليهم غيرِ المغضوبِ عليهم ولا الضالِّين، قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل**»[(١)].

وروى الشَّيخان عن أبي هريرة: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إذا أَمَّنَ الإمامُ، فأمِّنوا؛ فإنَّ من وافقَ تأمينُه تأمينَ الملائكة، غُفر له ما تقدَّم من ذنبه**»[(٢)].

لهذا يُسنُّ للمأموم وللإمام أن يقولا: آمين بعدَ سكتةٍ قصيرةٍ، ومعنى آمين: اللَّهمَّ اسمعْ واستجبْ.

(١) رواه مسلم، رقم: (٣٩٥).

(٢) رواه البخاري، رقم: (٧٨٠)، ومسلم، رقم: (٤١٠).

٤٥- مكانة العلماءِ في الأمَّة

روى الشَّيخان عن عبد الله بنِ عمرِو بنِ العاص رضي الله عنهما، عن النَّبيِّ ﷺ، قال: «**إنَّ الله لا يقبضُ العلمَ انتزاعًا ينتزعُه من صدور العِباد، ولكن يقبضُ العلمَ بقبضِ العلماء، حتَّى إذا لم يُبْق عالـمًا، اتَّخذ النَّاسُ رؤوسًا جُهَّالًا؛ فسُئلوا، فأَفْتَوا بغير علمٍ؛ فَضَلُّوا، وأَضَلُّوا**»(١).

فالله عز وجل لا يُنسي العالمَ علمَه، وإنَّما يقبضه إليه من غير أن يكون له من يخلفه في علمه وتقواه، حتَّى إذا انتهى العلماء، ولم يبقَ مَنْ يقوم مقامهم، اضطرَّ النَّاسُ أن يتَّخذوا جُهَّالًا محلَّ أولئك العلماء يأبون أن يقول أحدُهم: لا أدري؛ فإذا ما سُئِلُوا، أجابوا حسب هواهم - والعلم لا يكون حسب الهوى - فضلُّوا بالجواب الجاهل، وأضلُّوا مَنْ سألَ.

وهذا هو الواقع؛ إذ إنَّ العلماء - وأعني بهم علماءَ الدِّين الَّذين كانوا نور الدُّنيا، وكانوا سراجًا يُستضاء بهم في ظلمات هذه الحياة - قد قُبضوا ولم يبقَ من يخلفهم، فكلُّ مَنْ مات منهم بقيت ثُلمَتُه(٢) مفتوحةً لا يوجد من يسدُّها، والنَّاس جاهلون قد أهملوا واجبَ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الثلمة: الثغرة. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٤/ ١٠٣).

التَّعلُّم، فأساؤوا إلى أنفسهم، وأهملوا واجبَ القيام بتعليم مَنْ يعلِّمهم، أو يفتيهم عند الحاجة، فأصبحنا بهذا الإهمال في بيداءَ في ليلةٍ ظلماءَ ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [المُلك: ٢٢].

وروى الطَّبرانيُّ عن الحسين بن عليٍّ وابن عبَّاس وابن مسعود والبيهقيِّ عن أبي سعيد: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**طلبُ العلمِ فريضةٌ على كلِّ مسلم**»(١).

قال العلماء: إنَّ الفرض في طلب العلم هو ما لا يسع البالغَ العاقلَ جَهْلُه؛ كفقه الصَّلاة والصِّيام، وفقهِ الزَّكاة على من عندَه مال، وفقهِ البيع والشِّراء للتَّاجر، وفقهِ الحجِّ على من استطاع إليه سبيلًا، وقال البيضاويُّ رحمه الله: العلمُ بوحدانيَّة الله ونبوَّةِ رسله، وكيفيَّة الصَّلاة والصِّيام، فرضُ عينٍ على كلِّ مسلمٍ عاقلٍ.(٢)

والآن، وقد خلت بلادُ المسلمين من العلماء أو كادت، وذهب بذهابهم فقهُ الدِّين: حلَّت أخطارٌ ومخافاتٌ تنغِّصُ العيش، والقلوبُ إن لم تُسقَ بماء العلم لن تكون موطنًا للطَّهارة والعبادة، ولا مغرسًا للأخلاق الفاضلة، ومَنْ لا علمَ عنده لا خيرَ فيه؛ لأنَّه لا يعرف كيف يتقرَّب إلى معبوده، ومَنْ عمل بدون علمٍ، كان ما يفسده أكثرَ ممَّا يصلحه.

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم: (١٠٤٣٩)، والبيهقي، رقم: (١٥٤٧).

(٢) انظر: السراج المنير، للعزيزي (٣/ ٢٩٣).

وروى الشَّيخان عن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**من يردِ اللهُ به خيرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّين**»(١).

وروى التِّرمذيُّ عن أبي أمامة: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**فضلُ العالمِ على العابدِ كفضلي على أدناكم**»، ثمَّ قال: «**إنَّ الله وملائكتَه وأهلَ السَّموات والأرض، حتَّى النَّملةَ في جُحْرها، وحتَّى الحوتَ ليصلُّونَ على معلِّمي النَّاسِ الخيرَ**»(٢)؛ ذلك أنَّ العلمَ هو الوسيلة لإصلاح الدَّارين، فالإنسان يحيا في ظلمةٍ حالكةٍ، والعلمُ نورٌ، والسَّير في الظَّلام بلا نورٍ وسيلةٌ إلى التَّعثُّر والهلاك، فالعلم أمرٌ ضروريٌّ لكي يهتدي به الإنسان في سيره، حتَّى ينجو ممَّا يحيط به من هلاكٍ.

روى أبو داود وابن ماجه والحاكم عن عبد الله بنِ عمرِو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن النَّبيِّ ﷺ، قال: «العلمُ ثلاثة، وما سوى ذلك، فهو فضلٌ: آيةٌ مُحْكَمَةٌ، أو سُنَّةٌ قائمةٌ، أو فريضةٌ عادلةٌ»(٣).

وقد ثبت أنَّ العالِم يجري عملُه له بعد موته كما كان حيًّا إذا ترك أثرًا يُنتفع به بعد موته، فهو حيٌّ في جوار الرَّحمن، تسرحُ روحُه في رياض الجِنان خالدًا فيها أبدًا، قال رسول الله ﷺ: «**إذا ماتَ ابنُ آدمَ، انقطع عملُه إلا من ثلاث: صدقةٍ جارية، أو علمٍ يُنتفع به،**

(١) رواه البخاري، رقم: (٧١)، ومسلم، رقم: (١٠٣٧).
(٢) رواه الترمذي، رقم: (٢٦٨٥) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.
(٣) رواه أبو داود، رقم: (٢٨٨٥)، وابن ماجه، رقم: (٥٤)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم: (٧٩٤٩)، وقال: الحديثان ضعيفان.

أو ولدٍ صالحٍ يدعو له» رواه مسلم وغيرُه عن أبي هريرة[١].

وقد ثبت أنَّ الله ﷻ يرفع الَّذين أُوتوا العلم درجاتٍ بفضل علمِهم وعملِهم بما علموا، وبفضل تعليمهم وإرشادِهم للنَّاس؛ يرفعهم على مَنْ سواهم في الدُّنيا بالشَّرف، وعلوِّ المنزلة والمكانة في القلوب، ويرفعهم في الآخرة بالنَّعيم ذلك إذا حَسُنت نيَّاتُهم، وقنعوا بما آتاهم الله من دنيا، ورغبوا عمَّا في أيدي النَّاس من حُطامٍ، واحترموا أنفسَهم، فلم تُنتهك حرماتُ الله أمامَ أعينهم، ولم يُدسْ دينُ الله بين أيديهم، ولم يسمحوا ببدعةٍ تُرتكب بين سمعهم وبصرهم؛ فإذا فعلوا ذلك كان الله معهم، وصدق الله لهم وعدَه بقوله: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

أخرج التِّرمذيُّ وأبو داود وغيرُهما عن أبي الدَّرداء، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **«مَنْ سلكَ طريقًا يبتغي به علمًا، سلكَ اللهُ به طريقًا إلى الجنَّة، وإنَّ الملائكةَ تضعُ أجنحتَها رِضًا لطالب العلم، وإنَّ العالمَ ليستغفرُ له مَنْ في السموات ومَنْ في الأرض، حتَّى الحِيتانُ في الماء، وفضلُ العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإنَّ العلماء ورثةُ الأنبياء، وإنَّ الأنبياء لم يورِّثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنَّما ورَّثوا العلم، فمن أخذه، فقد أخذَ بحظٍّ وافرٍ»**.[٢]

وكفى العالمَ مدحًا قولُه ﷻ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزُّمَر: ٩]، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فَاطِر: ٢٨].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه الترمذي، رقم: (٢٦٨٢)، وأبو داود، رقم: (٣٦٤١).

وورد في الأثر عن عليٍّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه: أنَّه قال: «**العالمُ أفضلُ من الصَّائم القائم المجاهدِ، وإذا ماتَ العالم، ثُلِمَ**[١] **في الإسلام ثُلْمَةٌ لا يسدُّها إلَّا خلفٌ منه**».[٢]

وروى الطَّبرانيُّ عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**علماءُ هذه الأمَّة رجلان: رجلٌ آتاه الله علمًا، فبذله للنَّاس، ولم يأخذْ عليه طمعًا، ولم يشترِ به ثمنًا؛ فذلك تستغفر له حيتانُ البحر، ودوابُّ البرِّ، والطَّيرُ في جوف السَّماءِ، ورجلٌ آتاه الله علمًا، فبخلَ به عن عباد الله، وأخذَ عليه طمعًا، واشترى به ثمنًا؛ فذلك يُلْجَم يومَ القيامة بلجامٍ من نارٍ، وينادي منادٍ: هذا الَّذي آتاه الله علمًا، فبخلَ به عن عبادِ الله، وأخذَ عليه طمعًا، واشترى به ثمنًا، وكذلك حتَّى يفرغ الحساب**».[٣] والله عز وجل يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿١٧٦﴾﴾ [البَقَرَة: ١٧٤-١٧٦].

---

(١) ثلم: كسر، انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣١/ ٣٥٧).

(٢) انظر: إحياء علوم الدين، للطوسي (١/ ٧).

(٣) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم: (٧١٨٧).

٤٦- واجب العلماءِ

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة: ١٢٢].

وما كان المؤمنون لينفروا كافَّةً إلى الجهاد، ولكن يجاهدُ من كلِّ فرقةٍ طائفةٌ، والباقون يُقيمون مع رسول الله ﷺ ليتعلَّموا ما أنزل الله عليه؛ ليتفقَّهوا في الدِّين، حتَّى إذا رجع إخوانهم من الجهاد، كان هناك مَنْ يبلِّغهم بما أنزلَ الله على رسوله فربَّ مبلَّغٍ أوعى من سامعٍ لعلَّهم يحذرون ما يجبُ اجتنابُه.

لكلِّ دينٍ من الأديان رجالٌ يعرفون أسراره وحكمَه، يقال لهم: العلماء، أو الفقهاء، ووظيفةُ هؤلاء إرشادُ العامَّة إلى حقيقة دينهم، وبيانُ ما أحلَّ الله لهم فيه، وما حرَّم عليهم.

ونحن - المسلمين - نرى أنَّ ديننا خيرُ الأديان، وأنَّ نبيَّنا خاتم الأنبياء، وأنَّه لا دينَ ينسخ ديننا، وأنَّ علماءنا القائمين بواجبهم نحو دينهم ورثةُ الأنبياء، ومصابيح الأمَّة: يعتزُّ هذا الدِّين إذا أعزُّوه، ويُنصر بهم إذا نصروه، وأوَّلُ واجبِ هؤلاء العلماء: إرشادُ الجاهل إلى أسرار دينه بالوعظ العامِّ كما كان يفعلُه السَّلف؛ فيعيِّنون لهم حلقاتٍ في أوقاتٍ معيَّنةٍ يلقون فيها الدُّروسَ المختصرة أو المطوَّلة

يرشدونهم فيها لما أُحِلَّ لهم، وما حُرِّمَ عليهم.

ومن واجبهم أيضًا: الدَّعوةُ إلى الدِّين الحنيف، فقد كان السَّلف الصَّالح يشدُّون الرِّحال إلى البلاد النَّائية لينشروا دينهم، وليدعوا إليه الغريبَ عنه، وإذا كانت الدَّعوة واجبةً على كلِّ مسلمٍ، فهي على العالمِ أوجبُ.

ومن واجبهم أيضًا: التَّعفُّفُ عمَّا في أيدي النَّاس، واتِّقاءُ الشُّبَه، والابتعادُ عن مواطن الزَّلل، وهي وإن كانت لازمةً لكلِّ مسلم، إلَّا أنَّها في أهل العلم ألزمُ؛ لأنَّهم متى حاموا حولها، احتقرهم العامَّة، وانحطَّت منزلتهم في قلوبهم.

روى الطَّبرانيُّ عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«علماءُ هذه الأمَّة رجلان: رجلٌ آتاه الله علمًا، فبذله للنَّاس، ولم يأخذْ عليه طمعًا، ولم يشترِ به ثمنًا؛ فذلك تستغفر له حيتانُ البحر، ودوابُّ البَرِّ، والطَّيرُ في جوف السَّماء، ورجلٌ آتاه الله علمًا، فبخلَ به عن عباد الله، وأخذ عليه طمعًا، واشترى به ثمنًا؛ فذلك يُلْجَم**[1] **يومَ القيامة بلِجَام من نارٍ، وينادي منادٍ: هذا الَّذي آتاه الله علمًا، فبخلَ به عن عباد الله، وأخذ عليه طمعًا، واشترى به ثمنًا؛ وكذلك حتَّى يفرغ الحساب»**[2].

إنِّي لأعجب من حالة علمائنا وحَمَلَة الدِّين فينا في هذا العصر،

(١) اللجام: هي الحديدة في فم الفرس. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٣/ ٤٠٠).

(٢) سبق تخريجه.

وميلِهم إلى العزلة، وإخلادِهم إلى الخمول، وقد ندر فيهم وجودُ ذلك العالمِ النَّشطِ الَّذي أعطاه الله من العلم ما يجب عليه أن ينشره بين أفراد الأمَّة الإسلاميَّة؛ ليوضِّح لهم حقيقةَ دينهم، وما يجب عليهم فعله، وما يجب عليهم تركه؛ وكأنَّهم نسوا قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩﴾ [البقرة: ١٥٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤﴾ [آل عمران: ١٠٤].

إنِّي لأعجب- وحُقَّ لغيري أن يَعجب - من حالتهم هذه، مع اعتقادهم أنَّ الدَّعوة إلى الخير فرضُ عينٍ عليهم دونَ غيرهم من الأمَّة؛ لأنَّهم علموا فكتموا، والله ﷻ أمر نساء نبيِّه أن يبلِّغن ما علَّمهنَّ رسولُ الله ﷺ؛ فقال لهنَّ تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ٣٤﴾ [الأحزاب: ٣٤]. وكان رسول الله ﷺ أتقى الأتقياء، وأشرفَ النَّاس على الإطلاق لم يعتزل أحدًا، ولم يتكبَّر على دعوةِ مشركٍ، ولم يمتنعْ من دعوةِ كافرٍ، ولا نصيحةِ عاصٍ، وإنَّما كان يرشدُ هذا، وينصحُ ذاك، ويعظُ الجميع.

فواجبٌ على المسلمين وورثةِ الأنبياءِ خاصَّةً أن يقتدوا بهذا النَّبيِّ الكريم الَّذي بايعه أصحابُه على السَّمع والطَّاعة، والنُّصح لكلِّ مسلمٍ، وقد اتَّبع الصَّحابةُ والسَّلفُ الصَّالحُ رسول الله ﷺ في هَدْيِه هذا؛ فكان أحدُهم يقسم أوقاته للعبادة، ولطلب العلم، وللعمل في

كسب العيش، ولإرشاد المسلمين عامَّتِهم وخاصَّتِهم، لا يردُّه عن ذلك تقشُّفٌ، ولا رهبنةٌ ولا وسوسةٌ ولا نفورٌ من النَّاس، وإنَّما دينه يفرض عليه أن يكون مع النَّاس وللنَّاس.

وترى في كثيرٍ من بلاد الإسلام - الَّتي دبَّت فيها روحُ المدنيَّة الغربيَّة الكافرة - علماءَ الدِّين قد ألفوا الوحدة، واستولى عليهم اليأس؛ لأنَّهم رأوا أمَّتهم مالت عن الدِّين، واكتفت به اسمًا لا عملًا، وقد نصحهم بعضُهم، فأبوا ثمَّ يئسوا، وقد كان خيرًا لهم من أن يعتزلوهم أن يجادلوهم بالحسنى، ويدحضوا أقوالهم بالحجج، ويبيِّنوا لهم مضارَّ سيرهم وسيرتهم، ويظهروا لهم محاسنَ دينهم، وأنَّهم لا خيرَ فيهم إن لم يتمسَّكوا بكتاب ربِّهم، وأنَّ في كتاب ربِّهم كلَّ ما يريدون من مدنيَّةٍ وعزَّةٍ، وحكومةٍ وسلطانٍ، وأنَّ هذه المدنيَّةَ والسُّلطانَ ليست كمدنيَّةِ الغرب وسلطانه: مدنيَّةٍ مائعةٍ، وسلطانٍ جائر، وأنَّ مدنيَّة القرآن مدنيَّةُ قوَّةٍ وجلادةٍ ورجولةٍ، وسُلطانه سلطانُ عدلٍ ورفقٍ.

وقلَّ أن ترى في علمائنا اليومَ ذلكَ العالمَ المتَّصفَ بهذه الصِّفة، والممتثلَ أمرَ القرآنِ بقوله: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وهذا هو عين الجهاد، والله ﷻ يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩].

كان الواجب عليهم التَّحلِّي بالعزيمة والصَّبر، وكان الأَوْلَى بهم الاتِّفاق على إصلاح الأمَّة بما أمكن، ثمَّ تحمَّل ما ينالهم من الأذى بصبرٍ وإرادةٍ قويَّةٍ وهمَّةٍ عاليةٍ، وأن يتواصوا بالصَّبر حتَّى يَنْجوا من

الخسران الَّذي أعدَّه الله للإنسان.

من أين يعرف العامَّةُ صلاتَهم وصيامَهم وزكاتَهم وحجَّهم؟ من أين يعرفون بيعَهم وشراءهم، وما حُرِّمَ عليهم، وما أُحِلَّ لهم إذا بخل عليهم طلبةُ العلم بعلمهم، ولم يتقدَّموا بأمرهم ونهيهم وإرشادهم إلى سبيل دينهم؟ ليت شعري أتكون التَّبعةُ على العامَّة الَّذين لم يطلبوا من العلماءِ الهدايةَ والرَّشادَ، أم على طلبةِ العلمِ الَّذين لم يبلِّغوا أمرَ ربِّهم، ولم ينذروا قومهم؟

ليست طريقةُ الأنبياءِ الانزواءَ في المساجد، ولزومَ المساكن، وإنَّما طريقتُهم الخروجُ إلى مجتمعاتِ النَّاس، والدَّعوةُ إلى الخير، ومقاومةُ الصَّعوبات، والاستهانةُ بالمخاوف، قال رسول الله ﷺ: «**والَّذي نفسي بيده! لتأمُرُنَّ بالمعروف، ولتنهَوُنَّ عن المنكر، أو ليوشِكَنَّ اللهُ أن يبعث عليكم عقابًا منه، ثمَّ تدعونه فلا يُستجاب لكم**»(١)، وبما «**أنَّ العلماء ورثةُ الأنبياء**»(٢)، فواجبُ الورثة القيامُ بما تركه لهم مورِّثوهم.

يجب أن يكون واجبُ العلماء حبَّ الواجب، وإطاعةَ الله، وإرضاءَ الضَّمير، ولا يكون ذلك إلَّا بالدَّعوة إلى الخير، أمَّا الخمولُ، والانزواء، ولزومُ المسكن، فليس هذا من شأن حَمَلَة العلم ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه الترمذي، رقم: (٢٦٨٢).

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ
وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنعام: ٣٤].

٤٧- كتمانُ العلم

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾ [البَقَرَة: ١٧٤-١٧٦].

نزلت هذه الآية في أحبار اليهود الَّذين كانوا يصيبون من سفلتهم الهدايا والمآكل، وكانوا يطمعون أن يكون النَّبيُّ منهم، فلمَّا بُعث خافوا زوالَ رياستهم، فعمدوا إلى كتمان ما نزَّل الله من الكتاب عن بعثة نبيٍّ قد حانَ حينُه؛ فكانوا يذكرون لها تأويلاتٍ باطلةً، ويصرفونها عن دلالتها؛ فعاب اللهُ فعلَتَهم هذه، وأنزل فيهم الآياتِ بأنَّ الَّذين يكتمون ما أنزل الله في كتابه من ذكرٍ صريحٍ على نبوَّةِ رسولٍ قد آن أوانُ بعثته، ويشترون بهذا الكتمان ثمنًا قليلًا من حطام الدُّنيا لا بقاء له يؤدِّي بهم إلى غضب الله، وإلى نارٍ شديدة العذاب، ويوم القيامة لا يكلِّمهم الله، ولا يزكِّيهم، ولهم عذابٌ أليمٌ.

فهم قد فعلوا فعلَتَهم الشَّائنةَ؛ فاشتروا الضَّلالةَ بالهدى، والعذابَ بالمغفرة، فكتموا الحقَّ، وصرَّحوا بالباطل، وكتموا الصِّدقَ، وصرَّحوا بالكذب، فويلٌ لهم، وما أصبرهم على النَّار!

ونزَّل اللهُ ﷻ الكتابَ وحفظَه، وذكر فيه الحقَّ، وبيَّن فيه الباطلَ، والَّذين اختلفوا فيه؛ فأخفوا حَقًّا ذكره، وأعلنوا باطلًا لم يذكره، واستغلُّوا جهلَ الجُهَّال: لفي شقاقٍ بعيدٍ بعدَ ما بين النُّور والظَّلام، وفي الحديث: «**وما لم تحكمْ أئمَّتهم بكتاب الله، ويتحرَّوا فيما أنزل الله، إلا جعل الله بأسَهم بينَهم**»[1].

وإنَّ كتمان الحق يبعد عن الحقِّ، ويُضَلِّل عن الطَّريق؛ فكلٌّ يؤوِّلُ حسب رأيه؛ لأنَّ الحقَّ واحدٌ، والباطل متعدِّدٌ؛ فالحقُّ هو ما دعا إليه كتابُ الله، والباطلُ ما دعت إليه شتَّى الأهواء؛ فلهذا كان الَّذين اختلفوا في الكتاب في شقاقٍ ونزاعٍ، كلٌّ يريد النُّصرةَ لهواه، يقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، ويقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وكلُّ مَنْ كتم آياتِ الله، وبَخِلَ بهدايته على النَّاس، فقد استحقَّ غضبَ الله، وكلُّ مَنْ لبس لباسَ الدِّين المبتدع، وانتحل ألقابه، وتحاشى قولَ: لا أعلم، استحقَّ ما استحقَّه الأوَّلون، ولو أنَّهم فهموا قولَ الله لرسوله ﷺ: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الحج: ٦٧-٦٩].

إنَّ القرآن الكريم لم يكتفِ بالوعيد على الكتمان، بل أمر من يعلم أن يعلِّم الجاهل، وأمر بالوعظ والإرشاد، وتنبيهِ الغافلين، فقال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وقال: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟

(١) سبق تخريجه.

﴿فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٢]، وقال أيضًا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، ولعن أولئك الَّذين كتموا العلم، ولم يبيِّنوه، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلْكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [البقرة: ١٥٩].

وقد قال بعض الفقهاء: إنَّ إرشادَ النَّاس ووعظَهم فرضُ كفايةٍ لا أقول هذا؛ فإنَّ الله ﷻ أوجبَ على كلِّ مَنْ تعلَّم أن يُعَلِّمَ الَّذي لم يتعلَّم، وإذا كان الله قد أخذ الميثاق على كلِّ من أوتوا الكتاب من قبلنا أن يبيِّنوه للنَّاس، ولا يكتموهُ؛ فالميثاقُ علينا أولى؛ لأنَّ الله وصفنا بأنَّنا خيرُ أمَّة أُخرجت للنَّاس، وأوجب علينا تكوينَ أمَّةٍ منَّا يدعون إلى الخير، ويأمرون النَّاس بالمعروف، وينهونهم عن المنكر؛ فحينئذ يكون تعليمُ الجاهل وإرشادُ الضَّالِّ على المسلمِ العالمِ فرضَ عينٍ؛ كلٌّ بحسب علمه.

رُوِيَ أنَّ عليًّا بنَ أبي طالب كرَّم الله وجهه قال: «ما أخذَ اللهُ تعالى على أهل الجهل أن يَتَعَلَّمُوا، حتَّى أَخَذَ الميثاق على أهلِ العلمِ أَنْ يُعَلِّمُوا»(١)

وقال أبو هريرة: «لولا أَنْ أخذَ اللهُ تعالى على أهل الكتاب أن يبيِّنوا، ما حدَّثتكم»، وتلا الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].(٢)

---

(١) انظر: الإمتاع والمؤانسة، للتوحيدي (١/ ٣٥٤).

(٢) انظر: تفسير المراغي (٤/ ١٥٨)، وهذا القول يُنسب للحسن، بلفظ: «**لَوْلا الْمِيثَاقُ الَّذِي أَخَذَهُ اللَّهُ عَلَى أهل الْعِلْمِ مَا حَدَّثْتُكُمْ بِكَثِيرٍ مِمَّا تُسْأَلُونَ عَنْهُ**».

وإنَّه من العَجَب أن نرى مَنْ ينتسبون إلى العلم تُنتهك حرماتُ الله أمامَ أعينهم، ويُداسُ دينُ الله بين أيديهم، ويرون البدعَ تمحو السُّنن، والضَّلالَ يغشى الهدى، ولا ينبضُ لهم عرقٌ، ولا ينفعل لهم وِجدانٌ، ولا يندفعون لنصرة الله بيدٍ ولا لسانٍ، وإذا قيل لأحدهم: إنَّك جاهلٌ أو خاملٌ، أو قيل له: إنَّ فلانًا يَعيب عليك خمولَكَ أو جمودَك، ثارَ واضطرب، وربَّما سهرَ اللَّيالي مفكِّرًا كيف ينتقم!

روى الخطيبُ، وابنُ عبدِ البرِّ، عن جابرِ بنِ عبدِ الله: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**العلم علمان: علمٌ في القلب، فذاك العلمُ النَّافع، وعلمٌ على اللِّسان، فذاك حجَّةُ الله على ابنِ آدمَ**». (١)

وروى أبو داود، والتِّرمذيُّ عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ: «**مَنْ سُئل عن علمٍ، فكتمَهُ، أُلْجِمَ يومَ القيامة بلِجَامٍ من نارٍ**». (٢)

وكثيرٌ من علماء هذا الزَّمان، أو ممَّن نَسبوا أنفسهم إلى العلماء يلتمسون بعلمهم عَرَضَ الحياة الدُّنيا، فيتقرَّبون بعلمهم إلى الحكَّام، ويتملَّقون به أربابَ السُّلطان؛ لعلَّهم أن يصيبوا عندَهم منزلةً، أو ينالوا به مكانةً، والرَّسول ﷺ يقول كما رواه أحمد وأبو داود عن أبي هريرة: «**مَنْ تعلَّم علمًا ممَّا يُبتغى به وجهُ الله ﷻ لا يتعلَّمه إلا ليصيبَ به عَرَضًا من الدُّنيا، لم يجدْ عَرْفَ الجنَّةِ(٣) يومَ القيامة**»، (٤)

---

(١) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رقم (٢٨٩٤٧).

(٢) رواه أبو داود، رقم: (٣٦٥٨)، والترمذي: (٢٦٤٩) هذا: حديث حسن.

(٣) عرف الجنة: أي: ريحها الطيبة. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٣/ ٢١٧).

(٤) رواه أحمد، رقم: (٨٤٥٧)، وأبو داوود، رقم: (٣٦٦٤)، وابن ماجه، رقم: (٢٥٢).

ويقول صلوات الله وسلامه عليه:

«لا تزالُ هذه الأمَّةُ بخيرٍ تحتَ يدِ الله وفي كَنَفِه ما لَمْ يُمالِ قُرَّاؤُها أُمَرَاءَهَا، ولم يُزَكِّ صُلَحَاؤُها فُجَّارَها، ولم يمارِ أخيارُهم أشرارَها، فإذا فعلوا ذلكَ، رفعَ اللهُ يدَه عنهم، ثمَّ سَلَّط عليهم جبابرتَهم، فساموهم سوءَ العذاب، وضربَهم بالفقر والفاقَة، وملأَ قلوبَهم رعبًا».(١)

ومن العلماء قومٌ لا يرون للقرآن الَّذي هو الدِّين الإسلاميُّ فائدةً تتعلَّق بمعناه أو العمل به، بل كلُّ فائدته عندهم أن يُتبرَّك به، ويتعبَّد بألفاظه، ويُستشفى به من أمراض الجسد، وعيَّنوا لكلِّ مرضٍ آيةً أو سورةً، وجعلوا لبعض السُّور أسرارًا في جلب الرِّزق، وطرد الفقر، ومنع البلاء، وعقم النِّساء، إلى غير ذلك، أمَّا أمراضُ الرُّوح وأمراضُ القلب الَّتي أنزل الله القرآنَ شفاءً لها فلا.

لم يُحفظ كتابٌ من الكتب السَّماويَّة كما حُفظ القرآن، ولم يُنشر كما نُشر القرآن، فجماهيرُ المسلمين حفظوه عن ظهر قلبٍ من القرن الأوَّل حتَّى الآن، وها هو يتلى في كلِّ مكانٍ: في الأسواق، وفي الشَّوارع، وفي البيوت، وفي الإذاعات، وفي المجتمعات، في الأفراح، وفي الأحزان، ومع هذا، فإنَّ المسلمين تركوا القرآن؛ لأنَّ العلماء تركوا تبيينه للنَّاس، فلم تغنِ عنهم تلك التلاوةُ شيئًا.

(١) أورده الداني في السنن الواردة في الفتن، رقم: (٣٣١).

وجمهورُ المسلمين يعلمون أنَّهم منحرفون عن دينهم، ويعلمون أنَّهم ليسوا على شيءٍ ممَّا أَمر به ربُّهم، وأنَّ الضَّلال قد عمَّ، لكنَّ الملام على العلماء الَّذين لم يبيِّنوا، ولو بيَّنوا كتابَ الله للنَّاس، لقبلوه «**فالعلماء ورثةُ الأنبياء**»[١]، وكما أوجب الله تعالى على الأنبياء أن يدعوا عباده إليه، أوجبَ على العلماء دعوةَ النَّاس إلى الحقِّ، وإرشادَهم إلى ما لهم وعليهم من حقوقٍ وواجباتٍ، والطَّبيبُ يجب أن يداوي نفسه أوَّلًا، حتَّى يستطيعَ أن يطبِّب النَّاس.

لهذا كان أوَّل واجب العلماء أن يُطهِّروا نفوسَهم من أدران[٢] النَّقص، ويُزيلوا ما علقَ بها من خفايا الغِلِّ والحقد والاختلاف؛ فمتى صَفَتْ سرائرُهم وأشرقتْ بنور الإخلاص نفوسُهم سمعهم النَّاسُ، ووجدوا لدعوتهم إلى الله ميادينَ واسعةَ الأرجاء، وآذانًا تُصغي لهم أحسنَ الإصغاء، ومن كان مع الله، كان الله معه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾ [النّحل: ١٢٨].

روى ابن ماجه عن ابن مسعود: أنَّه قال: لو أنَّ أهل العلم صانوا العلم، ووضعوه عند أهله، لسادوا به أهلَ زمانهم، ولكنَّهم بذلوه لأهل الدُّنيا لينالوا به من دنياهم، فهانوا عليهم، سمعت نبيَّكم ﷺ يقول: «**من جعلَ الهمومَ هَمًّا واحدًا هَمَّ آخرته، كفاه الله هَمَّ دنياه، ومَنْ تشعَّبتْ به الهمومُ - أي: في أحوال الدُّنيا - لم يبالِ اللهُ في أيِّ أوديتِها هَلَكَ**».[٣]

(١) رواه الترمذي، رقم: (٢٦٨٢).
(٢) الدرن: الوسخ. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٥/ ٧).
(٣) رواه ابن ماجه، رقم: (٢٥٧).

وروى الدَّارميُّ عن الأحوص بن حكيمٍ، عن أبيه، قال: سأل رجلٌ النَّبيَّ ﷺ عن الشَّرِّ، فقال: «**لا تسألوني عن الشَّرِّ، وسلوني عن الخير، لا تسألوني عن الشَّرِّ، وسلوني عن الخير، لا تسألوني عن الشَّرِّ، وسلوني عن الخير ألا إنَّ الشَّرَّ شرارُ العلماء، وإنَّ الخير خيارُ العلماء**»(١).

(١) رواه الدارمي، رقم: (٣٨٢)، وقال: الأحوص ضعيف الحفظ.

٤٨- في التَّحذير من دعاة السُّوء

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٠٠-١٠١].

أَيُّها المؤمنون! إن تتَّبعوا ما يدعوكم إليه أهلُ الكتاب يردُّوكم كافرين، ومثلُ أهل الكفر دعاةُ الكفر والإلحاد والشِّرك، والكفرُ يوجب الهلاك؛ ففي الدُّنيا يوقع بينكم العداوةَ والبغضاءَ والفتنَ، وفي الآخرة النَّار؛ ذلك لأنَّ أهل الكتاب ومَنْ نحا نحوَهم سلكوا سبلَ التَّأويل في كتبهم، فحرَّفوها، أو فسَّروها بغير ما شاء الله فيها، وانصرفوا عن هدايتها إلى تقاليدَ وضعوها لأنفسهم؛ فإن سلكتم مسلَكَهم، كفرتم، وإن كفرتم، هلكتم، وكيف تكفرون وهذا كتابُ الله بين أيديكم تُتلى آياته عليكم، وفيكم رسولُه يبيِّن لكم ما أُنزلَ إليكم من ربِّكم، ولكن في سُنَّته وأخلاقه أُسوةٌ حسنةٌ، ومن يعتصمْ بالله، ويتمسَّكْ بدينه، فقد هداه الله إلى صراطٍ مستقيم، لا يضلُّ سالكُه، ولا يُخشى عليه من المهالك.

منذ أن ضَعُف أمرُنا، ودخل الأجنبيُّ بلادنا أكثرَ فينا مدارسَ التَّبشير بالدِّين النَّصراني، وحرص المبشِّرون على تنصير أبنائنا، ولمَّا أيسوا من ذلك، عمل الاستعمار على إخراج أبنائنا من ديننا، ولو

إلى غير دين، فعمد إلى التَّعليم، ووضع مناهج توافق مشربَه ولا نشعر بضررها، وما هي إلا الضَّرر.

وممَّا عمله في مناهجنا أن جعل دروس الدِّين بعضَ آياتٍ قرآنيَّةٍ يحفظها الأولادُ من غير أن يفهموا لها معنًى، وهذه الآيات لا صلةَ لها بالحياة، وجعل دروسَ الفقه عباداتٍ بلا عمل، وفسَّرَ الصَّلاة بالرِّياضة، والوضوءَ بالطَّهارة، والصَّومَ بالصِّحَّة، والحجَّ بمؤتمرٍ إسلاميٍّ، وجرَّد هذه الأركانَ الَّتي بُني عليها الإسلامُ من كونها أوامرَ إلهيَّةً يجب علينا أن نُطيعها طاعةً تعبُّديَّةً إلى أنَّها أوامرُ ذاتُ فائدةٍ جسمانيَّةٍ، فجعلَ لتحريم الخمر علَّةً، وهي أنَّها تضرُّ بالكبد لسبب الكحول الَّتي فيها؛ إذن فإذا جُرِّدت من الكحول، فهي حلالٌ، وإن أسكرت، وجعل لتحريم لحم الخنزير سببًا، وهو أنَّه يحمل مكروبًا مُمْرِضًا؛ إذن فإذا عُقم، وقُتل المكروب فقد يُباح.

وأخرج من دروس التَّاريخ تاريخَ الإسلام بمعناه الصَّحيح، فلم يذكر في التَّاريخ عدالةَ المسلمين ورحمتَهم ورِفْقهم، وقُوَّتَهم وشوكتهم وشجاعتهم، ونظامَهم في الحرب والسِّلم، وسياستَهم للأمَّة.

وإذا ذكر محمَّدًا، قال: هو المصلحُ العربيُّ، ولم يقل: محمَّدٌ الرَّسولُ، ولا محمدٌ النَّبيُّ: نبيُّ الإسلام، ومنقذُ الإنسانيَّة من الضَّلال ﷺ.

وإذا ذكر عمر، قال: هو الدِّيمقراطيُّ، ولم يقل: عمرُ المسلمُ الصَّحابيُّ الفاروقُ الفاتحُ العادلُ رضي الله عنه.

وإذا ذكر عليًّا، ذكره بأنَّه رجلٌ قويٌّ شجاعٌ، ولم يقل: عليٌّ المسلمُ الصَّحابيُّ، أحبُّ النَّاس لرسول الله، وزوجُ ابنته فاطمة، الَّذي جعل اللهُ الحقَّ على لسانه، والَّذي فقَّهه ربُّه القضاءَ، حيث قال فيه النَّبيُّ: «أقضى أمَّتي عليُّ بن أبي طالب»(١)، عليٌّ القويُّ في الله، الشُّجاعُ في سبيل الله ﷺ، وكرَّم الله وجهه.

يريد الاستعمار أن يعلِّمنا تاريخَ رجال أوروبة الكافرة، ويعلِّمنا مناهجَ تُجرِّدنا من ديننا، حتَّى لا يبقى لمدنيَّتنا في نشئنا من أثرٍ، فإذا لم يفهم النَّشء من الإسلام شيئًا، ولم يعرفوا من رجال الإسلام أحدًا، ولم يقرؤوا عن رجال الدِّين تاريخًا؛ فأيُّ قيمةٍ تبقى للإسلام عندهم؟ إذن، لقد نجح الاستعمارُ في تجريد أبنائنا من الدِّين، وجعل أوامر القرآن كأوامرَ بشريَّةٍ يجب أن يكون فيها: لماذا؟ لأنَّ الدِّين إذا أصبح موضع جدلٍ ذهبت هيبته.

وقد أوجدتْ برامجُ تعليم الكافر المستعمرِ جيلًا ما هو بأقلَّ من الاستعمار ضررًا على الأمَّة الإسلاميَّة، ذلك الجيل الَّذي ربَّاه الاستعمار ينتسبون إلى الإسلام، ولعلَّ بعضهم يفخر بأنَّه مسلمٌ، ولكنَّهم يَعيبون الإسلام أمامَ أبناء الإسلام، ويَهزَؤون بمن يتمسَّك بدينه من المسلمين؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٥٧﴾ [المَائدة: ٥٧].

(١) رواه الطبراني في المعجم الصغير، رقم: (٥٥٦).

قال لي بعضُ مَنْ تخرَّجوا في كلِّيَّات المستعمرين: لو أنَّ الدَّولة الإسلاميَّة باقيةٌ إلى اليوم، لكنَّا لا نزال بين بعيرٍ وشاةٍ، نعيش في الفلوات في بيوت الشَّعر، وعشش القشِّ.

وقال آخر: لماذا تُحرَّم الخمرةُ ما دامت قد خُفِّفَت كحولها، وأصبح ضررها معدومًا؟

وقال الثَّالث: إنَّ محمدًا رجلٌ عظيمٌ سبقَ مولدُه زمنَه، ولم يقل: إنَّ محمَّدًا رسولُ الله بعثهُ الله رحمةً للعالمين بشيرًا ونذيرًا، وأرسله إلى النَّاس كافَّةً؛ ليخرجهم من الظُّلمات إلى النُّور، وجعله منبعَ مدينةٍ لا تزال باقيةً بقاء الدَّهر.

هذه نتيجةُ اعتمادِ المسلمين في تربيةِ أبنائهم على صنائع الكافرين والأعداء، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١﴾ [المَائدة: ٥١].

وإنَّ الأمم الغربيَّة هم أحرصُ النَّاس على إضلال المسلمين، ولن يستطيعوا أن يضرُّوهم، وكفاهم أن يضلُّوهم عن دينهم أو يدخلوا عليهم الشَّكَّ فيه.

وهناك قومٌ اتَّخذوا الدِّين سُلَّمًا لتضليلهم، فدعوا باسم الدِّين، لكنَّهم لا ناقةَ لهم في الدِّين ولا جمل، وهذا مصداقٌ للحديث الَّذي رواه الحاكم عن أبي سعيد وأنس بن مالكٍ، قالا: قال رسول الله ﷺ: «**سيكون في أمَّتي اختلافٌ وفُرْقَةٌ: قومٌ يحسنون القِيلَ، ويسيئون الفِعلَ، يقرؤون القرآن لا يجاوز تَرَاقِيَهُم، يَمْرُقُون من الدِّين مُرُوقَ**

السَّهْم من الرَّمِيَّة، لا يرجعون حتَّى يرتدَّ على فُوقِه، هم شرارُ الخلقِ والخليقة، طُوبَى لمن قتلَهم وقتلوه، يدعون إلى كتاب الله، وليسوا منه في شيءٍ، مَن قاتلهم كان أولى بالله منهم، سيماهم التَّحْلِيق»(١).

إنَّ المسلمين اليوم بين كفرين: رأسماليَّةٍ غادرةٍ، وشيوعيَّةٍ جائرةٍ، ولا نجاةَ لهم منهما إلَّا بالإسلام، والرَّسول ﷺ يقول: «**إنِّي تركتُ فيكم ما إن اعتصمتُم به، فلن تضلُّوا أبدًا: كتابَ الله، وسنَّتي**»(٢)، والله ﷻ يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المَائدة: ٣]، ويقول: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عِمرَان: ٨٥].

إنَّ الله سبحانه وتعالى قد أرسل محمَّدًا عليه الصَّلاة والسَّلام بالدِّين القويم دينِ الإسلام، وبيَّن لنا فيه الصِّراطَ المستقيم الَّذي إن سرنا عليه وصلنا إلى السَّلامة، وأنزلَ على هذا النَّبيِّ الكريم ﷺ كتابًا كريمًا، بيَّن لنا فيه أشياءَ، وأحلَّ لنا فيه أشياءَ، وحرَّم علينا فيه أشياءَ، وقال لنا: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النُّور: ٥٥].

التَّيارُ جارِفٌ، والكلُّ آثمٌ بالإهمال: الحاكم، والوالدان،

(١) رواه أبو داود، رقم: (٤٧٦٥)، وأحمد، رقم: (١٣٣٣٨)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم: (٢٦٤٩).
(٢) سبق تخريجه.

والمجتمع، لقد اعتمد النَّاس في تربية أولادهم على أعدائهم في دينهم الَّذين جاؤوا بخيلهم ورَجِلِهم لا لشيءٍ إلا للقضاءِ على الدِّين، حتَّى يكون المجتمعُ لقمةً سائغةً لهم؛ فبدلًا من أن ينشأَ الولدُ على دينٍ ينيرُ قلبَه المظلمَ بنورِ الإيمان، ويتعوَّدُ لسانُه على تلاوة القرآن، ويتمرَّن جسمُه على طاعة الرَّحمن بصلاةٍ وصيام، وغيرهما من الطَّاعات؛ فإذا هو حائرٌ لا يعرف له دينًا إلَّا أنَّه مسلمٌ، ولو سُئِلَ: ما هو الإسلام؟ لأجاب: لا أدري! إذن فالولدُ ضالٌّ، وقد يقوده ضلالُه إلى الإلحاد.

روى البخاريُّ عن أبي هريرة: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**ما من مولودٍ إلَّا يولَدُ على الفِطرة؛ فأبواه يُهَوِّدانه، أو ينصِّرانه، كما تُنْتَج البهيمةُ، هل تجدون فيها من جَدْعَاءَ، حتَّى تكونوا أنتم تَجْدَعُونها**»[(١)].

إنَّ رسول الله ﷺ يخبرنا أن الإنسان يولد كاملًا مستعدًّا للخير، وقد يصرفه عن الخير تربيةُ الآباء، أو تأثيرُ الوسط؛ إذن، فالويلُ لمن أثمَ في تربية الأبناء، وترَكَ حبلَهم على غاربهم[(٢)] بيد الأعداء.

إنَّ الرِّضَا بِالْكُفْرِ كُفْرٌ وَالأُلَى ... قَبِلُوهُ يَبْرَأُ مِنْهُمُ الإِسْلَامُ
لَا خَيْرَ فِي شَخْصٍ يُسِيءُ لِدِينِهِ ... وَيَقُولُ تَأْيِيدُ الْقَدِيمِ حَرَامُ
وَيقُولُ إِنَّ الْمُلْحِدِينَ تَحَرَّرُوا ... وَالإِسْتِقَامَةُ وَالصَّلَاحُ ظَلَامُ
لُعِنُوا وَخَابُوا فِي الْحَيَاةِ وَبَعْدَهَا ... وَلَهُمْ بِنِيرانِ الْجَحِيمِ مَقَامُ

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٦٥٩٩)، ومسلم، رقم: (٢٦٥٨).
(٢) غارب كلِّ شيءٍ: أعلاه. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣/ ٤٨٠).

وَلَقَدْ نَصَحْتُهُمُ وَلَسْتُ بِطَالِبٍ أَجْرًا لِنُصْحِيَ وَالسَّلَامُ خِتَامُ[١]

وبعد: فلا نجاةَ للمسلمين ممَّا هم فيه من شرٍّ إلَّا بنهضةٍ إسلاميَّةٍ يجدِّدون فيها مجدَ دينهم، ويعيدون لهم به دولته.

أخرجه التِّرمذيُّ عن عمرو بن عوف: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**بدأ الإسلامُ غريبًا، وسيعودُ غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء**». **فقيل: ومن الغرباء؟ قال**: «**الَّذين يُصْلحون ما أفسدَه النَّاسُ من سُنَّتي، والَّذين يُحيون ما أماتوه من سُنَّتي**»[٢]، ويقصد ﷺ بسنَّته: الطَّريقةَ الَّتي كان عليها هو وأصحابه.

والحمدُ لله أوَّلًا وآخرًا، ونسأله أن يجعلنا من الغرباء الَّذين يُصلحون ما أفسده النَّاس من دينهم، ويحيون ما أماته النَّاسُ من سُنَّة نبيِّهم.

(١) لم أقف عليه ولم أجده فيما توفر لدي من مصادر.

(٢) سبق تخريجه.

٤٩- الجهادُ والصَّبر

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٢ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٣﴾ [الصَّف: ١٠-١٣].

خاطب الله المؤمنين من عباده بأنَّ أفضلَ التِّجاراتِ المنجيةِ من عذاب الله ونقمته: هي الجهادُ في سبيله بالنَّفس والمال؛ لإعلاء كلمة الإسلام، وأن ذَّلك أعظمُ سببٍ لرضاه؛ فبه يُغفر الذَّنبُ، وبه يدخلُ العبدُ جنَّاتٍ نعيمُها دائمٌ لا يحول ولا يزول، ولا صخبَ فيها ولا نَصَبَ، ولا ضررَ ولا كَدَرَ، ولا شقاءَ ولا بلاء، أنهارُها جاريةٌ، وظلالُها وارفةٌ، ومساكنُها طيِّبةٌ، وعيشتُها راضيةٌ هنيَّةٌ، والفوزُ فيها عظيمٌ، وفوق هذا النَّعيم شيءٌ تحبُّونه أيُّها المؤمنون؛ ذلك هو نصرُكم في الجهاد على الأعداء، وفتحٌ قريبٌ لكم، وبشرى من نبيِّكم بأنَّ جُند المؤمنين إذا أخلصوا في الجهاد نُصِروا.

روى الشَّيخان والتِّرمذيُّ عن جابرِ بنِ عبدِ الله رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**أُعطيت خمسًا لم يُعْطَهُنَّ أحدٌ من الأنبياء قبلي: نُصِرْتُ بالرُّعب مَسيرةَ شهرٍ، وجُعلتْ لي الأرضُ مسجدًا وطَهورًا؛ فأيُّما رجلٍ أدركَتْه الصَّلاةُ، فَلْيُصَلِّ، وأُحلَّت ليَ الغنائمُ، ولم تَحِلَّ لأحدٍ**

قبلي، وأُعطيت الشَّفاعةَ، وكان النَّبيُّ يُبعث إلى قومه خاصَّةً، وبُعثت إلى النَّاس عامَّة»[١] وهذه بشارةٌ من المصطفى ﷺ إلى جيش الإسلام إذا صدقتْ نيَّته، وجاهد لله، وفي سبيل الله لرفعةِ الإسلام، متى سار سبقَه الرُّعبُ إلى قلوبِ الأعداء مسيرةَ شهرٍ كاملٍ، وهذا ما كان عليه النَّبيُّ ﷺ بعدَ بدرٍ، وما كان عليه الخلفاءُ الرَّاشدون في فتوحهم بفارس والرُّوم وغيرهما، والله ﷻ بيَّن لنا أنَّ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النِّساء: ٧٦].

والجهادُ في النَّفس أنواعٌ:

فمنها: الدَّعوةُ إلى الله تعالى، وبها بُعث الأنبياء، قال الله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النّحل: ١٢٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فُصّلت: ٣٣].

ومنها: كلمةُ الحقِّ يقولها المسلمُ في مواطن الظُّلم لردِّ حقٍّ إلى صاحبه، أو دَرْءِ مظلمَةٍ، أو أمرٌ بمعروفٍ، أو نهيٌ عن منكرٍ، وقد سُئِلَ النَّبيُّ ﷺ عن أفضلِ الجهاد، فقال: «**كلمةُ حَقٍّ عندَ سلطانٍ جائرٍ**»[٢].

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٣٣٥)، ومسلم، رقم: (٥٢٣)، والترمذي، رقم: (٤/ ١٢٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) رواه الترمذي، رقم: (٢١٧٤) وقال: هذا حديث حسن غريب.

ومنها: الأمرُ بالمعروف، والنَّهيُ عن المنكر بصورةٍ عامَّةٍ، وقد قال الله تعالى في ذلك: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة: ٧١]، وروى مسلمٌ عن تميم الدَّاريِّ، عن النَّبيِّ ﷺ: أنَّه قال: «**الدِّينُ النَّصيحةُ ثلاثًا**»، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: «**لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمَّة المسلمين وعامَّتهم**»[(١)].

وروى مسلمٌ عن ابن مسعود رضي الله عنه: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**ما من نبيٍّ بعثَه اللهُ في أمَّةٍ قبلي إلَّا كانَ من أمَّته حواريُّون وأصحابٌ يأخذون بسنَّته، ويقتدون بأمره، ثمَّ إنَّها تَخْلُفُ من بعدِهم خُلُوف، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون؛ فمن جاهدهم بيده، فهو مؤمنٌ، ومن جاهدهم بلسانه، فهو مؤمنٌ، ومن جاهدَهم بقلبه، فهو مؤمنٌ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبَّةُ خَرْدَل**»[(٢)].

ومن الجهاد بالنَّفس: الخروجُ إلى ميادين الحرب للدِّفاع عن حوزة الدِّين، ونصرةِ كلمة الإسلام، وقتالِ مَنِ اعتدى على المسلمين، أو على كتابِ الله ونبيِّه، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦۚ

(١) رواه مسلم، رقم: (٥٥).
(٢) سبق تخريجه.

وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١١﴾ [التّوبة: ١١١].

وروى البخاريُّ عن أنسِ بنِ مالكٍ عن النَّبيِّ ﷺ: أنَّه قال: «**لَغَدْوَةٌ في سبيل الله أو رَوْحَةٌ خيرٌ من الدُّنيا وما فيها**».(١)

وقال أيضًا: «**ما تركَ قومٌ الجهادَ إلَّا عَمَّهم اللهُ تعالى بالعذاب**».(٢)

وأمَّا الجهاد بالمال، فمن أنواعه:

١- صرفُ المال في ميادين القتال لنصرة الدِّين على المجاهدين والمرابطين.

٢- صرفه على المشاريع الَّتي يُؤيَّدُ بها الإسلام، وينتشر ذكرُه؛ كتأسيس المدارس الَّتي يُطابق منهجُها الدِّينَ الإسلاميَّ، والَّتي تُدرَّس بها الثَّقافة الإسلاميَّة بمعناها الصَّحيح، ونشرُ الصُّحف الإسلاميَّة بمختلف اللُّغات؛ حتَّى يُعرفَ الإسلامُ بمعناه الصَّحيح، ويُفهم كلُّ غريبٍ عنه.

٣- المقاطعة الماليَّة التِّجاريَّة، وهي: أن يقاطع المسلم جميع الأموال والبضائع الَّتي ترِد من بلاد العدوِّ الكافر، يُستغنى عنها بمثلها، أو دونها ممَّا تنتجه البلاد الإسلاميَّة.

فمن جاهد الكافر بنفسه، أو بماله، أو بنفسه وماله معًا، كان من الفائزين برضاء الله، المُنَعَّمين في جنَّاته، وقدَّمنا الآيتين شاهدًا على

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٢٧٩٢)، ومسلم، رقم: (١٨٨٠).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم: (٣٨٣٩).

ذلك، وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٦١].

روى مسلمٌ عن أبي هريرة: أنَّ رجلًا جاء إلى النَّبيِّ ﷺ بناقةٍ مخطومةٍ، فقال: هذه في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «**لك بها يومَ القيامة سبع مئة ناقةٍ كلُّها مَخْطُومةٌ**[١]»[٢].

وروى التِّرمذيُّ عن أبي هريرة: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**أفضلُ الصَّدقات ظِلُّ فُسطاطٍ**[٣] **في سبيل الله، ومنيحةُ**[٤] **خادمٍ في سبيل الله، أو طَروقةُ فَحْلٍ**[٥] **في سبيل الله**»[٦].

ولقد أصبح المسلمون اليوم في بلادهم غرباءَ، وعن دينهم غرباءَ، والكافر المحتلُّ اتَّخذ بلادَهم مواطنَ له تُجبى خيراتُها له، وتستغلُّ ثرواتِها أيدٍ تعملُ لأجله، والأمرُ والنَّهي بيده، أو بأيدي قومٍ يأتمرون بأمره، وينتهون بنهيه، وأصبح الدِّينُ الإسلاميُّ غريبًا في وطنه؛

---

(١) الخطام: كلُّ ما وُضِعَ في أنف البعير ليقتاد به. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٢/ ١١٤).

(٢) رواه مسلم، رقم: (١٨٩٢).

(٣) الفسطاط: المدينة التي فيها مجتمع الناس، وكل مدينة فسطاط، وقال الزمخشري: هو ضرب من الأبنية في السفر دون السُّرادق. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (١/ ٢٢٥).

(٤) منيحة: المنحة. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٧/ ١٥٤).

(٥) طروقة فحل: أي أنثاه. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٤/ ٢٦٦٢).

(٦) رواه الترمذي، رقم: (١٦٢٧) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.

فالحكمُ والقضاء غريبان، والثَّقافةُ غريبةٌ، والعادات والأخلاق غريبةٌ، والجيلُ الَّذي تثقَّفَ بالثَّقافة الغربيةِ غريبٌ، وما هكذا تكون أمَّةُ القرآن، وأمَّةٌ تنتسبُ لخير الأديان.

وإنَّه لا يوصل إلى الغاية إلَّا العمل، والنَّبيُّ ﷺ أخبرنا أنَّه بُعث فَعَّالًا، ولم يبعث قَوَّالًا، وكلُّ مَنْ سار على الدَّرب وصل، وكلُّ مَنْ اعتمدَ على العمل وُفِّق، والخائفُ محرومٌ مخذولٌ، والله ﷻ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾ [محمد: ٧]، ولقد قال عبد الله بن رواحة في غزوة مؤتةَ يومَ قُتل القُوَّاد الثَّلاثةُ من أصحاب رسول الله ﷺ: «**إنَّما نُقاتل بالإيمان، وإنَّما هي إحدى الحُسْنَيين: إمَّا النَّصرُ، وإمَّا الشَّهادة، وإنَّ جندَ الله لا يُغلب**».(١)

والحقُّ أنَّ جندَ الله لا يغلب، وأُسطولَه لا يقهر، وسيوفَه لا تُثْلَم ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩].

روى أحمد وغيره عن أُبَيِّ بنِ كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «**بَشِّرْ هذه الأمَّةَ بالتَّيسيرِ والسَّناء والرِّفعة بالدِّين والتَّمكين في البلاد والنَّصر؛ فمن عمل منهم بعملِ الآخرة للدُّنيا، فليس له في الآخرة من نصيبٍ**».(٢)

إنَّ الأجنبيَّ لم يأتنا، ولكنَّا نحن أتينا به، وصافيناه، ومَلَّكناه

---

(١) انظر: المعجم الكبير للطبراني، رقم: (٤٢٨)، بلفظ: «فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين، إما ظهور، وإما شهادة».

(٢) رواه أحمد، رقم: (٢١٢٢٤).

بلادنا ورقابَنا، وخالفنا أمرَ الله علينا حيث قال لنا: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحُجرَات: ١٠]، ونحن خالفنا، وتعادينا، حتَّى إذا تحكَّم العداء فينا، انتصرنا بالكافر ضدَّ أخينا المؤمن، فلمَّا قضينا عليه، إذا بنا قد قُضي علينا.

وقال لنا: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجَادلة: ٢٢]، وقد حادَّ اللهَ كلُّ هؤلاء، ولم نُعادهم، بل صافيناهم، ووادَدْناهم، وقَرَّبناهم، وخالفنا أمرَ الله فيهم وأخيرًا، فإنَّ كلَّ ما أصابنا من سوءٍ هو من عملنا، ومن عند أنفسنا.

والله ﷻ قال لنبيِّه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: ٣١]؛ فلنسأل أنفسَنا: هل أحببنا الله؟ وهل اتَّبعنا رسولَ الله حقًّا؟ فإن كنَّا كما أراد الله لنا، فنحن أولياؤه، وإنَّ أولياءَ الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، وإن لم نكن، فقد جنينا على أنفسنا ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النِّسَاء: ١١٩].

٥٠- التَّعاون

قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المَائدة: ٢].

التَّعاون على البرِّ والتَّقوى من أركان الهداية الإسلاميَّة، إذ إنَّ الدِّين الإسلامي يوجبُ أن يعين المسلمون بعضُهم بعضًا على كلِّ ما ينفع الناسَ أفرادًا وجماعاتٍ في دينهم ودنياهم، وعلى كلِّ عملٍ يدفعون به المفاسدَ والمضارَّ عن أفرادهم وجماعاتهم في دينهم ودنياهم.

واتَّقوا اللهَ بالسَّير على سُنَّته الَّتي بَيَّنَها لكم في كتابه، وأوضحها لكم نبيُّه ﷺ حتَّى لا يُصيبكم عقابُه إذا ما أعرضْتُم عن هدايته: فهو شديد العقاب لمن لم يَتَّقِه؛ فهو لم يأمر بشيءٍ إلَّا إذا كان نافعًا، ولم يَنْهَ عن شيءٍ إلا إذا كان ضارًّا؛ لذلك كان عقابُه لمن لم يَتَّقِه ذِلَّةً في الدُّنيا، وشقاوةً وعذابًا في الآخرة ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هُود: ١٠٢].

كان مسلمو الصَّدر الأوَّلِ للإسلام جماعةً واحدةً، يتعاونون على البرِّ، من غير ارتباطٍ بينهم بعهدٍ أو نظامٍ ممَّا أحدثه البشرُ في عهدِهِ الحاضر؛ لأنَّ عهدَ الله وميثاقه كان قد أغناهم عن كلِّ عهدٍ وميثاقٍ غيرِه، وقد شهد الله لهم بذلك في كتابِه العزيز بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ

﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عِمرَان: ١١٠].

ولـمَّا دخل فيهم الشِّقاق، واختلفت مشاربُهم، وانفرط عقدُهم، احتاجوا إلى تأليف جمعيِّاتٍ جعلوا لها عهودًا وأنظمةً؛ لكي تجمعَ طوائفَ من المسلمين، وتحملَ على إقامةِ الواجب، والتَّعاون على البرِّ والتَّقوى؛ وإنَّها بدعةٌ حسنةٌ.

وإذا كان التَّعاون على البرِّ والتَّقوى واجبًا إسلاميًّا؛ فإنَّ ما لا يتمُّ الواجبُ إلَّا به واجبٌ أيضًا، كما قال الفقهاء؛ إذن فلا بدَّ لنا إذا أردنا أن نحيا حياةً عزيزةً من تأليف جمعيَّاتٍ تعاونيَّةٍ رائدُها التَّعاون على البرِّ والتَّقوى، وإنَّ أيَّ اجتماعٍ يعقده المسلمون فيما بينهم على ما يصلحهم، ويعزِّز مركزهم، ويقوِّي شوكتهم، لهم فيه رحمةٌ، يقول النَّبيُّ ﷺ: «**الجماعةُ رحمةٌ، والفُرْقَةُ عذابٌ**»(١) رواه عبدُ الله بنُ أحمدَ عن النعمانِ بنِ بشيرٍ.

وإنَّ يد الله مع كلِّ جماعةٍ من ذوي الغَيْرَة والنَّجدة من المسلمين إذا تكاتفوا، واجتمعوا على ردِّ مظلمةٍ، أو بذلِ مصلحةٍ، أو إقامةِ شعارٍ إسلاميٍّ؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**يدُ الله معَ الجماعة، وإنَّما يأكلُ الذِّئبُ من الغنم القَاصِيَة**»(٢)، وفي رواية: «**ومَنْ شَذَّ، شَذَّ إلى النَّار**»(٣) أخرج هذه الرِّواية التِّرمذيُّ عن ابن عبَّاس.

والبرُّ الَّذي أمرنا الله تعالى بالتَّعاون عليه هو التَّوسُّعُ في فعل

---

(١) رواه أحمد، رقم: (١٨٤٤٩).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه الترمذي، رقم: (٢١٦٧) وقال: هذا حديث غريب.

الخير، وفي حديثٍ رواه مسلمٌ، وغيرُه: «**البِرُّ حُسْنُ الخُلُق**»[١]، وقد ذكر الله البرَّ لنا، وفصَّله في آية البقرة؛ قال: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البَقَرَة: ١٧٧]، وفي موضعٍ آخر يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عِمرَان: ٩٢].

أمَّا التَّقوى، فهي اتِّقاء ما يضرُّ صاحبَه في دينه ودنياه، والإثمُ هو الذَّنب والمعصية، والعداونُ هو تعدِّي الحدود الشَّرعيَّة، أو مخالفةُ الأوامر الإلهيَّة، ومنه البغيُ.

وأشدُّ أنواع الإثم والعدوان ضررًا على الدِّين هي هذه الجمعيَّات الَّتي نراها تأسَّست لاجتماعٍ على منكرٍ، أو إعانةِ مبطلٍ ظالمٍ، أو تحزُّباتٌ تضمُّ فيها التَّفرقة بين أبناء المسلمين على اختلاف أجناسهم، والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

إنَّك قلَّما ترى في هذا العصر مَنْ يعينك على برٍّ أو تقوى، ما لم يكن مرتبطًا معك في مصلحةٍ تفيده، أو إثم تشتركُ معه به، وإن عاهدك على العون في بعض الأعمال، فقدْ لا يفي لك بكلِّ ما

---

(١) رواه مسلم، رقم: (٢٥٥٣).

عاهدك عليه، وهذا ناتجٌ من عدوى أصابتنا بها الرَّأسماليَّة الكافرة الَّتي مبدؤها الأوَّلُ تفضيلُ المصالح الشَّخصيَّة على المصالح العامَّة، والَّتي بها خالَفْنا مبدأنا الإسلاميَّ الكريم ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المَائدة: ٢].

المسلمون اليوم في حالةٍ لا يُحسدون عليها: تفكُّكٌ في المجتمع، واختلافٌ في المشارب، وتباينٌ في الأهواء، وجهلٌ في الدِّين وإعراضٌ عنه، وإهمالٌ للمصلحة العامَّة، وإقبالٌ على المصالح الخاصَّة ونَهَمٌ فيها، وشُحٌّ في المالِ وإسرافٌ فيه، وفسادٌ في الأخلاق، وإقبالٌ على الملذَّات والشَّهوات، وتقليدُ الكافر الأجنبيِّ في كلِّ ما جاءنا به من سفالاتٍ، فهُتكت الأعراض، وأُفسدت العقائد، وفُرِّقت القلوب، ثمَّ جنينا منها أسوأ الثِّمار؛ منها: التَّخاذل بين الحكَّام، والتَّباغض بين الإخوان، والتَّقاطع في الأرحام، وانتقاضُ عُرَا الإخاء بين عموم المسلمين، وانصرافُ كُلِّ فردٍ إلى هواه وشهوته، ثمَّ فشلٌ وخَوَرٌ زَلْزَلا كيانَ المسلمين، وذهبا بمجدِهم، وجعلاهم في ديارهم أذلَّاءَ، وفي مواطنهم غرباءَ، وفي دينهم ضعفاءَ، وكلُّ فردٍ منهم بعيدٌ عن أخيه «**وإنَّما يأكلُ الذِّئبُ من الغنم القاصيةَ**»(١)؛ فأين نحنُ ممَّا قاله رسول الله ﷺ: «**المؤمنُ للمؤمنِ كالبنيان يشدُّ بعضُه بعضًا**»(٢) ثمَّ شبَّك أصابعه؟ رواه الشَّيخان عن أبي موسى، وأين نحن من قول النَّبيِّ ﷺ: «**لا يؤمنُ أحدُكم حتَّى**

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه؟»[١] رواه البخاريُّ عن أنس.

إنَّ الدِّين الإسلاميَّ لا يعرف التَّفرقةَ ولا التَّخاذلَ، وإنَّ المسلمين الأوَّلين استخدموا وحدتهم وتعاونَهم في التَّنكيل بأعدائهم؛ فاستردُّوا حقًّا مغصوبًا، ونصروا نفوسًا مظلومةً، وأحيوا حقًّا ميتًا، وأماتوا باطلًا حَيًّا؛ فهابَهم الظَّالمون، وخافهم المبطلون.

وإنَّ عصرنا الحاضر يطلب من المسلمين أن يتمسَّكوا بدينهم، فالدِّينُ هو الدِّين لم يتغير، ولكن الأوضاع تغيَّرت، وإنَّ أوَّل شيءٍ يجب علينا عملُه هو التَّواصي بالحقِّ والصَّبر؛ لمقاومة العدوِّ الكافر، الَّذي احتلَّ بلادنا، واغتصب حقَّنا، وقضى على حرِّيَّتنا، وإنَّ ثاني شيءٍ يجب علينا هو إلغاءُ الخلافات الحزبيَّة فيما بيننا، والقضاءُ على مختلف الجمعيَّات الَّتي سمَّيناها بأسماءٍ فرَّقت آراءنا، وأضاعت وحدتنا، ثمَّ النُّهوض إلى نصرة الإسلام بالعمل بالقرآن.

إنَّه لا عزَّة لنا بقوميَّةٍ ولا جمعيَّةٍ ولا وطنيَّةٍ ولا شعوبيَّةٍ إنَّه لا عزَّة إلَّا لله ولرسوله وللمؤمنين؛ إذن فلنتمسَّكْ بكتاب الله، وسُنَّة نبيِّه، ولْنَبْنِ على أساسهما نهضَتَنا، وعلى منهجِهما ثقافتنا، وعلى قانونهما حربنا وسياستنا، لتكون لنا عزَّةُ المؤمنين، ولنكون حزبَ الله؛ فإنَّ حزبَ الله هم الغالبون، وإنَّ حزبَ الله هم المفلحون ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾ [محمَّد: ٧].

إنَّه بقدر ما يكون تمسُّكُنا بالدِّين يكونُ عِزُّنا، وإنَّ المسلمين

(١) سبق تخريجه.

الأوَّلين لم يَفُتَّ في عضدُهم كثرةُ الزَّلازل، ولا توالي العواصف، ولا إجماعُ الأعداء ضدَّهم، وقد أجلبوا عليهم بخيلهم ورَجِلهم[(١)]؛ ففعلوا فعلَهم في الشَّرق والغرب، وفي الشَّمال والجنوب، وهم قلَّةٌ في العدَّةِ والعدد، ولكنَّ رهبانَ اللَّيل فرسانَ النَّهار قضوا على الضَّلال بهداهم، وعلى الباطل بحقِّهم، وكان سلاحُهم الصِّدق، وظهيرُهم اليقين، وعدَّتُهم الإيمان، وإنَّ التَّاريخ يشهدُ لهم بذلك، فلماذا لا نجعل لنا من تاريخهم درسًا نتفهَّمه، ودليلًا يوصلنا إلى ما وصلوا إليه؟

إنَّ كتابَ الله وسُنَّةَ نبيِّه يرشدنا إلى سلاحٍ ماضٍ، وجيشٍ غَلَّابٍ، وعُدَّةٍ عتيدةٍ تنفعنا في البأساء والضَّرَّاء، وتدفعُ عنا كيدَ الكفرة الأعداء، وتحرِّرنا من ذلَّة الاستعباد، وتُبَوِّئنا المكانةَ السَّامية، هي تمسُّكنا بهذه الآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عِمرَان: ١٠٢].

(١) رجلهم: أي: الماشي على رِجْلَين. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٩/ ٣٤).

٥١- الوحدة الإسلاميَّة

قال الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران: ١٠٣].

أمر الله عباده المؤمنين أن يعتصموا بحبله جميعًا؛ بحيث يكونون يدًا واحدةً على مَنْ سواهم، وألَّا يتفرَّقوا؛ لأنَّ الاجتماع والوحدة وسيلةٌ لنجاح الأمَّة يُنيلها مقاصدَها، ويرفع شأنَها، ويُعلي كلمتَها، ويشدُّ عَضُدَها، ويقوِّي شوكتَها، ويحفظ كيانَها، ويدفعُ شرَّ أعدائها وطمعَ الطَّامعين فيها.

وحبلُ الله الَّذي أمرَنا اللهُ أن نعتصم به هو الكتابُ الكريم الَّذي أنزَله على سيِّدنا محمَّدٍ ﷺ، فجمع به من أشتات العرب أمَّةً، وكوَّن به من اختلافهم وحدةً، ومن عدائهم أُخوةً، فكانوا خيرَ أمَّةٍ أُخرجت للنَّاس بشريعةٍ سادتْ بين طبقات النَّاس؛ فلا فضلَ لعربيٍّ على أعجميٍّ، ولا لأسودَ على أبيض، ولا لسيِّدٍ على مَسودٍ، ولا لمخدومٍ على خادمٍ، ثمَّ أمرَهم به بما ينفعهم، ويقوِّي جانبهم، ونهاهم عمَّا يضرُّهم في دينهم ودنياهم، حتَّى لا يؤخَذوا من ضَعفٍ، ولا يُكْسروا من قلَّةٍ، ولا يُهانَ لهم حِمىً.

ولقد تأدَّب المسلمون الأوَّلون بأدب القرآن، فأطاعوا أمره، وانتهوا عن نهيه، وتأسَّوْا بالنَّبيِّ الكريم ﷺ في أقواله وأفعاله، وأطاعوا أولياءَ الأمر؛ فاتَّحدت الكلمةُ، واجتمع الشَّمل، وكانوا كما أراد لهم الإسلام.

فالرَّبُّ واحدٌ، والدِّينُ واحدٌ، والمسلمون كالجسد الواحد، أو كالبنيان يشدُّ بعضُه بعضًا، وكما أرادَ الله، وأرادَ رسولُ الله كان المسلمون.

ولقد جاء الإسلام مقرِّرًا هذه الوحدةَ بدعوةٍ صريحةٍ لا يعتريها شكٌّ ولا لَبْسٌ؛ إنَّه يقول: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ [الحج: ٧٨]، ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء: ٩٢]، ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾ [الحُجرات: ٩].

هذا ما قرَّره الإسلام بالنِّسبة إلى وحدة الأمَّة والتحامِها وقوَّةِ نظامها، بحيث تصبحُ مجموعَتُها كالجسد الواحد: إذا نزل بعضوٍ مكروهٍ، شعر ذلك الجسدُ كلُّه بالألم، وعملَ على إزالته، وإذا نزل بواحدٍ من هذه الأمَّة مُصابٌ، شعر بوقع هذا المصاب كلُّهم، وعملوا جميعًا على إبعاده.

أمَّا ما قرَّره بالنِّسبة إلى أُخوَّة الأفراد وتآلفهم، فإنَّ الكتاب الكريم

يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]، ويقول النَّبيُّ ﷺ: «**المسلم أخو المسلم**»(١) رواه الشَّيخان، «**والمؤمنُ للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضُه بعضًا**»(٢) رواه مسلم، «**والمؤمنُ إِلْفٌ مَأْلُوف، ولا خيرَ فيمن لا يَأْلَف ولا يُؤْلَف**»(٣).

والأعمال الموصلة إلى التَّآلف والتَّضامن وصفاء القلب كثيرةٌ، كشف لنا القرآن عن بعضها بقوله: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون: ٩٦]، ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى: ٤٣]، ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وبيَّن لنا النَّبيُّ الكريم ﷺ كثيرًا منها في أقواله وأفعاله، فمن ذلك قولُه لأبي هريرة: «**صِلْ مَنْ قَطَعَكَ، وأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ، واعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَكِ**»،(٤) «**لا تَحاسدوا، ولا تَباغضوا، ولا تَنافروا، ولا تَناجشوا، المسلمُ أخو المسلم لا يظلِمُه، ولا يخذُلُه، ولا يُسْلِمُه**»(٥)، ومنها قولُه: «**أفلا أنبِّئكم بشيءٍ إذا فعلتموه تَحاببتم؟ أفشوا السَّلامَ بينكم**»(٦)، وكلُّها أحاديثُ صحيحة لم يتطرَّق الشَّكُّ إلى روايتها.

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٢٤٤٢)، ومسلم، رقم: (٢٥٨٠).
(٢) سبق تخريجه.
(٣) رواه أحمد، رقم: (٢٢٨٤٠).
(٤) رواه أحمد، رقم: (١٧).
(٥) سبق تخريجه.
(٦) رواه مسلم، رقم: (٥٤).

ولقد اتَّجهت الشَّريعة الإسلاميَّة إلى تحقيق الأخوَّة الإسلاميَّة بين المسلمين جميعهم، فلا فرقَ بين قبيلةٍ وقبيلةٍ، ولا بين شعبٍ وشعبٍ، ولا بين لونٍ ولونٍ بآية: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحُجرَات: ١٠].

إنَّه لا رابطة أقوى وأوثق من رابطة الدِّين، ورابطة الدِّين الإسلاميِّ أقوى وأوثق رابطةً من جميع الدِّيانات؛ لأنَّه قضى بسلطانه الرُّوحي على العصبيَّات القبليَّة العربيَّة، وأماتَ فيهم العادات الجاهليَّةَ، وأخذ بقلوب مُتَّبِعيه إلى أخوَّةٍ إسلاميَّةٍ دفعتهم إلى العملِ لنصرة دينهم؛ فكانوا أشدَّاءَ على الكفَّار، رحماءَ بينهم، وكانوا جسدًا واحدًا إذا اشتكى بعضُه، اشتكى كلُّه، حتَّى كان كلٌّ واحدٍ منهم ينادي أخاه بأحبِّ أسمائه إليه.

روى مسلمٌ عن جابرِ بنِ عبد الله، قال: اقتتل غلامان: غلامٌ من المهاجرين، وغلامٌ من الأَنصار، فنادى المهاجريُّ: يا لَلْمهاجرينَ! ونادى الأنصاريُّ: يا لَلْأنصار! فخرج رسولُ الله ﷺ فقال: «**ما هذه؟ أدعوى أهل الجاهليَّة؟**»، قالوا: لا يا رسول الله! إلَّا أنَّ غلامين اقتتلا، فَكَسَعَ[1] أحدُهما الآخر، قال: «**فلا بأسَ، ولينصُرِ الرَّجلُ أخاه ظالـمًا أو مظلومًا، إن كان ظالـمًا، فليَنهَهُ، فإنَّه له نصرٌ، وإن كان مظلومًا، فليَنصُرهُ**»[2].

(١) كسع: ضرب دبره بيده، أو بصدر قدمه. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٢/ ١٢٢).

(٢) رواه مسلم، رقم: (٢٥٨٤).

وروى أبو داود عن جبير بن مطعم، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليس مِنَّا مَنْ دعا إلى عصبيَّةٍ، وليسَ منَّا من قاتلَ على عصبيَّةٍ، وليس منَّا من ماتَ على عصبيَّةٍ**»[(١)].

وهذه العصبيَّة الَّتي يدعو لها اليوم بعض مَنْ تثقَّفوا بالثَّقافة الأجنبيَّة الكافرة، الَّذين يريدون أن يفرِّقوا بين المسلمين بالانتساب إلى قوميَّات محا الإسلامُ سلطانها على النُّفوس، وقضى عليها في الأوساط، وجعل الدِّين فيها رأس كلِّ فضلٍ، إذ لا فضلَ لعربيٍّ على أعجميٍّ إلا بالتَّقوى.

إنَّ الشَّريعة الإسلاميَّة جعلت المسلمين في صفٍّ واحدٍ؛ فأوقفت أبا ذرٍّ الغفاريَّ بجانب بلالٍ الحبشيِّ، وأوقفت سعدًا الخزرجيَّ بجانب سلمانَ الفارسيِّ، وعليًّا القرشيَّ بجانب صُهيبٍ الرُّوميِّ، إنَّها وحَّدت المسلمين بكتابٍ واحدٍ؛ عليه يجتمعون وبه يعملون ومنه يَرِدون وإليه يَصْدُرون.

ولقد أراد الله للمسلمين بقاءَ الأُلفة والمحبَّة بينهم، فحثَّ على إصلاحِ ذات البَيْنِ في مواضعَ من الكتاب الكريم، فقال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النِّسَاء: ١١٤]، وقال: ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحُجرَات: ١٠].

وروى الطَّبرانيُّ والبيهقيُّ عن ابن عمرو: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**أفضلُ الصَّدقةِ إصلاحُ ذاتِ البين**»[(٢)].

---

(١) رواه أبو داود، رقم: (٥١٢١).

(٢) رواه أبوداود، رقم: (٤٩١٩)، وأحمد، رقم: (٢٧٥٠٨)، والطبراني في =

وروى أبو داود والتِّرمذيُّ عن أبي الدَّرداء: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: **«ألا أخبرُكم بأفضلَ من درجةِ الصِّيام والصَّلاة والصَّدقة؟ إصلاحُ ذات البَيْن؛ فإنَّ فسادَ ذاتِ البين هي الحالِقَةُ»**.[١]

ولِما للسَّلام والتَّحيَّة من أثرٍ في تطييب النَّفس، وإزالة الشَّحناء[٢] من النُّفوس، والنَّفرة[٣] من القلوب، قال رسول الله ﷺ في حديثٍ رواه الإمام أحمد والتِّرمذيُّ عن الزُّبير بن العوام: **«دَبَّ[٤] إليكم داءُ الأمم قبلَكم: الحسدُ والبغضاءُ، هي الحالِقةُ، حالقةُ الدِّينِ، لا حالقةُ الشعرِ، والَّذي نفسُ محمَّدٍ بيده! لن تدخلوا الجنَّة حتَّى تُؤمنوا، ولن تؤمنوا حتَّى تَحابُّوا، أفلا أُنبِّئكم بشيءٍ إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السَّلامَ بينكم»**.[٥]

التَّاريخُ ينبِّئنا أنَّه لا ترقى الأمم إلَّا إذا اتَّحدت، ولو نالت من الثَّراء والعلم ما نالت، فإنَّه لا يسعدها إلَّا الاتِّحاد، ولا تذلُّ الأمم إلَّا إذا افترقت، وإنَّ يد الله مع الجماعة.

= المعجم الكبير، رقم: (٣١)، والبيهقي في شعب الإيمان، رقم: (١٠٥٨١).

(١) رواه الترمذي، رقم: (٢٥٠٩)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأبو داود، رقم: (٤٩١٩)، وأحمد، رقم: (٢٧٥٠٨).

(٢) الشحناء: العداوة. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٥/ ٢٦٨).

(٣) النفر: التفرق. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٤/ ٢٦٥).

(٤) دب: مشى. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١/ ٣٧٠).

(٥) سبق تخريجه.

٥٢- الرِّفق بالحيوان

قال الله تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةًۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾ [النّحل: ٥-٨].

إنَّ اللهَ خلق هذه الأنعام لمنافعكم يا بني الإنسان، والأنعامُ هي الإبلُ والبقرُ والغنم: تصنعون من أصوافها وأوبارها وأشعارها دفئًا لكم، فتحيكون الملابسَ، وتعملون البيوت الَّتي تقيكم الحرَّ صيفًا، والبردَ شتاءً، وتتَّخذون من ضروعها لبنًا، ومن نتاجها مالًا، ومن ظهورها مراكبَ توصلكم إلى الأماكن الَّتي لا تستطيعون الوصولَ إليها إلَّا بالتَّعب والمشقَّة، ولكم من لحومها مآكلُ، ولكم فيها جَمالٌ ومنظرٌ لذيذٌ حين تُريحونها في العَشِيِّ، وحين تسرحون بها في الغداة، إنَّ ربَّكم لرؤوفٌ رحيمٌ بكم؛ حيث خلق لكم هذه الأنعامَ لمصالحكم، وسخَّرها لمنافعكم، بلا حولٍ منكم، ولا قوَّةٍ فيكم، ولولا تسخيرُه لها، لما استطعتُم تذليلَها، وخلقَ لكم الخيلَ والبغالَ والحميرَ، وذلَّلها لركوبكم، وجعلها لكم زينةً تتزيَّنون بها، إلى غير ذلك من منافعَ، ويخلق ما لا تعلمون، فهو ربُّ الإبداع، ومخلوقاتُه لا تُحصى، فقد يسخِّر الله تعالى للإنسان حيوانًا وحشيًّا يُذَلِّله لمنافعه

كما ذلَّل الفيلَ والدُّبَّ، وقد يهدي عقلَ الإنسان إلى استنباط آلاتٍ عظيمةٍ يسخِّرها له كما سخَّر له الأنعام: من حمل الأثقال، والوصول إلى البلد البعيد؛ كالقُطُر، والمراكب البخاريَّة، والطَّائرات، وسيخلق ما لا تعلمونه الآن.

إنَّ الله خلقَ هذه الأنعام وغيرَها وسخَّرها لمنافع الإنسان؛ فواجبٌ على الإنسان أن يشكر اللهَ على نعمته، فمَن شكر فإنَّما يشكر لنفسه، ومن كفر فإنَّ ربِّي غنيٌّ كريمٌ.

إنَّ الحيوان - سواءٌ كان برِّيًّا أو بحريًّا أو طائرًا - ذو نفسٍ حيَّةٍ تشعر بالألم، وتأنس بالرَّاحة، فلم يكن ثَمَّة فرقٌ بينه وبين الإنسان إلَّا النُّطق؛ فهذا يُعبِّر بنطقه مستغيثًا مسترحمًا، أمَّا ذلك، فليس له وسيلةٌ تحميه من أذى الإنسان إلَّا شعورُ الإنسانِ نفسِه أنَّه ارتكب ظلمًا؛ وإنَّ ديننا يأمرنا أن نُشفق على هذا الحيوان، ونرفق به؛ لأنَّه سُخِّر لمنافعنا، ولأنَّه مخلوقٌ مثلُنا.

روى أحمد وأبو داود والتِّرمذيُّ والحاكم عن عبدِ الله بنِ عمرِو بنِ العاص: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**الرَّاحمون يرحَمُهم الرَّحمن، ارحَمُوا مَنْ في الأرض، يرحَمْكم مَنْ في السماء**»[(١)]؛ فالرَّسولُ يخبرنا أنَّ الله تعالى كتبَ رحمتَه لمن اتَّصف بالرَّحمة، وأنَّ الوسيلةَ لنيل رحمةِ مَنْ في السَّماء هي رحمةُ مَنْ في الأرض.

والدِّينُ الإسلاميُّ يتوعَّد بالعذاب الشَّديد كلَّ من يؤذي الحيوان،

---

(١) رواه أحمد، رقم: (٦٤٩٤)، وأبو داود، رقم: (٤٩٤١)، والترمذي، رقم: (١٩٢٤) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

ويحثُّ على الرَّأفة به، ودفع الضَّررِ عنه، ويوجب الإنفاقَ عليه إن كانَ في حوزتك، أو تركُه يسعى في رزقه إن لم تكنْ مالكًا له، أو مكلَّفًا به.

دخل رسول الله ﷺ مرَّةً حائطًا لرجلٍ من الأنصار، فإذا فيه جَملٌ، فلمَّا رأى رسولَ الله ﷺ، جَرْجَرَ[1]، وذرفت عيناهُ، فأتاه النَّبيُّ ﷺ، فسمع سراته - أي: ظهره -، وذفراه - أي: العظم النَّاتئ خلفَ الأذن -، ثمَّ قال ﷺ: «**من ربُّ هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟**» فجاء فتًى من الأنصار فقال: هذا لي يا رسول الله! قال ﷺ: «**أفلا تتَّقي اللهَ في هذه البهيمةِ الَّتي مَلَّكَكَ اللهُ إيَّاها؟ فإنَّه يشكو لي أنَّك تُجيعه وتُدْئِبه - أي: تتعبه في العمل -**»[2]. رواه أحمد عن عبد الله بن جعفرٍ.

إنَّ الله سخَّر هذه البهائمَ وذلَّلها لنا، فواجبٌ علينا أن نشكره على نعمته هذه بأن نرحمَها، ونُحسنَ إليها في مأكلها ومشربها ومربطها، وألَّا نكون عليها شياطين، فنقسو في سَوْقها، ونكلِّفها ما لا تطيق.

أخرج الإمام أحمدُ وابن حبانَ عن سهل بن الحنظليَّة: أنَّ رسول الله ﷺ مرَّ ذات يوم ببعيرٍ قد لَحِقَ ظهرُه ببطنه من الجوع، فقال ﷺ: «**اتَّقوا اللهَ في هذه البهائِمِ المُعجَمَةِ، فاركبوها صالحةً، وكُلوها صالحةً**»[3].

---

(١) الجرجرة: تردد هدير الفحل، وهو صوت يردده البعير في حنجرته. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٤/ ١٣١).
(٢) رواه أبو داود، رقم: (٢٥٤٩)، وأحمد، رقم: (١٧٥٤).
(٣) رواه أبو داود، رقم: (٢٥٤٨)، وأحمد رقم: (١٧٦٢٥)، وابن حبان، رقم: (٥٤٥).

وروى البخاريُّ ومسلمٌ عن عبد الله بن عمر: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**عُذِّبت امرأةٌ في هرَّةٍ حبستها حتَّى ماتَتْ جوعًا، فدخلت فيها النَّارَ**»(١).

يستدلُّ بهذا الحديث الصَّحيح على أنَّ تعذيبَ الحيوان بلا سببٍ معصيةٌ تستوجب العقابَ، وكذلك قتله إذا لم يكن مؤذيًا، أمَّا الحيوانُ الصَّائلُ أو المفترسُ أو السَّامُّ فلا بأس بقتله، فالمؤذي يُدفع أذاه بوسائلَ غيرِ القتل؛ فإن لم تفدْ فلا مانعَ من قتله، إذا زادت أذيَّته، أمَّا الحيوان المسالم، فلا يجوز التَّعرُّضُ له بحالٍ.

أمَّا الحيوانات ذاتُ الدُّرِّ والنَّسل، والمسخَّرةُ لحمل الأثقال: فالويلُ لمن يؤذيها، أو يُجيعها، أو يُحَمِّلها ما لا تُطيق.

روى الدَّارقطنيُّ عن أبي هريرة: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إذا ركبتم هذه الدَّوابَّ، فأعطوها حَقَّها من المنازل، ولا تكونوا عليها شياطينَ**»(٢).

وروى مسلمٌ والتِّرمذيُّ عن أبي هريرة أيضًا: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إذا سافَرْتُم في الخِصْب، فأعطوا الإبلَ حَقَّها من الأرض، وإذا سافرتم في الجَدْب، فأسرعوا عليها، وبادروا بها نِقْيَها - أي: مُخَّها -، وإذا عَرَّسْتُم - أي: نزلتم ليلًا -، فاجتنبوا الطَّريقَ، فإنَّها طرقُ الدَّوابِّ، ومأوى الهَوامِّ باللَّيلِ**»(٣).

ومن أشهرِ الأحاديث الدَّالَّةِ على وجوب الرِّفقِ بالحيوان ما رواه

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٢٣٦٥)، ومسلم، رقم: (٢٢٤٢).
(٢) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٢٤٩٥٣).
(٣) رواه مسلم، رقم: (١٩٢٦)، والترمذي، رقم: (٢٨٥٨) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

الشَّيخان عن أبي هريرة ورواه أحمد وابن ماجه عن سراقة وابن عمرو بن العاصِ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«وفي كلِّ ذاتِ كَبِدٍ حرَّاءَ أَجْرٌ»**(١)؛ أي: كلُّ حيوان تُطعمه وتَسقيه لك فيه أجرٌ.

وقد قصَّ علينا رسولُ الله ﷺ فيما رواه الشَّيخان عن أبي هريرة: **«بينما رجلٌ يمشي، فاشتدَّ عليه العطشُ، فنزل بئرًا فشرب منها، ثمَّ خرجَ فإذا هو بكلبٍ يلهثُ يأكلُ الثَّرى، فقال: لقد بلغَ هذا مثل الَّذي بلغ بي، فملأ خُفَّه، ثمَّ أمسك بفيه، ثمَّ رقي، فسقى الكلبَ، فشكر اللهُ له، فغفر له»**، قالوا: يا رسول الله! وإنَّ لنا في البهائم أجرًا؟ قال ﷺ: **«في كلِّ كبدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ»**(٢).

أمَّا إذا أردنا ذبحَ حيوانٍ، أو اضطُرِرْنا لقتله دفعًا لضرره، فقد علَّمَنا النَّبيُّ الكريمُ ﷺ كيف نذبحه، أو نقتله؛ فقد روى مسلمٌ وأحمد والتِّرمذيُّ والنَّسائيُّ وغيرُهم عن شَدَّادِ بنِ أَوْسٍ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«إنَّ الله تعالى كتبَ الإحسانَ على كلِّ شيءٍ؛ فإذا قتلتم، فأحسنوا القِتْلَةَ، وإذا ذبحتم، فأحسنوا الذِّبحة، ولْيُحِدَّ أحدُكم شفرتَه، ولْيُرِحْ ذَبيحتَهُ»**؛(٣) أي: يريحها بالسَّقي، وإمرار السِّكين بسُرعةٍ وقوَّةٍ.

ومن ظُلم الحيوان والقسوة عليه ما فعله بعضُ الجهلة ممَّن لا خُلُقَ ولا عقلَ لهم، في التَّحريش بينَ بعض البهائم؛ كمناطحة الكباش، أو

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٢٣٦٣)، ومسلم، رقم: (٢٢٤٤)، بلفظ: «في كل كبد رطبة أجر»، وابن ماجه، رقم: (٣٦٨٦)، وأحمد، رقم: (٧٠٧٥).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه ومسلم، (١٩٥٥)، والترمذي، رقم: (١٤٠٩)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي، رقم: (٤٤٨٥)، وأحمد، رقم: (١٧١٢٨).

مناقرةِ الطُّيور، أو مهارشةِ الكلاب، والإسلامُ يُحرِّم ذلك، فقد روى أبو داود والتِّرمذيُّ عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، قال: «**نهى رسولُ الله ﷺ عن التَّحْريش بين البهائم**»(١) ولا فائدةَ من وراء ذلك إلَّا الكسبُ الحرام؛ لأنَّ المغالبةَ فيها قمارٌ أو تسليةٌ وتلذُّذٌ بالنَّظر إلى الدِّماء السَّائلة.

روى البخاري عن عبد الله بن عمر: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لعنَ اللهُ مَنْ مَثَّلَ بالحيوان**»(٢)، وروى الطَّبرانيُّ عن عبد الله بن عبَّاس، قال: «**نهى رسولُ الله ﷺ عن قتل كُلِّ ذي رُوحٍ، إلَّا أنْ يُؤذِيَ**»(٣).

فليتَّقِ اللهَ مَنْ لا نصيبَ لهم في الرَّحمة بالإحسان إلى ما سخَّر الله لهم؛ حتَّى تشكرَ الله لهم كما شكر الكلبُ للَّذي سقاه؛ فإنَّ الإحسان إلى الحيوان حسنةٌ، و﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هُود: ١١٤]، وإنَّه خيرٌ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزّلزَلة: ٨].

وكثيرًا ما تقع بعض الحيوانات في أيدي الأطفال فيؤذونها، أو أنَّ الوالدين يُلهون أطفالهم بها، وهذا أيضًا ظلمٌ للحيوان، وتعويدٌ للطِّفل على القسوة، وإنَّ واجب وليِّ الطِّفل أن يعوِّدَ طفله على الرَّحمة، ليكونَ ممَّن يرحمُهم الرَّحمن.

(١) رواه أبو داود، رقم: (٢٥٦٢)، والترمذي، رقم: (١٧٠٨).

(٢) رواه البخاري، رقم: (٥٥١٥) بلفظ: «لعن النَّبيُّ ﷺ مَنْ مثَّل بالحيوان».

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم: (١٢٦٣٩).

٥٣- الظُّلم

قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

الظُّلمُ مجاوزةُ الإنسان حدَّهُ، واستطالتُه على غيره جَوْرًا، وهو من طبائع النَّفس، تُظهره القوَّة، ويُخفيه الضَّعف، والله ﷻ أعدَّ للظالمين يومَ القيامة نارًا تحيط بهم إحاطةَ السُّرادق - رواق الخيمة - بمن فيه، وإذا استغاثوا من شدَّة العطش والحرِّ، أُغيثوا بماءٍ أشدَّ حرًا من مُذابِ المعدنِ يشوي الوجوهَ من حرِّه، بئس هذا الشرابُ الَّذي يُغاثون به، وساءت النَّار لهم منزلًا ومجتمعًا.

ينالُ الإنسانُ بظلمِه ما دنا عنه وما نأى، وأوَّلُ مَن يُصيبه بظلمه نفسُه إن قَصَّر في أداءِ واجبها، أو قصَّر في أداءِ العمل الَّذي يعود عليه نفعُه دنيا وأخرى.

وقد يظلمُ أهلَه فيسوسُهم بالقَسوة متوهِّمًا أنَّ القسوةَ مَدعاةٌ لاحترامِهم له، أو يبخلُ عليهم، فلا يُنفق عليهم نفقةَ أمثالهم، أو لا يُحسن معاشرتهم، وقد ذكر لنا التَّاريخُ أنَّ عمرَ بنَ الخطَّابِ رضي الله عنه كان ذات يومٍ مستلقيًا على ظهرِه في بيتِه، وصبيانُه يلعبون حولَه، فدخلَ عليه أحدُ عمَّاله، فأنكر ذلكَ عليه، فقال له عمر: كيفَ أنت مع

أهلك؟ فقال: إذا دخلتُ سكت النَّاطقُ. فقال له: اعتزلْ عملَنا، فإنَّك لا ترفُقُ بأهلك وولدك، فكيف ترفُق بأمَّة محمَّدٍ ﷺ؟[١]

ويظلمُ زوجتَه، فينظرُ إليها نظرةَ متاعِ بيتِه، وهي شريكةُ حياته، ومدبِّرةُ شؤونه، وأمُّ أولاده، والحافظةُ لغيبته، ويظلمُ أولاده، فلا يحسن تربيتهم، ولا يقوِّمُ معوجَّهم؛ فينشئون عبيدًا وإماءً في ثيابِ أحرارٍ.

ويظلمُ جيرانَه، فلا يقوم بحقِّ الجوارِ لهم، ولا يواسيهم في محنتهم، ولا يساعدهم في شؤونهم، ولا يفرحُ لفرحِهم، ولا يحزنُ لحزنهم، ولقد أوصى اللهُ بالجوار، فقال: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النِّسَاء: ٣٦]. وأوصى رسولُ الله ﷺ به، فقال: «**ما زالَ جبريلُ يوصيني بالجار حتَّى ظَنَنت أنَّه سيورثه**»[٢]، وقيل له: **إنَّ فلانةَ تصوم النَّهار، وتقومُ اللَّيل، وهي سيِّئة الخُلُق تؤذي جيرانَها بلسانها، فقال ﷺ: «لا خيرَ فيها، هي من أهلِ النَّار»**.[٣]

ويظلم النَّاس، ويعتدي عليهم بلسانه ويده، ولا يعطف عليهم، ولا يساعدهم بفضل ماله، ويظلم خَدَمه، فيكلِّفهم من العمل ما لا يطيقون، وقد لا يوفِّيهم أجورَهم في وقتها، ولا يعطف على

(١) انظر: موارد الظمآن لدروس الزمان، لعبد العزيز السلمان (٥/ ٤٩).
(٢) رواه البخاري، رقم: (٦٠١٥)، ومسلم، رقم: (٢٦٢٤).
(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٩٠٩٨).

ضعيفهم، ولا يرحم صغيرهم، ولا يرأف بعاجزهم، ولا يعفو عن زلَّاتهم، ولا يحسنُ جزاء المحسن منهم.

وشرُّ أنواع الظُّلم: ظلمُ الحاكم رَعِيَّته ومَن وَلِيَ أمرَهم، وإذا انتشرَ الظُّلمُ في أمَّةٍ، سُلِبَ الأمنُ على الأرواح والأموال والأعراض، وانتشرت فيها المفاسدُ وسوءُ الأخلاقِ، وفشت فيها العداوات والبغضاء، وأكلَ قويُّها الضَّعيف، وقلَّت فيها اليدُ العاملةُ، فتقلُّ الثَّروةُ، ويتَّسع نطاقُ الجهل، وتذهب من الأمَّة الشَّجاعةُ والحميَّة، ويحلُّ محلَّها النِّفاقُ والملقُ(١)، ويثمران الجاسوسيَّة؛ فتسعى حاشية ذلك الظَّالم إليه بالأبرياء يبتغون الزُّلفى(٢) عنده بالإيقاعِ بالنَّاس كذبًا وبهتانًا، فتنفرُ القلوبُ منه، وتجتمع على بغضه والكيد له، فقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [إبراهيم: ٤٢] وقال أيضًا: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشُّعَراء: ٢٢٧].

ويظلمُ القاضي بجنوحِه عن الحقِّ مع أحد الخصمين، أو تَسَرُّعِه بالحكم، أو عدم تبصُّره في بَيِّنتي الخصمين، أو شهادة الشَّاهد، والله ﷻ يقول: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النِّساء: ١٣٥]، ويقول في موضع آخر: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

(١) الملق: أن تعطي باللِّسان ما ليس في القلب. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٦/ ٤٠٣).

(٢) الزلف: القربة. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٣/ ٤٠٠).

الظَّالم جانٍ على نفسِه وعلى أمَّته؛ فإذا بُليت به أمَّةٌ، ولم تأخذ على يده، رفع الله يدَه عن معونتها، وسلَّط عليها مَنْ يسعى في شقائها، ويحتلُّ ديارها، ويسلبها أموالها، ويُهين كرامتها، وهذا مصداقٌ لقول النَّبيِّ ﷺ الَّذي رواه أبو داود والتِّرمذيُّ عن أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه: **«إنَّ النَّاسَ إذا رأوا الظَّالمَ فلم يأخُذوا على يده، أوشكَ أن يعمَّهم اللهُ بعقابٍ من عنده»**(١).

الظَّالم خائفٌ؛ فنفسُه به شقيَّةٌ، والرَّعيَّةُ منه في بليَّةٍ، وعقابُ الله له بالمرصاد ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]، وقال عمر بن الخطاب: **«أشقى الولاة مَنْ شقيت به رَعِيَّتُه»**(٢).

الظُّلمُ قاتلٌ للنَّفسيَّات، مميتٌ لحرِّيَّات الأفكار، داعٍ لعدم الإحسان في الأعمال، وسيلةٌ لانتشار الرَّشوة والمحسوبيَّة والخوف في البلاد، سببٌ لظهورِ الشَّفاعة بالباطل.

أمَّا العادلُ فإنَّه سعيدٌ ومطمئنٌ قد أرضى نفسَه وقومَه وربَّه، فهو إِنْ حَكَمَ عَدَلَ، وإِنْ سَاسَ سَلكَ سبيلَ الصَّالحين، ولم تأخذْه في الله لومةُ اللَّائمين.

إنَّ الله سبحانه وتعالى وعد العادلين بثمانية أشياء:

١- محبَّته لهم؛ فهو يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحُجرَات: ٩].

٢- اقترابهم منه، وجلوسهم عن يمينه؛ فقد روى مسلمٌ عن

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري (٣/ ٥).

ابن عمرو: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إنَّ المُقْسِطين عند الله على منابرَ من نورٍ عن يمينِ الرَّحمن - وكلتا يديه يمين - الَّذين يَعْدِلون في حكمهم وأهليهم، وما وَلُوا**»(١).

٣- إجابته دعاءهم؛ بدليل ما روى أحمدُ عن أبي هريرة: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**ثلاثةٌ لا تُرَدُّ دعوتُهم: الصَّائمُ حين يُفطر، والإمام العادلُ، ودعوةُ المظلوم يرفعُها اللهُ فوقَ الغمام، ويفتح لها أبوابَ السَّماء، ويقولُ الربُّ: وعزَّتي وجلالي! لأنصرنَّك ولو بعد حين**»(٢).

٤- رفع درجتهم على درجات العباد إذا كانوا أئمَّةً؛ فقد روى الطَّبرانيُّ عن ابن عبَّاس، عن رسول الله ﷺ قال: «**يومٌ من إمامٍ عادلٍ أفضلُ من عبادة ستِّين سنةً، وحَدٌّ يُقام في الأرض بحقِّه أزكى من مطرِ أربعينَ صباحًا**»(٣).

٥- معونته لهم، وتبصيرهم الطَّريقَ؛ كما روى التِّرمذيُّ وابن ماجه عن ابن أبي أوفى: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إنَّ الله تعالى مع القاضي ما لم يَجُرْ، فإذا جار، تخلَّى عنه، ولزِمَهُ الشيطانُ**»(٤).

٦- شكر النَّاسِ لهم؛ لأنَّ العادلَ يعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، ويساوي بين النَّاس جميعًا، وقد روى الطَّبرانيُّ عن ابن عبَّاس: أنَّ

---

(١) رواه مسلم، رقم: (١٨٢٧).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم: (١١٩٣٢).

(٤) رواه الترمذي، رقم: (١٣٣٠) وقال: هذا حديث غريب، ورواه ابن ماجه، رقم: (٢٣١٢).

النَّبيَّ ﷺ قال: «**من أرضى اللهَ في سخط النَّاسِ، رضي الله عنه وأرضى عنه مَنْ أسخطَه في رضاه حتَّى يزيِّنه، ويزيِّن قوله وعمله في عينه**»(١).

٧- إظلالهم بظلِّ العرش يوم القيامة؛ لأنَّ العادل من السَّبعة الَّذين يُكرمون بظلِّ العرش في ذلك اليوم؛ فقد روى الشَّيخان عن أبي هريرة، وغيرُهما عن أبي هريرة، وأبي سعيدٍ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**سبعةٌ يُظلِّهم اللهُ في ظلِّه يومَ لا ظلَّ إلا ظِلُّه: إمامٌ عادل، وشابٌّ نشأ في عبادة الله، ورجلٌ قلبُه معلَّقٌ بالمسجد إذا خرج منه حتَّى يعود إليه، ورجلان تحابَّا في الله، فاجتمعا على ذلك، وافترقا عليه، ورجلٌ ذكرَ الله خاليًا، ففاضت عيناه، ورجلٌ دعَتْه امرأةٌ ذاتُ مَنْصِبٍ وجمالٍ، فقال: إنِّي أخافُ اللهَ ربَّ العالمين، ورجلٌ تصدَّقَ بصدقةٍ فأخفاها حتَّى لا تعلمَ شمالُه ما أنفقتْ يمينُه**»(٢).

٨- الجنَّة: ولا شكَّ أنَّ مَنْ أحبَّه الله، وقَرَّبَ مجلسَه، وأظلَّه بظلِّ عرشِه، وأعانه في جميع أحواله، وأرضى عنه خلقَه، تكون نهايتُه الجنَّةَ يرتع في نعيمها، وينعم في حظيرة قدسها.

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه البخاري، رقم: (٦٦٠)، ومسلم، رقم: (١٠٣١).

خاتمة

الحمدُ لله الَّذي هدانا لهذا وما كنا لنهتديَ لولا أن هدانا الله والصَّلاةُ والسَّلام على سيِّدنا محمَّدٍ عبدِ الله ورسوله ومصطفاه، حيثُ مَنَّ الله تعالى ووفَّقني لجمع هذا الكتاب، وطبعِه وظهورِه بهذا الشَّكلِ الجميلِ، والصُّورةِ المختصرةِ المتضمِّنة من حديث الرَّسول ﷺ ما صحَّ سندُه عن أئمَّة الحديث؛ موضَّحةً بعبارةٍ مبسَّطةٍ يفهمُها القارئ والمستمع.

نفع الله به، وكفاني شرَّ الغرور، واللهَ أسألُ أن يحقِّق أملَ كلِّ مسلمٍ يدعو إلى الإسلام، وأن يؤيِّد كلَّ من ينشر مبادئه السَّامية؛ إنَّه سميعٌ مجيبٌ.

اللَّهمَّ إنَّك وعدتَ الَّذين جاهدوا فيك أن تهديهم سبيلَك؛ اللَّهم فاكتبني فيمن جاهد فيكَ، واهدني الصِّراطَ المستقيم؛ صراطَ الَّذين أنعمتَ عليهم غيرِ المغضوبِ عليهم، ولا الضَّالِّين، آمين.

المؤلِّف

عبد الله النوري

جمعية الشيخ عبدالله النوري الخيرية
Sheikh Abdullah Al Nouri Charity Society

الأعمال الكاملة

لفضيلة الشيخ

عبد الله النوري

المتوفى سنة (١٤٠١هـ / ١٩٨١م) رحمه الله تعالى

نظم في الفقه

اعتنى به

د. تركي محمد حامد النصر

فكرة وإشراف

د. عبد المحسن عبد الله الجار الله الخرافي

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ[(١)]

يَقُوْلُ عَبْدُ اللهِ نَجْلُ نُوْرِي حَفِظَهُ اللهُ مِنَ الشُّرُوْرِ
اَلْحَمْدُ للهِ الكَرِيْمِ المُنْعِمِ مُبَيِّنِ الحَلَالِ والمُحَرَّمِ
وَشَارِعِ الأَحْكَامِ فِي الكِتَابِ وَمُوْضِحِ الغِيِّ[(٢)] مِنَ الصَّوَابِ
أَبَانَ عِلْمَ الفِقْهِ فِيْمَا أَنْزَلَا سُبْحَانَهُ عَزَّ وَجَلَّ وَعَلَا
ثُمَّ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ دَائِمَا عَلَى نَبِيٍّ جاء من رَبِّ السَّمَا
مُحَمَّدٍ رَسُوْلِهِ لِلنَّاسِ مُطَهِّرِ الخَلْقِ مِنَ الْأَرْجَاسِ
فعلَّمَ الْجَاهِلَ حَتَّى عَلِمَا وَأَنْقَذَ التَّائِهَ مِنْ تِيْهِ الْعَمَا
مُبَيِّنًا أَحْكَامَ شَرْعِ الدِّيْنِ وَمُرْشِدًا مَنْ شَكَّ لِلْيَقِيْنِ
صَلَّى عَلَيْهِ رَبُّنَا وَأَنْعَمَا وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَا
وَبَعْدُ فَالْعِلْمُ بِفِقْهِ الشَّرْعِ عِلْمٌ جَلِيْلٌ وَعَظِيْمُ النَّفْعِ
فَضَّلَهُ اللهُ عَلَى الْعُلُوْمِ جَمِيْعِهَا فِي المُحْكَمِ الكَرِيْمِ
فِيْ قَوْلِهِ: هَلْ يَسْتَوِي الَّذِيْنَا قَوْلًا جَلِيًّا وَاضِحًا مُبِيْنَا[(٣)]

(١) نظمها رحمه الله سنة (١٣٥٠هـ)، الموافق: (١٩٣١م).
(٢) الغيُّ: الضَّلال والخيبة. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١٥/ ١٤٠).
(٣) يريد رحمه الله قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزُّمر: ٩].

وَجَاءَ فِي الْحَدِيْثِ أَنَّ العُلَمَا   وَرَثَةٌ لِلأَنْبِيَاءِ الكُرَمَا[١]
وَقَوْلُهُ: مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ   خَيْرًا يُفَقِّهْهُ بِدِيْنِ رَبِّهِ[٢]
وَخَيْرُ مَا أُلِّفَ فِي الْفِقْهِ عَلَى   مَذْهَبِنَا[٣] دَلِيْلُ طَالِبِ العُلَا[٤]
تَأْلِيْفُ شَيْخِنَا الْإِمَامِ الْأَفْضَلِ   مَرْعِي بْنِ يُوْسُفَ الهُمَامِ الحَنْبَلِي[٥]
بَيَّنَ فِيْهِ أَكْثَرَ الْأَحْكَامِ   أَحْسَنَ بُنْيَانٍ عَلَى النِّظَامِ
وَاخْتَارَ فِيْهِ مَا عَلَيْهِ الْفَتْوَى   رُجْحَانُهُ عِنْدَ الْجَمِيْعِ أَقْوَى
فَنَسْأَلُ اللهَ لَهُ الرِّضْوَانَا   وَالْعَفْوَ وَالْخَيْرَاتِ وَالْإِحْسَانَا

كتاب الطَّهارة

وَهْيَ قِسْمَانِ فَرَفْعُ الْحَدَثِ   أَوَّلُهَا ثُمَّ زَوَالُ الخَبَثِ
لِلْمَاءِ أَقْسَامٌ هِيَ الطَّهُوْرُ   فَطَاهِرٌ فَنَجِسٌ مَحْظُوْرُ
أَمَّا الطَّهُوْرُ فَهُوَ الْبَاقِيْ عَلَى   خِلْقَتِهِ كَمَاءِ غَيْثٍ نَزَلَا

(١) يريد قوله ﷺ: **«العلماء ورثة الأنبياء»**. رواه أبو داود، رقم (٣٦٤١).
(٢) يريد قوله ﷺ: **«من يرد الله به خيرًا يفقه في الدين»**. رواه البخاري، رقم (٧١).
(٣) أي: المذهب الحنبلي.
(٤) يريدُ رحمه الله: كتاب (دليل الطالب لنيل المطالب) للكرمي رحمه الله.
(٥) العلامة مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي، المتوفَّى سنة (١٠٩٣هـ) مؤلف كتاب (دليل الطالب لنيل المطالب). انظر ترجمته في: خلاصة الأثر (٤/ ٣٥٨)، النعت الأكمل (ص١٨٩)، السُّحب الوابلة (٣/ ١١١٨)، مختصر طبقات الحنابلة (ص١٠٨).

يَـرْفَـعُ أَحْـدَاثَ ذَوِي الْأَحْـدَاثِ وَقَـدْ يُـزِيـلُ طَـارِئَ الْأَخْـبَـاثِ
أَقْـسَـامُـهُ أَرْبَـعَـةٌ أَوَّلُـهَـا مَا حَرَّمَ اسْتِعْمَالَهُ ذَوو النُّهَى[(١)]
لَا يَـرْفَـعُ الْأَحْـدَاثَ بَـلْ يُـزِيـلُ نَـجَـاسَـةَ الْأَخْـبَـاثِ يَـا نَـبِـيْـلُ
وَعَـرَّفُـوهُ أَنَّـهُ الْـمَـغْـصُـوْبُ وَمِثْلُهُ الْمَسْرُوْقُ وَالْمَنْهُوْبُ
وَمَـاءُ آبَـارِ ثَـمُـوْدَ إِلَّا بِـئْـرٌ لِـنَـاقَـةٍ فَـقَـدْ أُحِـلَّا
وَمِنْهُ مَا يَرْفَعُ عَنْهَا الْحَدَثَا لَا الرَّجُلُ الْبَالِغُ أَوْ مَنْ خَنَثَا[(٢)]
وَهْوَ قَلِيْلُ الْمَاءِ مَا بِهِ خَلَتْ اِمْـرَأَةٌ مُـحْـدِثَـةٌ فَـاطَّـهَّـرَتْ
وَمِنْهُ مَاءٌ يُكْرَهُ اسْتِعْمَالُهُ كَـمَـاءِ بِـئْـرٍ مَـدْفَـنٌ حِـيَـالُـهُ
كَذَاكَ مَا سُخِّنَ بِالْمَغْصُوْبِ أَوْ بِالنَّجَاسَاتِ أَوِ بِمَنْهُوْبِ
أَوْ زَادَ حَــرُّهُ وَزَادَ بَــرْدُهُ بِحَيْثُ يَقْشَعِرُّ مِنْهُ جِلْدُهُ
أَوْ أَنَّهُ اسْتُعْمِلَ فِيْمَا لَمْ يَجِبْ تَطَوُّعًا كَفِعْلِ غُسْلٍ قَدْ نُدِبْ
وَمِثْلُهُ مَا اسْتَعْمَلَتْهُ كَافِرَهْ لِحِلِّ وَطْئِهَا وَكَانَتْ صَاغِرَهْ
أَوْ كَانَ مَمْزُوْجًا بِمِلْحٍ انْعَقَدْ مِنَ الْمِيَاهِ لَا بِثَلْجٍ أَوْ بَرَدْ[(٣)]
أَوْ غَيَّرَ الْمَاءَ الَّذِي لَا يَخْتَلِطْ فِيْهِ وَمَنْعُ الِامْتِزَاجِ قَدْ شُرِطْ

(١) ذوو النُّهى: ذوو العقول والألباب. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٤٠/ ١٥٢).
(٢) الخنثى: رجلٌ له ما للذَّكر والأنثى. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٥/ ٢٤٢).
(٣) البَرَد: جمع بَرَدَة: ماء جامد ينزل من السَّحاب قطعًا صغيرة شِبه شفَّافة، ويُسمَّى حبَّ الغمام وحبَّ المُزن. انظر: معجم اللُّغة العربيَّة المعاصرة، لأحمد مختار عمر (١/ ١٨٥).

وَجَازَ فِي مَا(١) زَمْزَمٍ رَفْعُ حَدَثْ وَكَـرِهُـوْهُ فِـي إِزَالَـةِ الْـخَـبَـثْ
وَمِـنْـهُ مَـا جَـازَ كَـمَـاءِ الْـبَـحْـرِ وَالْـعَـيْـنِ وَالـنَّـهْـرِ وَمَـاءِ الْـبِـئْـرِ
وَمَـاءِ حَـمَّـامٍ وَمَـاءٍ سُـخِّـنَـا بِـالـشَّـمْـسِ وَالـتَّـرْكُ لَـهُ مَـا حَـسُـنَـا
وَجَـازَ مـا غَـيَّـرَهُ طُـوْلُ الـزَّمَـنْ وطُـحْـلُـبٌ(٢) وَوَرَقٌ وَإِنْ أَسَـنْ
أَوْ رِيْـحُ مُـعْـتَـدِلَـةٍ مُـجَـاوِرَهْ وَصَـرْصَـرٌ(٣) وَخُـنْـفُـسَـاءُ طَـاهِـرَهْ
وَجَـازَ فِـي الـطَّـاهِـرِ فِـعْـلُ الْـعَـادَةِ كَـالْأَكْـلِ وَالـشُّـرْبِ عَـدَا الـعِـبَـادَةِ
وَهْـوَ الَّـذِيْ غُـيِّـرَ مِـنْـهُ مَـا كَـثُـرْ مِـنْ لَـوْنِـهِ أو رِيْـحِـهِ بِـمَـا طَـهُـرْ
أَوْ طَـعْـمِـهِ فَـلَا تُـزِلْ بِـهِ الـخَـبَـثْ وَلَا تُـعَـالِـجْ فِـيْـهِ رَفْـعًـا لِـلْـحَـدَثْ
وَإِنْ يَـزُلْ بِـنَـفْـسِـهِ تَـغَـيُّـرُهْ فَـهْـوَ الـطَّـهُـوْرُ وَالْـجَـمِـيْـعُ يَـذْكُـرُهْ
وَطَـاهِـرٌ مَـا قَـلَّ وَاسْـتُـعْـمِـلَ فِـيْ فِـعْـلٍ يُـزِيْـلُ مَـنْـعَ مَـسِّ مُـصْـحَـفِ
أَوْ كَـفُّ مُـسْـلِـمٍ مُـكَـلَّـفٍ نَـهَـضْ مِـنْ نَـوْمِ لَـيْـلٍ لِـلْـوُضُـوْءِ قَـدْ نَـقَـضْ
اِنْـغَـمَـسَـتْ فِـيْـهِ قُـبَـيْـلَ أَنْ يَـصُـبْـ ـبَ اَلْـمَـا(٤) عَلَيهَا وَهْوَ أَمْرٌ قَدْ وَجَبْ
وَنِـيَّـةُ الْـغُـسْـلِ وَتَـثْـلِـيْـثٌ لَـزِمْ مَـعْ قَـوْلِ بِـسْـمِ اللهِ وَهْـوَ قَـدْ حُـتِـمْ

---

(١) سُهِّلت الهمزة في ماء؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.
(٢) الطُّحلب: خضرةٌ تعلو الماء المزمن، وقيل: هو الَّذي يكون على الماء كأنَّه نسج العنكبوت. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣/ ٢٦٧).
(٣) ريح صرصر: شديدة الصَّوت أو شديدة البرد. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٢/ ٣٠٢).
(٤) سُهِّلت الهمزة في الماء؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.

وَالنَّجِسُ اسْتِعْمَالُهُ مُحَرَّمُ إِلَّا لِمُضْطَرٍّ فَقَدْ لَا يَحْرُمُ

كَدَفْعِ لُقْمَةٍ إِذَا غَصَّ فَلَا بَأْس عَلَيْهِ فِيْ إِزَالَةِ الْبَلَا[١]

وَهْوَ الَّذِي بِهِ النَّجَاسَةُ الْتَقَتْ فَغَيَّرَتْ أَوْصَافَهُ إِذْ وَقَعَتْ

أَوْ بَعْضَهَا فَإِنْ يَزُلْ تَغييرُهُ بِنَفْسِهِ عَادَ لَهُ تَطْهِيْرُهُ

أَوْ نَزْحُهُ[٢] وَيَفْضُلُ الْكَثِيْرُ أَوْ صَبُّ ماءٍ فَوْقَهُ طَهُوْرُ

وَمِنْهُ مَا قَلَّ وَلَاقَى نَجِسَا أَوْ وَقَعَتْ فِيْهِ فَهَذَا نَجُسَا

ثُمَّ الْكَثِيْرُ قُلَّتَانِ شَرْعَا رُبْعُ ذِرَاعٍ وَذِرَاعٌ ذَرْعَا

طَوْلًا وَعَرضًا وَارْتِفَاعًا فَاجْتَهِدْ وَعَنْ طَرِيْقِ الشَّرْعِ يَا ذَا لَا تَحِدْ

وَالْمَاءُ فَاعْلَمْ إِنْ يَكُنْ كَثِيْرَا وَلَمْ يَلِدْ بِهِ الْأَذَى تَغْيِيْرَا

فَهْوَ الطَّهُوْرُ إِنْ عَلِمْتَ كَثْرَتَهْ أَمَّا مَعَ الشَّكِّ فَرَجِّحْ قِلَّتَهْ

وَمَنْ عَلَيْهِ اشْتَبَهَ الطَّهُوْرُ بِغَيْرِهِ فَكُلُّهَا مَحْظُوْرُ

وَلْيُتَمِّمَنْ بِلَا إِرَاقَهْ وَلْيَتَحرَّ الشُّرْبَ حَسْبَ الطَّاقَهْ

وَيَلْزَمُ العَالِمَ بِالشَّيْءِ النَّجِسْ إِخْبَارُهُ غَيْرَهُ بِهْ لِيَحْتَرِسْ[٣]

---

(١) سُهِّلت الهمزة في بلاء؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.

(٢) نَزَحَ: استقى الماء حتَّى ينفد أو يقلَّ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٧/ ١٧٠).

(٣) احترس من الشَّيء: توقَّاه وتحفَّظ أو تحرَّز منه. انظر: معجم اللُّغة العربيَّة المعاصرة، لأحمد مختار عمر (١/ ٤٧١).

بابُ الآنيةِ

كُـلُّ إِنَـاءٍ طَـاهِـرٍ إِلَّا الـذَّهَـبْ ... جَازَ لَنَا اسْتِعْمَالُهُ وَمَا انْغَصَبْ
وَاتْـرُكْ إِنَـاءً فِـضَّـةً أَوْ ذَهَـبَـا ... أَوْ مَا بِهَا مُوِّهَ(١) وَالْمُضَبَّبَا(٢)
إِلَّا بِـضَـبَّـهِ لِـغَـيْـرِ زِيْـنَـهْ ... يَسِيْرَةٍ مِنْ فِضَّةٍ ثَمِيْنَهْ
وَيَـحْـرُمُ اتِّـخَـاذُ جِـلْـدِ آدَمِـي ... وَعَظْمِهِ فَجَنِّبَنْهَا تَسْلَمِ
وَكُلُّهَا يُجْزِي بِهَا رَفْعُ الْحَدَثْ ... إِنْ سَلِمَتْ بِنَفْسِهَا مِنَ الْخَبَثْ
وَكُلُّ مَا لِلْكَافِرِيْنَ مِنْ إِنَا(٣) ... وَمِنْ ثِيَابٍ طَاهِرٍ فِي شَرْعِنَا
وَالشَّيْءُ لَا يُحْجَبُ عَنْ طَهَارَتِهْ ... بِالشَّكِّ مَا لَمْ يُدْرَ عَنْ نَجَاسَتِهْ
يَطْهُرُ مِمَّا بِالْحَيَاةِ يَطْهُرُ ... مِنْ مَيْتَةٍ شَعْرٌ وَصُوْفٌ وَبَرُ
وَالرِّيْشُ كَالشَّعْرِ وَدَعْ مَا دُوْنَهَا ... حَافِرَهَا وَظُفْرَهَا وَقَرْنَهَا
وَعَظْمَهَا وَجِلْدَهَا وَالْعَصَبَا ... وَلَا يُطَهِّرُ الدِّبَاغُ(٤) الْأُهُبَا(٥)

---

(١) المموَّه: المطلي بالفضَّة أو الذَّهب. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣٦/ ٥٠٩).
(٢) المضبَّب: الشَّيء المغطَّى والدَّاخل بعضه في بعض. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣/ ٢٣٣).
(٣) سُهِّلت الهمزة في (إناء)؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.
(٤) الدِّباغ: ما يُدبغُ به الأديم، وفي الحديث: «دِباغُها طهورها». انظر: لسان العرب، لابن منظور (٨/ ٤٢٤).
(٥) الإهاب: الجلد من البقر والغنم والوحش أو هو ما لم يُدبغ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢/ ٤٠).

وَسُــنَّ إِيْـكَــاءُ وِكَــاءِ الْأَسْـقِـيَـهْ[١] كَـمَـا يُـسَــنُّ أَنْ تُـغَـطَّـى الْأَوْعِـيَـهْ

بابُ الاستنجاءِ

وَقَالَ الِاسْتِنْجَاءُ فِي الدَّلِيْلِ[٢] إِزَالَــةُ الْــخَــارِجِ مِــنَ سَــبِــيْــلِ
وَهْـوَ بِـتَـعْـرِيْـضٍ فَـطَـهِّـرِ الْـمَـحَـلْ مِــنْ أَثَــرِ الْــخَــارِجِ مِــنْــهُ فَــأَزِلْ
بِالْـمَا[٣] الطَّهُوْرِ أَوْ بِطَاهِرِ الْحَجَرْ مُـنْـقًّـى مُـبَـاحٍ جَـامِـدٍ هَـذَا الْأَثَـرْ
وَالشَّرْطُ فِي الْأَحْجَارِ: اَلْإِنْقَاءُ بِــحَــيْــثُ لَا يُــزِيْــلُ إِلَّا الْــمَــاءُ
اَلْأَثَـرَ الْـبَـاقِـي ثَـلَاثًـا لَا أَقَـلْ وَأَنْ تَـعُـمَّ كُـلُّـهَـا كُـلَّ الـمَـحَـلْ
وَحَـرَّمُـوا بِـالـرَّوْثِ وَالـطَّـعَـامِ وَلَــو لِـحَـيْـوَانٍ وَبِـالْـعِـظَـامِ
فَإِنْ بِهَا اسْتَجْمَرَ أَوْ بِمَا احْتُرِمْ لَـمْ يُـجْـزِ إِلَّا الْـمَـا لِاسْـتِـنْـجَـا لَـزِمْ
وَلَـوْ تَـعَـدَّى مَـوْضِـعَ الْـعَـادَةِ مَـا يُـبْـرِزُهُ لَـمَـا كَـفَـاهُ غَـيْـرُ مَـا[٤]
وَالشَّرْطُ فِي الْمَا[٥] ظَنُّهُ الكِفَايَهْ سَـبْـعٌ وَتَـنْـظِـيْـفٌ لِـحَـدِّ الْـغَـايَـهْ
ويُـسَـنُّ الِاسْـتِـجْـمَـارُ ثُـمَّ اسْـتِـنْـجَـا وَالْـعَـكْـسُ مَـكْـرُوْهٌ وَيُـجْـزِي الْإِجْـزَا

(١) وكاء الأسقيه: الوكاء رباط الوعاء والكيس والصرة، وهو يشدُّ رؤوسها لئلَّا يدخلها حيوانٌ أو يسقط فيها شيءٌ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٤٠/ ٢٤٠).
(٢) أي: في كتاب (دليل الطالب لنيل المطالب).
(٣) سُهِّلت الهمزة في الماء؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.
(٤) سُهِّلت الهمزة في ماء؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.
(٥) سُهِّلت الهمزة في الماء؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.

وَمِلْ عَنِ اسْتِقْبَالِ بَيْتِ اللهِ ... بِهِ وَالِاسْتِدْبَارِ لِاسْتِكْرَاهِ
وَاعْلَمْ بِفَرْضِيَّةِ الِاسْتِنْجَاءِ ... لِكُلِّ خَارِجٍ سِوَى الْهَوَاءِ
وَنَجِسٌ مَا لَمْ يُلَوِّثِ الْمَحَلْ ... وَطَاهِرٌ مِثْلُ الْمَنِيِّ إِنْ حَصَلْ

فصل آداب التَّخلِّي

يَنْدُبُ لِلدَّاخِلِ فِي بَيْتِ الْخَلَا ... تَقْدِيمُ يُسْرَى قَدَمَيْهِ أَوَّلَا
وَقَوْلُ بِاسْمِ اللهِ ثُمَّ مَا وَرَدْ ... تَعَوُّذًا بِاسْمِ إِلَهِنَا الصَّمَدْ
وَقَدِّمِ الْيُمْنَى خُرُوْجًا نَدْبَا ... وَقُلْ دُعَاءً جَاءَ مُسْتَحَبَّا
اَلْحَمْدُ للهِ الَّذِيْ أَذْهَبَ عَنْ ... نِيَ الْأَذَى رَوَاهُ أَصْحَابُ السُّنَنْ(١)
وَيُكْرَهُ اسْتِقْبَالُ شَمْسٍ وَقَمَرْ ... كَذَا مَهَبُّ الرِّيْحِ إِلَّا إِنْ سَتَرْ
وَيُكْرَهُ الْكَلَامُ فِي الْخَلَاءِ ... وَالْبَوْلُ فِي الرَّمَادِ وَالْإِنَاءِ
قَبْلَ دُنُوِّهِ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا ... يُكْرَهُ فِي الْبَوْلِ الْقِيَامُ نُقِلَا
ويَحْرُمُ الْبِرَازُ فِي الْمَوَارِدِ(٢) ... وَفِي الطَّرِيْقِ الْعَامِّ وَالْمَعَابِدِ
وَفِي ظِلَالِ نَافِعٍ وَمَقْبَرَهْ ... وَتَحْتَ أَشْجَارٍ ذَوَاتِ ثَمَرَهْ

---

(١) يريد قوله ﷺ: «... الحمد للهِ الذي أذهب عنِّي الأذى وعافاني». رواه ابن ماجه، رقم: (٣٠١).

(٢) المَوَارِد: المجاري والطُّرق إلى الماء. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٩/ ٢٩١).

وَاحْتَرِمِ الْقِبْلَةَ فَاسْتِقْبَالُهَا يَحْرُمُ فِي الْخَلَاءِ وَاسْتِدْبَارُهَا
إِنْ كَانَ فِي الصَّحْرَا[١] وَلَا حَائِلَ لَهْ وَالذَّيْلَ إِنْ أَرْخَى قَلِيْلًا حَلَّ لَهْ
وَحَرَّمُوا الْبَقَاءَ فَوْقَ حَاجَتِهْ فَكِّرْ هُدِيْتَ للتُّقَى فِي حِكْمَتِهْ

بابُ السِّوَاكِ

سُنَّ السِّوَاكُ مُطْلَقًا بِالْعُوْدِ فِيْمَا رُوِيْ عَنْ أَحْمَدَ الْمَحْمُوْدِ[٢]
بِلَيِّنٍ[٣] رَطْبٍ مُنَقٍّ لِلْفَمِ وَكَرِهُوْهُ مُطْلَقًا لِلصَّائِمِ
بَعْدَ الزَّوَالِ[٤] وَهْوَ مَنْدُوْبٌ لَهُ بِيَابِسٍ وَجَازَ رَطْبًا قَبْلَهُ
وَلَمْ يُصِبْ سُنَّةَ بَحْرِ الْجُوْدِ كُلُّ مَنِ اسْتَاكَ بِغَيْرِ الْعُوْدِ
وآكَدُ السِّوَاكِ لِلْقُرْآنِ كَذَاكَ عِنْدَ صُفْرَةِ الْأَسْنَانِ
وَلِلْوُضُوْءِ وَانْتِبَاهِ النَّائِمِ[٥] وَلِلصَّلَاةِ مَعْ تَغَيُّرِ الْفَمِ

(١) سُهِّلت الهمزة في الصَّحراء؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.
(٢) رجلٌ محمودٌ: إذا كثُرَت خِصالُهُ المَحمودة غير المذمومة. انظر: مقاييس اللُّغة، لابن فارس الرَّازي (٢/ ١٠٠).
(٣) تليَّن الشَّيء: صار لدناً قابلاً للانثناء، وعكسه تصلَّب. انظر: معجم اللُّغة العربيَّة المعاصرة، لأحمد مختار عمر (٣/ ٢٠٥٦).
(٤) زال النَّهار: ارتفع [والمقصود هنا وقت الظهيرة]. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٩/ ١٤٧).
(٥) انتبه الشَّخص: استيقظ أو انتبه من غفلته. انظر: معجم اللُّغة العربيَّة المعاصرة، لأحمد مختار عمر (٣/ ٢١٦١).

وَلِـدُخُـوْلِ مَـسْـجِـدٍ وَمَـنْـزِلِ   وَلِإِطَـالَـةِ الـسُّـكُـوتِ فَـاعْـمَـلِ
وَجَـازَ لِلْـجَـمَـاعَـةِ اسْـتِـعْـمَـالُـهُـمْ   عُـوْدًا لِـيَـسْـتَـاكُـوا بِـهِ جَـمِـيْـعُـهُـمْ

فصل

[في سنن الفطرة وغيرها]

يُـسَـنُّ حَـلْـقُ عَـانَـةٍ[1] نَـتْـفُ إِبْـطْ   تَـقْـلِـيْـمُ أَظْـفَـارٍ بِـفِـعْـلٍ مُـنْـضَـبِـطْ
وَسُـنَّ أَنْ يَـنْـظُـرَ فِـي الـمِـرْآةِ   وَأَنْ يَـكُـوْنَ صَـالِـحَ الْـحَـالَاتِ
وَأَنْ يَـمَـسَّ طِـيْـبَـهُ وَيَـدَّهِـنْ   غِبًّا[2] وَتَسْرِيْحُ الشُّعُوْرِ قَدْ حَسُنْ
وَحَـفُّ شَـارِبٍ وَإِعْـفَـا لِـحْـيَـةِ   وَالِاكْـتِـحَـالُ سُـنَّ كُـلَّ لَـيْـلَـةِ
في كلِّ عَيْنٍ بِاثْمِدٍ[3][4] مُطَيَّبِ   ثَـلَاثَ مَـرَّاتٍ بِـذَا جَـا مَـذْهَـبِـي
وَحَـرَّمَ الْـجَـمِـيْـعُ حَـلْـقَ الـلِّـحْـيَـةِ   وَجَـازَ أَخْـذُ زَائِـدٍ مِـنْ قَـبْـضَـةِ
ثُـمَّ الْـخِـتَـانُ وَاجِـبٌ عَـلَـى الـذَّكَـرْ   وَهَـكَـذَا الْأُنْـثَـى بِـقَـوْلٍ اشْـتَـهَـرْ

(١) العانة: منبت الشَّعر فوق القُبُل من المرأة، وفوق الذَّكر من الرَّجل، والشَّعر الثَّابت عليهما يُقال له: الإسْبُ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣٥/ ٤٢٣).
(٢) الغِبُّ: هو ليوم وليلتين [ويعني: يفعل يومًا ولا يفعل يومًا]. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣/ ٤٥١).
(٣) سُهِّلت همزة إثمد؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.
(٤) الإِثْمِدُ: حجر الكحل، وهو أسود إلى حمرة، وأثمد عينه: كَحَلَها بالأثمد. انظر: تاج العروس، للزَّبيدي (٧/ ٤٦٨).

عِـنْـدَ الْـبُـلُـوْغِ وَالْـخِـتَـانُ قَـبْـلَـهُ أَفْـضَـلُ وَاكْـرَهْ سَـابِـعَ الْـيَـوْمِ لَـهُ

بابُ الوضُوءِ

وَوَاجِـبٌ عِـنْـدَ الْـوضُـوْءِ يُـنْـطَـقُ بِـقَـوْلِ بِـاسْـمِ اللهِ فِـيْـمَـا حَـقَّـقُـوا

وَيَسْقُطُ الْوُجُوْبُ فِيْمَا قَدْ نُقِلْ فِي الْغُسْلِ أَيْضًا إِنْ سَهَا وَإِنْ جَهِلْ

وَيَـلْـزَمُ اسْـتِـئْـنَـافُـهُ لِـلْـفِـعْـلِ بِـذِكْـرِهَـا عَـلَـى أَصَـحِّ قَـوْلِ

وَالْـفَـرْضُ فِي الْـوُضُـوْءِ سِـتَّـةٌ هِـيْ أَوَّلُـهَـا بِـالـذِّكْـرِ غَـسْـلُ الْـوَجْـهِ

وَمِنْهُ الِاسْتِنْشَاقُ بَعْدَ الْمَضْمَضَهْ سُبْحَانَ مَنْ هَذَا الْوُضُوْءَ افْتَرَضَهْ

ثُمَّ الْيَدَيْنِ اغْسِلْهُمَا وَالْمِرْفَقَيْنْ وَامْسَحْ جَمِيْعَ الرَّأْسِ ثُمَّ الْأُذُنَيْنْ

وَرَابِعُ الْفُرُوْضِ غَسْلُ الرِّجْلَيْنْ جَاوِزْ بِغَسْلِ الرِّجْلِ حَدَّ الْكَعْبَيْنْ

وَوَالِ فِي غَسْلِكَ فَرْضٌ خَامِسُ وَرَتِّـبِ الْأَعْـضَـاءَ وَهْـوَ الـسَّـادِسُ

وَاشْتَرَطُوا انْقِطَاعَ مَا قَدْ يُوْجِبُهْ وَنِـيَّـةً فِـي الِابْـتِـدَاءِ تَـصْـحَـبُـهْ

وَالْمَا(١) الْمُطَهِّرُ الَّذِي لَمْ يَغْصِبُهْ إِزَالَـةُ الْـمَـانِـعِ مِـمَّـا يَـحْـجُـبُـهْ

وَالْـعَـقْـلُ وَالـتَّـمْـيِـيْـزُ وَالْإِسْـلَامُ وَالاسْـتِـنْـجَـاء عَـقْـدُهَـا تَـمَـامُ

---

(١) سُهِّلت الهمزة في الماء؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.

فصل

[النيَّة في الوضوء]

اَلـنِّـيَّـةُ الْـقَـصْـدُ وَفِـي الْـوُضُـوْءِ قَـصْـدُكَ رَفْـعَ الْـحَـدَثِ الْـمُـسِـيءِ
أَوْ قَـصْـدُ مَـا لَـهُ طَـهَـارَةٌ تَـجِـبْ كَـمَـسِّ مُـصْـحَـفٍ لِـتَـرْتِـيْـلٍ نُـدِبْ
وَكَـصَـلَاةٍ وَطَـوَافٍ أَوْ لِـمَـا سُنَّتْ لَهُ مِنْ فِعْلٍ اوْ[1] قَوْلٍ سَمَا
كَـقَـصْـدِهِ تَـدْرِيْـسَ عِـلْـمٍ دِيْـنِـي أَوْ قَـصْـدِهِ زِيَـارَةَ الْأَمِـيْـنِ
أَوْ رَفْـعِ شَـكٍّ أَوْ لِإِطْـفَـاءِ غَـضَـبْ وَغِيْبَةٍ وَنَحْوِهَا خَوْفَ الْعَطَبْ[2]
أَوْ جِـلْـسَـةٍ بِـمَـسْـجِـدٍ أَوْ لِأَذَانْ وَالنَّوْمُ وَالْأَكْلُ لِشُكْرِ الْمُسْتَعَانْ
أَوْ لِـقِـرَاءَةٍ وَذِكْـرِ اللهِ وَلَا تَـكُـنْ عَـنْ ذِكْـرِهِ كَـالـسَّـاهِـي
فَـمَـنْ نَـوَى مِـنْ ذَاكَ شَـيْـئًـا ارْتَـفَـعْ حَـدَثُـهُ وَلَا يَـضُـرُّ مَـا وَقَـعْ
مِـنْ سَـبْـقِ قَـوْلٍ مِـثْـلَ لَـفْـظِ مَـنْ سَـهَـا وَلَا يَـضُـرُّ شَـكُّـهُ إِذَا انْـتَـهَـى
مِـنْ طَـاعَـةٍ إِلَّا بِـأَثْـنَـاءِ الْـعَـمَـلْ اِسْتَأْنَفَ الْفِعْلَ لِإِبْعَادِ الزَّلَلْ[3]

(١) سُهِّلت الهمزة في أو؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.
(٢) العَطَب: الهلاك. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣/ ٣٩٣).
(٣) زلَّ الرَّجل: إذا وقع في أمرٍ مكروهٍ، أو أخطأ خطأً فاحشًا. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٩/ ١٢٩).

فَصْلٌ فِي صِفَةِ الوضوءِ الكاملِ

وَهْيَ بِأَنْ يَنْوِي الْوُضُو لِمَا قَصَدْ ثُمَّ يُسَمِّيْ وَهْوَ تَرْتِيبٌ وَرَدْ
فَيَغْسِلُ الْكَفَّيْنِ فَالْمَضْمَضَةُ وَثَمَّ الِاسْتِنْشَاقُ فِيمَا أَثْبَتُوا
وَثُمَّ غَسْلُ الْوَجْهِ مِنْ مَنَابِتِ شَعْرِهِ الْمُعْتَادِ حَتَّى اللِّحْيَةِ
وَالْفَرْضُ تَخْلِيْلُ اللِّحَى[1] الخَفِيْفَةِ وَجَازَ غَسْلُ ظَاهِرِ الْكَثِيْفَةِ
فَيَسْكُبُ الْمَاءَ عَلَى يَدَيْهِ وَلْيَتَجَاوَزْ حَدَّ مِرْفَقَيْهِ
وَلَا يَضُرُّ الْوَسَخُ الْيَسِيْرُ فِي نَحْوِ ظُفْرٍ مَذْهَبٌ مَشْهُوْرُ
فَمَسْحُ كُلِّ رَأْسِهِ أَعْلَاهُ مِنْ مَنْبَتِ الشَّعْرِ إِلَى قَفَاهُ[2]
وَمَا فُوَيْقَ الْأُذْنِ مِنْ بَيَاضِ مِنْهُ ولِأَنْفِهِ بِالْاِعْتِرَاضِ
وَفِي صِمَاخَي[3] أُذُنَيْهِ يُدْخِلُ سَبَّابَتَيهِ وَهْوَ فِعْلٌ أَفْضَلُ
وَيَمْسَحُ الْأَعْلَى بِإِبْهَامَيْهِ فَغَسْلُهُ رِجْلَيهِ مَعْ كَعْبَيْهِ

---

(١) خلَّل أصابعه ولحيته: أسال الماء بينهما في الوضوء. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٨/ ٤٢٥).

(٢) القفى: وراء العُنُق، وفي الصِّحاح: مؤخَّر العُنُق. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣٩/ ٣٢٥).

(٣) الصِّماخ: خَرقُ الأُذُن الباطن الَّذي يُفضي إلى الرَّأس. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٧/ ٢٩٣).

وَالْكَعْبُ عَظْمٌ نَاتِئٌ يَعْلُو الْقَدَمْ فِي مُلْتَقَى السَّاقِ بِهِ قَدِ احْتَكَمْ

فصلٌ

[في سُنن الوضوء]

وَفِي الْوُضُوءِ سُنَنٌ وَعَدُّهَا ثَمَانَ عَشْرَةَ اسْتَحَبُّوا فِعْلَهَا
أَوَّلُهَا اسْتِقْبَالُهُ لِلْقِبْلَةِ ثُمَّ سِوَاكُهُ لَدَى الْمَضْمَضَةِ
وَغَسْلُ كَفَّيْهِ وَقَبْلَ وَجْهِهِ يَبْدَأُ فِي فِيْهِ وَغَسْلِ أَنْفِهِ
وَيُسْتَحَبُّ فِيْهِمَا الْمُبَالَغَهْ إِلَّا لِصَائِمٍ فَكُلٌّ كَرِهَهْ
وَالدَّلْكُ[1] فِي سَائِرِ الاَعْضَا[2] مُطْلَقَا وَبَعْدَهُ الْإِسْبَاغُ[3] كُلٌّ حَقَّقَا
وَأَنْ يَزِيْدَ الْمَا لِغَسْلِ وَجْهِهِ كَذَاكَ تَخْلِيْلُ كَثِيْفِ شَعْرِهِ
وَمِنْهُ أَنْ يُخَلِّلَ الْأَصَابِعَا وَأَنْ يَجِي[4] بَعْدَ الْفَرَاغِ بِالدُّعَا
وَرَفْعُهُ بَصَرَهُ إِلَى السَّمَا وَأَنْ يُقَدِّمَ الْيَمِيْنَ دَائِمَا

---

(١) دلكه بيده دلكًا: مَرَسَه ودَعَكَه وعَرَكَه. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٧/ ١٥٤).
(٢) سُهِّلت الهمزتان في الأعضاء؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.
(٣) أسبَغَ الوضوء إسباغًا: أبْلَغَهُ مَوَاضِعَهُ، ووفَّى كلَّ عضوٍ حقَّه. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٢/ ٥٠٠).
(٤) سُهِّلت الهمزة في يجيء؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.

وَمَـا لِأُذْنَـيْـهِ سِـوَى مَـا رَأْسِـهِ وَأَنْ يَـلِـي وُضُـوْءَهُ بِـنَـفْـسِـهِ

وَعِـنْـدَ غَـسْـلِ الْـيَـدِ ذِكْـرُ الـنِّـيَّـهْ وَهْـيَ بِـلَـفْـظٍ خَـافِـتٍ[1] حَـرِيَّـهْ

وَيَـنْـدُبُ اسْـتِـصْـحَـابُـهُ مُـنْـتَـبِـهَـا فِي كُلِّ أَفْعَالِ الْوُضُوْ[2] لِذِكْرِهَا

وَغَـسْـلُـهُ ثَـالِـثَـةً وَثَـانِـيَـهْ فَـكُـنْ فَـقِـيْـهًـا لِـلْـعُـلُـوْمِ رَاوِيَـهْ

بابُ المسحِ عَلَى الخُفَّين

قَدْ جَوَّزوا الْمَسْحَ عَلَى الْخُفَّيْنِ وَمَـا كَـجُـرْمُـوْقٍ[3] وَجَـوْرَبَـيْـنِ

فَـجَـوَّزُوْهُ بِـشُـرُوْطٍ سَـبْـعَـةِ طَـهَـارَةُ الْـعَـيْـنِ كَـذَا الْإِبَـاحَـةِ

لُـبْـسُـهُـمَـا عَـلَـى كَـمَـالِ طُـهْـرِهِ بِـالْـمَـا وَسَـتْـرٌ لِـمَـحَـلِّ فَـرْضِـهِ

وَلَـوْ بِـرَبْـطٍ وَكَـذَا إِنْ أَمْـكَـنَـا اَلْـمَـشْـيُ عُـرْفًـا بِـهِـمَـا وَحَـسُـنَـا

وَعَـدَمُ الْـوَصْـفِ لِـلَـوْنِ الْـجِـلْـدِ وَالـسَّـابِـعُ الـثُّـبُـوْتُ لَا بِـالـشَّـدِّ

فَـمُـدَّةُ الْـمَـسْـحِ لِـعَـاصٍ بِـالـسَّـفَـرْ يَـوْمٌ وَلَـيْـلَـةٌ وَمَـنْ حَـلَّ الْـحَـضَـرْ

أَوْ بَـدَأَ الْـمَـسْـحَ مُـقِـيْـمًـا فَـرَحَـلْ أَوْ كَـانَ فِـي رِحْـلَـتِـهِ وَثُـمَّ حَـلْ

---

(١) خفت الصَّوت خفوتًا: سَكَنَ وضَعُفَ، والخَفْتُ: إسرارُ المَنْطِقِ، وهو ضدُّ الجَهرِ كالمخافتة، وهو إخفاء الصَّوت. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٤/ ٥١١).

(٢) سُهِّلت الهمزة في الوضوء؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.

(٣) الجُرمُوق: خُفٌّ صغيرٌ يُلبس فوق الخُفِّ. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١٠/ ٣٥).

أَوْ شَكَّ فِي ابْتِدَاءِ وَقْتِ مَسْحِهِ فَـذَا لِـمَـنْ أَقَـامَ عِـنْـدَ أَهْـلِـهِ
وَمُدَّةُ الْـمَسْحِ لِذِي التَّرْحَالِ ثَـلَاثُ أَيَّـامٍ مَـعِ الـلَّـيَـالِـي
وأوَّلُ الْوَقْتِ مِنَ اثْنَاءِ[1] الْحَدَثْ مِنْ بَعْدِ لُبْسِهِ فَمِلْ عَنِ الْعَبَثْ
وَأَكْثَرُ الْأَعْلَى مِنَ الْخُفِّ يَجِبْ فِي الْمَسْحِ مَسْحُهُ وَلَا يُجْزِي الْعَقِبْ[2]
وَلَا يُسَنُّ وَكَذَاكَ مَا سَفَلْ مِنْهُ وَإِنْ مِنْ مُوْجِبِ الْغَسْلِ حَصَلْ
شَيْءٌ وَأَنَّ وَقْتَ مَسْحِهِ انْقَضَى أَوْ مِنْ مَحَلِّ فَرْضِهِ الْبَعْضُ بَدَا
فَالْمَسْحُ وَالْوُضُوْءُ وَالصَّلَاةُ بَـاطِـلَـةٌ بِـذَا حَـكَـى الـثِّـقَـاتُ

فصلٌ

[المسح على الجبيرة]

وَجَوَّزُوا الْمَسْحَ لِذِي الْجَبِيْرَةِ[3] إِنْ كَانَ وَضْعُهَا عَلَى طَهَارَةِ
وَلَمْ تَزِدْ عَلَى مَحَلِّ الْأَلَمِ أَجْزَأَ وَالْمَسْحُ بَلَا تَيَمُّمِ
وَإِنْ عَلَى غَيْرِ طَهَارَةٍ وَضَعْ وَخَافَ مِنْهَا ضَرَرًا إِذَا نَزَعْ
فَوَاجِبٌ لا مَسْحه الْجَرِيْحَا تَيَمُّمٌ وَغَسْلُهُ الصَّحِيْحَا

---

(١) سُهِّلت الهمزة في أثناء؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.

(٢) العَقِب: آخرُ كلِّ شيء. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣/ ٣٩٨).

(٣) الجبيرة: العِيْدَانُ الَّتي تُجبَرُ بها العظام. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٤/ ١١٥).

إِلَّا إِذَا الْـوَضْـعُ عَـلَـى طَـهَـارَةِ وَجَاوَزَتْ فِي الْوَضْعِ حَدَّ الحَاجَةِ
فَالْغَسْلُ وَالْمَسْحُ مَعَ التَّيمُّمِ وَاجِبَـةٌ فَافْقَهْ هُدِيْتَ تَسْلَمِ

ظهر (٢٩) ربيع الثاني (١٣٥٠هـ)[١]

بابُ نواقضِ الوضُوءِ

والنَّاقِضَاتُ لِلْوُضُوْ[٢] ثَمَانِيَهْ حَقَّقَهَا ذَوُو الْعُقُوْلِ الْعَالِيَهْ
أَوَّلُهَا الْخَارِجُ مِنْ سَبِيْلِ كَثِيْرُهُ فِي الْحُكْمِ كَالْقَلِيْلِ
طَاهِرَةٌ كَنَجِسٍ وَالثَّانِيْ خُرُوْجُ الانْجَاسِ[٣] مِنَ الْأَبْدَانِ
غَيْرُ سَبِيْلَيْهِ فَإِنْ بَوْلًا رَأَى أَوْ غَائِطًا فَمُطْلَقًا تَوَضَّأَ
وَإِنْ تَكُنْ كَالدَّمِ أَوْ كَالْقَيْءِ يَنْقُضُ إِنْ يَفْحُشْ بِعَيْنِ الْمَرْءِ
ثَالِثُهَا الْعَقْلُ فَإِنْ زَالَ بَطَلْ وُضُوْؤُهُ أَوْ إِنْ يُغَطَّ بِخَلَلْ
بِنَحْوِ إِغْمَاءٍ وَنَوْمٍ قَدْ كَثُرْ وَنَوْمُهُ الْيَسِيْرُ عُرْفًا لَا يَضُرْ
مِنْ جَالِسٍ وَقَائِمٍ وَإِنْ حَصَلْ مِمَّا عَدَاهُ فَالْوُضُوْءُ قَدْ بَطَلْ
وَالرَّابِعُ الْمَسُّ بِكَفٍّ لَا ظُفُرْ فَرْجًا لِآدَمِيٍّ او[٤] حَلْقُ الدُّبُرْ
مِنْ غَيْرِ حَائِلٍ بِشَرْطِ الْمُتَّصِلْ لَا مَسُّهُ مَحَلَّ فَرْجٍ مُنْفَصِلْ

(١) أي سنة (١٩٣١م).
(٢) سُهِّلت الهمزة في الوضوء؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.
(٣) سُهِّلت الهمزة في الأنجاس؛ للضَّرورةِ الشِّعريَّة.
(٤) سُهِّلت الهمزة في أو؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.

وَالـخُـصْـيَـتَـانِ مَـسُّـهَـا لَـمْ يَـبْـطُـلِ — كَـذَاكَ مَـسُّ فَـرْجِ خُـنْـثَـى مُـشْـكِـلِ
خَـامِـسُـهَـا بِـشَـهْـوَةٍ لَـمْسُ الـذَّكَـرْ — بَـشَـرَةُ الْأُنْـثَـى أَوِ الْأُنْـثَـى الـذَّكَـرْ
مِنْ غَيْرِ حَائِلٍ وَلَمْسُ مَنْ قَضَى — وَكَـافِـرٍ وَمَـيِّـتٍ قَـدْ نَـقَـضَـا
وَنَـاقِـضٌ إِنْ لَـمَـسَ الْـعَـجُـوْزَا — لَا لَـمْـسُ مَـنْ لَـمْ يَـبْـلُـغِ الـتَّـمْـيِـيْـزَا
وَلَا بِلَمْسِ السِّنِّ وَالشَّعْرِ الظُّفُرْ — وَلَا بِـهَـا يُـنْـقَـضُ لَـمْـسٌ قَـدْ ذُكِـر
وَكُـلُّ مَـنْ قَـدْ مَـسَّ فَـرْجَـهُ فَـلَا — يَـبْـطُـلُ مُـطْـلَـقًـا وُضُـوْءهُ وَلَا
مُـنْـتَـشِـرٌ ذَكَـرُهُ عَـنْ فِـكْـرَةِ — وَمِـثْـلُـهُ الْـمَـلْـمُـوْسُ لَـو بِـشَـهْـوَةِ
وَالسَّادِسُ النَّاقِضُ غَسْلُ الْمَيِّتِ — أَوْ بَـعْـضِـهِ وَصِـفَـةُ الـغَـسْـلِ الَّـتِـي
تَـنْـقُـضُ تَـقْـلِـيْـبُـكَ وَالْـمُـبَـاشَـرَهْ — لَا صَـبُّـكَ الْـمَـاءَ أَوِ الـمُـنَـاصَـرَهْ
سَـابِـعُـهَـا أَكْـلُ لُـحُـوْمِ الْإِبِـلِ — نِيْئًا وَمَطْبُوْخًا فَقَطْ لِلْحَنْبَلِي
لَا نَقْضَ فِي الطِّحَالِ وَالْمُصْرَانِ — وَالْـكِـرْشِ وَالْـكُـلْـيَـةِ وَالـلِّـسَـانِ
وَكَـبِـدٍ وَالـصُّـلْـبِ وَالْـعِـظَـامِ — وَالـشَّـحْـمِ وَالْـكُـرَاعِ وَالـسَّـنَـامِ
وَالـرَّأْسِ وَالْأَعْـصَـابِ وَالْأَلْـبَـانِ — وَمَـرَقِ الـلَّـحْـمِ كَـذَا الْـعَـيْـنَـانِ
وَكُـلُّ حَـالِـفٍ بِـأَلَّا يَـأْكُـلَا — لَـحْـمًـا فَـلَا يَـحْـنَـثُ إِنْ ذِي أَكَـلَا
ثَـامِـنُـهَـا الـرِّدَّةُ ثُـمَّ الْـمُـوْجِـبُ — اَلْـغُـسْـلُ فَـالـوُضُـوءُ أَيـضًـا يُـوْجِـبُ

فصل

مَنْ أَيْقَنَ الطُّهْرَ وَشَكَّ فِي الْحَدَثْ — أَوْ شَكَّ فِي الطُّهْرِ وَأَيْقَنَ الْحَدَثْ
بَنَى عَلَى الْيَقِيْنِ وَهْوَ الْأَسْلَمُ — وَكُـلُّ مُـحْـدِثٍ عَـلَـيْـهِ يَـحْـرُمُ

طَـوَافُـهُ بِـالْـبَـيْـتِ مَـعْ صَـلَاتِـهِ وَمَـسُّـهُ الْـمُـصْـحَـفَ أَوْ آيَـاتِـهِ
مِنْ غَـيْـرِ حَـائِـلٍ[1] وَذُو الْجَـنَـابَـهْ يَــزِيْــدُ فِــي قِــرَاءَةٍ لِآيَــهْ
لَا بَعْضَهَا وَلُبْثُهُ[2] فِي الْمَسْجِدِ بِـلَا وُضُـوْءٍ فَـافْـهَـمَـنْـهُ تَـرْشُـدِ

بابُ ما يُوجبُ الغُسْلَ

وَمُـوْجِـبَـاتُ الْـغُـسْـلِ سَـبْـعٌ أَوَّلا إِحْـسَـاسُـهُ بِـمَـا[3] الْـمَـنِـيِّ انْـتَـقَـلَا
فَـلَـو أَحَـسَّ بِـانْـتِـقَـالِـهِ فَـلَـم يَـخْـرُجْ بِـحَـبْـسِـهِ لَـهُ الْـغُـسْـلُ لَـزِمْ
وَلَـوْ أَتَـى بِـغُـسْـلِـهِ ثُـمَّ خَـرَجْ مِـنْ غَـيْـرِ لَـذَّةٍ فَـمَـا ثَـمَّ حَـرَجْ
وَثَـانِـيًـا خُـرُوْجُـهُ وَلَـو دَمَـا بِـلَـذَّةٍ مَـا لَا يَـكُـوْنُ نَـائِـمَـا
مِـنْ مَـخْـرَجِ الْـمَـنِـي وكُـلُّ عَـرَفَـهْ ثَـالِـثُـهَـا تَـغْـيِـيْـبُ كُـلِّ الْـحَـشَـفَـهْ
أَوْ قَـدْرُهَـا إِنْ فُـقِـدَتْ فِـي قُـبُـلِ أَصْـلِـيٍّ اوْ[4] دُبْـرٍ بِـغَـيْـرِ حَـائِـلِ
بِـطَـيْـرٍ اوْ[5] بَـهِـيْـمَـةٍ عَـجْـمَـاءِ أو مَيْتٍ اوْ[6] مَجْنُوْنٍ اوْ[7] ذِيْ دَاءِ

(١) حائل: حاجز، يُقال: حَالَ الشَّيء بين الشَّيئين؛ أي: حَجَزَ. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١١/ ١٨٧).
(٢) اللَّبثُ: المُكْثُ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٥/ ٣٣٨).
(٣) سُهِّلت الهمزة في ماء؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.
(٤) سُهِّلت الهمزة في أو؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.
(٥) سُهِّلت الهمزة في أو؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.
(٦) سُهِّلت الهمزة في أو؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.
(٧) سُهِّلت الهمزة في أو؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.

لَكِنَّمَا الْغُسْلُ عَلَى ابْنِ عَشَرَهْ   وَبِنْتِ تِسْعٍ وَالْجَمِيْعُ قَرَّرَهْ
رَابِعُهَا إِسْلَامُ كَافِرٍ وَلَوْ   مُرْتَدًّا اوْ[1] مُمَيِّزًا فِيْمَا رَوَوْا
خَامِسُهَا النِّفَاسُ شَرْطٌ بِدَمِ   سَادِسُهَا دَمُ الْمَحِيْضِ فَاعْلَمِ
سَابِعُهَا الْمَوْتُ وَجَا تَعَبُّدَا   إِلَّا شَهِيْدُ حَرْبٍ اوْ[2] قَتْلُ اعْتِدَا

فصل

[في شروط صحة الغسل، وواجبه، وفرضه، وسننه]

لِصِحَّةِ الْغُسْلِ شُرُوْطٌ سَبْعَةٌ انْـ   ـقِطَاعُ مَا يُوْجِبُهُ وَالنِّيَّةُ
وَالْعَقْلُ وَالتَّمْيِيْزُ وَالْإِسْلَامُ   وَمَاؤُهُ الطَّهُوْرُ لَا الْحَرَامُ
هُوَ الْمُبَاحُ وَلْيُزِلْ مَا يَمْنَعُ   وُصُوْلَهُ وَذَاكَ شَرْطٌ سَابِعُ
وَوَاجِبُ الْغُسْلِ هُوَ التَّسْمِيَةُ   سُقُوْطُهَا سَهْوًا وَجَهْلًا أَثْبَتُوا
وَالْفَرْضُ أَنْ يَعُمَّ بِالْمَا[3] بَدَنَهْ   وَدَاخِلَ انْفِهِ[4] وَفَاهِ بَاطِنَهْ
حَتَّى الَّذِي يَظْهَرُ مِنْ فَرْجٍ إِذَا   مَا جَلَسَتْ وَقْتَ التَّخَلِّي وَكَذَا
بَاطِنُ شَعْرِهَا وَنَقْضُهُ يَجِبْ   فِي الْحَيْضِ وَالنِّفَاسِ لَا مِنَ الْجُنُبْ

(١) سُهِّلت الهمزة في أو؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.
(٢) سُهِّلت الهمزة في أو؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.
(٣) سُهِّلت الهمزة في الماء؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.
(٤) سُهِّلت الهمزة في أنفه؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.

وَالظَّنُّ فِي الْإِسْبَاغِ يَكْفِي وَالسُّنَنْ إِزَالَـةُ الْأَذَى الْـمُـلَـوِّثِ الْـبَـدَنْ
وُضُـوْؤُهُ قَـبْـلًا وَإِفْـرَاغُ الـمَـاءْ عَلَى جَمِيْعِ الرَّأْسِ حَتَّى الْإِرْوَاءْ
ثَـلَاثَ مَـرَّاتٍ فَـبَـاقِـي جَـسَـدِهْ وَفَـوْقَـهُ يَـنْـدُبُ إِمْـرَارُ يَـدِهْ
كَـذَا الْـمُـوَالَاةُ مَـعَ الـتَّـيَـامُـنِ وَغَـسْـلُـهُ الـرِّجْـلَ بِـغَـيْـرِ مَـوْطِـنِ
وَمَنْ نَوَى مَسْنُوْنًا او(١) مَا وَجبَا أَجْـزَأَ عَـنْ وَاجِـبٍ او(٢) مَـا نَـدُبَـا
وَإِنْ نَوَى بِالْغُسْلِ رَفْعَ الْحَدَثَيْنْ أَوْ لَمْ يُقَيِّدْ مُطْلَقًا لِلْمَعْنَيَيْنْ
أَوْ أَمْـرَ(٣) لَا يُـبَـاحُ إِلَّا بِـهِـمَـا كَمَسِّهِ الْمُصْحَفَ أَجْزَا(٤) عَنْهُمَا
وَيُـنْـدَبُ الْـوُضُـوْءُ بِـالْـمُـدِّ وَهُـوْ رَطْـلٌ وَثُـلْـثٌ بِـالْـعِـرَاقِـي وَزْنُـهُ
وَالْاِغْـتِـسَـالُ سُـنَّـةٌ بِـالـصَّـاعِ أَرْبَـعُ أَمْـدَادٍ بِـلَا نِـزَاعِ
خَـمْـسَـةُ أَرْطَـالٍ وَثُـلْـثُ رَطْـلِ وَزْنًـا عِـرَاقِـيًّـا أَتَـى بِـالـنَّـقْـلِ
وَجَـازَ إِسْـبَـاغٌ بِـدُوْنِ مَـا ذكـر وَكـرِهَ اسْـرَافًـا(٥) وَلَـوْ عَـلَـى نَـهـر
وَالْغُسْلُ فِي الْمَسْجِدِ مَا لَمْ يُؤْذَ بِهْ يُـبَـاحُ وَالْـحَـمَّـامُ أَيْـضًـا فَـانْـتَـبِـهْ
إِنْ أَمِـنَ الْـوُقُـوْعَ فِـي الْـمُـحَـرَّمِ إِنْ خِـيْـفَ كُـرِّه او(٦) بِـعِـلْـمٍ حُـرِّمِ

---

(١) سُهِّلت الهمزة في أو؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.
(٢) سُهِّلت الهمزة في أو؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.
(٣) مُنِعَت كلمة (أمرًا) من الصَّرفِ؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.
(٤) سُهِّلت الهمزة في أجزأ؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.
(٥) سُهِّلت الهمزة في (إسرافًا)؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.
(٦) سُهِّلت الهمزة في أو؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.

فصلٌ في الأَغْسَالِ المُسْتَحَبَّةِ

وَعَـدُّهَـا أَرْبَـعَـةٌ فِـي أَرْبَـعَـهْ   آكَدُهَا الْغُسْلُ لِيَوْمِ الْجُمُعَهْ
قَـبْلَ الـنِّدَا لِـذَكَـرٍ حَـضَـرَهَـا   ثُـمَّ لِغُسْلِ مَيِّتٍ بَعْدَ انْـتِـهَـا
ثُـمَّ لِعِيْدٍ وَهْوَ بُعِيدَ الْفَجْرِ   آكَـدُ وَالـنَّـحْـرُ لِـيَـوْمِ الْـفِـطْـرِ
وَلِـلْـكُـسُـوْفِ وَلِـلِاسْـتِـسْـقَـاءِ   وَمَـرَضِ الْـجُـنُـوْنِ وَالْإِغْـمَـاءِ
وَلِاسْـتِـحَـاضَـةٍ لِـكُـلِّ فَـرْضِ   وَعِـنْـدَ إِحْـرَامٍ بَـحَـجٍّ مُـرْضِـي
وَلِـدُخُـوْلِ مَـكَّـةَ الْـمُـكَـرَّمَـةْ   وَحَـرَمٍ فَـازَ امْـرُؤٌ قَـدْ عَـظَّـمَـهْ
وَلِـطَـوَافِ الـصَّـدْرِ وَالـزِّيَـارَهْ   وَلِـلْـوَدَاعِ فَـادْرُسَـنْ أَسْـرَارَهْ
وَرَمْـيِـهِ جِـمَـارَهُ وَعَـرَفَـهْ   وَلِـمَـبِـيْـتٍ بِـرُبَـى مُـزْدَلِـفَـهْ
وَعِنْدَ حَاجَةٍ وَلِلْكُلِّ اسْتُحِبْ   تَـيَـمُّـمٌ كَـمَـا لَـهُ الْـوُضُـوْ[1] نُـدِبْ
إِذَا تَـعَـذَّرَ الْـوُضُـوْءُ وَالْـغُـسُـلْ   لِـبُـعْـدِ مَـاءٍ أَوْ لِـدَاءٍ قَـدْ عَـضَـلْ

بابُ التَّيمُّم

وَاشْـتَـرَطُـوا لِـصِـحَّـةِ الـتَّـيَـمُّـمِ   نِـيَّـتَـهُ وَكَـوْنَـهُ مِـنْ مُـسْـلِـمِ
وَالْعَقْلُ وَالتَّمْيِيْزُ وَالْاِسْتِنْجَا[2]   سَـادِسُـهَـا دُخُـوْلُ وَقْـتٍ تُـرْجَـى

(١) سُهِّلت الهمزة في الوضوء؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.
(٢) سُهِّلت همزة الاستنجاء؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.

بِهِ الصَّلَاةُ فَرْضًا او[1] نَفْلًا وَلَا   يُجْزِيْ بِوَقْتِ النَّهْيِ مَنْ تَنَفَّلَا
وَلَمْ يَصِحَّ قَبْلَ دُخُوْلِ الْوَقْتِ   وَصَحَّ إِنْ شَاءَ قَضَاءَ الْفَوْتِ
سَابِعُهَا تَعَذُّرُ الْمَا[2] لِخَطَرْ   أَوْ خَافَ بِاسْتِعْمَالِهِ شَرَّ ضَرَرْ
أَوْ عَدِمَ الْمَاءَ فَلَمْ يَجِدْهُ   إِمَّا لِبُعْدٍ أَوْ لِعَجْزٍ عَنْهُ
وَبَذْلُهُ لِكُلِّ ظَامِئٍ وَجَبْ   مِنْ كُلِّ مَعْصُوْمٍ لِإِبْعَادِ الْعَطَبْ
وَمَنْ لَهُ مَاءٌ قَلِيْلٌ لَزِمَا اسْـ   ـتِعْمَالُهُ فِيْمَا كَفَى فَقَدِّمَا
ثُمَّ لِبَاقِي طُهْرِهِ تَيَمَّمَا   فَرْضًا فَاوْعَ مَا يَقُوْلُ الْعُلَمَا
وَإِنْ مُسَافِرٌ إِلَى الْمَا[3] وَصَلَا   وَعَلِمَ النَّوْبَةَ أَنْ لَا تَصِلَا
إِلَيْهِ إِلَّا بِخُرُوْجِ الْوَقْتِ   أَوْ خَافَ مِنْ خُرُوْجِهِ أَنْ يَأْتِي
مَحَلَّهُ وَلَوْ قَرِيْبًا عَدَلَا   إِلَى تَيَمُّمٍ وَغَيْرُهُ فَلَا
وَإِنْ يَفُتْهُ الْوَقْتُ فَالتَّيَمُّمُ   لَمْ يُغْنِهِ شَيْئًا وَقِيْلَ: يَحْرُمُ
وَمَنْ أَرَاقَ الْمَاءَ أَوْ مَرَّ بِهِ   أَوْ بَاعَ أَوْ وَهَبَهُ لِغَيْرِهِ
أَوْ مَرَّ بِالْمَا وَالْوُضُوْ[4] أَمْكَنَهُ   مِنْهُ وَكَانَ عَالِمًا بِأَنَّهُ
لَنْ يَجِدَ الْمَاءَ سِوَاهُ يَحْرُمُ   وَلَمْ يَصِحَّ الْبَيْعُ وَالتَّكَرُّمُ
وَإِنْ تَيَمَّمَ وَصَلَّى لَمْ يُعِدْ   أَشْبَهَ مَنْ لِمَا[5] الطَّهُوْرِ لَمْ يَجِدْ

---

(١) سُهِّلت همزة أو؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.
(٢) سُهِّلت الهمزة في الماء؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.
(٣) سُهِّلت الهمزة في الماء؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.
(٤) سُهِّلت الهمزة في الوضوء؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.
(٥) سُهِّلت الهمزة في (لماء)؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.

وَمُـحْـدِثٌ بِـثَـوْبِـهِ وَجِـسْـمِـهِ نَـجَـاسَـةً وَمَـاؤُهُ لَـمْ يَـكْـفِـهِ
فَلْيَغْسِلِ الثَّوْبَ وُجُوبًا أَوَّلَا وَبَعْدَهُ الْجِسْمَ بِمَا قَدْ فَضَلَا
وَإِنْ بَـقِـيْ شَـيْءٌ بِـهِ تَـطَـهَّـرَا أَوْ لَا فَـوَاجِـبٌ تَـيَـمُّـمُ الثَّرَى[١]
وَصَحَّ عَنْ غُسْلٍ وَعَنْ وُضُوءِ فِي ثَابِتٍ فِي الْمُصْحَفِ الْمَقْرُوْءِ
وَصَحَّ لِلنَّجَاسَةِ التَّيَمُّمُ فِـي بَـدَنٍ وَمَـسْـحُـهَـا يُـلْـتَـزَمُ
وَقَبْلَ مَسْحِهَا إِذَا تَيَمَّمَا لَمْ يُجْزِهِ وَبَعْدَ مَسْحٍ لَزِمَا
وَالثَّامِنُ التُّرَابُ مَا لَمْ يُحْرَقْ لَهُ غُبَارٌ بِالْيَدَيْنِ يُلْصَقْ
وَكَوْنُهُ الْمُبَاحَ وَالطَّهُورَا وَجَازَ تَرْبٌ عَلِقَ الصُّخُوْرَا
وَمَنْ لِمَاءٍ وَتُرَابٍ عَدِمَا اَلْفَرْضَ صَلَّاهُ فَقَطْ وَأَلْزَمَا
بِالْمُجْزِ[٢] مِنْ صَلَاتِهِ وَلَمْ يَزِدْ وَعَجْزُهُ أَوْجَبَهُ وَلَمْ يُعِدْ

فصل

في واجب التيمم، وفروضه، ومُبطلاته، وصفته]

وَوَاجِبُ التَّيَمُّمِ التَّسْمِيَةُ وَهْيَ بِلَا سَهْوٍ وَجَهْلٍ تَثْبُتُ
وَالْفَرْضُ مَسْحُ الْوَجْهِ وَالْيَدَيْنِ لِلْكُوْعِ وَالتَّرْتِيْبُ فِي الْمَسْحَيْنِ
فِي الْحَدَثِ الْأَصْغَرِ إِذْ يَلْزَمُ ذَا فِي بَعْضِ أَعْضَاءِ وُضُوْئِهِ أَذَى

---

(١) الثَّرى: التُّراب النَّديُّ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣٧/ ٢٧٢).
(٢) حُذِفت الهمزة في (بالمجزئِ)؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.

تَـيَـمُّـمٌ لَـهُ لِـوَقْـتِ غُـسْـلِـهِ لَـوْ صَـحَّ رابـعٌ تَـوَالِـيْ فِـعْـلِـهِ
فَـوَاجِـبٌ غَـسْـلُـهُ لِـلـصَّـحِـيْـحِ عِـنْـدَ تَـيَـمُّـمٍ عَـنِ الْـجَـرِيْـحِ
خَـامِـسُـهَـا تَـعْـيِـيْـنُـهُ لِـلـنِّـيَّـهْ بِـمَـا نَـوَى مِـنْ قُـرْبَـةٍ مَـنْـوِيَّـهْ
مِـنْ حَـدَثٍ أَصْـغَـرَ أَوْ أَكْـبَـرَ أَوْ نَـجَـاسَـةٍ أَوْ نـحـوهـنَّ وَلَـوْ
عَـيَّـنَ مِـنْـهَـا وَاحِـدًا لَـمْ يَـكْـفِـهِ وَإِنْ نَـوَاهُـنَّ جَـمِـيْـعًـا يُـجْـزِهِ
يُـبْـطِـلُـهُ مَـا يُـبْـطِـلُ الْـوُضُـوْءَ مَـعْ زَوَالِ مَـا أَبَـاحَـهُ وَالـمـا(١) مُـنِـعْ
وَخَـلْـعُ مَـا كَـانَ عَـلَـيْـهِ قَـدْ مَـسَـحْ ثُـمَّ خُـرُوجُ الْـوَقْـتِ فِـي قَـوْلٍ أَصَـحْ
كَـذَا وُجُـوْدُ الْـمَـاءِ عِـنْـدَ عَـادِمِـهْ صَـلَاتُـهُ تَـبْـطُـلُ مَـعْ تَـيَـمُّـمِـهْ
قَـبْـلَ ابْـتِـدَائِـهِ بِـهَـا وَفِـيْـهَـا وَبَـعْـدَ الِانْـتِـهَـاءِ لَا يَـقْـضِـيْـهَـا
وَوَصْـفُـهُ أَنْ يَـنْـوِيَ اسْـتِـبَـاحَ مَـا لِأَجْـلِـهِ مِـنْ قُـرَبٍ تَـيَـمَّـمَـا
ثُـمَّ يُـسَـمِّـي وَالـتُّـرَابَ يَـضْـرِبُ بِـرَاحَـتَـيْـهِ وَاتِّـفَـاقًـا أَوْجَـبُـوا
وَاحِـدَةً وَالْـفَـضْـلُ بِـاثْـنَـتَـيْـنِ مُـفَـرِّجًـا أَصَـابِـعَ الْـيَـدَيْـنِ
مِـنْ بَـعْـدِ نَـزْعِ خَـاتَـمٍ وَنَـحْـوِهِ بَـاطِـنُـهَـا يَـمْـسَـحُـهُ بِـوَجْـهِـهِ
فَـظَـهْـرُ كَـفَّـيْـهِ بِـرَاحَـتَـيْـهِ مُـخَـلِّـلًا أَصَـابِـعَ يَـدَيْـهِ
وَآخِـرُ الْـوَقْـتِ تَـيَـمُّـمٌ لِـمَـنْ يَـرْجُـوْ وُجُـوْدَ الْـمَـاءِ عِـنْـدَنَـا يُـسَـنْ
وَجَـازَ بِـالْـوَاحِـدِ أَنْ يُـصَـلِّـيْ مَـا شَـاءَهُ مِـنْ فَـرْضٍ اوْ(٢) مِـنْ نَـفْـلِ
لَـكِـنَّ مَـنْ لِـلـنَّـفْـلِ قَـدْ تَـيَـمَّـمَـا لَـمْ يَـسْـتَـبِـحْ فَـرْضًـا كَـمَـا قَـدْ عُـلِـمَـا

(١) سُهِّلت الهمزة في الماء؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.
(٢) سُهِّلت الهمزة في أو؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.

لِأَنَّـــهُ تَـــيَـــمَّـــمَ لِـــلْأَدْنَـــى فَـلَـمْ يَـجُـزْ بِـهِ اسْـتِـبَـاحُ الْأَعْـلَـى

بابُ إزالةِ النَّجاسَةِ الحُكْمِيَّةِ

وَاشْـتَـرَطُوْا سَبْعًا مِنَ الْغَسْلَاتِ فَـصَـاعِـدًا لِـلْـمُـتَـنَـجِّـسَـاتِ
بِالْمَا[1] الطَّهُوْرِ وَهْوَ تَطْهِيْرٌ لَهَا وَزِدْ إِلَى الْإِنْقَاءِ حَتْمًا غَسْلَهَا
وَالشَّرْطُ فِي الْخِنْزِيْرِ وَالْكِلَابِ سَـبْـعٌ وَإِحْـدَاهُـنَّ بِـالـتُّـرَابِ
وَاشْـتَـرَطُـوا بِـأَنَّـه الـطَّـهُـوْرُ وَمْـثِـلُـهُ الـصَّـابُـوْنُ وَالـسَّـفِـيْـرُ[2]
وَطَعْمُ الَانْجَاسِ[3] إِذَا بَقِيْ يَضُرْ لَا لَـوْنُـهَـا أَوْ رِيْـحُـهَـا إِذَا عَـسُـرْ
زَوَالُـهُ أَوْ بَـقِـيَـا كِـلَاهُـمَـا عَـجْـزًا وَطُـهْـرُهُ بِـهِ تَـحَـتَّـمَـا
وَبَـوْلُ طِـفْـلٍ ذَكَـرٍ لَـمْ يَـطْـعَـمَـا بِـشَـهْـوَةٍ يَـكْـفِـيْـهِ غَـمْـرُهُ بِـمَـا[4]
وَالْأَرْضُ إِنْ تَـنَـجَّـسَـتْ بِـسَـائِـلِ وَلَـوْ مِـنَ الْـخِـنْـزِيْـرِ أَوْ مِـنْ صَـائِـلِ
تَـطْـهُـرْ إِذَا كَـاثَـرْتَـهَـا بِـالْـمَـاءِ بِـحَـيْـثُ يَـبْـدُوْ أَثَـرُ الْإِنْـقَـاءِ
وَالْأَرْضُ لَا تَـطْـهُـرُ بِـالْـجَـفَـافِ وَلَا بِـشَـمْـسٍ أَوْ بِـرِيْـحٍ سَـافِ[5]

(١) سُهِّلت الهمزة في الماء؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.
(٢) السَّفير: ما سقط من ورق الشَّجر وتحاتَّ. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٤/ ٣٦٧).
(٣) سُهِّلت الهمزة في الأنجاس؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.
(٤) سُهِّلت الهمزة في الماء؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.
(٥) الرِّيح السَّافية: الرِّيح الَّتي تحمل ترابًا كثيرًا على وجه الأرض تهجمه على النَّاس. =

وَلَا بِـنَـارٍ تَـطْـهُـرُ الـنَّـجَـاسَـةُ   وَلَا تُـطَـهِّـرُ الْأَذَى اسْـتِـحَـالَـةُ
وَتَـطْـهُـرُ الْـخَـمْـرَةُ إِنْ تَـخَـلَّـلَـتْ   بَـدَنِّـهَـا[1] بِـنَـفْـسِـهَـا مَـا نـقِـلَـتْ
وإن نَـجَـاسَـةٌ خَـفِـيْ مَـحَـلُّـهَـا   تُـغْـسَـلُ مَـالَـمْ يُـتَـيَـقَّـنْ غَـسْـلُـهَـا

فصل

اَلْـمُـسْـكِـرُ الْـمَـائِـعُ وَالْـحَـشِـيْـشَـهْ   نَـجْـسٌ ومـا تـصـغـر عـنـه الْـهِـرَّهْ
مِـنْ غَـيْـرِ مَـأْكُـوْلٍ مِـنَ الْـحَـيْـوَانِ   وَالـطَّـيْـرِ لَا الْـمَـأْكُـوْلِ وَالْإِنْـسَـانِ
وَمَـا دُوَيْـنَ هَـذِهِ فِـي الْـخِـلْـقَـةِ   كَـقُـنْـفُـذٍ وَفَـأْرَةٍ وَحَـيَّـةِ
طَـاهِـرَةٌ وَكُـلُّ مُـسْـكِـرٍ جَـمُـدْ   وَطُـهْـرُهُ فِـي ثَـابِـتِ الْـقَـوْلِ وَرَدْ
وَكُـلُّ مَـيْـتٍ نَـجِـسٌ إِلَّا الـسَّـمَـكْ   وَمَـيِّـتِ ابْـنِ آدَمٍ بِـغَـيْـرِ شَـكْ
وَطَـاهِـرٌ مَـا دَمُـهُ لَـمْ يَـسِـلِ   كَـعَـقْـرَبٍ وَخُـنْـفُـسَـا[2] وَقُـمَّـلِ
وَالْـبَـوْلُ مِـنْ مَـأْكُـوْلِ لَـحْـمٍ أَكْـلُـهُ   مِـنْ طَـاهِـرٍ أَوْ نَـجِـسٍ أَقَـلُّـهُ
لَـبَـنُـهُ وَرَوْثُـهُ وَمَـذْيُـهُ   مَـنِـيُّـهُ وَبَـيْـضُـهُ وَوَدْيُـهُ
طَـاهِـرَةٌ وَإِنْ يَـكُـنْ مِـنَ الـنَّـجِـسْ   أَكْـثَـرُ أَكْـلِـهِ فَـكُـلُّـهَـا نَـجِـسْ
وَتِـلْـكَ مِـمَّـا لَا يَـحِـلُّ أَكْـلُـهُ   نَـجَـاسَـةٌ وَمَـا تَـكُـوْنُ أَصْـلُـهُ

= انظر: لسان العرب، لابن منظور (١٤/ ٣٨٩).

(١) الدَّنُّ: الرَّاقودُ العظيم، والرَّاقود: إناءٌ من خزفٍ مستطيلٍ مُقَيَّر. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣٥/ ٢٨).

(٢) سُهِّلت الهمزة في الخنفساء؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.

إِلَّا مَــنِــيُّ الْآدَمِــيِّ وَالــلَّــبَــنْ فَطَاهِرٌ لَا الْقَيْحُ مِنْ جُرْحٍ أَسَنْ
وَالــدَّمُ وَالــصَّــدِيْــدُ لَـكِــنْ يُـعْـفَـى فِي الـصَّـلَـوَاتِ عَـنْ يَـسِـيْـرٍ عُـرْفَـا
مِـنْـهَـا وَلَـمْ يُـنْـقَـضْ إِذَا مَـا كَـانَـا مِـنْ طَـاهِـرٍ إِنْـسَـانًـا اوْ[1] حَـيْـوَانَـا
أَوْ دَمَ حَـيْـضٍ وَيَـضُـمُّ مَـا نَـزَرْ بِـالـثَّـوْبِ لَا أَكْـثَـرَ إِنْ كَـانَ انْـتَـشَـرْ
طِـيْـنُ الـطَّـرِيْـقِ طَـاهِـرٌ إِنْ جُـهِـلَـتْ حَـالَـتُـهُ كَـرِيْـقِ نَـفْـسٍ طَـهُـرَتْ
وَعَـرَقٌ وَإِنْ صَـغِـيْـرٌ مَـا عَـقِـلْ وَنَـحْـوُهُـنَّ مِـنْ نَـجَـاسَـةٍ أَكَـلْ
ثُـمَّ ارْتَـوَى مِـنْ مَـائِـعٍ فَـطُـهْـرُهُ مُـحَـقَّـقٌ وَلَـمْ يُـكَـرَّهْ سُـؤْرُهُ

باب الحيض

لَا حَيْضَ مَعْ حَمْلٍ وَقَبْلَ التِّسْعِ وَبَـعْـدَ خَـمْـسِـيـنَ لَـهَـا فَـادْعِ
وَلَـيْـلَـةٌ بِـيَـوْمِـهَـا أَدْنَـى الْأَقَـلْ لَهُ وَنِصْفُ شَهْرِهَا أَقْصَى الْأَجَلْ
عَـلَـيْـهِ سِـتَّـةٌ وَإِلَّا سَـبْـعَـةُ وَفَـضْـلُ شَـهْـرِهَـا لِطُـهْـرٍ أَثْـبَـتُـوا
أَقَـلُّـهُ ثَـلَاثَـةٌ مَـعْ عَـشَـرَهْ وَلَـمْ يُـحَـدَّ فِي الـصَّـحِـيْـحِ أَكْـثَـرَهْ
وَحَرَّمُوا بِالْحَيْضِ أَشْيَا[2] بَعْضُهَا اَلْوَطْءُ فِي الْفَرْجِ وَمِنْهَا صَوْمُهَا
قِـرَاءَةُ الْآيِ وَمَـسُّ الْـمُـصْـحَـفِ كَـذَا الـطَّـلَاقُ وَالـصَّـلَاةُ فَـاعْـرِفِ
طَـوَافُـهَـا وَلَـبْـثُـهَـا فِي الْـمَـسْـجِـدِ وَإِنْ تَـخَـفْ تَـلْـوِيْـثَـهُ فَـلْـتَـبْـعُـدِ

---

(١) سُهِّلت الهمزة في أو؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.
(٢) سُهِّلت الهمزة في أشياء؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.

عَـنِ الْـمُـرُوْرِ فِـيْـهِ وَهْـوَ جَـائِـزُ ... وَ[مَـا الْـقُـعُـوْدُ جَـازَ يَـا مُـمَـيِّـزُ]
وَيُوْجِبُ الْحَيْضُ الْبُلُوْغَ وَالْغُسُلْ ... كَـفَّـارَةً بِـوَطْـئِـهَـا وَلَـوْ جَـهِـلْ
أَوْ مُـكْـرَهًـا أَوْ كَـانَ نَـاسِـيَ الْأَذَى ... وَالْـمَـنْـعُ وَهْـيَ إِنْ تُـطَـاوِعْ فَـكَـذَا
دِيْـنَـارٌ اوْ[1] نِـصْـفٌ بَـلَا تَـعْـسِـيْـرِ ... كَـفَّـارَةُ الْـوَطْءِ عَـلَـى الـتَّـخْـيِـيْـرِ
وَلَـمْ يُـبَـحْ بَـعْـدَ انْـقِـطَـاعِ دَمِـهَـا ... وَقَـبْـلَ الِاغْـتِـسَـالِ غَـيْـرُ صَـوْمِـهَـا
وَبِـالْـوُضُـوْءِ لَـبْـثُـهَـا فِـي الْـمَـسْـجِـدِ ... وَمِـثْـلُـهُ الـطَّـلَاقُ فَـافْـهَـمْ تَـسْـعَـدِ
وَإِنْ بِـأَثْـنَـا[2] عَـادَةِ الْـحَـيْـضِ انْـقَـطَـعْ ... دَمُ الْـمَـحِـيْـضِ وَنِـفَـاسٍ لَـوْ وَقَـعْ
وَلَـم تُـغَـيـرْ قُـطْـنَـة بِـهَـا احْـتَـشَـتْ ... فَـذَاكَ طُـهْـرٌ عِـنْـدَ ذِي الْـفِـقْـهِ ثَـبَـتْ
وَلْـتَـقْـضِ كُـلُّ حَـائِـضٍ وَنُـفَـسَـاءْ ... الـصَّـوْمَ لَا الـصَّـلَاةَ مِـنْ كُـلِّ الـنِّـسَـاءْ

فصل

وَمَـنْ يُـجَـاوِزْ نِـصْـفَ شَـهْـرٍ دَمُـهَـا ... فَـتِـلْـكَ مُـسْـتَـحَـاضَـةٌ وَحُـكْـمُـهَـا
تَـجْـلِـسُ مِـنْ أَوَّلِ كُـلِّ شَـهْـرِ ... سِـتًّـا وَإِلَّا سَـبْـعَـةً فِـي الْأَكْـثَـرِ
إِنْ لَـمْ يَـكُـنْ هُـنَـاكَ تَـمْـيِـيْـزٌ فَـإِنْ ... رَأَتْـهُ فَـلْـتَـجْـلِـسْـهُ حَـتَّـى تَـطْـمَـئِـنْ
فَـلْـتَـغْـتَـسِـلْ ثُـمَّ لْـتُـصَـلِّـيْ وَلْـتُـزِلْ ... بِالْغَسْلِ وَالتَّعْصِيْبِ مَا عَلَى الْمَحَلْ
وَلْـتَـتَـوَضَّـأْ وَقْـتَ كُـلِّ فَـرْضِ ... وَلْـتَـنْـوِ الِاسْـتِـبَـاحَ بِـالـتَّـوَضِّـي

---
(١) سُهِّلت الهمزة في أو؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.
(٢) سُهِّلت الهمزة في أثناء؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.

وَهَكَذَا يَفْعَلُ دَائِمُ الْحَدَثْ وَلْيَجْتَهِدْ فِي غَسْلِ طَارِئِ الْخَبَثْ
وَحَرِّمَنَّ وَطْءَ مُسْتَحَاضَةِ وَلَيْسَ فِيْهِ قَطُّ مِنْ كَفَّارَةِ
وَأَكْثَرُ النِّفَاسِ أَرْبَعُوْنَا مِنِ ابْتِدَاءِ وَضْعِهَا الْجَنِيْنَا
وَلَحْظَةٌ أَقَلُّهُ وَرُبَّمَا تَرَى وِلَادَةً بِلَا سَيْلِ دِمَا
وَحُكْمُهُ يَثْبُتُ عِنْدَ الْأَكْثَرِ بِوَضْعِ مَا فِيْهِ صِفَاتُ الْبَشَرِ
فَإِنْ تَخَلَّلَ النَّقَاءُ أَكْثَرَهُ فَذَاكَ طُهْرٌ وَطْؤُهَا فِيْهِ كُرْهْ
وَمَنْ تَلِدْ طِفْلًا لَهُ ثَانٍ يَلِي فَأَوَّلُ النِّفَاسِ وَضْعُ الْأَوَّلِ
وَإِنْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا مَا كَثُرَا فَلَا نِفَاسَ لِلَّذِي تَأَخَّرَا
وَمَا بِوَطْءِ الْحَائِضَاتِ يَجِبُ أَيْضًا بِوَطْءِ النُّفَسَاءِ أَوْجَبُوا
وَشُرْبُ مَا أُبِيْحَ كَالْكَافُوْرِ لِمَنْعِ وَطْءٍ جَازَ لِلذُّكُوْرِ
وَلِلْإِنَاثِ شُرْبُهُ لِمَنْعِهِ أَوْ لِحُصُوْلِ الْحَيْضِ أَوْ لِقَطْعِهِ

باب الأذان والإقامة

وافْتَرَضَ الْأَذَانَ وَالْإِقَامَهْ كِفَايَةً عَلَى ذَوِي الْإِقَامَهْ
رِجَالٌ احْرَارٌ[(١)] وَلِلْمُسَافِرِ يُسَنُّ كَالْفَذِّ الْمُقِيْمِ الْحَاضِرِ
وَيُكْرَهَانِ لِلنِّسَا[(٢)] وَلَوْ بِلَا صَوْتٍ رَفِيْعٍ كَالْخَنَاثَى فَاعْمَلَا

(١) سُهِّلت الهمزة في أحرار؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.
(٢) سُهِّلت الهمزة في النِّساء؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.

وَلَا يَصِحَّانِ بِلَا تَوَالِي ... عُرْفًا وَتَرْتِيْبٌ بِلَا إِخْلَالِ
وَأَنْ يَكُوْنَا مِنْ مُنَادٍ وَاحِدِ ... بِنِيَّةٍ مِنْهُ لِقَوْلِ الشَّاهِدِ
وَاشْتَرَطُوا كَوْنَ الْمُنَادِي عَادِلَا ... وَلَوْ بِمَا يَظْهَرُ مِنْهُ عَاقِلَا
مُمَيِّزًا وَنَاطِقًا وَذَكَرَا ... وَمُسْلِمًا وَشَرْطُهُ اشْتَهَرَا
قَبْلَ دُخُوْلِ الْوَقْتِ لَمْ يَصِحَّا ... إِلَّا أَذَانُ الْفَجْرِ فَهْوَ صَحَّا
مِنْ بَعْدِ نِصْفِ اللَّيْلِ وَالْجَهْرُ بِهِ ... رُكْنٌ بِأَنْ يَسْمَعَ مَنْ قَامَتْ بِهِ
جَمَاعَةُ الْمَسْجِدِ لَا لِحَاضِرِ ... فَرُكْنُهُ إِسْمَاعُهُ فِي الظَّاهِرِ
وَسُنَّ كَوْنُهُ أَمِيْنًا عَالِمَا ... بِالْوَقْتِ صَيِّتًا عَفِيْفًا قَائِمَا
مُطَهَّرًا لَكِنْ أَذَانُ مَنْ فَقَدْ ... وُضُوْءَهُ جَازَ وَلَم يُكْرَهْ بِرَدْ
وَكَرِهُوا مِنْ مُحْدِثٍ إِقَامَتَهْ ... قَبْلَ النِّدَا مِنْ عَالِمٍ جَنَابَتَهْ
وَسُنَّ فِي الْأَذَانِ أَنْ يَسْتَقْبِلَا ... وَأَنْ يَكُوْنَ ذِكْرُهُ مُسْتَرْسَلَا
وَأَوَّلُ الْوَقْتِ بِمَوْضِعٍ عَلَا ... مُلْتَفِتًا فِي قَوْلِهِ حَيَّ عَلَى
فَفِيْ صَلَاتِهِ إِلَى يُمْنَاهُ ... وَفِي فَلَاحِهِ إِلَى يُسْرَاهُ
بِرَأْسِهِ وَعُنْقِهِ وَصَدْرِهِ ... وَلَا يُحَوِّلْ قَدَمًا بِذِكْرِهِ
إِلَّا إِذَا كَانَ عَلَى الْمَنَارَةِ ... وَهَكَذَا يَفْعَلُ فِي الْإِقَامَةِ
وَأَنْ يَكُوْنَ جَاعِلًا سَبَّابَتَيْهْ ... وَقْتَ الْأَذَانِ فِي صِمَاخَيْ أُذُنَيْهْ
وَرَافِعًا إِلَى السَّمَا[١] بِوَجْهِهِ ... عَلَى الصَّحِيْحِ فِي الْأَذَانِ كُلِّهِ

---

(١) سُهِّلت الهمزة في السَّماء؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.

مُثَوِّبًا فِي الْفَجْرِ بَعْدَ الْحَيْعَلَهْ وَسَامِعٌ صَوْتَ الْمُنَادِيْ سُنَّ لَهْ
أَوِ الْمُقِيْمَ قَوْلُهُ مَا مَاثَلَهْ إِلَّا إِذَا حَيْعَلَ قَالَ الْحَوْقَلَهْ
وَعِنْدَ تَثْوِيْبٍ صَدَقْتَ وَبَرِرْتْ وَعِنْدَ قَدْ قَامَتْ دُعَا[1] بِهِ أُمِرْتْ
وَبَعْدَ أَنْ يَفْرَغَ يُسْتَحَبُّ لَهْ صَلَاتُهُ عَلَى الَّذِي قَدْ فَضَّلَهْ
إِلَهُهُ وَبَعْدَهُ يَدْعُوْ لَهُ بِالْفَضْلِ مَعْ وَسِيْلَةٍ خُصَّتْ لَهُ
وَبَعْدَهُ وَقَبْلَ أَنْ يُقِيْمَا يَدْعُوْ بِمَا شَا[2] سَائِلًا كَرِيْمَا
بَعْدَ النِّدَا خُرُوْجُهُ مَحَرَّمُ مِنْ مَسْجِدٍ إِلَّا لِعُذْرٍ يَلْزَمُ
أَوْ نِيَّةِ الْعَوْدَةِ وَالنِّدَا[3] اسْتُحِبْ لِذِي فَوَائِتٍ أَدَاؤُهَا يَجِبْ
مُرَتَّبًا وَقَدْ كَفَى فِي الِابْتِدَا[4] وَأَنْ يُقِيْمَ قَبْلَ كُلٍّ أَبَدَا

بابُ شروطِ الصَّلاةِ

شُرُوْطُ صِحَّةِ الصَّلَاةِ تِسْعَةُ اَلْعَقْلُ وَالتَّمْيِيْزُ وَالطَّهَارَةُ
مَعْ قُدْرَةٍ وَالرَّابِعُ الْإِسْلَامُ خَامِسُهَا وَقْتٌ بِهِ تُقَامُ
فَوَقْتُ ظُهْرِهَا مِنَ الزَّوَالِ حَتَّى يَصِيْرَ الظِّلُّ كَالْمِثَالِ

(١) سُهِّلت الهمزة في (دعاء)؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.
(٢) سُهِّلت الهمزة في (شاء)؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.
(٣) سُهِّلت الهمزة في النِّداء؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.
(٤) سُهِّلت الهمزة في الابتداء؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.

سِوَى الزَّوَالِ غَيْرِ ظِلِّهِ وَثُمْ اَلْعَصْرُ وَاخْتِيَارُ وَقْتِهِ لَزِمْ
حَتَّى يَصِيْرَ الظِّلُّ مِثْلَي مِثْلِهِ سِوَى زَوَالِ الشَّمْسِ غَيْرِ ظِلِّهِ
ثُمَّ الضَّرُوْرِيُّ لِوَقْتِ الْعَصْرِ حَتَّى تَغِيْبَ الشَّمْسُ تَحْتَ سَتْرِ
وَبَعْدَهُ الْمَغْرِبُ وَقْتُهُ صَدَقْ حَتَّى تَغِيْبَ حُمْرَةُ تَعْلُو الشَّفَقْ(١)
وَبَعْدَهُ وَقْتُ الْعِشَا الْمُخْتَارُ لَهُ إِلَى انْتِهَاءِ الثُّلُثِ الْأَوَّلِ لَهُ
ثُمَّ الضَّرُوْرِيُّ إِلَى أَنْ يَصْدُقَا فَجْرٌ أَضَاءَ مِنْ سَنَاهُ الْأُفُقَا
ثُمَّ يَلِيْهِ وَقْتُ فَرْضِ الصُّبْحِ إِلَى طُلُوْعِ الشَّمْسِ فِي الْأَصَحِّ
وَالْوَقْتُ وَالتَّكْبِيْرُ لِلْإِحْرَامِ مُدْرَكٌ اعْرِفْ نِعْمَةَ الْإِسْلَامِ
لَكِنَّ تَأْخِيْرَ الصَّلَاةِ يَحْرُمُ عَنْ وَقْتِ الِاخْتِيَارِ بَعْدُ أَعْظَمُ
وَجَازَ لَوْ أَخَّرَ فِعْلَهَا إِلَى آخَرَ مُخْتَارٍ مَعَ الْعَزْمِ عَلَى
أَدَائِهَا بِهِ وَفِي أَوَّلِهِ أَفْضَلُ مِنْ أَدَائِهَا بِفَضْلِهِ
فَضِيْلَةَ التَّعْجِيْلِ مَنْ قَدِ اشْتَغَلْ بِنَحْوِ طُهْرٍ أَوَّلَ الْوَقْتِ يَنَلْ
وَوَاجِبٌ فَوْرًا قَضَاءُ الْفَائِتَهْ مُرَتَّبًا مَا لَمْ يَضُرَّ حَالَتَهْ
وَلَا يَصِحُّ مُطْلَقُ النَّفْلِ إِذَنْ مِنْهُ وَتَرْتِيْبُ الْأَدَاءِ أُسْقِطَنْ
بِنَسْيِهِ أَوْ خَوْفِ فَوْتِ الْحَاضِرَهْ أَوْ ضِيْقُ وَقْتِ الِاخْتِيَارِ حَاضِرَهْ

(١) الشَّفق: بقيَّة ضوء الشَّمس وحمرتها في أوَّل اللَّيل، تُرى في المغرب على صلاة العشاء أو إلى قريب من العتمة، وقال الرَّاغب: الشَّفق اختلاط ضوء النَّهار بسواد اللَّيل عند غروب الشَّمس. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٥/ ٥٠٧).

وَسَادِسُ الشُّرُوْطِ سَتْرُ الْقَادِرِ عَوْرَتَهُ فِيْهَا بِشَيْءٍ سَاتِرِ
فَعَوْرَةُ الْبَالِغِ عَشْرًا وَالْأَمَهْ وَحُرَّةٍ قَدْ مَيَّزَتْ إِنْ مُسْلِمَهْ
وَمُطْلَقِ الْبَالِغِ أَوْ أُمِّ الْوَلَدْ وَمِنْ رَقِيْقٍ بَعْضُهَا بِهِمْ تُعَدْ
مَا كَانَ بَيْنَ سُرَّةٍ وَرُكْبَةِ وَعَوْرَةُ ابْنِ سَبْعَةٍ لِعَشْرَةِ
فَرْجَاهُ وَالْحُرَّةُ فِي الصَّلَاةِ إِنْ بَلَغَتْ عَشْرًا فَفِي الْإِثْبَاتِ
جَمِيْعُهَا عَوْرَةٌ الَّا[1] وَجْهُهَا وَخَارِجَ الصَّلَاةِ فَهْيَ كُلُّهَا
وَسَتْرُ إِحْدَى الْعَاتِقَيْنِ فَاشْتُرِطْ لِبَالِغٍ فِي فَرْضِهِ فِيْمَا ضُبِطْ
وَلَمْ تَصِحَّ لِذَاكِرٍ وَعَالِمِ[2] الصْـ ـصَلَاةُ فِي حَرِيْرٍ اوْ[3] مُحَرَّمِ
كَنَحْوِ مَغْصُوْبٍ وَمَعْهُ عَارِيَا صَلَّى وَلَا يُعِيْدُ قَطُّ مَاضِيَا
وَفِي الْحَرِيْرِ لِلَّذِي قَدْ عَدِمَا سِوَاهُ جَازَتِ الصَّلَاةُ فَاعْلَمَا
وَلَا يُعِيْدُ فَلْيُصَلِّ لِعَدَمْ فِي نَجِسٍ وَبِالْإِعَارَةِ الْتَزَمْ
عَلَى الذُّكُوْرِ لَا الْإِنَاثِ حُرِّمَا لُبْسُ حَرِيْرٍ وَكَذَا مَا طُعِّمَا
بِذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ أَوْ بِهِمَا مُوِّهَ أَوْ نُسِجَ أَوْ بَعْضُهُمَا
وَلُبْسُ مَا عَالِيْهِ حَرِيْرُ كَذَا افْتِرَاشُهُ كَذَا السُّتُوْرُ
إِلَّا لِكَعْبَةٍ وَجَازَ مَا بِهِ سُدِّيَ إِنْ لُحْمَتُهُ مِنْ غَيْرِهِ
وَإِنْ يَكُن أَقَلُّهُ حَرِيْرُ جَازَ بِأَنْ تَلْبَسَهُ الذُّكُوْرُ

---

(١) سُهِّلت الهمزة في (إلَّا)؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.
(٢) مُنعت كلمة (عالم) من الصَّرف؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.
(٣) سُهِّلت الهمزة في أو؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.

وَالسَّابِعُ اجْتِنَابُهُ النَّجَاسَهْ لَمْ يُعْفَ عَنْهَا لَوَّثَتْ لِبَاسَهْ
أَوْ بُقْعَةً صَلَّى بِهَا أَوْ بَدَنَهْ وَالشَّرْطُ فِي اجْتِنَابِهَا أَنْ يُمْكِنَهْ
وَإِنْ بِأَرْضٍ قَدْ تَنَجَّسَتْ حُبِسْ صَحَّتْ إِذَا صَلَّى وَيُوْمِيْ(١) بِالنَّجَسْ
إِنْ رطبًا غَايَةُ مَا أَمْكَنَه وَلْيَسْجُدَنْ بِيَابِسٍ أَحْسَنَهُ
وَإِنْ يَمَسَّ ثَوْبُهُ ثوبًا نَجِسْ أَوْ حَائِطًا لِمْ يَسْتَنِدْ لَهُ رَجِسْ
أَوْ كَانَ صَلَّى فَوْقَ شَيْءٍ طَاهِرِ طَرَفُهُ نَجْسٌ بِخُبْثٍ ظَاهِرِ
أَوْ زَالَتَ(٢) اوْ(٣) أَزَالَهَا إِنْ حَصَلَتْ عَلَيْهِ حَالًا صَحَّتَ(٤) اوْ(٥) لَا بَطَلَتْ
وَبَطَلَتْ أَيْضًا بِأَرْضِ مَقْبَرَهْ وَأَرْضِ غَصْبٍ وَكَذَا بِالْمَجْزَرَهْ
والحُشِّ(٦) وَالحَمَّامِ أَوْ مَرْمَى الزِّبَلْ(٧) وَالدَّرْبِ إِنْ يُسْلَكْ وَأَعْطَانِ الْإِبِلْ(٨)

---

(١) سُهِّلت الهمزة في (يومئ)؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.
(٢) أي: النَّجاسة.
(٣) سُهِّلت الهمزة في أو؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.
(٤) أي: الصَّلاة.
(٥) سُهِّلت همزة أو؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.
(٦) فُتحت الباءُ في الزِّبْل؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.
(٧) الحُشُّ: المخرجُ والمتوضَّأُ، سُمِّي به؛ لأنَّهم كانوا يقضون حوائجهم؛ أي: يذهبون عند قضاء الحاجة في البساتين. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١٧/ ١٤٦).
(٨) أعطان الإبل: كلُّ مَبْرَكٍ يكون مألفًا له فهو عطنٌ له بمنزلةِ الوطنِ، وقال ابن الأثير: إنَّما نهى عن الصَّلاة في أعطان الإبل؛ لأنَّ الإبل تزدحم في المنهل، فإذا شربت رفعت رؤوسها، ولا يُؤمَنُ من نِفارها في ذلك الموضع، فتؤذي المُصَلِّي عندها أو تُلهيه عن صلاته، أو تنجسه برشاش أبوالها. انظر: تاج العروس، للزَّبيدي (٣٥/ ٤٠٣-٤٠٢).

وَحُكْمُ أَعْلَاهَا كَحُكْمِ أَرْضِهَا ... عَلَى الصَّلَاةِ فَرْضِهَا وَنَفْلِهَا
وَلَا يَصِحُّ فَرْضُهَا فِي الْكَعْبَةِ ... وَالظَّهْرُ كَالْأَرْضِ بِحُكْمِ الشِّرْعَةِ
وَالْحِجْرُ مِنْهَا وَبِهَا النَّذْرُ يَصِحْ ... وَالنَّفْلُ مَسْنُوْنٌ بِقَوْلٍ قَدْ رَجَحْ
وَالثَّامِنُ اسْتِقْبَالُهُ لِلْقِبْلَةِ ... وَذَاكَ شَرْطٌ لَازِمٌ فِي الْقُدْرَةِ
صَلَاتُهُ مُجْتَهِدًا إِنْ لَمْ يَجِدْ ... مُخَبِّرًا فَإِنْ أَتَمَّ لَمْ يُعِدْ
وَالتَّاسِعُ النِّيَّةُ وَهْيَ الْقَصْدُ ... وَالْعَبْدُ إِنْ أَخْلَصَ نِعْمَ الْعَبْدُ
مَحَلُّهَا الْقَلْبُ وَلَا تَسْقُطُ قَطْ ... وَالنُّطْقُ فِيْهَا عِنْدَنَا لَا يُشْتَرَطْ
وَشَرْطُهَا تَمْيِيْزُ مُسْلِمٍ عَقَلْ ... زَمَنُهَا وَقْتَ ابْتِدَاءٍ فِي الْعَمَلْ
أَوْ قَبْلَهُ بِبُرْهَةٍ وَالْأَفْضَلُ ... اَلْقَرْنُ بِالتَّكْبِيْرِ وَهْوَ الْأَكْمَلُ
وَالشَّرْطُ تَعْيِيْنُ الصَّلَاةِ وَاجِبَهْ ... كَالظُّهْرِ أَوْ مَنْذُوْرَةٍ أَوْ رَاتِبَهْ
إِنْ لَمْ يُعَيِّنْ كَصَلَاةٍ مُطْلَقَهْ ... أَجْزَأَهُ النِّيَّةُ فِيْمَا حَقَّقَهْ
تَعْيِيْنُهُ الْفَرْضَ قَضَاءً أَوْ أَدَا[١] ... لَمْ يُشْتَرَطْ وَاشْتَرَطُوْا فِي الْاِقْتِدَا[٢]
إِنْ أَمَّ أَوْ أُمَّ وَصَحَّ قَلْبُهُ ... نَفْلًا إِذَا أَحْرَمَ بِالْفَرْضِ لَهُ
إِنْ وَسِعَ الْوَقْتُ وَإِلَّا لَمْ يَصِحْ ... وَبَطَلَ الْفَرْضُ وَفِعْلُهُ قَبُحْ
نِيَّةُ الِانْفِرَادِ صَحَّتْ إِنْ حَصَلْ ... عُذْرٌ يُبِيْحُ تَرْكَهُ لِمَا فَضَلْ
لِمُقْتَدٍ وَمُقْتَدًى بِهِ وَمَنْ ... فَارَقَ قَائِمًا إِمَامًا مَا زَكِنْ[٣]

---

(١) سُهِّلت الهمزة في (أداء)؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.

(٢) سُهِّلت الهمزة في الاقتداء؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.

(٣) زكنَ الخبرَ: علمه، وقيل: هو الظَّنُّ عندك كاليقين. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١٣/ ١٩٨).

يَـقْـرَأُ أَوْ يَـأْتِـيَ بِـالْـكَـمَـالِ   وَبَـعْـدَهَـا رُكُـوْعُـهُ فِـي الْـحَـالِ

كتابُ الصَّلاةِ

وَاجِبَةٌ حَتْمًا عَلَى مَنْ أَسْلَمَا   مُكَلَّفًا غَيْرَ الَّتِي رَأَتْ دَمَا
مِنْ حَائِضٍ وَنُفَسَاءَ وَتَصِحْ   مِنِ ابْنِ سَبْعٍ وَالثَّوَابَ قَدْ رَبِحْ
وَلِيُّهُ يُلْزِمُ أَمْرَهُ بِهَا   وَضَرْبَهُ فِي الْعَشْرِ عِنْدَ تَرْكِهَا
تَارِكُهَا جَاحِدُهَا قَدْ كَفَرَا   وَحُكْمُ مُرتَدٍّ عَلَيْهِ قُرِّرَا

أركان الصَّلاةِ

الرُّكْنُ لَا يَسْقُطُ بِالسَّهْوِ وَلَا   عَمْدًا وَلَا عَنِ امْرِئٍ قَدْ جَهِلَا
أَرْكَانُهَا فِي الْعَدِّ أَرْبَعَةَ عَشَرْ   فِي الْفَرْضِ اَلْقِيَامُ لِلَّذِي اقْتَدَرْ
مُنْتَصِبًا وَلَا تَضُرُّ طَأْطَأَهْ   لَكِنْ عَلَى الرِّجْلِ وُقُوْفٌ أَجْزَأَهْ
لِغَيْرِ عُذْرٍ كُرِهَ وْ[1] ثَانِيْهَا   تَكْبِيْرَةُ الْإِحْرَامِ فِي بَادِيْهَا
وَهْيَ قِيَامًا قَوْلُهُ: اَللهُ   أَكْبَرُ لَمْ يُجْزِئْهُ مَا سِوَاهُ
إِنِ ابْتَدَاهَا أَوْ أَتَمَّهَا بِلَا   قِيَامِ الْفَرْضُ يَكُوْنُ نَافِلَا

---

(١) سُكِّنت الواو؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.

إِنْ مَـدَّ هَـمْـزَ اللهِ أَوْ بَـا[١] أَكْـبَـرُ — أَوْ هَـمْـزَهَـا لَـمْ يُـجْـزِهِ وَالْأَكْـبَـرُ
وَجَـهْـرُهُ بِـهَـا وَفِـيْـمَـا قَـدْ وَجَـبْ — بِـقَـدْرِ مَـا يُـسْـمِـعُ نَـفْـسَـهُ وَجَـبْ
ثَـالِـثُـهَـا قِـرَاءَةُ الْـفَـاتِـحَـةِ — وَإِنَّـهَـا رُكْـنٌ بِـكُـلِّ رَكْـعَـةِ
تَـرْتِـيْـبُـهَـا إِتْـمَـامُـهَـا فَـرْضٌ أُقِـر — إِتْـمَـامُ تَـشْـدِيْـدَاتِـهَـا الْإِحْـدَى عَـشَـرْ
إِنْ لَـمْ يَـكُـنْ يَـعْـرِفُ إِلَّا آيَـةً — مِـنْـهَـا يُـكَـرِّرْ قَـدْرَهَـا كِـفَـايَـةً
مَـنْ لَـمْ يُـطِـقْ قَـائِـمًـا الْـقِـرَاءَهْ — يَـقْـعُـدْ وَيَـقْـرَأْ ذَاكِـرًا أَثْـنَـاءَهْ
ثُـمَّ الـرُّكُـوْعُ وَأَقَـلُّـهُ انْـحِـنَـا[٢] — حَـتَّـى يَـمَـسَّ رُكْـبَـتَـيْـهِ عِـنْـدَنَـا
أَكْـمَـلُـهُ بِـأَنْ يَـمُـدَّ ظَـهْـرَهُ — وَرَأْسُـهُ حِـيَـالُـهُ لَا غَـيْـرُهُ
اَلْـخَـامِـسُ الـرَّفْـعُ مِـنَ الـرُّكُـوْعِ — لَا قَـصْـدَ خَـوْفِ حَـادِثٍ مُـرِيْـعِ
فَـالِاعْـتِـدَالُ قَـائِـمًـا وَالـسَّـابِـعْ — سُـجُـوْدُهُ فَـافْـهَـمْ مَـقَـالِـي الـنَّـافِـعْ
تَـمْـكِـيْـنُـهُ أَصَـابِـعَ الـرِّجْـلَـيْـنِ — فَـالـرُّكْـبَـتَـيْـنِ فَـكَـذَا الْـكَـفَّـيْـنِ
جَـبْـهَـتَـهُ وَالْأَنْـفَ ذَا أَكْـمَـلُـهُ — وَوَضْـعُـهُ أَقَـلَّـهَـا أَقَـلُّـهُ
أَمَّـا سُـجُـوْدُهُ عَـلَـى حَـشِـيْـشِ — لَـمْ يَـنْـكَـبِـسْ أَوْ قُـطُـنٍ مَـنْـفُـوْشِ
فَـلَا يَـصِـحُّ وَعَـلَـى عَـمَـامَـتِـهْ — وَنَـحْـوِهَـا قَـدْ صَـحَّ مَـعْ كَـرَاهَـتِـه
لِـغَـيْـرِ عُـذْرٍ وَلِـيُـوْمِـيْ قُـدْرَتَـهْ — إِنْ كَـانَ يَـعْـجَـزُ الـسُّـجُـوْدُ جَـبْـهَـتَـهْ
وَالـرَّفْـعُ مِـنْـهُ ثَـامِـنٌ وَبَـعْـدَهُ الْـ — ـجُـلُـوْسُ بَـيْـنَ الـسَّـجْـدَتَـيْـنِ جَـهْـدَهُ
أَكْـمَـلُـهُ مُـفْـتَـرِشًـا يُـسْـرَاهُ — وَنَـاصِـبًـا مُـعْـتَـمِـدًا يُـمْـنَـاهُ

---

(١) سُهِّلت الهمزة في (باء)؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.
(٢) سُهِّلت الهمزة في (انحناء)؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.

ثُـمَّ الـطُّـمَـأْنِـيْـنَـةُ فِـي كُـلِّ عَـمَـلْ   مِـمَّـا ذَكَـرْتُ لَـزِمَـتْ وَإِنْ قَـلَـلْ
ثُـمَّ الـتَّـشَـهُّـدُ الْأَخِـيْـرُ بَـعْـدَمَـا   يُـجْـزِيْ[1] مِنَ الْأَوَّلِ فَلْتَفْهَمْهُمَا
وَجِـلْـسَـةُ الـتَّـشَـهُّـدِ الْأَخِـيْـرِ   ثَـانِـيَ عَـشْـرَ رُكْـنِـهِ الْـمَـشْـهُـوْرِ
تَسْلِيْمَتَانِ بِهِمَا الْفَرْضُ خُتِمْ   بِكُلِّهَا (السَّلَامُ) حَتْمًا قَدْ لَزِمْ
(عَـلَـيْـكُـمُ وَرَحْـمَـةُ اللهِ) وَجَـبْ   وَتَـرْكُ مَا زَادَ عَلَيْهَا يُسْتَحَبْ
تَسْلِيْمَةٌ فِي النَّفْلِ تَكْفِيْ وَاحِدَهْ   وَفِـي جِـنَـازَةٍ وَسُـنَّـتْ رَافِـدَهْ
تَـرْتِـيْـبُ مَـا ذَكَـرْتُ مِـنْ أَرْكَـانِ   رَابِـعُ عَـشْـرِهَـا عَـلَـى الْإِتْـقَـانِ
فَـلَـوْ سَـهَـا وَأَخَّـرَ الـرُّكُـوْعَـا   عَـنْ سَـجْـدَةٍ أَلْـزَمَـتْـهُ الـرُّجُـوْعَـا
يَـقُـوْمُ ثُـمَّ يَـرْكَـعَـنْ وَيَـسْـجُـدُ   وَهَـكَـذَا وَالْـعَـمْـدُ فِـيْـهَـا يُـفْـسِـدُ

وَاجِبَاتُهَا

وَالْـوَاجِـبَـاتُ عِـنْـدَنَـا ثَـمَـانِـيَـهْ   تَـبْـطُـلُ فِـي الـتَّـرْكِ لَـهَـا عَـلَانِـيَـهْ
بِالسَّهْوِ وَالْجَهْلِ بِنَصٍّ تَسْقُطُ   لَكِنْ سُجُوْدُ السَّهْوِ فِيْهَا يُشْرَطُ
تَـكْـبِـيْـرَةٌ لِـمَـا سِـوَى الْإِحْـرَامِ   أَوَّلُـهَـا وَمُـدْرِكُ الْإِمَـامِ
يَرْكَعُ أَسْقِطْ عَنْهُ تَكْبِيْرًا يَجِبْ   لَا الـرُّكْـنُ إِلَّا أَنَّـهُ لَـهُ نُـدِبْ
وَالثَّانِي[2] قَوْلُ (سَمِعَ اللهُ لِمَنْ   حَمِدَهُ) وَالْمُقْتَدِيْ عَنْهُ اسْقِطَنْ

(١) سُهِّلت الهمزة في (يجزئ)؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.
(٢) لا تُلفَظ الياء في (الثَّاني)؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.

وَقَوْلُ (رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ) عَلَى ... كُلٍّ وَتَسْبِيْحُ رُكُوْعٍ كَمُلَا
(سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيْمِ) مَرَّةً ... أَحَبُّهُ أَكْمَلُهُ زِدْ عَشْرَةً
وَفِي السُّجُوْدِ وَبِهِ (الْأَعْلَى) تَجِبْ ... وَاحِدَةٌ كَذَا وَمَا زَادَ اسْتُحِبْ
وَبَيْنَ سَجْدَتَيْنِ (رَبِّ اغْفِرْ لِي) ... أَكْمَلُهَا ثَلَاثَةٌ يَا خِلِّيْ
تَشَهُّدٌ أَوَّلُ[1] وَالْجُلُوْسُ لَهْ ... ثَامِنُ وَاجِبَاتِهَا يُكَمِّلُهْ

سُنَنُ الصَّلاةِ

سُنَنُهَا مَسْمُوْعَةٌ مِنْ قَوْلِهِ ... وَبَعْضُهَا مَرْئِيَّةٌ فِي فِعْلِهِ
مُطْلَقُ تَرْكِهَا فَلَنْ يُبْطِلَهَا ... لَكِنْ أُبِيْحَتْ سَجْدَةُ السَّهْوِ لَهَا
دُعَاءُ الِاسْتِفْتَاحِ ثُمَّ الْبَسْمَلَهْ ... بَعْدَ تَعَوُّذٍ وَكُلٌّ سُنَّ لَهْ
آمِيْنُ وَالسُّوْرَةُ بَعْدَ الْفَاتِحَهْ ... جَهْرُ إِمَامٍ فِي ثَلَاثٍ وَاضِحَهْ
وَهْوَ عَلَى الْمَأْمُوْرِ مَكْرُوْهٌ وَقَدْ ... خُيِّرَ فِيْمَا أَثْبَتُوْهُ الْمُنْفَرِدْ
ثُمَّ دُعَاءٌ بَعْدَ تَحْمِيْدٍ وَرَدْ ... لِغَيْرِ مُقْتَدٍ وَإِيْفَاءُ عَدَدْ
تَسْبِيْحَتَيْ رُكُوْعٍ وسُجُوْدِ ... وَصَلِّ بَعْدَهَا عَلَى الْمَحْمُوْدِ
وَآلِهِ فِي الْجِلْسَةِ الْأَخِيْرَهْ ... بَارِكْ عَلَيْهِمْ وَادْعُ تَقْفُ السِّيْرَهْ
سُنَنُ الَافْعَالِ[2] هِيَ الْهَيْئَاتُ ... بِضْعٌ وَخَمْسُوْنَ رَوَى الثِّقَاتُ

---

(١) مُنعت كلمة (أوَّلُ) من الصَّرف؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.
(٢) سُهِّلت الهمزة في (الأفعال)؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.

اِرْفَعْ يَدَيْكَ وَالْأَصَابِعَ اضْمُمَا ... وَابْسُطْهُمَا حِيْنَ تَكُوْنُ مُحْرِمَا
عِنْدَ رُكُوْعٍ عِنْدَ رَفْعٍ وَاقْبِضَنْ ... كُوْعَ شِمَالٍ بِيَمِيْنٍ وَاجْعَلَنْ
كِلَيْهِمَا مَا قُمْتَ تَحْتَ السُّرَّةِ ... والنَّظَرَ اثْبِتْ فِي مَحَلِّ سَجْدَةِ
وَاجْهَرْ بِتَحْرِيْمٍ وَرَتِّلْ وَإِذَا ... أَمَمْتَ خَفِّفْ لَا تُقَرِّبْ مِنْ أَذَى
أَطِلْ بِهَا أُوْلَى وَأُخْرَى قَصِّرَنْ ... وَفِي قِيَامٍ بَيْنَ رِجْلَيْكَ افْسَخَنْ
وَالرُّكْبَتَيْنِ بِالْيَدَيْنِ اقْبِضْهُمَا ... مُفَرِّجًا بَيْنَ أَصَابِعِهِمَا
وَالظَّهْرَ مُدَّ وَاجْعَلِ الرَّأْسَ لَهْ ... مُسَاوِيًا وَلْتَرْكَعَنَّ أَكْمَلَهْ
جَافِ بِهِ وَبِالسُّجُوْدِ الْعَضُدَيْنْ ... وَابْدَأْهُ إِنْ تَسْجُدْ بِوَضْعِ الرُّكْبَتَيْنْ
ثُمَّ الْيَدَيْنِ ثُمَّ جَبْهَةً وَأَنْفْ ... مَكِّنْ مِنَ الْأَرْضِ بِذَا تَقْفُ السَّلَفْ
كَذَا وَبَاشِرْ بِمَحَلِّ سَجْدَتِكْ ... اِجْمَعْ ذِي الَاعْضَاءِ(١) غَيْرَ رُكْبَتِكِ
جَافِ بِهَا الْفَخْذَ عَنِ السَّاقِ وَعَنْ ... فَخْذَيْكَ بَطْنًا تَقْفُ مَنْ سَنَّ السُّنَنْ
مَا بَيْنَ رُكْبَتَيْكَ فَرِّقْ وَأَقِمْ ... عَلَى بُطُوْنٍ لِلْأَصَابِعِ الْقَدَمْ
وَابْسُطْ يَدَيْكَ وَاضْمُمِ الْأَصَابِعَا ... لَهَا حِذَاءَ الْكَتِفَيْنِ وَاضِعَا
هُنَا وَفِي الْجِلْسَةِ بَيْنَ السَّجْدَتَيْنْ ... وَضَعْهُمَا وُفِّقْتَ فَوْقَ الْفَخِذَيْنْ
فِي كُلِّ جِلْسَةٍ وَإِنْ قُمْتَ اعْتَمِدْ ... بِالْيَدِ فَوْقَ رُكْبَةٍ فَافْهَمْ وَفِدْ
عَلَى صُدُوْرِ قَدَمَيْكَ قَوْمَتَكْ ... وَخَلِّ الِافْتِرَاشَ دَوْمًا جِلْسَتَكْ
إِلَّا جُلُوسًا لِتَشَهُّدٍ سَبَقْ ... فِي أَرْبَعٍ بِهِ تَوَرَّكْ يَا مُحِقْ
وَاقْبِضْ بِهِ الْخِنْصَرَ وَالْبِنْصَرَ مِنْ ... يُمْنَى وَحَلِّقِ إِصْبَعَيْهَا يَا فَطِنْ

(١) سُهِّلت الهمزة في الأعضاء؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.

وَعِـنْـدَ ذِكْـرِ اللهِ بِـالـسَّـبَّـابَـهْ | أَشِـرْ بِـتَـوْحِـيـدٍ وَسَـلْ ثَـوَابَـهْ
وَعِـنْـدَ تَـسْـلِـيْـمٍ أَشِـرْ لِـقِـبْـلَـةِ | بِـالْـوَجْـهِ فِـي ابْـتِـدَائِـكُـمْ بِـنِـيَّـةِ
تَنْوِيْ بِهَا الْخُرُوْجَ مِنْ صَلَاتِكْ | وَفَـضِّـلِ الـشِّـمَـالَ فِـي الْـتِـفَـاتِـكْ
إِلَـى الْـيَـمِـيْـنِ ثُـمَّ لِـلـشِّـمَـالِ | وَاجْعَلْ بِهَا الْخُشُوْعَ رَأْسَ الْمَالِ

فَصْلٌ في مكروهَاتِ الصَّلاةِ

وَلِـلْـمُـصَـلِّـي كَـرِهُـوا تَـكْـرَارَهُ | فَـاتِـحَـةَ الْـكِـتَـابِ وَاقْـتِـصَـارَهُ
أَيْـضًـا عَـلَـيْـهَـا وَالْـتِـفَـاتَـهُ بِـلَا | حَاجَةٍ اوْ[1] تَغْمِيْضَ عَيْنٍ كَسَلَا
وَحَـمْـلَـهُ الْـمُـشْـغِـلَ وَالـتَّـخَـصُّـرَا | أَوْ أَنْ يَـرَى إِمَـامَـهُ مُـصَـوَّرَا
وَوَجْـهَ إِنْـسَـانٍ وَشَـخْـصًـا نَـائِـمَـا | نَـارًا وَشَـخْـصًـا لِـلْـحَـدِيْـثِ قَـائِـمَـا
وَكُـلَّ مَـا يُـلْـهِـيْ وَمَـسَّ لِـحْـيَـتِـهْ | وَأَنْ يَـخُـصَّ مَـسْـجِـدًا لِـجَـبْـهَـتِـهْ
تَـسْـوِيَـةُ الـتُّـرَابِ أَوْ فَـتْـحٌ لِـفَـمْ | مَـسُّ الْـحَـصَـا وَعَـبَـثٌ لَـوْ بِـقَـدَمْ
بَسْطُ ذِرَاعَيْهِ عَلَى الْأَرْضِ كُرِهْ | وَمَـسْـحُـهُ مَـسْـجِـدَهُ مِـنْ أَثَـرِهْ
وَكَـفُّ ثَـوْبِـهِ وَأَنْ يَـسْـتَـنِـدَا | مِنْ [غَيْرِ] عُذْرٍ وَكَذَا أَنْ يَحْمَدَا
لِـمَـا يَـسُـرُّ وَيُـسَـمِّـيْ حَـذِرَا | كَذَاكَ الِاسْتِرْجَاعُ مِنْ غَمٍّ طَرَا[2]

(١) سُهِّلت الهمزة في أو؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.
(٢) سُهِّلت الهمزة في (طرأ)؛ للضَّرورة الشِّعريَّة.

مبطلات الصَّلاة

مَا أَبْطَلَ الطُّهْرَ فَقَدْ أَبْطَلَهَا ... وَحَرَكَاتٌ كَثُرَتْ لَيْسَ لَهَا
لِغَيْرِ حَاجَةٍ تَوَالَتْ وَكَذَا ... إِنْ لَمْ يُزِلْ فِي الْحَالِ طَارِئَ الْأَذَى
وَكَشْفُ عَوْرَةٍ سِوَى مَا كُشِفَتْ ... بِنَحْوِ رِيْحٍ شَرْطُهَا مَا فَحُشَتْ
وَسَتْرُهَا حَالًا عَلَيْهِ قَدْ حُتِمْ ... بِتَرْكِهِ الْقِبْلَةَ بُطْلَانٌ لَزِمْ
تَمْكِيْنُ الِاسْتِنَادِ لَا لِعُذْرِ ... قَهْقَهَةٌ مُطْلَقُ نُطْقٍ يَجْرِيْ(١)

(١) إلى هنا وصل ناظِمُها الشيخ عبد الله النوري رحمهُ الله تعالى.

فهرس الموضوعات

أسرار العبادات الشرعية

مقدمة ٥

الصَّلاة ومحلُّها من الدِّين ٧

الطَّهارة ٨

الوضوء ٨

استقبالُ القِبْلَةِ ١٣

النِّيَّة ١٣

الغُسْلُ ١٣

التَّيمُّم ١٧

الصَّلاة ٢١

صلاة العيدين ٣٦

محالُّ النَّهي ٣٨

الجنائز ٣٨

الزَّكاة ٤٥

الصِّيام ٥٥

الحجُّ والعمرة ٦٠

فهرس الموضوعات

الرشد

المقدمة ٧١
الإهداء ٧٣
شكر وتقدير ٧٥
مقدمة ٧٧
التوحيد والإخلاص ٨٣
بر الوالدين وعقوقهما ٩١
صلة الأرحام ٩٩
الصدقات المفروضة ١٠٥
الصدقات المندوبة ١١٣
البخل والاقتصاد والتبذير ١١٩
تربية الأولاد ١٢٧
الإنفاق على العيال ١٣٥
الكسب ١٤٣
الزنا ١٥١
الفاحشة ١٥٩
الزواج ١٦٧

المعاشرة بين الزوجين ١٧٣
حقن الدماء ١٨١
رعاية اليتيم ١٨٩
الوفاء بالعهد وحفظ الأمانة ١٩٥
التطفيف في الكيل والوزن ٢٠١
الربا ٢٠٩
حفظ السمع والبصر واللسان ٢١٥
النفاق ٢٢٣
النميمة والحسد ٢٢٩
الغيبة ٢٣٧
التكبر ٢٤٣
التواضع ٢٤٩
الصلاة ٢٥٥
صلاة الجماعة والجمعة ٢٦٣
ترك الصلاة ٢٧١
الطهارة ٢٧٧
النظافة وأسرار الطهارة ٢٨٣
الزكاة ٢٨٩
الصيام ٢٩٥
شهر رمضان وبعض أحكام الصوم ٣٠١
قيام رمضان سنة التراويح ٣٠٩

زكاة الفطر ((الفطرة)) ٣١٥
الحج ٣١٩
الحج عرفة ٣٢٧
الأضحية والقربان ٣٣٣
الدعوة والإرشاد ٣٤١
بعثة الرسول ﷺ ٣٤٩
أكل أموال الناس بالباطل ٣٥٧
الخمر والميسر ٣٦٥
سعادة الدارين في العمل الصالح ٣٧٣
تفسير أول الفاتحة ٣٧٩
تفسير بقية الفاتحة ٣٨٥
مكانة العلماء في الأمة ٣٩١
واجب العلماء ٣٩٧
كتمان العلم ٤٠٤
في التحذير من دعاة السوء ٤١١
الجهاد والصبر ٤١٩
التعاون ٤٢٧
الوحدة الإسلامية ٤٣٣
الظلم ٤٤٥
خاتمة ٤٥١

فهرس الموضوعات

نظم في الفقه

كتاب الطَّهارة ٤٥٦
بابُ الآنيةِ ٤٦٠
بابُ الاستنجاءِ ٤٦١
فصل آداب التَّخلِّي ٤٦٢
بابُ السِّوَاكِ ٤٦٣
فصل [في سنن الفطرة وغيرها] ٤٦٤
بابُ الوضُوءِ ٤٦٥
فصل [النيَّة في الوضوء] ٤٦٦
فَصْلٌ في صِفَةِ الوضوءِ الكاملِ ٤٦٧
فصلٌ [في سُنن الوضوء] ٤٦٨
بابُ المسحِ عَلَى الخُفَّين ٤٦٩
فصلٌ [المسح على الجبيرة] ٤٧٠
بابُ نواقضِ الوضُوءِ ٤٧١
فصل ٤٧٢
بابُ ما يُوجبُ الغُسْلَ ٤٧٣
فصل [في شروط صحة الغسل، وواجبه، وفرضه، وسننه] ٤٧٤

فصلٌ في الأَغْسَالِ المُسْتَحَبَّةِ ٤٧٦
بابُ التَّيمُّم ٤٧٦
فصل في واجب التيمم، وفروضه، ومُبطلاته، وصفته] ٤٧٨
بابُ إزالةِ النَّجاسَةِ الحُكْمِيَّةِ ٤٨٠
فصل ٤٨١
باب الحيض ٤٨٢
فصل ٤٨٣
باب الأذان والإقامة ٤٨٤
بابُ شروطِ الصَّلاةِ ٤٨٦
كتابُ الصَّلاةِ ٤٩١
أركان الصَّلاةِ ٤٩١
وَاجِبَاتُهَا ٤٩٣
سُنَنُ الصَّلاةِ ٤٩٤
فَصْلٌ في مكروهَاتِ الصَّلاةِ ٤٩٦
مبطلات الصَّلاة ٤٩٧
فهرس الموضوعات ٤٩٩

قَبَسٌ مِن مُقدِّمةِ الأعمالِ الكَامِلةِ

لبنةٌ مُبارَكةٌ، تحتوي الأعمالَ الجليلةَ لعالم مِن عُلماءِ النَّهضةِ العلميَّة في كويت الخير... الأعمالُ الكاملةُ لفضيلةِ الشَّيخِ العلَّامةِ عبد الله النُّوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، هي: نِتاجُ حياةٍ مُباركةٍ مَليئةٍ بالجِدِّ والنَّشاطِ، والاجتهادِ والمثابرةِ، وأعمالِ البرِّ والخيرِ؛ فجاءتِ الأعمالُ ثريَّةً متنوِّعةً بين علميَّة مُنَمَّقة، وأدبيَّة مُشوِّقة، وتُراثيَّة مُدَقِّقَة، واجتماعيَّة مُتعمِّقة، فيها خُلاصةُ الفِكر، وزُبدةُ المخضِ، وحُليةُ الأدبِ، وروائعُ مِنَ التَّاريخ.

تأتي هذه الأعمالُ المُباركةُ ضمنَ سِلسلةِ جمعِ تُراثِ عُلماء الكويت؛ لحفظِ تُراثِ الأجدادِ، وإثراءِ المكتبةِ الإسلاميَّة عمومًا، والمكتبة الكويتيَّة خصوصًا؛ لتكونَ منارة للقُرَّاءِ والباحثينَ والدَّارسينَ على مَرِّ العُصورِ، ينهلونَ مِن مَعِينِهَا بمختلف العلوم والمعارف، لِيَصْدُقَ فيهم قولُ الشَّاعر:

وإنِّي وإيَّاكُم لَكَالنَّحلِ نَصطَفِي رَحِيقَ مَجَانِيهِ لألسُنِنا شَهدًا

د. عَبدالمحسِن عَبدالله الجَارالله الخرَافي